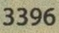
المركز القومي للترجمة

ليزا كوبر

في أثر الملوك والغزاة
جيرترود بيل وأركيولوجيا الشرق الأوسط

ترجمة: مجدي عبد المجيد خاطر





3396



المحتويات

إلى ريتشارد وجوليان:

"ضياء عيني وحصاد قلبي"

شكر وتقديم

استحوذت «جيرترود بيل» على تفكيري طيلة سنوات عديدة. وقد بدأ هذا الافتتان منذُ تعرّفت عليها قبل ثلاثة عقود؛ وكنتُ حينئذ ما أزال طالبة جامعيّة تدرس أركيولوجيّا الشرق الأدنى، حين اشتريتُ نسخة من سيرتها التي كتبها«هاري فيكتور فريدريك ونستون» H.V.F. Winstone، فأدهشتني رحلاتها وأنشطتها السياسيّة. بعدها بسنوات قليلة؛ وقد أصبحت وقتئذ طالبة بالدراسات العُليا، عملت على إنجاز مشروع أركيولوجي في جنوب العراق بدعم من المعهد البريطاني لدراسة العراق (وكان اسمه آنذاك المدرسة البريطانيّة لعلم الآثار في العراق). ومرّة أخرى استفزّ اهتمامي بجيرترود بيل حقيقة أنّ هذا المعهد تأسس تخليدًا لذكراها كأول مديرة لدار الآثار العراقيّة، إضافة إلى جولة قصيرة مُحتملة إلى منطقة غرب الفرات لزيارة أطلال قلعة الأخيضر؛ التي وثّقتها بيل بين العامين1909 و1911. لم تتم الجولة للأسف الشديد، لكنّ غواية تلك القلعة الصحراوية مدّت جذورها داخل خيالي، وتملّكني تعطّش هائل لمعرفة المزيد عنها، وعمّا حققته «بيل» هناك بالضبط.

ثمّ أعادت حرب العراق ونهب متحفه الوطني في أبريل العـــام 2003، «جيرترود بيل» إلى بؤرة اهتمامي مرّة أخرى، لكن بصورة أشدّ واقعيّة هذه المرّة. إذْ ألقيتُ عددًا من المحاضرات العامّة داخل المعهد الّذي أنتمـــي إليـــه بجامعة كولومبيا البريطانيّة (UBC) بفانكوفر؛ وفي الجمعيّة الكنديّة لدراســات بلاد الرافدين بتورنتو، عن حياة «جيرترود بيل» ونـــشاطاتها الأركيولوجيّـــة وعلاقتها المهمّة بمتحف العراق؛ باعتبارها مؤســـسة المُتحـــف عـــام 1923. وأدركت عندما شرعت في استقصاء مُنجزها الأركيولوجي، أنّه في الوقـــت

الّذي دأب فيه كُتّاب سيرة «بيل» على الإشارة إليها باعتبارها عالمة آثار، إلا أنّهم تخاذلوا عن ذِكر أي تفاصيل حول نوعية المهام التي اضطلعت بها، لاسيّما في السنوات التي سبقت الحرب العالميّة الأولى، فضلا عن الإنجازات الأركيولوجيّة التي كانت تحققها بين الحين والآخر. حرّضني هذا السهو الّذي وقع بسيرة «بيل» جيدة التوثيق؛ باستثناء هذا الجانب، على البحث في هذه المسألة. وقد حظي بحثي بمساندة إضافيّة في العام 2008 حين حصلت على منحة «هامبتون» للأبحاث من جامعة كولومبيا البريطانيّة؛ وعلى منحة من المعهد البريطاني لدراسة العراق. ولكم أشعر بامتنان شديد لهذا الدعم السّخي الّذي أتاح لي القيام بأغلب البحث عبر سنوات عديدة.

بادرتُ بالسفر إلى سوريا في أبريل 2009 كي أقتفي أثر الرحلة التي قامت بها «بيل» جنوب الضفّة الشرقيّة لنهر الفرات قبل مائة عام تقريبًا، وكي أزور وألتقط صورًا فوتوغرافيّة لنفس المواقع والمعالم الأثريّة التي وثّقتها. أودّ أن أشكر «ستيفن باتيك» على مُرافقتي أثناء تلك الرحلة القصيرة والمشهودة، ولن أنسى ما لمسناه من حَدب وحفاوة في الفنادق وسيارات الأجرة والحافلات والمطاعم بحلب والرّقّة؛ وهما القاعدتان اللتان انطلقت منهما جولاتنا القصيرة، ولكم يؤلمني التفكير في الشّدّة الرهيبة الرّاهنة التي يتعرّض لها أهالي هاتين المدينتين البارزتين.

وفي خريف 2010 سافرت إلى المملكة المتحدة؛ لزيارة محفوظات «جيرترود بيل» ضمن المجموعات الخاصّة بمكتبة «روبنسون» في جامعة نيوكاسل. أشكر أمناء المجموعات الخاصّة على ما قدّموه من عون بالغ يسّر وصولي إلى أوراق «بيل»؛ كما أشكر «مارك جاكسون» في معهد التّاريخ والدراسات القديمة والأركيولوجيا بجامعة نيوكاسل، ثمّ مدير أرشيف «بيل» الفوتوغرافي الّذي زوّدني بنسخ رقميّة من بعض صور «بيل»، وأجاب بسعة

صدر عن تساؤلاتي العديدة حول رحلاتها ونشاطاتها الأركيولوجيّة. كما أتاحت لي رحلة قصيرة بالقطار إلى جامعة إدنبره فرصة للتواصل مع «جيمس كرو»؛ الأمين الأسبق لأرشيف «جيرترود بيل» الفوتوغرافي، الّذي أشكره أيضًا على الجهد الّذي بذله في الكشف عمّا يعرفه عن «بيل»، خصوصًا صورها الأركيولوجيّة. وأخيرًا، أتاح لي «جو ويلر» زيارة للجمعيّة الجغرافيّة الملكيّة في لندن؛ التي تحتفظ بالكثير من دفاتر «بيل» الميدانيّة، ووفّر لي فرصة الوصول إلى تلك الدفاتر، ومن ثمّ الترتيب لاستخراج صور لبعض الصفحات المنتقاة.

كما أودّ أن أشكر فيما يتعلّق بمراحل تحضير الكتاب اللاحقة؛ «فيكي مانولوبولو» في معهد التاريخ والدراسات القديمة والأركيولوجيا بجامعة نيوكاسل، على ما أتاحته لي من كمّ هائل من الصور من أرشيف «جيرترود بيل»، وتوفير التصاريح اللازمة. و«إيان جونسون» المدير المسئول عن المحفوظات والمجموعات الخاصّة في مكتبة «روبنسون» بجامعة نيوكاسل، الّذي ساعدني هو الآخر في الحصول على تصاريح استخراج مقتطفات من يوميّات ورسائل وأعمال «بيل» المتنوّعة. وعمومًا، ينبغي تهنئة أرشيف «جيرترود بيل» في جامعة نيو كاسل؛ إذ أتاح الوصول إلى محتوياته من يوميات ورسائل وصور تخصّ «جيرترود بيل» على شبكة الإنترنت في صورة سهلة الاستخدام، وهو الأمر الّذي لولاه لما تمكّنت هذه الباحثة النائية من كندا من تحقيق أي شيء على الإطلاق.

ثمّة آخرون ساندوني في إنجاز البحث على نحوٍ ما؛ إذ أرشدوني إلى مصادر أو صور فوتوغرافيّة مفيدة، منهم «توماس ليستن» و«ونس كروجر» و«جوزيف مرادي» و«إد كيبل» و«جوليا جونيلا». وأنا ممتنّة لـــ«أنطوانيت هاري» في مؤسسة «ماكس فان برشم»؛ و«هانا ويستال» أمينة المحفوظات

بكلية «جيرتون كامبريدج»؛ و«كيرستن نيومان» في متحف المعهد الشرقي؛ و«إرمجارد فاجنر» في المعهد الألماني للآثار؛ و«فريدريش بوليروس» في معهد تاريخ الفنّ بجامعة فيينا؛ و«يواكيم مرزان» و«هيلجا فوجيل» في الجمعيّة الألمانية لدراسات الشرق الأدنى، على ما قدّموه من عون في توفير الصور اللازمة لهذا الكتاب والتصريح باستخدامها. وقد أتاح لي «هنري» و«إيمانويل ريتسون» نسخاً وترجمات لاثنين من رسائل «ماكس فان برشم» إلى «بيل» (باللغة الفرنسيّة). كما أشعر بامتنان شديد للنقاشات المثمرة المفعمة بالحيويّة التي تبادلت خلالها الرؤى مع «ماركوس ميلرايت» و«مايا يازجي» حول مسائل تتعلّق بالتاريخ والفن والعمارة الإسلاميّة. وقد استمتعتُ أيضًا بالحديث مع «ليلى نادر» والتعرّف على رأيها الفريد في «بيل».

وفي جامعة كولومبيا البريطانيّة، لم تتوان طالبات باحثات مساعدات عن توفير عون هائل لي أثناء عملي طيلة سنوات؛ وأعني بهن «كاري أربكل» و«كريستين جونستون» و«ألكسندرا هارفي» و«تشيلسي جاردنر»، اللائي مشّطن يوميات ورسائل «جيرترود بيل» بحثًا عن سائر الإشارات إلى نشاطاتها الأركيولوجيّة، ونقّبن عن الشخصيات السالفة والمُعاصرة التي ظهرت في كتاباتها، كما رتّبن وبحثن عن الصور الفوتوغرافيّة الأثريّة ذات الصلة. ينبغي أن أشكر أيضًا «ألكسندرا هارفي» و«ليزا تويتن» على عونهما لي في إنتاج نُسخ رقميّة من مُخططات «بيل» لمسجد سامراء الكبير وقصور قلعة الأخيضر وقصاء «قصر شيرين». وأتاحت لي «ليديا جونز» و«ستيفاني ريفيل» في برنامج الدراسات الجرمانيّة بقسم دراسات وسط وشرق وشمال أوروبا بجامعة كولومبيا البريطانيّة، نسخاً وترجمات عالية الجودة للرسائل التي كتبها (باللغة الألمانيّة) كل من «إرنست هرتسفلد» و«فالتر أندري» لـــ«بيل».

لم يتوان زملائي في قسم الدراسات القديمة والشرق الأدنى والدراسات الدينيّة عن تشجيعي وإرشادي ومساعدتي في البحث، ولكم أسعدني الحظّ حقًّا أن حظيت بزملاء لديهم دراية واسعة واهتمام صادق بأبحاث زملائهم. كان «جيمس راسل» نبع معرفة حول نشاطات «بيل» الأركيولوجيّة في الأناضول، وكان من أوائل من رسّخوا في ذهني أهمية ملاحظاتها ومخططاتها وصورها الأركيولوجيّة ومنزلتها الرفيعة. كما نبّهني «هيكتور ليامز» و«توف مارشال» و«سوزانا بروند» إلى العديد من المصادر المتعلّقة بـ«جيرترود بيل» ومعاصريها. وقدّم «روجر ويلسون» معلومات مفيدة عن المدافن البرجيّة الرومانيّة، في حين أوضحت «لين بابليتز» و«شارمين جوري» تفاصيل عن حكّام الرومان ومباني الآجر وحملات «تراجان» و«سيفروس الأول».

في أثناء الكتابة، أدين بالشكر لزوجي «ريتشارد» الّذي قرأ أجزاءً كثيرة من مخطوطتي وبذل جهدًا في تنقيح أسلوبي المطنب والصعب. واضطلعت «لين ويلتون» بدور الناصحة النفيسة لبعض أفكاري وطرحت أفكارًا مفيدة لتحسين المخطوطة في اللحظات الأخيرة. ولكم كنت محظوظة أيضًا أن توافرت لي مهارات التحرير بالغة البراعة التي تتمتّع بها «ديانا شيلدون»، التي بدت قادرة على النفاذ إلى كل مسودات فصول الكتاب دون أن تفقد صبرها أو روحها المعنوية المرتفعة. أنا شديدة الامتنان لما بذلته من جهد في تنقيح الكتاب، لاسيّما في المراحل الأخيرة من تحضيره.

لقد تحمّل «ريتشارد» وابنتنا «جوليان» ساعات لا تُحصى تطلّبها العمل في هذا الكتاب، ولكم أتحسّر لأنّي لم أتمكّن من قضاء المزيد من الوقت معهما، خصوصًا أثناء عطلات نهاية الأسبوع. لكنّهما بذلا رغم كل ذلك الكثير من أجل الحفاظ على سلامتي العقليّة وروحي المعنوية عاليتين،

كما غمراني بحب دائم وأحاطاني بصحبة سعيدة. لقد بدأ بحثي حول «جيرترود بيل» في نفس العام الّذي ولدت فيه «جوليان»؛ ولكم أثرت حياتي هاتان المرأتان- ابنتي التي تكبر أمام عينيّ والأخرى التي تُبثُ فيها الحياة عبر كتاباتها وصورها الكثيرة - في مزيجٍ غريب بعض الشيء، خلال السنوات السبع الماضية، وملأ هذا الوقت بالدهشة والسحر والبهجة.

مُقدّمة

سارعت «جيرترود بيل» Gertrude Bell فور وصولها إلى فندق «جراند كونتيننتال» بالقاهرة أواخر نوفمبر العام 1915، إلى النزول لتناول العشاء، تملؤها اللهفة لسماع آخر أخبار الشرق من رفاقها على طاولة الطعام- ومن بينهم «ديفيد هوجارث»(*) David Hogarth و«توماس إدوارد لورانس»(**) T.E.Lawrence- وطرح أفكارها بشأن شخصيات وسياسات المقاطعات العربيّة في الإمبراطوريّة العثمانيّة(١).

كان عامًا صعبًا وحزينًا بالنسبة لـ«بيل»؛ إذْ وضع اندلاع الحرب العالمية الأولى منذُ عام واحد، حدًّا لرحلاتها المرحة ومشاريعها الأركيولوجيّة المشوّقة، ولقي رجل أحبّته بقوّة مصرعه عند مضيق الدردنيل، وانطوت مساهمتها في المجهود الحربي حتّى هذه اللحظة على عمل مُنجع يتمثّل في اقتفاء أثر المفقودين والقتلى المجهولين في ميادين القتال في فرنسا. أمّا الآن فقد صار في حياتها قصدٌ والتزام جديدان، فبثّت روحًا متجددة وطاقة عذبة في المهمّة التي كُلّفت بها.

ستغيّر الحربُ مسار حياة «بيل» وتحوّل علاقتها بالشرق الأوسط؛ حيثُ عثرت على نفسها مرّة أخرى، على نحو جوهري. كانت تعرف هذا

(*) «ديفيد جورج هوجارث»David George Hogarth (1862- 1927) عالم آثار بريطاني، وأمين المتحف الأشمولي (نسبة إلى مؤسسه «إلياس أشمول»Elias Ashmole) في أوكسفورد؛ أقدم المتاحف البريطانيّة، في الفترة بين العامين 1909 و1927. صدرت الترجمة العربية لكتابه «اختراق الجزيرة العربيّة: سجل لمعرفة الغرب بشبه الجزيرة العربيّة» عن المركز القومي للترجمة العام 2009. [المترجم]

(**) كاتب ودبلوماسي ومُنظّر عسكري وضابط جيش وعالم آثار بريطاني، اشتهر باسم لورانس العرب. [المترجم]

الجزء من العالم تمام المعرفة؛ ذلك أنّها ترددت على مصر في عدّة مناسبات، وزارت المناطق الساحليّة في بلاد الشّام فضلاً عن الأناضول، كما قامت منذُ وقت قريب برحلة جسورة في قلب الجزيرة العربيّة. وقد تضمّنت استكشافاتها الأراضي التي يرويها نهرا دجلة والفرات، كما كانت على دراية بصحاري وجبال بلاد فارس. وقد أثمر ما روته عن أسفارها، قصص رحلات مفعمة بالحياة استقبلها بلهفة؛ حين نُشرت، جمهور مفتون بهذه المرأة المُغامرة الطيّعة. وربّما كان الهدف من وراء أغلب رحلات «بيل» إلى الشرق الأوسط؛ على أي حال، هو الشيء الأبرز دلالة؛ فاهتمامها البالغ بعراقة تلك البلاد، ورغبتها في اكتشاف ورسم خرائط ووصف واستيعاب التاريخ الثري والشعوب والمستوطنات التي أوجدت فيما مضى، كانت في الغالب دوافع أوحت لها بأسفارها الطويلة داخل أماكن نائيّة.

والآن في العام 1915؛ من جانب آخر، نحّى الواقع الرّاهن جانبًا اشتباك «بيل» مع الماضي. ففي القاهرة مرّة أخرى، أصبح هدفها أمرًا مُختلفًا؛ إذْ لم يعد وجودها في الشرق من أجل استكشاف والتعرّف على المواقع الأثريّة، ورسم مخططات للمعالم الأثريّة وتعقّب المسارات التي سلكها الملوك وجيوشهم منذ عهود بعيدة، بل صارت مهمتها هي تقديم وصف للجماعات المُعاصرة التي صادفتها خلال أسفارها. وكُلّفت؛ باعتبارها جزءًا من مكتبٍ أنشئ حديثًا يتبع الاستخبارات العسكريّة البريطانيّة سيشتهر لاحقًا باسم المكتب العربي، بإحصاء المواقع الحالية للقبائل العربيّة وشيوخها، وتقدير أعدادها والبتّ في ولاء كل منها للبريطانيين والأتراك[٢]. كان هذا هو دور «بيل» في المجهود الحربي البريطاني لهزيمة ألمانيا وحليفتها؛ الإمبراطوريّة العثمانيّة.

لا حيلة لي إذن حين أتأمّل بعد مائة عام هذه السنة المحوريّة في حياة «بيل»؛ وقد اقتحمت مضمار السياسة الحديثة رسميًا في غمرة حرب عالميّة، إلا أن أفكِّر مليًا في علاقتي مع الشرق الأوسط، وكيف تشاكل انشغالي به حتّى الآن مع انشغال «بيل»؛ أي- في المقام الأول- من منظور سبر أراضيه سعيًا وراء الماضي الثري. ذلك أنّ انشغالي بالشرق الأوسط القديم؛ رغم العقود الثلاثة من العمل الميداني والبحث في مجال الآثار التي كانت آسرة ومثمرة، لم ينفصل قط عن الظروف الراهنة التي تمر بها البلاد التي عملت فيها. فقد ألقت الأحداث المأساوية- لاسيّما الحروب في العراق والعنف والدمار المتفشيان في سوريا الآن- بظلالها الثقيلة على أبحاثي؛ والأهم من ذلك، على حيوات بشر عرفتهم. لقد دُمِّرت أو تضررت بشدّة مستوطنات وقطع أثرية قديمة كنتُ قد رأيتها وفحصتها، وتعرّض كثيرون مِمن شاركوني إزاحة الغطاء عن تراث العراق وسوريا، لعذاب وشقاء لا يُصدّقان.

إنّ تجربتي مع المصائب الحالية التي يتعرّض لها الشرق الأوسط تختلف دون ريب، عن الظروف التي واجهتها «بيل» حين شرعت في أداء دورها في المجهود الحربي الرّسمي بالقاهرة في العام 1915، لكنّها تشترك معها عبر من قرن من الزمان، في العلاقة التي لا تنفصم بين البحث عن الماضي والمواجهة الحتميّة مع حقائق الحاضر المأساويّة والدرامية في أغلب الأحيان. من ناحية أخرى، فإنّ الماضي والحاضر متشابكان، وغالبًا ما يكون الحاضر وثيق الصلة بما جرى في الماضي؛ إمّا ينشأ عنه أو يُكرر ما سبق أن وقع الكثير من المرّات. وقد أدركت «بيل» هذا، وحتّى وهي تمارس دورها بتفاؤل كبير أثناء المجهود الّذي تلى الحرب؛ من أجل استحداث نظام جديد في الشرق الأوسط يحل محل الإمبراطوريّة العثمانيّة المهيضة، إلا أنّها كانت على علم بالكثير من القوى الإمبراطوريّة السابقة التي أحكمت

سيطرتها على تلك الأراضي من قبل، والتي تمتد لآلاف السنين حتّى فجر التاريخ. ذلك أنّ أمجادها كانت قصيرة، وكانت تنهار المرّة تلو الأخرى، وتمرمغها في التراب أقدام الملوك والغزاة اللاحقين. واليوم، بعد قرن تقريبًا من المخططات الجريئة التي بشّرت بها القوى الأوروبيّة التي ارتبطت بها «بيل»، لا يزال الحلّ طويل الأجل أو الدائم غائبًا عن الشرق الأوسط. لذلك نحنُ مضطرون للإقرار مرّة أخرى بالرعونة التي ارتكبتها الطموحات الاستعماريّة والتدخل العقيم الّذي أنزل بالشعوب والأمم كوارثًا، أصابها بالتفكك وأعاد تشكيلها من جديد إلى الأبد.

. نستطيع أن نتخذ موقفًا ناقدًا للدور الّذي لعبته «جيرترود بيل» في سياسة الشرق الأوسط، لكن ما من شكّ في أنّ هذه الفترة من حياتها كانت آسرة وزاخرة بالأحداث الجسام. وأغلب ما كُتب عنها يُشدد في الحقيقة على هذه المرحلة الأخيرة من حياتها، لاسيّما دورها في استحداث دولة العراق بعد نهاية الحرب العالمية الأولى بوقت قصير(٣). إذْ نستطيع أن نُرجع اختيار أول ملوكها ورسم حدودها السياسيّة الحديثة- التي خضع فيها الشيعة والسنة والأكراد والمسيحيون لراية واحدة- إلى حكومة الاحتلال البريطاني التي لعبت فيها «بيل»؛ باعتبارها الموظّفة السياسيّة الوحيدة داخل الإدارة، دورًا فعّالًا ونافذًا.

لكن كُتّاب سيرة «بيل» لم يترددوا في الكتابة أيضًا عن جوانب أخرى من حياتها اللافتة للنظر؛ ومن بين تلك الجوانب بعثات تسلّق الجبال والأسفار الجريئة داخل مناطق نائية في الشرق الأوسط، لم يجرؤ على زيارتها في السابق سوى عدد قليل من الأوروبيين. ولقاءاتها مع شخصيات مبهرة وبارزة مثل «ونستون تشرشل» و«لورد كرومر» و«إدوارد جراي» و«مارك سايكس» وبن سعود ولورنس العرب. وحتّى حياتها العاطفيّة رغم

مآلاتها المأساوية زخرفت برومانسيّة رفيعة؛ إذْ رفض والداها خطبتها في سن مبكّرة لنبيل أنيق لكن مُفلس في قلب صحاري بلاد فارس، وأيًّا ما كان، فقد لقي الخاطب حتفه بسبب إلتهاب رئوي خلال عام. بعدها بسنوات، صارت لــ«بيل» علاقة غراميّة مُسترقة مع ضابط عسكري ودبلوماسي متزوج رفيع المقام، وضعت وفاته في معركة «جاليبولي» نهاية سريعة لغرام قوي استحوذ عليهما. هذه العلاقات الغراميّة المكروبة ووفاة «بيل» نفسها التي يبدو أنّها نتجت عن ابتلاع جرعة مفرطة من الحبوب المنوّمة، بأحد نهارات صيف خانق في بغداد خلال عامها الثامن والخمسين، تستدر ولهًا مُقبضًا بتلك المرأة الاستثنائيّة التي بدا أنّها ملكت الدنيا، ورغم ذلك لم تخرج منها بشيء.

ماذا عن علم الآثار؛ وهو المجال الّذي أدّى في المقام الأول إلى انشغالها الكامل بالشرق الأوسط؟ لقد أدرجت من دون شكّ كل الروايات عن حياة «بيل» علم الآثار ضمن إنجازاتها الكثيرة، لكن أغلبها لم يقتف أثر هذه المسألة بدرجة كبيرة، وعادة ما كانت تفشل بكل الأحوال في وصف نوع العمل الأركيولوجي المُحدد الّذي استحوذ على اهتمامها، أو الأثر الّذي خلفته أبحاثها في حقول الدراسات البيزنطيّة والإسلاميّة والشرق الأدنى القديم. فغالبًا ما ينصب الاهتمام على الرحلات التي أقدمت عليها «بيل» لزيارة مواقع أثريّة، والسجلات الفوتوغرافيّة والمكتوبة التي دوّنتها عن تلك الأسفار الأركيولوجيّة. وعلى أي حال، لم يُبذل سوى القليل لتقييم مدى جودة هذا المُنجز وأهميته سواء خلال حياتها أو في الوقت الراهن، علاوة على الافتقار لأي روايات جادّة تخصّ أسفار «بيل» في الفترة بين العامين 1909 و1911 تحديدًا، ودراستها عن قلعة الأخيضر المهيبة التي تنتمي للتراث الإسلامي.وليس بقليل ظهور نتيجة عمل بيل في الأخيضر ضمن العديد من المنشورات العلميّة، ومن بينها دراستها الرصينة التي صدرت في العام 1914

بعنوان: «قصر ومسجد في الأخيضر»[٤].ورغم ذلك، لم يسترع الموقع الأثري انتباه كُتّاب سيرة «بيل» بالقدر اللائق، وحتّى إن أشاروا لزيارتها للموقع، فهم يفضّلون أن يصفوا فحسب اللباسات التي أجرتها بهمّة كبيرة والصور التي التقطتها للقلعة؛ وثيابها: «قميص أبيض من القطن؛ وتنورة تحتيّة وجوب طويل بجيبين اثنين؛ وجوربين أسودين وحذاء برباطين معقودين؛ وكوفيّة داكنة ملفوفة حول قبّعتها التي تقيها حرارة الشّمس»[٥]. أحيانًا تُذكر الأخيضر أيضًا في سياق الخيبة التي أصابت «بيل» بسبب اكتشافها أنّ فريقًا من علماء الآثار الألمان زاروا الموقع أيضًا، وأنّ تقريرهم عن الزيارة سينشر قبل تقريرها[٦]. لقد كان لهذا التشديد على ما أنجزه الألمان على حساب «بيل»، أبلغ الآثار المؤسفة في حجب ما قامت به، فضلاً عن الانطباع الخاطئ الّذي يتسرّب للمرء من هذا التعاطي السطحي مع دراسة «بيل» للأخيضر (كما هو الحال بالنسبة للتعاطي مع مساعيها الأركيولوجيّة الأخرى)، والذي مفاده أنّها عاينت الأنقاض والتقطت بعض الصور الفوتوغرافيّة الجيدة، لكن عملها لا يتجاوز عمل هاوٍ شغوف.

تُلاحظ «جوليا أشر جريف» Julin Anhor-Grove بذكاء شديد؛ في واحدة من الروايات القليلة لحياة «بيل» التي تُلخّص عملها الأركيولوجي على نحو أكثر موضوعيّة، أنّه حتّى في عصرها كان زملاؤها المعاصرون من الأركيولوجيين الرجال يميلون للتقليل من إسهاماتها. إذْ كانت الإشارات المتكررة إلى «ثروة وعلاقات عائلة بيل؛ وثيابها الرّاقية؛ وغرابة أطوارها؛ أو نشاطاتها الاستخباريّة المزعومة» تصبّ في صالح التشكيك في قدراتها العلميّة، و«التشديد على نوعها كامرأة وبالتالي وضعها كدخيلة»[٧]. إنّ قراءة التعليقات التي كتبها عالم الآثار «فالتر أندري» Walter Andrae؛ المدير الألماني لحفريات آشور، تُثير الدهشة. ذلك أنّ «بيل» كانت تُكنّ لنشاطاته الأركيولوجيّة في بلاد الرّافدين، ولزمالته وصداقته، تقديرًا عميقًا جعلها تُهدي

له الكتاب الّذي أصدرته عن الأخيضر العام 1914[٨]. لكنّ بدلاً من أن يُسلّط الضوء على عمل «بيل» في حقل الآثار في مذكراته؛ نبّه إلى أن قُدرتها على التحدث بلغات أجنبيّة عديدة؛ بينها الألمانيّة، كانت نتيجة لثروة ومكانة عائلتها التي أتاحت لها علاقات جيدة بدوائر الدبلوماسيّة الأوروبيّة، وسهّلت لها أسفارها الواسعة[٩]. إضافة إلى ذلك، كتب «أندري» أنّه في العام 1911؛ عندما زارته في آشور، كان يساوره شكّ في أنّها كانت: «في مهمّة دبلوماسيّة إلى بلاد الرافدين»[١٠]. تبدو هذه العبارة أسلوبًا لبقًا لقول إنّه كان يظنّ أنّها كانت جاسوسة بريطانيّة. إنّ اشتراك «بيل» في الأنشطة الاستخباريّة الرسميّة قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى أمرٌ محل نقاش على أفضل تقدير؛ لكن تعليقات «أندري» تُلقي مزيدًا من الظلال على السبب الرئيس الّذي دفع «بيل» للسفر إلى بلاد الرافدين في تلك السنوات: وهو اهتمامها الصادق والقوي بالآثار القديمة في المنطقة، ورغبتها في حفر اسم لنفسها داخل الدوائر الأركيولوجيّة.

وختامًا، قد لا يُساعدنا أنّ «بيل» نفسها كانت تميل أثناء كتابة يومياتها أو رسائلها إلى أبويها، إلى الاستخفاف بمساعيها الأركيولوجيّة. كانت شديدة التواضع، وغالبًا ما كانت تقلل من مكانتها العلميّة. وهذا الميل الّذي اقترن بحماس الشباب تجاه عملها، كان يعطي انطباعًا في أغلب الأحيان بصعوبة النظر إليها بعين الاعتبار والأهميّة. فعلى سبيل المثال، كتبت «بيل» في رسالة إلى والديها أثناء تنقيبها في الأناضول العام 1905: «لقد حظيت بأروع أيامي اليوم وأنا أقوم بدور عالمة الآثار»[١١]. وفي العام 1909، كتبت فور اكتشافها وإثباتها وجود مدينة سامراء الأثريّة في بلاد الرافدين: «أحيانًا [...] أتصوّر نفسي عالمة آثار– لكن هذا بطبيعة الحال تمادٍ في الخيال!»[١٢]. وعقب اكتمال التنقيب في الأخيضر، كتبت تغمرها فرحة البنات الصغار: «هذه أقوى ضربة حظّ حظيت بها. سأنشر عنها وحدها

دراسة كبيرة ستحرك الماء الرّاكد في أوساط المختصين»(١٣)، وربّما يكون لأسلوب «بيل» الرومانسي بعض الشيء في الكتابة دور في خلق ميل عام إلى التقليل من قدرها كباحثة حقيقيّة؛ ففي رسالة إلى أبيها كتبتها أثناء زيارة إلى بابل، قالت: «سمعت عندليب بلاد ما بين النهرين، وتذكّرت أنّها ذات المعالم والأصوات التي كان نبوخذ نصر الثاني يعرفها، بل وحتّى حمورابي. تُرى؛ أتساءل، هل تسليا وحافظا على الجمال السرمدي للأرض وحياة البلاد البسيطة في الحقول والأنهار التي تتفجّر وتموت وتغادر دون أن تترك أثرًا ولا تتبدّل أبدًا؟»(١٤). وهكذا، في نفس الوقت الّذي يُمكن أن تُقرأ فيه تلك المقاطع كتأملات غنائيّة كتبتها عاشقة للماضي ولمحيطها المثير للمشاعر، فإنّها تنحو؛ شأنّها شأن المقتطفات المنقولة الأخرى، إلى تقديم «بيل» باعتبارها باحثة ضئيلة الشأن لا كعالمة رصينة وملتزمة. ومن سوء الحظّ أن عني كُتّاب سيرة «بيل» في أغلب الأحيان باقتباس مثل هذه المقاطع؛ حيثُ يؤكّدون على ميول «بيل» الرومانسيّة وسذاجتها المُفترضة، في حين يتجاهلون جوهر ملاحظاتها واستنتاجاتها.

أهدف من خلال البحث من أجل هذا العمل، إلى التعويض عن تغطية الروايات الأخرى السطحيّة لنشاطات وإنجازات «بيل» الأركيولوجيّة، وذلك من خلال الدفع بهذه النشاطات والإنجازات إلى الواجهة. ولن أثبت فقط ولع «بيل» بدراسة علم الآثار وأنّها وهبت نفسها لتعلّم قدر هائل عنه (لاسيّما أركيولوجيا الأناضول وبلاد الرافدين)، بل إنها أصبحت خلال فترة وجيزة خبيرة تمامًا بهذا العلم، لتصدر عددًا من التقارير الأركيولوجيّة المطّلعة والنفيسة. لقد استحوذت ممارسة علم الآثار بوجه خاص على تفكير «بيل» في الفترة بين عامي 1905 و1914، وهي الفترة التي أنجزت خلالها أهم استكشافاتها في الشرق الأدنى.

عند هذه النقطة، ربّما يجب أن نناقش ما نعنيه تحديدًا بالـ «أركيولوجيا/ علم الآثار» كما مارسته «بيل»، خصوصًا أنّ عملها نادر ما كان يفرض الحفر في الأرض لاسترجاع بقايا قديمة، ولا كانت جزءًا من مشروع أو فريق أثري يحمل ترخيصًا رسميًا، ربّما باستثناء تعاونها مع «وليام رامزي» William Ramsay في منطقة «بنبركيليسي/الألف كنيسة وكنيسة» Binbirkilise في الأناضول. كذلك لم تحظ «بيل» برعاية جامعة أو معهد أركيولوجي، بل كانت سائر استكشافاتها ترتكز على مواردها ومبادراتها الخاصّة. ذلك أنّ أبحاثها تهتم وتنصب بوجه خاص على الأشكال المعمارية القديمة وحضورها عبر الزمان والمكان؛ ولم تكن مقاربتها التي تفرض إجراء تحليل منهجي مُقارن، تتطلب تسجيل ملاحظات جيولوجيّة طبقيّة أثناء التنقيب عن الآثار. رغم ذلك، رأينا جانبًا من جوانب العمل الميداني في دراسات «بيل»؛ إذْ كانت تزور كل المواقع التي استرعت انتباهها، وبذلت جهودًا مضنية من أجل استيعاب تلك الأماكن على أرض الواقع، من خلال التقاط صور فوتوغرافيّة ورسم مخططات تفصيليّة. أضف إلى ذلك أنّ دراساتها اللاحقة – التي فرضت عليها البحث عن مواقع ومنشآت قابلة للمقارنة، والسعي إلى تعيين الحقبة الزمنية التي تنتمي إليها ومحيطها وتأثيراتها الثقافيّة – قد اتبعت نفس المنهجيّة التي استعملها علماء الآثار الآخرون في عصرها. وإذا كان عملها الميداني لم ينطو على التنقيب حقًا، فمردّ ذلك هو أنّ أغلب الأشكال المعمارية والفنيّة التي استرعت انتباهها كانت لا تزال تنتصب فوق الأرض، وقابلة للتوثيق دون الحاجة لما يزيد عن الحدّ الأدنى من ترتيب المكان حول الأساسات لإظهار أبعاد وأشكال المبنى الأصلي. لقد كانت مساعي «بيل» لتسجيل الآثار الأخرى كالآنية والتماثيل الفخاريّة والقطع المعدنيّة والعظام والأحافير النباتيّة، إمّا معدومة أو عابرة أو عارضة في أفضل الظروف، لكن ينبغي أن نتذكّر أنّها كانت الأيام الأولى

للعمل الأثري. وقليلون فقط من معاصريها المُعترف بهم بسبب مساعيهم في مجال الآثار، هم من كانوا يُمارسون الأساليب المنهجيّة الشّاملة في استخراج الآثار، والتي لم تنتشر ممارستها إلا لاحقًا في القرن العشرين[١٥]. وفي ظلّ هذه الاعتبارات وطبيعة جهود «بيل» المنطقيّة لدراسة البقايا الماديّة العتيقة في الميدان، يغمرني شعور بالارتياح عند وصف ملاحقتها للماضي بـ«الأركيولوجيّة» حسب النطاق العلمي للكلمة.

إنّ الباحث الّذي يتتبّع جهود «بيل» الأثريّة، لا يسعه إلا الإعجاب بالكمّ الهائل من البيانات التي تعاملت معها، وسعة وعمق ملاحظاتها واستنتاجاتها. ومع أنّ دراساتها الأثريّة لم تدم سوى عقد واحد من الزّمن؛ فإن إنتاجها العلمي- الّذي عالج نطاقًا واسعًا بصورة لا تُصدّق من ثقافات وشعوب وحقب الشرق الأدنى القديم التاريخيّة وما بعدها- كان مُذهلًا. لذلك اخترت حين صادفت هذه المجموعة من البيانات الغزيرة؛ في الوقت الّذي لا أزال أطمح فيه إلى إبراز إنجازاتها الأركيولوجيّة بأسلوب هادف، التركيز على جانب أصغر من أعمال «بيل»؛ لاسيّما دراساتها للفترات الساسانيّة والعصور الإسلاميّة الأولى في بلاد الرافدين، ممثلة بشكل رئيس في مواقع أثريّة زارتها بيل ووثّقتها أثناء أسفارها في الفترة بين العامين1909 و1911. لمّا استقصاءات «بيل» الأخرى للماضي؛ كدراساتها الموسّعة للعمارة الإكليريكيّة إبّان العصور القديمة المتأخّرة، والتي اشتهرت بها على الأغلب بسبب دراستها للكنائس المسيحيّة الأولى في منطقة بنبركيليسي وطور عبدين في الأناضول، فلا يغطيها هذا الكتاب بتوسّع. إذْ قام بالفعل مختصّو العصور القديمة المتأخرة بدور رائع، أبرزوا من خلاله تعرّض «بيل» بالبحث للكنائس في الأناضول، وتقييم مزايا ما قدّمته في هذا الشأن؛ لذلك لن يتجاوز التطرّق لنفس الموضوعات إلا تكرار هذه الروايات لحدّ كبير[١٦]. من جانب آخر، حاول قليلون إجمال وتقييم أعمال «بيل» المتعلّقة بفن وعمارة ما قبل

الإسلام في بلاد الرافدين، ما يجعل هذا الموضوع أجدر بالنظر هُنا. كذلك تُعدّ أسفارها في بلاد الرافدين بالغة الأهميّة؛ حيثُ ترتبط على نحو دال بنشاطاتها اللاحقة في نفس المنطقة أثناء وبعد الحرب العالمية الأولى، سواء بالنسبة لجدارتها كضابط سياسي أم كمديرة فخريّة لدار الآثار.

لا أهدف فقط إلى وصف أعمال «بيل» الأثريّة- كزياراتها إلى المواقع القديمة وتحركاتها لوضع مخططات للفن والعمارة القديمين والتقاط صور فوتوغرافيّة لهما، فضلاً عمّا توصلّت إليه من استنتاجات- بل سأسعى أيضًا إلى تعيين موقع جهودها داخل حقل الدراسات الأركيولوجيّة، وتحديد درجة التجاوب التي استقبلت بها الأجيال التي عاصرتها والتي جاءت بعدها أعمال «بيل». إنّ الباحث لا يُمكنه إلا أن تتملكه الدهشة من سعة اطّلاع «بيل» المتعمّق، لاسيّما قدرتها على العثور على أشكال معمارية قابلة للمقارنة عبر الزمان والمكان، وتعقّب أصولها في منابع الشرق الأدنى الأصليّة. وفي حين يُعدّ هذا الصنف من المقاربات الأركيولوجيّة معيبًا هذه الأيام- حيثُ كان يُغفل عددًا آخر من الأدلة الأثريّة؛ ولم يبد سوى القليل من الاكتراث بعلم طبقات الأرضStratigraphy؛ واستبعد قضايا بأكملها تقريبًا مثل التنظيم الاجتماعي والاقتصاد والبيئة والمؤسسة والنوع والجنوسة، أثناء السعي إلى فهم كيف عاش وتفاعل البشر داخل موقع أو بناء قديم مُعيّن- إلا أنّ أعمال «بيل» لا تزال طموحة من حيث اتّساع أفقها لحدّ بعيد. ورغم أنّ استنتاجاتها لم تكن سديدة دائمًا، فإنها كشفت عن نفس الدرجة أو أكبر من الحصافة مُقارنةً بمعاصريها من علماء الآثار، كما ستُظهر الصفحات التالية. وفي ذات الوقت، كان استغراق «بيل» في الدراسات الأركيولوجيّة يتزامن بالضبط مع تطوّر علم الآثار إلى فرع معرفي يحظى بالرصانة العلميّة؛ بسبب جهود عدد من الأشخاص الاستثنائيين الّذين كانوا يستطلعون شكلاً موجّهًا ومتأنيًا ومنهجيًا من البحث الأثري في الشرق الأدنى. أولئك الأشخاص سرعان ما

سيحجبون بيل بسبب مساعيهم البارعة، وقد التقت بضع شخصيات منهم، مثل الألمانيين «فالتر أندري» و«روبرت كولدفاي» Robert Koldewey اللذين اشتهرا بتنقيبهما في مواقع بآشور وبابل. وحتّى في نطاق تخصص «بيل» بعلم الآثار وهو العصور الإسلاميّة الأولى، بزغ عدد من النجوم مثل «إرنست هرتسفلد» Ernst Herzfeld الّذي كانت آراؤه الثاقبة حول منشأ ومنبع إلهام الفن الإسلامي والأشكال المعماريّة تتفق أو تتخطّى تفسيراتها لتلك المسائل. كانت «بيل» على دراية شديدة بإمكانات أولئك العلماء المتبحرين، وحتّى قبل رحيلها تمامًا عن المجال، كانت تختار في بعض الحالات الإحجام عن القيام بمزيد من الأبحاث؛ لأنّها كانت تعلم أنّ مساعيها لمجاراة جهود العلماء الآخرين سينالها الفشل[١٧].

اعتزلت «بيل» البحث الأثري بغتة عند اندلاع الحرب العالميّة الأولى، ومن ثم انقطعت علاقاتها مع المجتمع العلمي. بعدئذ أقحمت نفسها في المجهود الحربي والتدابير المتعلقة بشئون العراق السياسيّة، وهو ما أسس لاتجاه ومركز اهتمام يختلفان تمامًا عن مآثرها الأركيولوجيّة. صحيح أنّ دورها كمديرة فخريّة لدار الآثار في العراق في عشرينيات القرن الماضي أعادها للاشتغال في مجال مرتبط بالأركيولوجيا، لكن «بيل» بهذه الوظيفة الجديدة صارت تؤدّي دورًا ذا صفة إدارية متعلّق بالتنقيب والآثار، بدلاً من عملها السابق كباحثة فقط. وهكذا، سيتذكّر الناس «بيل» من الآن فصاعدًا كامرأة تورّطت في أنشطة سياسيّة، كانت متّصلة على نحو ما بعلم الآثار، ونسوا لحدّ كبير إنتاجها العلمي في ذلك المجال؛ وهو وضعٌ مُحيّر كما كان من قبل.

لقد مثّل تحوّل «بيل» إلى السياسة تغييرًا كاملاً في منحى عملها، لكن الخبرات التي اكتسبتها خلال أسفارها إلى الشرق الأدنى، وانخراطها في

دراسة ماضيه، لم تذهب سُدى. بل على العكس؛ إذْ وفّر لها إلمامها بأركيولوجيا الشرق الأدنى، وخصوصـًا أركيولوجيا وتاريخ بلاد الرافدين، فهمًا خاصًّا وفريدًا لهذا الجزء من العالم، انعكس بطرق شتّى على أفكارها حول الأسلوب الأمثل لحكم المنطقة، وموقعها داخل ذلك المشروع. وقد تفاعلت داخل «بيل» هذه الخلفيّة مُقترنة بأحاسيسها الرومانسيّة؛ كما أبيّن في الفصل الأخير من هذا الكتاب، لتؤسس رؤية ملهمة شديدة الخصوصيّة لحاضر العراق ومستقبله المأمول. لقد كان النجاح الّذي استمتعت به تلك البلاد عند إنشائها، وتنصيب أول ملوكها؛ الملك فيصل، ناجمًا في جزء منه عن رؤية «بيل» الحريصة على الدفع بالبلاد إلى فصل جديد ومجيد من تاريخها الثري. وفي الوقت ذاته، جعلتها المعرفة نفسها بالماضي الّذي ألهمها، على دراية كذلك بالطبيعة العابرة للإمبراطوريّة. خفف هذا الوعي من تفاؤلها، وأجبرها على الإقرار بعقم صناعة أمّة ما، وتفاهة دورها في هذا المشروع. وهكذا فإنّ «جيرترود بيل»؛ رغم كل مشاريعها وأحلامها المفعمة بالحيويّة، لا يُمكنها في النهاية أن تخرج من ظلال تاريخ البشريّة دائم الصخب.

الهوامش

(١) رسالة «جيرترود بيل» إلى أمّها، 30 نوفمبر 1915، أرشيف «جيرترود بيل».

Janet Wallach, Desert Queen (New York, 1996), p. 146.

(2) Elizabeth Burgoyne, Gertrude Bell: From Her Personal Papers, 1914–1926 (London, 1961), pp. 30–1. Liora Lukitz, A Quest in the Middle East: Gertrude Bell and the Making of Modern Iraq (London, 2008), pp. 107–9.

(٣) انظر المرجع السابق بشكل خاص، وانظر أيضًا:

H.V.F. Winstone, Gertrude Bell (London, 1978); Wallach, Desert Queen; and Georgina Howell, Gertrude Bell: Queen of the Desert, Shaper of Nations (New York, 2006).

ولإلقاء نظرة نقدية أكثر على دور «بيل» في إنشاء العراق، والنتائج طويلة المدى لتورط بريطانيا في العراق خلال القرن العشرين، انظر:

Kwasi Kwarteng, Ghosts of Empires: Britain's Legacies in the Modern World (London, 2011), pp. 11–85.

(4) Gertrude L. Bell, Palace and Mosque at Ukhaidir (Oxford, 1914), p. 1.

(5)Wallach, Desert Queen, p. 87.

(6)Howell, Queen of the Desert, p. 124. Wallach (Desert Queen, p. 364).

لاحظ أنّ لاكتشاف «بيل» للقصر: «انتزعه منها علماء آثار فرنسيون وكتبوا عنه قبل أن تسنح لها الفرصة لنشر كتابها». في هذا خلط بين جهود الفريق الألماني في العام 1910 وبين جهود العالم الفرنسي «لويس ماسينون» في العام 1908. انظر أيضًا:

Winstone, Gertrude Bell, p. 108.

(7) Julia M. Asher-Greve, 'Gertrude L. Bell (1868–1926)', in Getzel M. Cohen and Martha Sharp Joukowsky (eds), Breaking Ground: Pioneering Women Archaeologists (Ann Arbor, 2004), p. 143.

(٨) نقرأ في إهداء «بيل» لكتابها «قصر ومسجد»: «إلى صديقي الدكتور فالتر أندري، ذكرى مقرّة بالجميل لأيام سعيدة ومثمرة أمضيناها في العاصمة الأولى للإمبراطورية الآشورية التي كشفت جهوده عنها، وأعاد علمه بناءها».

(9) E.W. Andrae and R. M. Boehmer, Bilder eines Ausgrabers. Die Orientbilder von Walter Andrae 1898–1919/Sketches by an Excavator, 2nd enlarged edition, English translation by Jane Moon (Berlin, 1992), p. 140.

(١٠) المرجع السابق، ص 140.

(١١) رسالة «جيرترود بيل»، 2 أبريل 1905، أرشيف «جيرترود بيل».

(١٢) رسالة «جيرترود بيل» إلى أبيها، 15 أبريل 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(١٣) رسالة «جيرترود بيل»، 2 أبريل 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(١٤) رسالة «جيرترود بيل» إلى أبيها، 18 أبريل 1918، أرشيف «جيرترود بيل».

(١٥) يقدّم «بروس تريجر»Bruce Trigger استعراضًا لأنواع المقاربات التي راجت خلال الأيام الأولى للممارسات الأركيولوجية، بما فيها مفهوم «الانتشار»Diffusionism والمنهج النماذجي لترتيب وتعيين تاريخ القطع الأثرية (ومن بينها العمارة)، الذي استعملته «بيل» ومعاصروها على نطاق واسع. انظر:

Bruce G. Trigger, A History of Archaeological Thought (Cambridge, 1989).

ولاستعراض مفيد لممارسات علم الآثار خلال الجزء الأخير من القرن العشرين وحتّى وقتنا الحالي، لاسيما أنواع تحليل القطع الأثرية المتبع، انظر:

Kevin Greene and Tom Moore, Archaeology: An Introduction, 5th edition (London, 2010); Colin Renfrew and Paul Bahn, Archaeology: Theories, Methods and Practice (London, 1991).

(16) William M. Ramsay and Gertrude L. Bell, The Thousand and One Churches (London, 1909), reprint, with a new foreword by Robert G. Outsterhout and Mark P.C. Jackson (Philadelphia, 2008); Mark P.C. Jackson, 'A critical examination of Gertrude Bell's contribution to archaeological research in central Asia Minor', in Charles Tripp and Paul Collins (eds), Gertrude Bell and Iraq – A Life and Legacy Conference Publication (London, in press); Gertrude Bell and M. Mundell Mango, The Churches and Monasteries of the Tur 'Abdin (London, 1982); M. Szymaszek, 'The lost screens of the churches of Mar Cyriacus in Arnas and Mar 'Azaziel in Kefr Zeh (Tur 'Abdin, Turkey)', Eastern Christian Art 9 (2012–13), pp. 107–18.

(١٧) ما يلفت النظر بشكل خاص هو تخلي «بيل»عن خططها لكتابة تقارير أركيولوجية عن موقعي الرقة وسامراء، وكلاهما كان موضوعًا لأبحاث كبيرة قامت بها خلال زيارتها إلى بلاد الرافدين في العام 1909 (انظر الفصل الرابع). نستطيع أن نُخمّن أنّه عقب نشر:

F. Sarre's and E. Herzfeld's Archäologische Reise im Euphrat- und Tigris-Gebiet (Berlin, 1911–20),

(الذي يقدّم تغطية واسعة عن الرقة وسامراء)، ثمّ عمل «هرتسفلد» المستفيض حول سامراء، أدركت «بيل» أنّ الباحثين الآخرين كانوا يُصدرون تقارير متعمقة عن تلك المواقع، تفوق تقاريرها في جوانب كثيرة.

الفصل الأول

السنوات والخطوات الأولى في علم الآثار

كان لتنشئة «جيرترود بيل» سعيدة الحظّ أبلغ الأثر في تكوين اهتماماتها بالتاريخ وعلم الآثار؛ ذلك لأنّها كانت تنتمي لعائلة أرستقراطيّة أتاحت لها مباشرة تعليم راق، وفتحت عينيها على العالم الأوسع من خلال السفر. وقد شجّعها على ذلك أيضًا عدد من العلماء البارزين، وشيئًا فشيئًا انتهى بها عشقها للأطلال القديمة والمناظر الصحراوية النائيّة التي كانت تضم تلك الأطلال، إلى تركيز اهتمامها على الشرق الأدنى القديم. وبالتوازي مع تنامي معارفها في هذا المجال، كانت ثقتها تزداد فطفقت تسبر الشرق الأدنى القديم كباحثة جادّة. سيستولي هذا العمل على جُلّ انتباهها على مدى سنوات، وسيدفعها أكثر فأكثر داخل المناطق المجهولة التي لم يرتدها أحد من قبل في الشرق الأدنى، وماضيه الأسر.

كانت «جيرترود مارجريت لوثيان بيل» المولودة في العام 1868 في شمال إنجلترا، هي ابنــة «هيو بيل» وحفيدة «اسحــاق لوثيان بيــل» Isaac Lowthian Bell الشهير(*)؛ إذ كان «لوثيان بيل»، كما كان يُحب أن يُناديه المحيطون، واحدًا من روّاد الصناعة في إنجلترا أثناء العصر الفيكتوري[1]. حيثُ التحق في سنّ صغيرة بمصنع الحديد الّذي يمتلكه أبوه في نيوكاسل، ليغدو بعد فترة قصيرة في طليعة من استخدموا أفران الصهر والدّرفلة(**) في إنتاج الحديد، علاوة على تشغيله معملا كيمائيًا كان يُستخدم في تصنيع الألومونيوم[2]. وفي العام 1844، أسس لوثيان وأشقاؤه شركة باسم «بيل بروذرز»، صارت إبان سبعينيات القرن التاسع عشر أحد أبرز شركات

(*) كان السير إسحاق لوثيان بيل (1816- 1904) زميلا بالجمعيّة الملكيّة، وقطبًا من أقطاب صناعة الحديد في العصر الفيكتوري وسياسيًا بالحزب الليبرالي بشمال إنجلترا. [المترجم]

(**) إحدى طُرق تشكيل المعادن. [المترجم]

صناعة الحديد في شمال شرق إنجلترا[٣]. كما كانت الشركة تمتلك أيضًا مناجم فحم ومصانع فولاذ ومحاجر ومناجم معادن، وشيدت خطًا حديديًا لنقل المواد الخام، مكّن«لوثيان» من التحكّم في إمداداته من الفحم وحجر الحديد والحجر الجيري[٤]. ولم يكن جدّ «جيرترود» رجل أعمال ناجحًا فحسب، بل كان عالمًا مثقفًا وموهوبًا أيضًا؛ ذلك أنّه درس الفيزياء والكيمياء وعلم المعادن في ألمانيا والدانمارك وفرنسا وبريطانيا قبل أن يبلغ الرابعة والعشرين من عمره، وحصل على العديد من الميداليات خلال حياته عن إنجازاته العلمية، وخصوصًا في حقول الهندسة والصناعة[٥]. حيث اعتبر؛ على سبيل المثال، واحدًا من أساطين تكنولوجيا أفران الصّهر في العالم[٦]. وباعتباره رجلاً يولي مجتمعه اهتمامًا كبيرًا، اقتحم «لوثيان» عالم السياسة هو الآخر، فانتخب مرّتين عمدة لمدينة نيو كاسل وخدم كعمدة تشريفي لمقاطعة «درم»، وكنائب عن الحزب الليبرالي في البرلمان لمدّة خمس سنوات. كان لهذا الرّجل المهيب؛ ببصيرته الاستثنائيّة وفضوله الفطري وهمّته التي لا تنتهي، تأثير هائل على ذريته، وربّما نردّ إليه بعض نفس الصفات التي شهدناها في حفيدته[٧]. وبالطبع، استفادت «جيرترود».كذلك من حصولها على أغلب إرث «لوثيان بيل»؛ حيث ستسهم هذه الثروة بصورة ملحوظة في سعيها للحصول على تعليم أرفع، وأسفارها الواسعة حول العالم، ومساعيها الأثريّة.

أبدت «جيرترود بيل» في شبابها شغفًا بالأدب والفنون، إلى جانب شئون وتاريخ العالم. لذلك قرر والداها أن تلتحق بجامعة أوكسفورد العام 1886 كي تواصل دراستها. ورغم أنّ أوكسفورد كانت جامعة للذكور فحسب؛ فإن كُليّة للبنات (هي كُليّة «ليدي مارجريت هول») كانت قد اُفتتحت حديثًا، ما سمح لبعض الفتيات ومن بينهن «جيرترود» بحضور محاضرات الجامعة وخوض امتحاناتها. ولم يحل كونها واحدة من بين فتيات قليلات حضرن قاعات درس كانت تمتلئ بمئات الذكور، بينها وبين الازدهار داخل المُحيط الأكاديمي. وهكذا نجحت عند نهاية عامها الثاني العام 1888، في الحصول

على درجة الامتياز في التاريخ الحديث، لتصبح أول امرأة في أوكسفورد تنال ذلك الشرف[٨].

برز السفر بقوّة في شباب «بيل»، لاسيّما خلال السنوات التي تلت تخرّجها من الجامعة؛ إذ ملأتها مساعيها الأكاديميّة واهتمامها بالتاريخ برغبة في الترحال إلى الأماكن التي درستها، والتي بثّت الحياة في ماضيها كُتب وقاعات الدّرس في أوكسفورد. فتوجّهت في أثناء أغلب أسفارها الأولى؛ وأغلبها في رفقة أعضاء من الأسرة، إلى دول أوروبيّة كألمانيا (1886 و1896) وفرنسا (1889 و1894) ورومانيا (1888) وإيطاليا (1894 و1896) وسويسرا (1894 و1895 و1896)، بل امتدت أسفارها في إحدى المرّات لتصل إلى القسطنطينيّة العام 1889[٩]. وهناك في أوروبا أغرمت «بيل» بالجبال، حيثُ استمالتها جبال الألب في سويسرا والنمسا تحديدًا. وقد رسّخت«بيل» وجودها كمتسلّقة بارعة للجبال بإغراء من مشهد القمم الجبليّة التي تغطّيها الثلوج وحسّ المغامرة والجرأة اللذان كانت تتمتع بهما؛ وهكذا تسلّقت «بيل» بين العامين1897 و1904 ما لا يقل عن عشر قمم وسلاسل جبليّة، كل منها تحفّه مخاطر أشد من سابقتها. ومن بين تلك الجبال جبل «مون بلون» في فرنسا؛ وهو أعلى قمم الألب، ثمّ جبل «سشريكورن» وهو واحد من أوعر وأصعب جبال الألب ويبلغ ارتفاع قمّته ثلاثة عشر ألف قدم، وقمم سلسلة جبال «إنجلهورنر السبع» التي لم يتسلقها أحد قط قبل «جيرترود». وقد سرّها كثيرًا أن سُميت واحدة من تلك القمم على اسمها لتحمل اسم «قمّة جيرترود» Gertrudespitze. وقد تسلّقت أيضًا قمة جبل «ماترهورن» عام 1904، لكن أجرأ مغامراتها كان تسلّق قمّة جبل «فينستيرارون»العام 1902 التي يبلغ ارتفاعها حوالي أربعة عشر ألف واثنين وعشرين قدمًا، وتشتهر بطقسها السيئ وانهياراتها الثلجيّة المتكررة. ولم يكن يتبقّى أمامها حتى تصل إلى القمّة مع رفاقها من المتسلقين الرجال إلا عدة مئات من الأقدام، قبل أن يُجبرهم على التراجع طقس مروع– عاصفة ثلجيّة عنيفة وضباب كثيف. كانوا قد أمضوا عند نهاية تجربتهم القاسية حوالي ثلاث وخمسين ساعة

مُعلّقين بالحبال، وأُصيبت «بيل» بقروح جرّاء البرد في كفّيها وقدميها. ورغم أن هذا التسلق مني بالفشل، فإنه أكسبها احترامًا هائلا داخل مجتمع تسلّق الجبال(١٠).



شكل (١-١) «جيرترود بيل» نحو العام 1895، عندما كانت تبلغ السّادسة والعشرين من عمرها. آنذاك، كانت قد قامت بأسفار واسعة ونشرت كتابها الأول بناءً على انطباعاتها عن بلاد فارس التي زارتها في العام 1892.

أشبعت جبال الألب بعضًا من متطلبات «بيل» البدنيّة، لكنّ السفر لم يكف عن تحفيز قدراتها الانفعاليّة والذّهنيّة، فبدأت تُلقي ببصرها بعيدًا عن أوروبا، إلى أماكن عجيبة ثرية بالمشاهد التي أذهلتها، وإلى شعوب وثقافات أغواها شعرها وأدبها بطُرق عجزت عن تلبيتها طبيعة بلادها في منطقة شمال إنجلترا العادية المنعزلة. ربّما يتمثّل أبلغ تعبير عن شهوتها للسفر في قيامها بجولتين حول العالم، الأولى بين العامين1897 و1898، والأخرى بين العامين 1902 و1903، وهي التي شملت وقفة طويلة في الهند حيثُ شهدت احتفال البلاط الإمبراطوري بتتويج إدوارد السّابع إمبراطورًا للهند. وقد توقّفت «بيل» أيضًا في سنغافورة والصين وكوريا واليابان قبل أن تعود إلى إنجلترا عبر كندا والولايات المتحدة(١١).

لكن بخلاف سائر بقاع العالم الأخرى، يبدو أنّ «بيل» قد أغوتها بلاد الشرق الأدنى، وهي الغواية التي أشعلتها واحدة من رحلات «بيل» الطويلة الأولى إلى بلاد فارس للعام 1892؛ حيثُ استمالتها مشاهد الريف من حولها، والتناقضات المبهرة بين مشاهد الجبال والصحاري والبساتين والنوافير وجداول الماء الفضيّة والزهور الوفيرة، أثناء نزولها في طهران مع خالتها ماري وعمّها «فرانك لاسيلس» Frank Lascelles الّذي كان قد عُيّن مندوبًا بريطانيًا لدى شاه إيران(١٢). كما وجدت سخاء الناس والفن والموسيقى والشعر الفارسي آسرين أيضًا. ولعل ما جعل المشاعر التي ثارت داخل «بيل» في هذه البلاد المُدهشة أكثر قوّة، هو سقوطها في حُبّ دبلوماسي شاب يُدعى «هنري كادوجان» Henry Cadogan، يعمل ضمن طاقم موظّفي السفارة البريطانيّة في طهران. كانا يتشابهان في شغفهما بالشعر والأدب، وقد ضاعفت وأبرزت فرحة المشي أو ركوب الخيل معًا خارج طهران؛ كي يتجانبا الحديث بقلبين مبتهجين عن مناظر الطبيعة الخلابة في بلاد فارس، طبيعة «بيل» الرومانسيّة. لكن لسوء الحظّ رفض والداها طلب «كادوجان»

للزواج من «بيل»؛ إذْ اعتبراه شديد الفقر ويُعاني عيوبًا شخصيّة تجعله غير مؤهّل للزواج من ابنتهما. وقد ضاعف من إحساس «بيل» بالمرارة وخيبة الأمل موت «كادوجان» بعد عام واحد جرّاء التهاب رئوي، مُحطِّمًا أي آمال متبقيّة في حصوله على ترقية ما تُزكّي جدارته في عيون والديها[١٣].

رغم هذه النكسة المأساويّة في حياة «بيل» الشخصيّة، لم يذق عشقها لبلاد فارس و«الشّرق»، بل ربّما كانت تأمل في التمسّك بذكرى «كادوجان»؛ قدرَ استطاعتها، من خلال إقامتها المؤقتة في بلاد فارس والاستغراق في كل ما يتعلّق بتلك البلاد. وقد كتبت عند عودتها إلى إنجلترا عن تجاربها الفارسيّة مع «الاشتياق المتأجج»[١٤]، في كتابها الأول «سفر نامه: صور فارسيّة» (لندن، 1894)، وانكبّت على دراسة اللغة الفارسيّة لتنتهي بعد سنوات قليلة فحسب ترجمة إنجليزيّة جديرة بالثناء لكتاب «قصائد من ديوان حافظ[*]» (لندن، 1897) الّذي يحتفي بأشعار الشّاعر الفارسي المبجّل العظيم بالقرن الرابع عشر[١٥].

وإذا كانت رحلة «بيل» إلى بلاد فارس قد أشعلت شرارة اهتمامها الأولى بالشرق الأدنى؛ فإنّ أسفارها التالية إلى الشرق عند بداية القرن العشرين والسنوات التالية أرْست شغفًا بـ«الشّرق» سيلازمها طيلة حياتها. إذْ كانت كل رحلة تُبعدها أكثر عن مسار الهزيمة، وتنمّي اعتمادها على نفسها وعزيمتها، وتدفعها لامتحان احتمالها البدني واستثارة فضولها لمناظر وشعوب وفضاءات مُشيّدة جديدة من الماضي والحاضر. وقد اشتملت أولى رحلات «بيل» الكُبرى إلى الشرق الأدنى؛ التي بدأت في أواخر العام 1899 واستمرّت حتّى شهر يونيو العام 1900، على إقامة طويلة برفقة أصدقاء العائلة في القدس، حيثُ انكبّت على دراسة اللغة العربيّة التي أتقنتها ببراعة

(*) هو حافظ الشيرازي الملّقب بلسان الغيب وترجمان الأسرار وشاعر شعراء فارس. [المترجم]

في نهاية الأمر[١٦]. ومن أبرز ملامح هذه الرحلة زيارتها العابرة لمدينة البترا (بالأردن، بين 29 و31 من مارس العام 1900) ومغامرتها عبر جبل حوران والدروز وصولا لمدينة دمشق (من 25 أبريل حتى 14 مايو 1900) ورحلتها الهامّة بمفردها إلى تدمر في الصحراء السوريّة قبل عودتها إلى بيروت على ساحل البحر المتوسّط (من 15 مايو حتّى 9 يونيو 1900)[١٧].

تلت هذه الرحلة رحلات أخرى إلى الشرق الأدنى (إلى حيفا وجبل الكرمل العام 1902)، ومن ثمّ رحلة طموحة على نحو خاص إلى فلسطين وسوريا بين شهري يناير ومايو العام 1905. كانت «بيل» تصبو للقيام بـــ«رحلة جامحة»[١٨]، فتخطّت في رحلة الاستكشاف هذه مسارات السّائحين العادية، لتقتحم مناطق أبعد حيثُ تُفسح الحقول المزروعة الريّانة في السهل السّاحلي، مجالاً للجبال ومن ثمّ السّهوب والصحاري في أجواف الأرض. ورجعت إلى بعض خطواتها الأولى في العام 1900، لكنّها توقّفت هذه المرّة فترة أطول في المناطق الصحراوية حول عمّان ودمشق، واستكشفت جبل الدروز بإسهاب أوسع ثمّ انتقلت عبر الجزء الأوسط من سوريا كي تفهم بشكل أكبر البلدان وأطلال المستوطنات القديمة في وداي نهر العاصي والتلال الصخريّة بالكتلة الكلسيّة(*). كانت تسافر بشكل مستقل تمامًا لحدّ كبير عن الأوروبيين الآخرين، ولم يكن يُرافقها سوى حاشية صغيرة من الحرس والأدلاء وطاهٍ من أبناء المنطقة[١٩]. ونجحت باستخدام سرعة بديهتها وإتقانها للغتين التركيّة والعربيّة في التغلّب على المعوقات التي وضعتها السلطات العثمانيّة، فزارت ووثّقت والتقطت صورًا فوتوغرافيّة لعدد وفير

(*) تقع جبال الكتلة الكلسيّة Limestone Massif بالجزء الغربي من هضبة حلب شمال غرب سوريا، وهي تمتد على منطقة واسعة يصل طولها إلى نحو مائة كيلومتر، وعرضها إلى عشرين كيلومترًا، بين واديي نهر عفرين والعاصي غربًا، وسهل حلب وقنسرين شرقًا، وتضم حوالي 800 قرية قديمة تُعرف بالقرى المنسيّة. [المترجم].

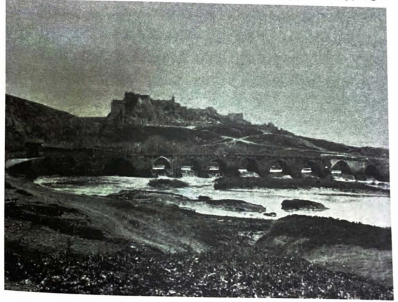
من البشر والأماكن خلال أربعة أشهر، وقد سجّلت إحساس البهجة الّذي غمرها أثناء هذه الرحلة في كتابها «الصحراء والزّرع» الّذي كتبته عند عودتها إلى إنجلترا وحظي بمراجعات إيجابيّة عند نشره العام 1907؛ حيثُ كانت «فاتن»[٢٠] و«آسر»[٢١] من بين ما وُصِف به هذا الكتاب الّذي امتلأت كل صفحة منه تقريبًا بأوصاف تنبض بالحياة للبشر والأماكن التي مرّت بها خلال رحلتها. وقد أُغرِم القراء على وجه الخصوص بقدرتها على تقديم «لقطات» من الحوارات التي أجرتها مع من قابلتهم، وبالتالي عرض صورة حيّة وطريفة في الغالب للمتحدثين وأنشطتهم وآرائهم وتقاليدهم[٢٢]. حيثُ وصفت في الكتاب تعاملاتها مع النّاس بسائر الحِرف ومن كافّة الانتماءات العرقيّة؛ من الموظفين الأتراك إلى أصحاب الدكاكين والجنود والرّعاة والكهنة وشيوخ الصحراء «هؤلاء الّذين يتحلّقون حول نيران مخيّمنا، وهؤلاء الّذين يمتطون الجياد معنا عبر الصحاري والجبال؛ لأنّ كلماتهم تُشبه قشًّا يطفو فوق فيضان السياسة الأسيويّة، كاشفًا اتجاه جريان الأنهار»[٢٣].

وكما قد يتوقّع القارئ من كتابات رحّالة بريطانيّة تنتمي لأوائل القرن العشرين، ينطوي كتاب «الصحراء والزّرع» على نبرة استشراقيّة خافتة أثناء وصف «بيل» لشعوب الشرق الأدنى، وتعاملاتها معهم؛ ذلك أنّها كانت تصف العرب بين الحين والآخر؛ بسبب ما لديها من يقين في تفوّقها الفكري والأخلاقي كامرأة بريطانيّة، بأنّهم يعيشون على الدوام في حالة بِدائيّة؛ وأنّهم ضيقو الأفق وغير عمليين وميالون للنزاع فيما بينهم وعاجزون عن التقدّم نحو الحضارة مثل الغرب[٢٤]. وتؤكّد فقرة في كتاب «بيل» تصف فيها «الشّرقي» بأنّه: «يُشبه طفلا عجوزًا جدًّا»[٢٥]. على نبرة التعالي هذه. ومع ذلك، كانت لديها قدرة أيضًا على الإعجاب واحترام من تُصادفهم، وقبول الاختلافات بين الغرب والشّرق والاعتراف؛ في أبهى حالاته، بالطبيعة النسبيّة للمنظومة القيميّة والأخلاق والجماعة الإنسانيّة عبر الثقافات[٢٦]. إذْ ربّما جعلها وضعها كامرأة، وبالتالي تهميشها بطرقٍ ما داخل مجتمعها

الإنجليزي، حساسة تجاه المواقف التي تنطوي على عدم مساواة واختلاف[٢٧]، ولعل تمتعها بقوة الملاحظة هو ما جعل كفّة إدراكها وقبولها القاطعين للسلوك الإنساني في أشكاله التي لا تُحصى، ترجح في مقابل الاتجاهات الأخرى التي ربّما كانت لديها بخصوص الإمبراطوريّة والعرق والنوع الاجتماعي.

كانت لرحلة «بيل» في الشّرق الأدنى العام 1905 جانب آخر مهم؛ إذْ سلّطت الضوء على اهتمامها بعراقة المناطق التي مرّت بها. ذلك أنّها استمتعت بالتفكير مليًا في أمر الثقافات والشعوب التي استقرّت هنا قبل أن تأتي «بيل»، والتي تركت بصمتها من خلال الفنون والعمارة والنقوش. فعلم الآثار والتاريخ القديم موضوعان بالغا الأهميّة في كتاب «الصحراء والزّرع»، ويشغلان نفس المساحة تقريبًا التي شغلتها رواياتها عن الأماكن والبشر المُحدثين. ويتجلّى حماسها للتاريخ في غزارة المواقع الأثريّة الواردة في خطّ سير رحلتها، والتي تضمّ على سبيل المثال، الموقع الروماني لمدينة بعلبك والقلعة الصليبيّة المهيبة المعروفة بقلعة الحصن[٢٨]. ورغم أنّ المسارات السياحيّة الأخرى تؤكّد في أغلب الأوقات على أغلب تلك المواقع، فإن «بيل» سعت أيضًا إلى استكشاف المواقع الأقل شهرة، وتوقّفت أمام أنقاضها كي تستدعي عصرها وتاريخها وأهميتها الثقافيّة. كما وصفت عند سفرها عبر وسط غرب سوريا؛ على سبيل المثال، الرابية العالية التي تقع فوقها قرية «النبي مندو» في نفس موقع مدينة قادش الأثريّة، والمعركة الشهيرة التي نشبت هناك بين الحيثيين والمصريين، وهو الحدث المعروف أيضًا من الكتابات والنقوش الهيروغليفيّة في مصر[٢٩]. وبعد حماة، مرّت بقلعة شيزر الإسلاميّة المُحطّمة (التي أطلقت عليها اسم قلعة سيجر Seijar) (انظر شكل ١-٢) ووصفت موقعها المهيب على قمّة جرف شديد الانحدار يُطل على وادي نهر العاصي[٣٠]. ولاحظت كذلك وجود عدد غفير من مواقع التلال الأثريّة على امتداد الطريق (عند بلدة «شيخ حديد»)[٣١]، قبل أن تصل إلى الموقع اليوناني الروماني الواسع لقلعة المضيق (مدينة «أفاميا» القديمة)،

حيثُ أولت هذا الموقع اهتمامًا كبيرًا[٣٢]. لم تتوقّف رحلة «بيل» تجاه الشمال، وقد أفصحت عن إحساسها الهائل بالحماس حينما صادفت بعثة جامعة برنستون الأثريّة عند مدينة «تاروتين» المنسيّة، وظلّت تتابعهم طوال اليوم وتراقب أعضاء الفريق يرسمون الأنقاض ويفكون مغاليق النقوش. ومن خلال جهودهم؛ كما تحكي «بيل»: «انبعثت البلدة التي تنتمي بالكامل للقرن الخامس الميلادي من بين الرّماد وانتصبت أمامنا- كنائس وبيوت وحصون وقبور منحوتة في الصخر تحمل أسماء وتواريخ وفاة شاغليها منقوشة فوق الباب»[٣٣]. كانت «بيل»؛ بزياراتها تلك إلى المواقع الأثرية وما صاحبها من الأوصاف والصور الفوتوغرافيّة التي التقطتها- حيثُ يتكرر في الأخيرة ظهور لقطات مُقرّبة لزخارف فنيّة وتفاصيل معماريّة-، تبدأ في الكشف عن فضول وإدراك أثريين تخطّيا الاهتمام اليسير لدى سائح متحمّس.



شكل (١-٢) الصورة التي التقطتها «بيل» في العام 1905 لقلعة «شيزر» العربيّة (القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر الميلادي)، التي تُطل على نهر العاصي (في سوريا)، وفي صدر الصورة جسر يعلو النّهر ينتمي للعصر ما قبل الحديث.

لم تكن رحلة «بيل» في العام 1905 أول رحلة تضم زيارات لمواقع ومعالم أثريّة؛ إذ أظهرت اهتمامًا شديدًا بالماضي في مناسبات سابقة، مثلما تبيّن في رسائل بعثتها لأفراد من أسرتها وصفت فيها بنبرة شجيّة في الغالب مواقع أثريّة وتفاصيل تاريخيّة. كان خيال «بيل» النشط وطبيعتها الحالمة لا يتوقفان عن تصوّر البشر والأحداث التي جرت في الماضي بتلك الأماكن التي مرّت بها، وقد قامت المناظر التي شهدتها بدور البوابة الزمنيّة التي تنقلها إلى عصور تاريخيّة حكم فيها ملوك ملهمون أو طغاة، وإلى أراضٍ اجتازتها جيوش غازية. فخلال إقامتها في بلاد فارس العام 1892، استعادت واديًا صخريًّا مقفرًا مُحاطًا بالجبال انتصب في قلبه أحد معابد الموت الفارسيّة- التي تُعرف بـــ«أبراج الصمت»- حيث كانت تُمدد جثث الموتى كي تنهش لحومها العقبان، فأيقظ هذا البنيان العتيق ذكرى عادة غابرة مروعة، وذكرى أولئك الّذين شهدوها في «رحلتهم المضنية» نحو الموت[٣٤]. كما حظيت «بيل» أثناء إحدى رحلاتها المشهودة إلى أثينا مع أبيها العام 1899، بمتعة لقاء عالم الآثار الألماني البارز «في لهلم دوربفيلد» Wilhelm Dörpfeld، وعالم الآثار «ديفيد هوجارث» شقيق صديقتها «جانيت» بجامعة أوكسفورد. تتفجر«بيل» بالحماس في رسائلها لأنّها تمكّنت من الحديث مع هذين النبيلين، ثمّ تُمسك بآنية من الفخّار يبلغ عمرها ستة آلاف عام تنتمي لجزيرة ميلوس، وتهتف مُعلنة أنّ تلك التجارب جعلت عقلها يترنح[٣٥]. بعدئذ في نفس العام، تتخيّل «بيل» أثناء مشيها بين أطلال مدينة «أفسس» في الأناضول، القديس بولس الرسول وأمامه المدينة اليونانيّة المتألقة البهيّة، يصعد بموازاتها الشّارع المزوّد بأعمدة ودرج رخامي صوب المسرح الموجود في نهاية الشارع[٣٦]. لم تكفّ «بيل» عن القيام برحلات أثريّة أخرى تنصب بشكل رئيس على غرب الأناضول العام 1902؛ فراقبت باهتمام التنقيب عن تلّة جنائزيّة بيزنطيّة في مدينة «كولوفون»[٣٧]، وقامت برحلة لمدّة ستة أيام لزيارة أنقاض مُدن «بيرجاموم» و«سرديس» و«ماجنيسيا» الأثريّة[٣٨]، ولازمت المنقبين الألمان أثناء الحفر في مدينة «سميرنا» (إزمير)[٣٩].

ربّما نلمس في كتابات «بيل» إحساسها بنشوة حقيقيّة خاصّة إزاء الأماكن الأثريّة والبيئة الصحراوية المُدهشة التي توجد فيها هذه الأماكن في الغالب، في أراضي فلسطين وسوريا اللتين زارتهما أول مرّة العام 1900. إذْ لم تتمالك نفسها من الدّهشة؛ حين زارت هي ورفاقها المسافرون مدينة البترا النبطيّة الصحراوية (29 مارس 1900)، أمام البيئة الطبيعيّة التي وفّرت مثل هذا المقام المهيب للقبور المنحوتة في الصخور (انظر شكل ١-٣)، التي شُيدت في قلب الحجر الرملي الوردي بالمنحدرات الصحراويّة، وتزاحمت حول ممر ضيق بين الصخور:

استأنفنا السير يغمرنا إحساس بالنشوة، إلى أن صادفنا بغتة بين فتحة الصخور الضيقة أروع مشهد رأيته في حياتي. تخيلوا معبدًا منحوتًا في الحجر الصلّد، حيثُ تنتصب الواجهة البديعة واضحة تُعززها الأعمدة الكورنثيّة، لتُحلّق عاليًا رأسًا برأس أعالي الجرف في تناسب شديد الإتقان، وقد نُقشت فوقها أشكال بقيت على نفس حالها كما تركها الإزميل- كل هذا في قلب الحجر الأحمر الوردي الّذي ما أن تمسّه الشّمس حتّى تجعله يبدو شبه شفّاف. [...] واصلنا السير طيلة ساعات ما بعد الظهر تقريبًا والتقطنا صورًا بأنفاسٍ مبهورة. كانت تُشبه مدينة خرافيّة؛ ورديّة ومذهلة، كأنّها هوت من حلم «الوايت كنج»(*) وستتلاشى ما أن يصحوا!(٤٠)

وقد تركت نظرة «بيل» الأولى على مدينة تدمر(انظر شكل ١-٤) بصحراء سوريا في مايو 1900، انطباعًا قويًّا لديها؛ حيثُ يقبع الموقع الأثري في قلب البيئة القاحلة:

أتساءل إن كان العالم الواسع يُقدّم مشهدًا أكثر تفردًا. ثمّة عدد هائل من الأعمدة التي اصطفت على هيئة طرق طويلة، وتجمّعت في صورة معابد،

(*) شخصيّة خياليّة ظهرت في إحدى قصص الكاتب الإنجليزي لويس كارول مؤلّف رواية الأطفال الشهير «مُغامرات أليس في بلاد العجائب». [المُترجم]

وتمددت مُحطّمة فوق الرمال أو مدّت أصبعًا وحيدًا طويلاً تُشير به إلى الفردوس. من وراء الأعمدة يقع معبد «بعل» العملاق؛ وبين جنباته شيدت البلدة الحديثة حيثُ تبرز صفوف أعمدتها من بين الأسقف الطينيّة. وعلى مسافة أبعد، لا نرى سوى الصحراء والرمال ومساحات بيضاء مترامية من الملح والرمال مرّة أخرى، حيثُ تصنع سحب الغبار دوّامات فوق المنطقة وفوق نهر الفرات الذي يقع على مسافة خمسة أيام. يتبدّى المشهد كأنّ الهيكل الأبيض لبلدة ما يغوص عميقًا حتّى ركبته داخل الرمال التي تذروها الرياح[٤١].



شكل (١-٣) الصورة التي التقطتها «بيل»في مارس من العام 1900، لمقبرة «سيكستيوس فلورنتينوس» (الحاكم الروماني للمقاطعة العربيّة حوالي العام 130 بعد الميلاد) المنحوتة في الحجارة بالبترا (الأردن).

لكن إلى جانب ولعها بكتابة تأملات غنائيّة حول المواقع الأثريّة، كانت «بيل» مهتمة بشدة أيضًا بالتفاصيل التي تراها بين الأنقاض، وعلى استعداد لاقتطاع جزء من وقتها لتسجيل تلك التفاصيل في دفاترها. وتمتلئ كتاباتها بمثل تلك الأوصاف، حتّى في مدينة تدمر العام 1900:



شكل (١-٤) صفّ من الأعمدة داخل فناء معبد بعل في تدمر (سوريا). أُزيلت بعدئذ كل البيوت الحديثة المُشيّدة بالطوب الطيني التي كانت قائمة في العام 1900 في قلب السّاحة المسوّرة المقدّسة.

ثمّة برج مهيب يكاد يكون مثاليًا يُطلق عليه العرب اسم «قصر العروس»، يضمّ قاعة عظيمة يبلغ ارتفاعها عشرين قدمًا وتغطيها العضائد من الأرضيّة إلى السقف، وبينهما صفوف وصفوف من حجرات الدفن كأنّها أرفف كثيرة. وحين أذكر الأرضيّة فربّما أضيف أنّها ما عاد لها أثر، وأنّه لم

يبقَ منها سوى حفرة هائلة على هيئة قبو غائر كان يعلوه عقد في السّابق، ويمتلئ بحجرات الدفن أيضًا. كما لم يتبق من سقف القاعة المهيبة إلا ثلثيه، مُتقن النحت مدهون ويُغطّيه الجصّ، والألوان لا تزال زاهية لحدّ ما. وعلى جانبيه لوح يحتوي على أربع صور لأربعة رءوس؛ وأحسب أنّ لوحًا آخر كان في المنتصف لكنّه سقط. وقد نُقش فوق الباب رأس رجلٍ ملتحٍ؛ ربّما كان سيد العائلة، وعلى الطرف المُقابل نصب تدمر المعتاد الّذي يتألف من خمسة تماثيل نصفيّة مصفوفة فوق حجر هائل تُحيط بها حافّة لا تتغيّر دائمًا، وشيء يُشبه هيئة ملك الشّطرنج على الجانبين تعلوهما لفيفتان مزخرفتان بخطوط مموّجة وأكاليل قصيرة من الزهور. تسلّقنا درجًا محطّمًا قادنا إلى قاعة مجاورة أكثر بساطة خالية من المنحوتات. وكانت ثمّة قاعة أخرى فوقنا لم نُفلح في الوصول إليها لأنّ الأرضيّة المحطّمة حالت دون وصولنا إلى الدّرج. أعتقد أنّ كل حجرة دفن كانت موصدة بتمثال نصفي لصاحبها، لكن مضى وقت طويل منذ تعرّضت تلك الحجرات للتحطيم أو السرقة(٤٢).

تستمر مثل هذه الفقرات المفصّلة عن المعالم الأثريّة في كل كتابات «بيل». من ناحية أخرى يُلاحظ القارئ أيضًا؛ لاسيّما منذ العام 1905 وما تلاه من أعوام، أنّها أضافت مزيدًا من الأفكار والتأملات العلميّة التي نتجت عن دراستها المتبحّرة للثقافات والتقاليد الفنية الخاصة بالمواقع التي زارتها. فنراها تُشير على سبيل المثال حين تصف موقع مدينة بعلبك، إلى أنّه كان: «مزيجًا أبدعته القريحة اليونانيّة والآسيويّة، وغطّت عتباته وسواكفه(*) وتيجان أعمدته بالزخارف»(٤٣). وقد عاودت «بيل» التأمّل من جديد في بعض التقاليد المعماريّة أثناء مرورها بأطلال القُرى والكنائس التي

(*) الساكف Architrave هو الجزء الأفقي من واجهة البناء المعمارية اليونانية والرومانية الذي يقع تحت الإفريز. [المُترجم]

تنتمي للعصور القديمة المتأخرة، في المنطقة التلّية شمال شرق دير سمعان في شمال سوريا، حيثُ لم تفطن إلى أنّ فريق «برنستون» الأثري قد تفقّد هذه المنطقة مسبقًا(٤٤)، فأخذت على عاتقها مهمّة تفقّد المنطقة بأناة وتقديم تفسير ما للشكل المستقل الّذي تمتاز به عمارتها، الّذي: «لم ينفّذه عمّال محليون، بل بُناة وحجّارون من أنطاكية»(٤٥). تعكس مثل هذه الكتابات الثقة المتزايدة التي استشكفت بها «بيل» المواقع الأثرية، بما فيها المواقع الموجودة خارج المسارات السياحيّة المعتادة، ومساعيها لتحديد تواريخها وتأثيراتها الثقافيّة.

تزامنا لطابع العلمي المنقّح بزيارات وكتابات بيل الأثريّة بحلول العام 1905، مع انضمامها إلى جانب«سالومون رايناخ» Salomon Reinach (1859–1932)؛ وهو باحث وعلامة أوروبي نافذ اقتحم حياتها حوالي العام 1904. كان «رايناخ» الّذي ينتمي لأسرة ألمانية يهوديّة ودرس في جامعة باريس والمعهد الفرنسي في أثينا، قد صار عند مطلع القرن العشرين خبيرًا مهمًا في اللغات الكلاسيكيّة، ودراسة الميثولوجيا والدين وتاريخ الفنّ وعلم الآثار(٤٦). وقد ضمّت أنشطته الأركيولوجيّة التنقيب في اليونان وآسيا الصغرى ومناطق شمال أفريقيا الخاضعة للسيطرة الفرنسيّة، والتي أسفرت عن عشرات الكتابات التي تُحلل الآثار اليونانيّة والرومانيّة الموجودة في تلك المناطق، فضلا عن كتاباته الغزيرة حول بلاد الغال(٤٧). وإجمالاً، فإنّ سجل إصداراته كان مذهلا بسبب حجمه ودائرة اهتماماته، والّذي يضمّ كُتبًا ودوريات علميّة عالجت موضوعات شديدة التنوّع مثل علم النقوش والكتابات اليونانيّة واللاتينيّة؛ والفنون والعمارة في العصرين القديم المتأخّر والكلاسيكي؛ وأديان آسيا الصغرى والشرق؛ وفنون عصر النهضة وأوروبا في القرون الوسطى(٤٨).

للتقت «بيل» بـــ «رايناخ» العام 1904[٤٩]، وكان الأخير حينئذ يعمل مديرًا للمتحف الأثري في بلدة «سنجر منآنله» بالقرب من باريس؛ وهو المنصب الذي لن يفارقه حتى وفاته في العام 1932 (وكان قد عُين فيه العام 1902). كان «رايناخ» يعمل أيضًا مُحاضرًا عن الرسم في عصر النهضة، باعتباره أستاذًا لتاريخ الفنون في كلية اللوفر، إلى جانب تحريره الدوريّة الرفيعة «ريفيو أركيولوجيك» Revue archéologique. ويبدو أنّ «بيل» قد عرفت بأمر هذا العالم الأوروبي الشّهير من صديقتها «أوجيني سترونج» Eugénie Strong؛ وهي عالمة آثار كلاسيكيّة متمرّسة[٥٠]، وربّما تكون قد سافرت إلى باريس للقائه بناءً على توصية «سترونج» التي عرفت «رايناخ» قبلئذ بنحو عشر سنوات تقريبًا، وأرجعت اقتناعها بفنون وأركيولوجيا الأقاليم الرومانية الغربيّة لدراية «رايناخ» في الآثار السلتية والغال رومانيّة[٥١].

وحسبما روت «بيل» في رسائلها ويومياتها، كانت زياراتها للقاء «رايناخ» مثيرة ومثمرة. وقد وصفت أيامًا مكثّفة قضتها تحت إرشاده، مُستغرقة في قراءة كُتب عن المنحوتات والنقوش وصور النحت والعمارة الممعنين في القدم، التي أتى لها بها من فوق أرفف مكتبته الجامعة. وزارت برفقته أيضًا المتاحف الموجودة بالقرب من باريس؛ بما في ذلك متحفه في سان جيرمان، حيثُ تمكّنت من رؤية ولمس الآثار أحيانًا – وهي على سبيل المثال، قطع عاجية عتيقة ومخطوطات مذهّبة[٥٢]. وقد حاول «رايناخ» تقديم «بيل» إلى علماء بارزين آخرين تتفق اهتماماتهم مع اهتمامات بيل بالشرق الأدنى، ومن بينهم «ملكيور دي فوج» Melchior de Vogüé (1829– 1916)؛ وهو عالم آثار فرنسي برز بسبب دراساته وتقاريره العلميّة حول قبرص وسوريا وفلسطين القديمة إبّان ستينيات القرن التاسع عشر[٥٣]، و«رينيه ديسو» René Dussaud (1868– 1958)؛ وهو مستشرق فرنسي وعالم آثار وخبير شهير في الأديان القديمة، قام برحلات واسعة داخل سوريا ونشر كُتبًا نالت

استحساناً كبيرًا عن التاريخ والشعوب والمواقع الأثرية السوريّة(٥٤). وعمومًا، فقد أحبّت «بيل» «رايناخ» بشكلٍ هائل، وأبهرها انهماكه في دراساته وقدرته الهائلة على العمل(٥٥). ومن جانبه، وجد «رايناخ» «بيل»: «جذّابة لحدّ كبير»، وكان يغمرها بحفاوته الدافئة عندما تزوره(٥٦). كما لم يبخل عليها أيضًا بوقته ولا بعلمه الغزير.

لابد أنّ قدرات «بيل» العلميّة هي الأخرى قد أثارت إعجاب «رايناخ»؛ لأنّه طلب منها كتابة مراجعة لدورية «ريفيو أركيولوجيك»(٥٧). ورغم شعورها بالقلق من كتابة مقال لمثل هذه المجلّة الأكاديميّة الرفيعة، فإن «بيل» قبلت بكل سرور تكليفه الّذي أسفر عن كتابة مراجعة لكتاب مستفيض حول البرنامج الفنّي والمعماري بقصر المَشْتى الصحراوي؛ وهو أنقاض قلعة تقع في الصحراء الأردنيّة جنوب عمّان، ألّفه العالم النمساوي الشهير «جوزيف سترزيجوفسكي» Joseph Strzygowski(٥٨). كان الموضوع ملائمًا بالنسبة لــ«بيل»؛ ذلك أنّها كانت مُلمّة بالفعل بإنجاز «سترزيجوفسكي» العلمي، ولديها القدرة على القراءة باللغة الألمانيّة. أضف إلى ذلك أنّها سبق أن مرّت بقصر المَشْتى أثناء أسفارها عبر الأردن العام 1900، ومطّلعة على الخلاف بين تاريخ بنائه وهوية بانيه. وكما تبيّن لاحقًا، كانت مُراجعة «بيل» القصيرة التي ظهرت في دورية «رايناخ» العام 1905(٥٩)، هي الأولى في سلسلة مقالات كلّفها بها؛ منها أبحاث «بيل» حول أطلال الكنائس التي زارتها أثناء رحلتها العام 1905 إلى قيليقية وليكاونيا في الأناضول، ومراجعة لبحث ألماني عن موقع بنبركيليسي(٦٠). أتاحت هذه الأبحاث لبيل مواجهة دُنيا العلوم الأثريّة الأوسع للمرّة الأولى، وهي الأبحاث التي لم تضع سدى؛ إذْ كتب «سترزيجوفسكي» بنفسه مراجعة إيجابيّة لأبحاث «بيل» عن كنائس الأناضول، قال فيها:

لا أعرف «جيرترود لوثيان بيل» شخصيًا، ولا أدري إن كانت شابّة أم عجوزًا؛ لذلك فحكمي مُنصف تمامًا: إنّ ما أنجزته لابد أن يصير مثلاً يُحتذى بالنسبة للرجال [...] إذ قدّمت الفنّ المسيحي في آسيا الصغرى بأسلوب نأمل في أن يجعل العالم بأكمله يشدّ الرحال إلى هناك؛ كي يرى بعينيه أنّ آسيا الصّغرى «تُربة بكر» شديدة الخصوبة بالنسبة لتاريخ الفن(٦١).

وإجمالاً، أسهم التشجيع الحقيقي والتّعليم المكثّف والتعريف بالثقافة الأوروبيّة الّذي وفّره «سالومون رايناخ» لـ«بيل»، في تطورها بشكل ملحوظ كعالمة آثار. وعززت المعارف والثقة بالنفس التي اكتسبتها حديثًا من رغبتها في دراسة العالم القديم، وصادفت أسفارها إلى الشرق الأدنى التزامًا إضافيًا من خلال الأسلوب العلمي الّذي صارت تحلل به الآن المواقع الأثرية التي زارتها.

وكما هو معروف، فقد استلزم الجزء الأخير من رحلة «بيل» إلى الشرق الأدنى في شهري أبريل ومايو العام 1905، زيارة إلى منطقتي قيليقية وليكاونيا في الأناضول (جنوب تركيا اليوم)، حيثُ استكملت دراستها المتأنية والجامعة عن الكنائس البيزنطيّة التي ستصدر في سلسلة حلقات بدوريّة «ريفيو أركيولوجيك»(٦٢). كانت أروع الكنائس لحدّ بعيد تقع فيبنبركيليسي؛ حيثُ يوجد تجمّع عجيب من الأنقاض فوق منحدرات جبل «قرّة داغ» البركاني، جنوب شرق مدينة قونية بوسط الهضبة الأناضوليّة. لم يُعكّر العمران اللاحق صفو تلك الكنائس والمنشآت الغفيرة بسبب بُعدها، ورغم حالتها المدمّرة؛ فإن «بيل» ستتمكّن في أغلب الأحيان من فهم تصميماتها ووظائفها الأصليّة. وقد أمضت وقتًا طويلا في قياس وتصوير الأنقاض ونسخ بعض النقوش القليلة التي عثرت عليها بين تلك الأنقاض. وقد سنحت

لبيل بمحض الصدفة أثناء وجودها في قونية، لقاء عالم الآثار الكلاسيكيّة، و«العالم الرائد في حقل الطوبوغرافيا وآثار وتاريخ آسيا الصغرى القديمة»، «وليام رامزي»، الّذي أبلغته بحماس بالغ عن الثروة الأركيولوجيّة في منطقة بنبركيليسي[٦٣]. فاتفقا على أنّ الموقع يستحق المزيد من الفحص، وبالتالي قررا التعاون في بعثة أثريّة للقيام بالمزيد من الاستكشافات لبقايا الموقع الأثريّة.

استمرّ المشروع الأثري في بنبركيليسي طيلة شهري مايو ويونيو العام 1907 (انظر شكل ١-٥)، معتمدًا في تمويله لحدّ كبير على رصيد «بيل» الشّخصي. وكان هدف البعثة هو الحصول على سجل جامع للآثار الموجودة في الموقع، وبخاصة الكنائس، وفي حين لم تستلزم البعثة القيام بتنقيبات كاملة؛ إلا أنّها استعانت بفريق صغير من المحليين الأكراد والأتراك لتنظيف الأرض ورفع الأنقاض الموجودة بالقرب من أساسات جدران المباني؛ تمهيدًا للكشف عن أبعادها وأشكالها بالكامل[٦٤]. وقد سافرت «بيل» إلى مناطق متاخمة بالأناضول بعد انتهاء البحث في بنبركيليسي، لتكتشف وتكتب عن أمثلة مُعاصرة من العمارة الإكليريكيّة التي ساعدت في وضع الموقع في سياقه المعماري والزمني السليم (وقد قامت بالمزيد من الاستكشافات في منطقة «قرة داغ»، ومن ثمّ في سلاسل جبال «حسن داغ» و«قردجا داغ» في يوليو من العام 1907). وأسفرت أبحاث «بيل» و«رامزي» المكثّفة عن دراسة اشتركا في كتابتها حملت عنوان «الألف كنيسة وكنيسة» (ترجمة الاسم التركي لموقع بنبركيليسي). نُشرت الدراسة في العام 1909، وهي تعكس بصورة واضحة خبرة مؤلفَيها كل على حدة؛ إذْ يتناول «رامزي» تأريخ وتطور المباني على أساس السجلات التاريخيّة الموجودة، ودراسته للنقوش التي عثر عليها بالموقع. في حين انطوى إسهام «بيل» على وصف

مفصّل لكل كنيسة مصحوبًا بصور دقيقة ومُخططات مدروسة بعناية(٦٥). كما وضعت أيضًا كرونولوجيا للمباني على أساس التغييرات التي رُصدت في عمارتها وطريقة بنائها وزخارفها(٦٦). وقد وضع المؤلفان معًا تصنيفًا معماريًّا للكنائس التي تتبعا تطورها بين القرنين الخامس والحادي عشر الميلاديين، وربطا بين التخلّي عن المباني وبين التحولات التي اعترت مواقع الاستيطان وعمليات إعادة البناء والتجديد جرّاء التطورات التاريخيّة، كما حدث عند الفتوحات الإسلاميّة العربيّة، والوصول التالي للسلاجقة الأتراك(٦٧).



شكل (١-٥) «جيرترود بيل» وخادمها فتوح يقفان أمام خيمتها في مُعسكر «رامزي» و«بيل» في بنبركيليسي (جنوب وسط تركيا) في العام 1907.

دمغت الأبحاث التي أجرتها «بيل» في بنبركيليسي غزوتها القويّة الأولى بالعمل الأثري في الشرق الأدنى، وفي هذا الشأن نستطيع أن ندرك المنحى المُحدد لاهتماماتها الأركيولوجيّة ومنهجيتها المفضّلة، التي ستلازمها

لحدّ كبير في كل أبحاثها التالية. فدون أدنى شكّ، مارس «جوزيف ستر زيجوفسكي» تأثيرًا قويًا على «بيل» بحلول العام 1907 (وهي الشخصيّة التي سنتحدّث عنها كثيرًا في الفصل التالي)، ونرى نهجه الخاص في أغلب دراسة «بيل» التي حملت اسم «الألف كنيسة وكنيسة»؛ إذ اقتدت دراستها عن تطور وطابع كنائس بنبركيليسي، والتي طغى عليها اهتمام واع بأشكالها وزخارفها المعماريّة، ومساعيها لبناء أواصر وتأثيرات ثقافيّة بناءً على تلك الخصائص الملموسة الجديرة بالملاحظة، بتحليل «ستر زيجوفسكي» الشكلي المُقارن. كما أبرزت هذا النهج عل نحو استثنائي دراسة «بيل» عن الأقبية والعقود والقباب والزخارف المعمارية بكنائس الأناضول، وبتّها اللاحق في المسائل المتعلقة بتاريخ بناء والطابع الثقافي للمباني التي ظهرت فيها هذه الزخارف. إضافة إلى ذلك، أرشدت خبرتها المتزايدة في هذه المنهجيّة وإحاطتها بمثل هذه المعالم- أشكالها المميزة وأبعادها وأسلوب والتقانة المتبعة في تشييدها- دراساتها اللاحقة. وشكّل تناولها التالي؛ مثلاً، لأقبية وقباب قصر ومسجد الأخيضر (الّذي سنتعرّض له بمزيد من التفصيل في الفصل الثالث) جانبًا حاسمًا في دراستها عن هذه المسألة المعقّدة، وهي الدراسة التي قدّمت إسهامًا هائلاً بتأريخها الدقيق وتحديدها لهويّة كل أثر.

لكن في حين اقتدت «بيل» بمقاربة «ستر زيجوفسكي» الشّاملة للفن والعمارة القديمين، إلا أنّ أفكاره شديدة التبسيط حول أسبقيّة الشرق والتي استعان بها في شرح أصول سائر الأشكال المعماريّة، لم تتفق مع ملاحظاتها الأدق بشأن البراعة والتجديد الإبداعيين المحليين في عمارة آسيا الوسطى، كما أدرك «مارك جاكسون» Mark Jackson بذكاء من دراسة «بيل» عن كنائس بنبركيليسي(٦٨). على أنّها لم تعبّر عن آرائها النقيضة في دراستها «الألف كنيسة وكنيسة»إلا بشكل غير مباشر؛ ربّما مراعاة لـ«ستر زيجوفسكي» الّذي كانت لا تزال تكن له احترامًا كبيرًا في هذه المرحلة الأولى من

مسيرتها في حقل الآثار[٦٩]. وبالرغم من ذلك، أمحت تلك الأفكار النقيضة لما لديها من قدرة على التفكير المستقل؛ فضلاً عن قدرتها المتنامية على إدراك السلوك المعقّد والمتشعّب الّذي تنتهجه العلاقات الثقافيّة وتجلياتها في الفن والعمارة. وستجد وجهات النظر هذه تعبيرًا إضافيًا عنها في أعمال «بيل» العلمية الأنضج اللاحقة.

عُنصر آخر مهم في دراسة «بيل» عن بنبركيليسي يستحق الذّكر هُنا وهو تصويرها الفوتوغرافي. ذلك أنّ قوّة دراسة «الألف كنيسة وكنيسة» الدائمة بحقّ تكمن بما في صور «بيل» الفوتوغرافيّة الأبيض والأسود الواضحة والصافية من ثراء[٧٠]. حيثُ يوثّق ما يزيد على المائتي صورة فوتوغرافيّة موزّعة في أرجاء الدراسة، الكنائس المميزة والمنشآت المُلحقة بها في الموقع الأثري والمناطق المُتاخمة. هذه الصور لا تحظى بأي ميزة فنيّة أو جماليّة خاصّة (مُكتسبة من خلال تكوين فنّي أو إضاءة أو توازن دقيق، كما نرى في لقطات مصوري الفوتوغرافيا الأثريين الأوائل الآخرين من أمثال «جون هنري هاينز» (John Henry Haynes)[٧١]، لكن في الوقت ذاته لا يُمكن أن نُغفل ما توفّره من وضوح المعالم المعماريّة الدقيقة مثل الزخارف المنقوشة والأفاريز والتيجان والأعمدة. كما تُشدد صور «بيل» بين الحين والآخر على البيئتين الطبيعيّة والمشيّدة حول الكنائس، ما يُتيح السياق الأوسع للمستوطنة والمشهد الّذي وجدت في قلبه تلك الكنائس (انظر شكل ١-٦). إنّ قيمة الصور الفوتوغرافيّة لمنطقة بنبركيليسي تزداد وضوحًا حين ندرك أن أغلب منشآت الموقع الأثري لم يعد لها وجود، بعد أن تعرّضت للتفتت على نحو خطير أو اختفت كُليًّا (انظر شكل ١-٧). وكان أوائل من استكشفوا الموقع الأثري ومن بينهم «بيل»، قد انتبهوا للتلف السريع الّذي تتعرّض له الأنقاض، وفي الحقيقة، فإنّ جانبًا مما دفعها للحصول على سجل فوتوغرافي مناسب، كان بسبب ما لاحظته من التدهور الذي يُصيب

الكنائس(٧٢). وإجمالاً، فإنّ موهبة «بيل» في التصوير الفوتوغرافي الأثري التي مارستها فيبنبركيليسي، هي موهبة فارقة وذات قيمة كبيرة في نهجها الأثري، وقد استمرّ أثرها في دراساتها التالية وحققت أفضل نتائج في أغلب الأوقات.



شكل (١-٦) الصورة التي التقطتها «بيل» لأطلال عدّة كنائس بيزنطيّة في بنبركيليسي (جنوب وسط تركيا)، ونرى في الخلف تلال سلسلة جبال «قرّة داغ». تقتنص مثل هذه الصور البانوراميّة التي بدأت «بيل» في التقاطها بالعام 1907، المناظر الطبيعيّة التي تقع في إطارها المواقع الأثريّة.

مع انتهاء مهمّة «بيل» في الأناضول في العام 1907، أصبح علم الآثار؛ وقتئذ على الأقل، هو الحرفة الرئيسة في حياتها. فانقطعت عن مغامرات تسلّق الجبال الناجحة والمُثيرة، وصارت أسفارها واسعة النطاق التي حملتها إلى جميع أرجاء العالم، تنصبّ الآن لحدّ كبير على الشرق الأدنى. إذْ أتاحت لها رحلاتها المتعددة آنذاك إلى الشرق والأناضول تجارب مباشرة ومُفرحة مع البقايا الأثريّة، وزودت دراساتها والتشجيع الّذي تلقّته من «سالومون ريناخ»، مساعيها الأركيولوجيّة بالطّاقة ومنحتها شرعية علميّة. وأخيرًا، فقد طوّر بحثها وعملها الميدانيين في بنبركيليسي مهاراتها وخبراتها الأركيولوجيّة، لدرجة صارت تستطيع معها الآن أن تعتبر نفسها - عن جدارة - عضوة في جماعة صغيرة من العلماء المطّلعين من كل أرجاء العالم، المُختصّين بدراسة العصور القديمة المتأخّرة في الشرق الأدنى.



شكل (١-٧) أطلال مدخل الكنيسة رقم (١) في بنبركيليسي (القرن الخامس الميلادي) المُطلّ على حنية الكنيسة.

لكن هذا لم يكن كافيًا بالنسبة لـ«بيل». بل على العكس، فقد أثار ما حققته من إنجازات شهيتها للمزيد من المشاريع الطموحة وميادين الدراسة التي كانت لا تزال مبتدئة فيها حتّى هذه اللحظة. إضافة إلى ذلك، فقد استمالتها تلك الإنجازات أكثر فأكثر نحو الشرق؛ إلى بلاد الرافدين، حيثُ لم يسبقها سوى عدد قليل من الأوروبيين في السفر إلى هناك، بل وعدد أقل ممَن حرصوا على توثيق بقاياها الأثريّة. هذه الأرض التي كانت يومًا «مهد الحضارة»، أومأت إليها الآن، أمّا «بيل» فقد تاقت نفسها لرؤية أنهارها المتدفقة، وسهولها المتربة الفسيحة، وغزارة ما بها من أطلال تعود إلى فجر التاريخ.

هوامش الفصل الأول

(1) Geoffrey Tweedale, 'Bell, Sir (Isaac) Lowthian, first baronet (1816–1904)', Oxford Dictionary of National Biography (Oxford, 2004), available at http://www.oxforddnb.com.ezproxy.library.ubc.ca/view/article/30690 (accessed 29 July 2015).

(2) Ibid.; Janet Wallach, Desert Queen (New York, 1996), p. 7.

(3) Wallach, Desert Queen, p. 7.

(4) Tweedale, 'Bell'; Wallach, Desert Queen, p. 7.

(5) Julia M. Asher-Greve, 'Gertrude L. Bell (1868–1926)', in Getzel M. Cohen and Martha Sharp Joukowsky (eds), Breaking Ground: Pioneering Women Archaeologists (Ann Arbor, 2004), p. 145.

(6) Tweedale, 'Bell'.

(7) Wallach, Desert Queen, p. 7; Asher-Greve, 'Gertrude L. Bell', p. 145.

(8) Wallach, Desert Queen, p. 25; Asher-Greve, 'Gertrude L. Bell', p. 147.

(٩) نستطيع إعادة بناء جوانب كثيرة من رحلات «جيرترود بيل» الأولى من خلال رسائلها. كما يُمكننا أن نجد روايات جيدة لتجاربها في الخارج في أوروبا وفارس في:

H.V.F. Winstone, Gertrude Bell (London, 1978), pp. 22–31; Wallach, Desert Queen, pp. 26–37; Georgina Howell, Gertrude Bell: Queen of the Desert, Shaper of Nations (New York, 2006), pp. 42–59.

وتوفّر السيرة التي كتبتها «إليزابيث بيرجوين» Elizabeth Burgoyne بعنوان:

Gertrude Bell: From Her Personal Papers 1889–1914 (London, 1958)

خلفية نفيسة لرسائل «بيل» وكتاباتها الأخرى إبان رحلاتها الأولى.

(١٠) نجد وصفًا لطيش «بيل» فيما يتعلّق بتسلق الجبال في كتاب:

Wallach, Desert Queen, pp. 58–65; Howell, Queen of the Desert, pp. 74–93.

(١١) تقدم يوميات ورسائل «بيل» إلى أفراد أسرتها مصدرًا ثمينًا للمعلومات عن هذه الجولات في العالم. الجولة العالمية الثانية توثّقها كذلك صور فوتوغرافية التقطتها «بيل». انظر:

GB diaries and letters, December 1897–June 1898 and November 1902–July 1903; GB photographs, Albums RTW, vols 1–5, 1902–3, Gertrude Bell Archive.

(12) Wallach, Desert Queen, p. 32; Asher-Greve, 'Gertrude L. Bell', p. 150.

(13) Wallach, Desert Queen, pp. 32–7; Asher-Greve, 'Gertrude L. Bell', p. 151.

(14) Lady (Florence) Bell (ed.), The Letters of Gertrude Bell, vol. 1 (London, 1927), p. 29.

(15) Asher-Greve, 'Gertrude L. Bell', p. 151.

(١٦) تشهد فقرات عديدة في رسائل ويوميات «بيل» على ما بذلته من جهد لتعلّم اللغة العربية. انظر:

GB letters and diaries, December 1899–March 1900, Gertrude Bell Archive.

(١٧) انظر:

GB letters and diaries, March–June 1900 for the details of these journeys, as related by Bell herself, Gertrude Bell Archive.

(18) Gertrude Bell, The Desert and the Sown (London, 1907), reprint, with a new introduction by Rosemary O'Brien (New York, 2001), p. 1.

(١٩) عيّنت «بيل» ميخائيل وهو أحد مواطني القدس الذي سافر سابقًا بصحبة «مارك سايكس» Mark Sykes؛ طبّاخًا لديها. انظر:

Bell, Desert and the Sown, p. 3.

مع ذلك، حين شارفت رحلتها على النهاية، أثناء وجودها في سيسيليا في الأناضول، اختارت «بيل» فتوح؛ وهو أرمني من حلب، وسيستمر في العمل طبّاخًا لديها خلال الرحلات اللاحقة. انظر:

GB letter, 24 April 1905, Gertrude Bell Archive.

(20) Anonymous, Review of Gertrude L. Bell, 'The Desert and the Sown', The Academy (2 March 1907), p. 210.

(21) Anonymous, Review of Gertrude L. Bell, 'The Desert and the Sown', The Spectator (16 February 1907), p. 17.

(٢٢) المرجع السابق، ص 17.

(23) Bell, Desert and the Sown, pp. x, xiii and 228.

(24) Edward Said, Orientalism (New York, 1978), pp. 229–31; Bell, Desert and the Sown, pp. viii–ix; Andre'a Elizabeth Schnell, Gertrude Bell: An Orientalist in Context (MA thesis, McGill University, 2008), pp. 32–40.

(25) Bell, Desert and the Sown, p. xxi.

(26) Schnell, Gertrude Bell, p. 37; Billie Melman, Women's Orients: English Women and the Middle East, 1718–1918 (London, 1992), p. 9.

(27) Schnell, Gertrude Bell, p. 37; Melman, Women's Orients, pp. 308, 310 and 315.

(28) Bell, Desert and the Sown, pp. 160–8; 198–209.

(٢٩) المرجع السابق، ص 176.

(٣٠) المرجع السابق، ص 235.

(٣١) المرجع السابق، ص 238.

(٣٢) المرجع السابق، ص 241– 242.

(٣٣) المرجع السابق، ص 256.

كانت بعثة جامعة «برنستون» الأركيولوجية التي التقتها «بيل»، تحت قيادة «هاورد كروسبي بتلر» Howard Crosby Butler (1872– 1922). باشر «بتلر» العمل في ثلاث بعثات أركيولوجية إلى سوريا أثناء دراسته كطالب، ثمّ كعضو في جامعة «برنستون»: الأولى في العام 1899؛ والثانية بين العامين 1904 و1905 (التي قابل خلالها «بيل»)؛ والثالثة في العام 1909. وقد سافر بصحبة فريقه عبر شمال وجنوب سوريا، حيث قام الفريق بقياس أبعاد ورسم وتصوير المباني والنقوش والمنحوتات. وأجدر أعمال «بتلر» بالثناء هي اكتشافه وقيامه برسم خرائط وتصوير منطقة المُدن الميتة بالكتلة الكلسية في سوريا، التي تمتد بين نهري العاصي وعفرين. هنا ازدهرت الحياة الزراعية خلال العصرين الروماني والبيزنطي، وبلغت ذروتها إبان القرنين الخامس والسادس الميلاديين. وتشغل حرفيًا مئات «المدن الميتة» هذه المنطقة، وكانت تعيش على إنتاج زيت الزيتون الذي كانت تصدره إلى جميع أرجاء منطقة البحر المتوسط. كانت «بيل» على دراية بأعمال «بتلر» المتعلقة بالعمارة والفنون الأخرى (نيويورك، 1903). لقراءة سيرة مُختصرة لبتلر، انظر:

Butler: Catalogue of Photographs', Research Photographs of Princeton University (Princeton, 2015), available at www.princeton.edu/researchphotographs/archaeological-archives/butler/ (accessed 29 July 2015).

(34) Bell, Safar Nameh: Persian Pictures (London, 1894), p. 31.

(٣٥) رسالة «جيرترود بيل» إلى أمّها، 11 أبريل 1899، أرشيف «جيرترود بيل».

(٣٦) رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 6 ديسمبر 1899، أرشيف «جيرترود بيل».

(٣٧) رسالة «جيرترود بيل» إلى أمّها، 28 فبراير و3 مارس 1902، أرشيف «جيرترود بيل».

(٣٨) رسائل «جيرترود بيل» إلى أمّها، 6 و7 و8 مارس 1902، أرشيف «جيرترود بيل».

(٣٩) رسالتا «جيرترود بيل» إلى أمّها، 17 و19 مارس 1902. انظر أيضًا:

Asher-Greve, 'Gertrude L. Bell', pp. 164–5, and p. 191 endnotes 163 and 164.

حيث تُشير «أشر-جريف» إلى أنّ «بيل» اكتفت بمراقبة أعمال التنقيب الأثرية هذه، بدلًا من المشاركة الفعلية بها كما كان يفترض كُتّاب سيرة سابقون في أغلب الأحيان.

(٤٠) رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 29 مارس 1900، أرشيف «جيرترود بيل».

(٤١) رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 20 مايو 1900، أرشيف «جيرترود بيل».

(٤٢) رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 22 مايو 1900، أرشيف «جيرترود بيل».

(43) Bell, Desert and the Sown, p. 167.

(٤٤) لم تعرف «بيل» بهذا الأمر إلا عقب كتابة الفصل الخاص بهذه المنطقة بكتابها «الصحراء والزرع». انظر:

Bell, Desert and the Sown, p. 276 fn.

(٤٥) المرجع السابق، ص 278.

(46) Stephen L. Dyson, Euge'nie Sellers Strong (London, 2004), pp. 59 – 60; Aron Rodrigue, 'Totems, taboos, and Jews: Salomon Reinach and the politics of scholarship in fin- de-sie`cle France', Jewish Social Studies 10 (2004), p. 5.

(47) Dyson, Sellers Strong, p. 60; Rodrigue, 'Totems', p. 5.

(48) Claude Schaeffer, 'Salomon Reinach: Born 29 August 1859: Died 4 November, 1932', Man 33 (1933), p. 51.

نُشرت قائمة كاملة بأعمال «ريناخ» على هيئة كتاب. انظر:

Arthur E. Popham, Bibliographie de Salomon Reinach (Paris, 1936).

(٤٩) ثمة تضارب في كتابات «ريناخ» فيما يتعلّق بموعد لقائه مع «بيل» لأول مرّة. ففي نعيه لـ«بيل» الذي كتبه في العام 1926، يُشير «ريناخ» إلى أنّه التقى «بيل» في باريس أواخر العام 1905 حين جاءت إليه تحمل خطاب توصية من «أوجيني سترونج»، وكانت تملؤها اللهفة لتعرض عليه الصور الفوتوغرافية والرسومات التي رسمتها أثناء رحلتها إلى الشرق والأناضول. انظر:

S. Reinach, 'Gertrude Bell', Revue archeologique 24 (1926), p. 265.

أمّا في رسائل «بيل»، فيبدو واضحًا أنّها تعرّفت عليه قبلئذ بعام كامل، في نوفمبر العام 1904، وأنئذ دعاها لكتابة مقاربتها الخاصة حول قصر «المشتى» لدورية «ريفيو أركيولوجيك». مع ذلك، زارت «بيل» «ريناخ» مرتين اثنتين على الأقل خلال العام 1905، الأولى عبارة عن زيارة قصيرة في يناير والأخرى في أكتوبر، بعد أن عادت من رحلتها إلى الشرق الأدنى محمّلة بالصور الفوتوغرافية. ولا يسعنا إلا أن نفترض أن «ريناخ» نسي اللقاء الأول الذي جرى في العام 1904.

(50) Dyson, Sellers Strong, p. 89.

(٥١) المرجع السابق، ص 60 و99.

(٥٢) رسائل «جيرترود بيل» إلى أمّها، 7 و8 و10 و11 نوفمبر 1904، و24 أكتوبر 1905، أرشيف «جيرترود بيل».

(53) Pascale Linant de Bellefonds, 'Vogüé', (Charles-Jean-) Melchior de', Grove Art Online. Oxford Art Online (Oxford, 2007–15), available at www.oxfordartonline.

com.ezproxy.library.ubc.ca/subscriber/article/grove/art/T090069 (accessed 29 July 2015).

في الواقع، حاولت «بيل» زيارة «دي فوج» من دون أن تنجح، أثناء وجودها مع «رايناخ» في باريس؛ إذ لم يكن «دي فوج» موجودًا هناك آنذاك. انظر رسالة «جيرترود بيل» إلى أمّها في الثامن من نوفمبر العام 1904، أرشيف «جيرترود بيل». رغم ذلك، كانت «بيل» على دراية بأعماله ورحلاته في حوران ومنطقة المدن الميتة في سوريا؛ وهي المناطق ذاتها التي زارتها «بيل» في العام 1905 وأشارت إلى كُتُبه عنها. انظر:

Bell, Desert and the Sown, pp. 76, 125, 131, 244 and 297.

(54) Edouard Dhorme, 'Rene Dussaud (1868–1958)', Revue de l'histoire des religions 153 (1985), pp. 149–53.

تمكّنت «بيل» من لقاء «ديسو» الرحّالة السوري، خلال زيارة لـــ «رايناخ» في باريس بأكتوبر العام 1905، واستمتعت بـــ: «أعذب ساعة نقاش». انظر رسالة «جيرترود بيل» إلى أمّها في الرابع والعشرين من أكتوبر 1905، أرشيف «جيرترود بيل». ومثلما فعلت مع «دي فوج»، أعادت «بيل» تعقب بعض الخطوات التي اتخذها «ديسو» في سوريا، رغم أنّها كانت تأمل إضافة إلى ذلك في اكتشاف أماكن لم تسبق له زيارتها. انظر على سبيل المثال، رسالتي «جيرترود بيل» إلى أسرتها في السابع والثامن عشر من فبراير 1905، أرشيف «جيرترود بيل»، حيث أعربت عن اهتمامها بزيارة أحد المواقع التي لم يسبق أن اكتشفها أوروبي، لكنها تراجعت عن الذهاب إلى هناك بعد أن علمت بأنّ «ديسو» زاره. ولاحقًا، حين أشارت إلى رغبتها في زيارة نجد، كانت تحثّ نفسها على الاستعجال لأنّ «ديسو» كان يعتزم زيارتها أيضًا! انظر يوميات «جيرترود بيل»؛ الأول من مارس 1905، أرشيف «جيرترود بيل».

(55) Schaeffer, 'Salomon Reinach', p. 51.

انظر أيضًا: رسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، 8 نوفمبر 1904، أرشيف «جيرترود بيل»: «لا يفعل شيئًا سوى العمل- لا يخرج أو يحظى بإجازة إلا لكي يزور متحفًا بعيدًا. والنتيجة أنّه أصبح يعرف كل شيء.»

(٥٦) كتب «رايناخ» هذه الكلمات عن «بيل» إلى صديقتهما المشتركة «أوجيني سترونج». انظر:
Dyson, Sellers Strong, p. 89 (from the Girton College Archives: S. Reinach/ES 1905, note 53, p. 226).

(٥٧) رسالة «جيرترود بيل» إلى أمّها، 10 نوفمبر 1904، أرشيف «جيرترود بيل».

(58) Bruno Schulz and Josef Strzygowski, 'Mschatta', Jahrbuch der Koniglich Preussischen Kunstsammlungen 25 (1904), pp. 205–373.

(59) Gertrude L. Bell, Review of B. Schulz and J. Strzygowski, 'Machatta', in Revue archeologique 5 (1905), pp. 431–2.

(60) Gertrude L. Bell, Review of Karl Holzmann, 'Binbirkilise: Archaeologische Skizzen aus Anatolien. Ein Beitrag zur Kunstgeschichte des Christlichen Kirchenbaues', in Revue archeologique 7 (1906), pp. 219–20; G.L. Bell, 'Notes on a journey through Cilicia and Lycaonia', Revue archeologique 7 (1906), pp. 1–29, 385–414; 8 (1906), pp. 7–36, 225–52, 390–401; 9 (1907), pp. 18–30.

(61) Josef Strzygowski, Review of Gertrude L. Bell, 'Notes on a journey through Cilicia and Lykaonia' (in Revue arche'ologique 1906 and 1907), Byzantinische Zeitschrift 16 (1907), p. 381.

ترجمت «أشر – جريف» هذه الفقرة الفرنسية إلى اللغة الإنجليزيّة.

'Gertrude L. Bell', p. 167.

انظر أيضًا:

Maciej Szymaszek, 'Josef Strzygowski in the letters and diaries of Gertrude Lowthian Bell', in P.O. Scholz and M.A. Dlugosz (eds), Von Biala nach Wien: Josef Strzygowski und die Kunstwissenschaften zum 150. Geburtstag von Josef Strzygowski (Vienna, 2015), pp. 104–5.

(٦٢) انظر الهامش السابق رقم 60.

(٦٣) رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 16 مايو 1905، أرشيف «جيرترود بيل».

William M. Ramsay and Gertrude L. Bell, The Thousand and One Churches (London, 1909), reprint, with a new foreword by Robert G. Outsterhout and Mark P.C. Jackson (Philadelphia, 2008), p. ix; for a biographical sketch of Ramsay, see pp. xi–xiv.

(٦٤) رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 28 مايو 1907، أرشيف «جيرترود بيل».

Ramsay and Bell, Thousand and One Churches, p. 9; Mark P.C. Jackson, 'A critical examination of Gertrude Bell's contribution to archaeological research in central Asia Minor', in Charles Tripp and Paul Collins (eds), Gertrude Bell and Iraq – A Life and Legacy Conference Publication (London, in press).

(٦٥) مُشاركة «رامزي» موجودة بشكل رئيس في الجزءين الأول والرابع من كتاب «ألف كنيسة وكنيسة»، أمّا مُشاركة «بيل» فتشكّل الجزءين الثاني والثالث.

(66) Jackson, 'A critical examination'.

(67) Ramsay and Bell, Thousand and One Churches, pp. 13–15; Jackson, 'A critical examination'.

(68) Ramsay and Bell, Thousand and One Churches, pp. 298–302; Jackson, 'A critical examination'.

(٦٩) المرجع السابق.

(70) Ramsay and Bell, Thousand and One Churches, p. x.

(71) Robert G. Ousterhout, John Henry Haynes: A Photographer and Archaeologist in the Ottoman Empire 1881–1900 (Hawick, 2011).

(72) Ramsay and Bell, Thousand and One Churches, p. x; John Winter Crowfoot, 'I. Binbirkilise (Madenschehr)', in J. Strzygowski, Kleinasien. Ein Neuland der Kunstgeschichte (Leipzig, 1903), p. 2; Jackson, 'A critical examination'.
يذكر «جاكسون» مكتشفين أقدم انتبهوا إلى تآكل الآثار القائمة.

-

الفصـــل الثـاني

رحلـة الفرات

داخل ممر مُظلم مُقنطر ببازار صاخب في مدينة حلب، اشترى فتوح خادم «بيل» حبلاً من أحد أصحاب الدكاكين. كانت لفيفة الحبال مُعدّة للرحلة الطويلة التي كانت على وشك الانطلاق، ووسط تشجيع المارّة و«بيل» نفسها ممّن احتشدوا حول المتجر، جاهد فتوح للحصول على اللفيفة بأرخص سعر. يستحضر المشهد على نحو رائع حالة الترقّب والانفعال التي سادت في مستهل السفر لاستكشاف الشرق الأدنى، أضف إلى ذلك أنّ خلفية المشهد داخل السوق العتيق المُغطّى- الّذي تستطيع «بيل» أن ترى من خلالها الشّمس ترمي بأشعتها على قلعة حلب التي تضرب بجذورها بعيدًا في التاريخ- أضفت إحساسًا بالخلود، حيث امتزج الماضي مع الحاضر بسهولة تامّة. فربّما نستطيع أن نتخيّل عملية المساومة على سعر لفيفة الحبال تتكرر المرّة تلو الأخرى على مدى مئات السنوات داخل البازار العتيق.

هكذا هو المشهد الّذي ترسمه «بيل» لقرائها في الصفحات الأولى من كتابها الّذي ينتمي لأدب الرحلات «من سلطان إلى سلطان»(*)، وهو سرد لأحداث بعثتها الاستكشافيّة الطويلة إلى نهر الفرات وداخل أراضي بلاد الرافدين خلال الشهور الأولى من العام 1909[1]. يستمر المبحث الّذي تقدّمه «بيل» بلغة شديدة الشاعرية في تلك الصفحات الأولى؛ عن امتزاج الماضي والحاضر معًا، عبر تسجيلها للرحلة بأكملها الّذي ينقل القارئ بين لقاءاتها مع بشر وبلدات ومناظر مُعاصرة بالشرق الأدنى، وبين تواريخهم الثرية الزّاخرة بالأحداث الجسام. فكانت حلب؛ وهي مدينة «تدفع المرء إلى الماضي

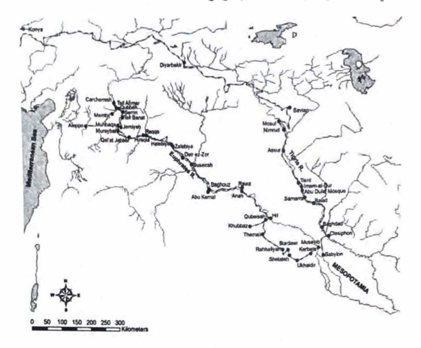
(*) العنوان الأصلي للكتاب هو Amurath to Amurath ويعني حرفيًا «من مُراد إلى مُراد»، ومُراد هو الاسم الّذي اشتهر به سلاطين الدولة العثمانيّة في العالم الغربي، نسبة إلى مُراد الأول ثالث حكّام الدول العثمانيّة وأول من تلقّب بلقب سلطان والمؤسس الفعلي للإمبراطورية العثمانيّة. [المترجم]

بسهولة» ببازاراتها وجدرانها ومساجدها العتيقة، بقعة مثالية لبدء الحكي عن هذه الرحلة الفريدة، التي تحتفي فيها الكاتبة وتصف التاريخي والآني وما يقع هُنا[٢].

لقد جعلت أسفار «بيل» الممتدة في الشرق الأدنى؛ لاسيما تلك التي كانت في فلسطين وسوريا والأناضول خلال العام 1905، وبعثتها الأحدث إلى الأناضول في العام 1907، منها رحّالة متمرِّسة؛ إذ تمرّنت جيدًا على الحياة في الطريق- بل كانت تستمتع بها في الحقيقة-وركوب الخيل كل يوم، وتناول طعام طبخه فتوح على نار كان يشعلها في العراء، والنوم داخل خيمة بسيطة. ويسّر لها إتقانها اللغتين العربية والتركية التفاعل مع السكان المحليين والموظفين الأتراك وحاشيتها من الأدلّة والحرس والمُكارين. كما أضفى ما لديها من مهارة وخبرة آمانًا وفاعلية لحدّ كبير على أسفارها، إضافة إلى أنّها كانت في الغالب تشق طريقها بين أماكن مأنوسة ونائية في آن واحد، بفرحة وحماس للطريق أظهرا روحها المُحبّة للسفر. وبحلول العام 1909، صارت «بيل» تحيط بالتاريخ وتتفهمه جيدًا؛ بحيث باتت أصداؤه تتردد أمامها بقوّة أينما ذهبت في الشرق الأدنى. كانت ولهة بالتاريخ وعلم الآثار لحدّ صارا معه الآن يتصدران اهتمامتها، وأضحت الغاية من المدن والحواضر التي تزورها والمسار الّذي وضعته، هو تمكينها من الاتّصال بالأماكن الأثريّة وتسجيل معالمها والتأريخ لقصص حُكّامها الأسطوريين الّذين غزوا معاقلها يومًا، وسكنوا قاعاتها الشامخة.

لقد اتّضح أنّ اختيار المسار الّذي وضعته «بيل» لرحلتها في الشرق الأدنى خلال العام 1909؛ الّذي بدأ من الضفة الشرقيّة لنهر الفرات في شمال سوريا إلى جنوب بلاد الرافدين (جنوب العراق)، قبل أن ينعطف شمالا ويُحاذي نهر دجلة وصولاً إلى الأناضول (انظر شكل ٢-١)، كان خاضعًا لاعتباراتها الأركيولوجيّة التي ائتلفت على نحوٍ رائع مع ولعها بالسفر إلى مطارح نائيّة لم يتردد عليها الرحّالة .الأوروبيون الآخرون إلا في القليل النادر. فحتّى أوائل القرن العشرين لم يكن أغلب مسارها المُقترح قد وطئته أقدام الأوربيين، ولم يتجاوز ما دوِّن عن جغرافيته وسكانه ومستوطناته

بعض انطباعات خاطفة. ولقد دعمت حقيقة أنّها على وشك اقتحام مناطق عُرِفت بثراء ووفرة ما تضمّه من آثار، لكن لم تزل غير موثّقة بالشكل الكافي، طبيعة رحلتها الاستكشافيّة والرائدة.



شكل (٢-١) خارطة رحلة «بيل» في الشرق الأدنى خلال العام 1909، تكشف مسارها بمحاذاة الضفة الشرقيّة لنهر الفرات، ورحلتها القصيرة إلى الأخيضر، ورحلتها عبر بلاد الرافدين والأناضول.

وعلى أي حال، كانت دراسة «بيل» للبقايا الأثريّة التي تعتزم زيارتها خلال هذه البعثةِ تحفّها تحديات؛ ذلك أنّه كانت توجد قطع أثرية يعود تاريخها إلى العصور القديمة المتأخّرة، وهي فترة كانت «بيل»على دراية عظيمة بها اكتسبتها من خلال أبحاثها السابقة في الأناضول، إضافة إلى قطع أخرى

تنتمي لعصور أسبق وأخرى لاحقة. كان وادي نهر الفرات ومناطق بلاد الرافدين التي تعتزم زيارتها أماكن ثرية بالثقافات ما قبل الكلاسيكيّة، ويرجع بعضها إلى فترات ما قبل التّاريخ منذ حوالي خمسة آلاف عام تقريبًا. وفي ذات الوقت، كانت على وشك أن تخوض مغامرة عبر مناطق عضدت الثقافات الإسلاميّة الغنية التي جاءت بعد العصور القديمة المتأخّرة، ومعها ستسنح لها الفرصة لتعقّب الأشكال الفنيّة والمعماريّة من خلال تجلياتها اللاحقة، وتحديد لأي درجة قبلت أو نبذت أو مسخت تلك الأشكال، الأشكال الكلاسيكيّة الأسبق. وإجمالا، ستكشف الرحلة لـــ«بيل» عن مأدبة منوّعة ودسمة على نحو يفوق الخيال من البقايا الأثريّة التي كانت تشهد على حيوات وثقافات من عاشوا بها منذ آلاف السنوات، وسيلزمها إصرار ودأب راسخين على الاحتفاظ بسجل تدوّن فيه بدقة شديدة تفاصيل كل ما تصادفه، فضلاً عن تصويره. علاوة على ذلك، ستخضع قدراتها العلميّة للاختبار من خلال الأبحاث الإضافية التي ينبغي عليها أن تجريها عند نهاية الرحلة وخلال رجوعها إلى إنجلترا لفهم تواريخ وأهمية تلك البقايا.

عوامل تأثير

لم تنفرد أهداف وطموحات «بيل» وحدها بتحديد مسار رحلة الفرات؛ ذلك أنّها طلبت المشورة من أصدقاء وزملاء مبجلين كانوا على دراية بالمناطق التي تزمع المرور بها، وتلقّت منهم نصحًا وتشجيعًا وإلهامًا. وينبغي أن نذكر منهم اثنين على وجه الخصوص بسبب ما لهم من تأثير على رحلتها خلال العام 1909؛ إذ أتاحا لها الإرشاد الأوسع تفصيلاً عن المناطق المحددة التي ستسافر عبرها، ووفرا لها خلفية علمية مهمة عن الثقافات التي كان من المُرجّح أن تُصادفها. كما كان لهذين الشخصين أيضًا أثرٌ على

مقاربتها المنهجيّة للبقايا الأثرية التي عثرت عليها، وعلى التركيز الّذي سلّطته على آثار بعينها وعلى تأويلها.

ديفيد هوجارث

من بين جميع زملائها البريطانيين في حقل الآثار، لم يُزاحم أحدٌ منهم «ديفيد جورج هوجارث» (1862– 1927) (انظر شكل ٢-٢) في مكانته البارزة بحياة «بيل» الأثريّة؛ إذْ كان عالم آثار وجغرافيا بارعًا، ومؤلّفًا مرموقًا لم يقتصر ما لديه من خبرة واسعة على بلدان العالم القديم فحسب، بل امتدت لتشمل مناطق وشعوب الشرق الأدنى ومصر. ولأنّ بيل كانت على اطّلاع واسع وتحمل احترامًا كبيرًا لأعمال «هوجارث» إبّان العام 1909؛ فإنّ تقديم استعراض سريع لحياته وإنجازاته أمرٌ جائزٌ هنا، وبخاصة لتعيين جوانب نشاطاته ومعارفه التي كان لها أبلغ الأثر على دراسات «بيل» آنذاك.

كانت أول جهة يسافر إليها «هوجارث» بعد أن تخرّج من أوكسفورد في العام 1885 هي اليونان ثم الأناضول، حيثُ انضم إلى «وليام مينتشيل رامزي»؛ العالم الشهير المختص بدراسات العصر الكلاسيكي والعصور المسيحيّة الأولى بجامعة أوكسفورد (الّذي ستجمعه مع «بيل» نفسها صداقة قويّة في نهاية المطاف)[3]. شحذت تلك الرحلات مِران «هوجارث» في حقل الآثار الكلاسيكيّة؛ لاسيّما مهاراته المتعلّقة بقراءة النقوش والكتابات، والتي كانت تنطوي في جالته على تحديد موقع وأبعاد ورسم الخرائط ونسخ ما لا يُحصى من النقوش الأثريّة في تلال ووديان إقليم الأناضول الوعر[4]. وقد اكتسب «هوجارث» أولى خبراته في مجال التنقيب فوق جزيرة قبرص، بعدها قام بالتنقيب في مصر واليونان وكريت، وعمل أثناء ذلك مع علماء

آثار بارزين آخرين من أمثال «فلندرز بتري» Flinders Petrie و«إدوارد نافيل» Édouard Naville و«أرثر إيفانز»Arthur Evans[٥]. ثمّ أعادته أبحاثه الأثريّة مرّة أخرى في نهاية الأمر إلى الأناضول، حيثُ قام بالتنقيب في موقع أفسس (1904– 1905)، وأخيرًا إلى شمال سوريا حيثُ أشرف على التنقيبات التي كان يُجريها المتحف البريطاني في كركميش (جرابلس) على نهر الفرات بدءًا من العام 1911[٦]. وفي إنجلترا، لم يكن «هوجارث» أقل انشغالًا؛ إذْ تولّى منصب أمين المتحف «الأشمولي» بأوكسفورد في العام 1908، وسيظل محتفظًا بهذا المنصب الرفيع حتّى وفاته عام 1927[٧].

تشمل إصدارات «هوجارث» العلميّة الغزيرة تقاريرًا عن تنقيباته الأثريّة وسردًا نابضًا بالحياة لأسفاره التي قام بها إلى مناطق كقبرص ومصر والأناضول. أمّا كُتبه الأخرى فشملت ملاحظات واعية حول السكّان المُحدثين في البلدان التي مرّ بها؛ ثقافاتهم ولغاتهم وأديانهم وميولهم السياسيّة[٨]. رصد «هوجارث» أيضًا جغرافيا المناطق التي سافر إليها، ودوّن ملاحظات دقيقة عن تضاريسها ومناخها، إلى جانب أفكاره عن مدى تأثير تلك السمات على ثقافات الشعوب التي عاشت هُناك، سواء في الماضي أم في الحاضر[٩].

كان لـــ«هوجارث» ولع خاص برحلات الاستكشاف العلميّة، ويرجع هذا في جزء منه لانجذابه منذ عهد بعيد للأسكندر الأكبر و«عالم الشرق الرّحب» الّذي تنقّل هذا الرجل الاستثنائي بين جنباته[١٠]. وقد كتب «هوجارث» عن غزوات الأسكندر ووصفها بأنّها «حفّزت خيالي وأثارت شهوة الاكتشاف»[١١]. فقادته «نزعة المستكشف» إلى بقاع عديدة في الأناضول وسوريا نادرًا ما تردد عليها زائرون أوروبيون، وعززت اهتمامه

بشبه الجزيرة العربيّة التي ظلّت منطقة غير مُستطلعة إلى حدّ كبير، وغير مفهومة بعض الشيء بالشرق الأدنى. لكن ما يُثير الدّهشة هو أنّ «هوجارث» لم يسافر في الواقع قط إلى الجزيرة العربيّة حتّى العام 1916- ولم يكن آنئذ إلا موظفاً عسكريًا- ومع ذلك فقد اكتسب قدرًا عظيمًا من المعرفة عن جغرافيتها وتاريخها وشعوبها من خلال العديد من الكُتب[١٢]. فقد عرض كتابه الّذي أصدره في العام 1904 بعنوان: «اختراق الجزيرة العربيّة: سجل لتطور معرفة الغرب بشبه الجزيرة العربيّة»، لتاريخ تلك المنطقة وجغرافيتها، وقدّم دراسة مفصّلة عن الرحّالة الأوروبيين الّذين غامروا بالسفر إلى هناك حتّى القرن التاسع عشر. وقد عرض بإسهاب في كتابه لأسفار الرحّالة الجسور «تشارلز مونتاكو داوتي» Charles Montagu Doughty (1843- 1926)؛ وهو رحّالة بارز اشتهر بأسفاره للمناطق العربيّة، وسيعود «هوجارث» لهذا الموضوع مرّة أخرى في نهاية حياته حين يكتب سيرة «داوتي»[١٣]. لكن رغم أنّ الرحلات الحديثة والظروف الراهنة في الجزيرة العربية هما ما كانا يشغلان «هوجارث» بشكل رئيس في كتابه «اختراق الجزيرة العربيّة»، فإنه لم يغفل الموضوعات المتّصلة بالآثار؛ كما برهنت دراسته عن النقوش الرومانية وما قبل الرومانيّة في تايمة وطُرقات بترا العتيقة ومدينة جرهاء(*) وسبأ وخارطة بطليموس لشبه الجزيرة[١٤].

(*) هي مدينة جرّه Gerra كما سمّها الإغريق والرومان، وكانت تقع في السهل الساحلي الممتد من القطيف شمالاً، وحتّى أقصى جنوب واحة الأحساء، ويذهب بعض المؤرخين الإغريق إلى أنّها كانت أغنى الولايات العربية في شبه الجزيرة العربية والهلال الخصيب. [المُترجم]



شكل (٢-٢) «ديفيد هوجارث»- الرّحالة وعالم الآثار والمؤلِّف والسياسي- في منتصف الصورة مع «توماس إدوارد لورنس» (جهة اليسار)، و«آلان دوناي» (جهة اليمين). كان هوجارث مصدر إلهامٍ وتشجيع لـــ«بيل» إبّان رحلاتها الأولى إلى الشرق الأدنى، وقد استمرّ تعاونهما خلال السنوات التي شهدت الحرب العالمية الأولى وما بعدها، وذلك حين عملا معًا كموفدين سياسيين لبريطانيا في الشرق الأدنى.

نستطيع أن نضع «بيل» بين قُرّاء كتاب «اختراق الجزيرة العربيّة» الكثيرين ممَن حفّز خيالهم ترقّب استكشاف هذه الصحاري الواسعة بالشرق الأدنى، كما حفّزت خيالها المناطق الأخرى التي سافر إليها «هوجارث». لكن معرفة «بيل» بـ«هوجارث» تجاوزت كتاباته كما سبق أن أوضحت؛ ذلك لأنّنا نعرف أنّه قابلته من خلال شقيقته الصغرى «جانيت»؛ صديقتها منذ أيام جامعة أوكسفورد في أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر، وتُشير رسائلها إلى أنها صادفت «هوجارث» بالعديد من المناسبات أثناء رحلاتها عبر أوروبا؛ ومن بينها رحلتها إلى أثينا في العام 1898، وقت أن كان مديرًا للمعهد البريطاني في أثينا ويعمل في التنقيب بموقع «فيلاكوبي» على جزيرة «ميلوس»[١٥]. وكما شغفت «بيل» بالفرصة التي سنحت لها لترى وتتحسس بعض الآنية الفخارية التي اُكتشفت في ذلك الموقع، كذلك نحن؛ إذْ يُمكننا أن نحسب لـ«هوجارث» أنّه هو من غرس بعض بذور اهتمامها الأول بعلم الآثار[١٦].

خلال الأعوام التالية، استرعت انتباه «هوجارث» رحلات «بيل» في الشرق الأدنى؛ لاسيما رحلتها إلى حوران في شمال الأردن وجنوب سوريا التي قامت بها خلال العام 1905؛ حيثُ عبّر عن شكره لها على ما تبذله من مساع، وذلك خلال مُحاضرة عن استكشاف الشرق الأدنى ألقاها على مسامع أعضاء الجمعية الجغرافية الملكيّة في لندن في نوفمبر العام 1908[١٧]. إنّ تلك العلاقة الشخصية التي استمرّت تربط بين الاثنين يُظهرها طلب «هوجارث» من قبل قيامها بالسفر إلى الشرق الأدنى في العام 1909، أن تتجه إلى موقع «تل أحمر» على الضفة اليُسرى لنهر الفرات في سوريا؛ كي تُعيد نسخ النقوش الحثية بعد أن أخفق في نسخ النقوش الموجودة فوق تلك الحجارة[١٨]. ونحنُ نعرف من رسائل «بيل» أنّها زارت «هوجارث» في أوكسفورد بعد انتهاء رحلتها إلى بلاد الرافدين، كي تنقل له تفاصيل

زيارتها إلى «تل أحمر» وتعطيه نُسخ النقوش والصور الفوتوغرافيّة. وقد ظهرت بعض تلك المواد لاحقًا في مقال «هوجارث» المنشور عن كركميش والمواقع الأثرية المُحيطة بها، وبالتالي لابد أنّ ننسب لـــ«بيل» فضل ما كان فيها من وضوح وثراء بالمعلومات[١٩].

اتضح تمامًا أنّ «بيل» تُشاطر «هوجارث» حُبّه للاستكشاف؛ كما بيّنت رحلاتها الأولى في الشرق الأدنى التي حادت عن المسارات التي تردد عليها الأوروبيون السابقون. كما قد يستطيع المرء أن يكتشف أنّها؛ مثل «هوجارث»، كانت تحمل افتتانًا مُشابهًا بالجزيرة العربيّة بسبب طبيعتها المجهولة. إذْ يبدو أنّ منطقة وسط نجد بالجزيرة العربيّة على وجه التحديد قد استمالت «بيل»، وتضم هذه المنطقة الربع الخالي الّذي لم يعبره أي أوروبي[٢٠]. اقترن مع ذلك فضولها المتجدد تجاه آل رشيد؛ وهي عائلة عربيّة بشمال نجد استقرّت في مدينة حائل، إذْ كانت حريصة على متابعة كل ما يجري للأمير بن رشيد منذُ رحلاتها الأولى إلى سوريا في العام 1900[٢١]، وظلّت تُخفي افتتانها بهذه الشخصيّة المراوغة إلى أن أظهرته في النهاية برحلتها الجريئة إلى عاصمته في مدينة حائل العام 1914. وسيذكر «هوجارث» تفاصيل هذه الرحلة التي حفّتها المخاطر في نعيه لـــ«بيل» العام 1926، لافتًا الأنظار إلى أنّها كانت ثاني امرأة أوروبيّة؛ بعد السيدة «آن بلنت»(*)، تزور نجد[٢٢].

كانت «بيل» قد اختارت مسارًا لرحلتها في الشرق الأدنى في العام 1909، ينطوي على مجازفة أقل لحدّ بعيد من صحراء نجد القاحلة التي

(*) مستكشفة إنجليزيّة صاحبة كتاب «حج إلى نجد» و «قبائل بدو الفرات»، وهي زوجة «ولفرد سكاون بلنت» مؤلّف كتاب «التاريخ السرّي للاحتلال البريطاني لمصر». توفيت في القاهرة في ديسمبر من العام 1917 عن عمرٍ يناهز الثمانين عامًا. [المُترجم]

ستقصدها بعد خمس سنوات، لكنّه لا يزال يضم نوع الاستكشاف نفسه الذي كان يُجيزه «هوجارث». ذلك لأنّه كان قد سبق أن لاحظ؛ في مقال منشور، وجود قطاعات بوادي نهر الفرات تقتضي مزيدًا من التمعّن، ويُمكننا أن نخمّن أنّ أجزاءً من مسار رحلتها في العام 1909 كانت تستهدف تلك المناطق. وكما سبقت الإشارة، فإنّ زيارة «بيل» إلى موقع تل أحمر جنوب كركميش كانت دون ريب بناءً على طلب خاص من «هوجارث». ويبدو أنّ طريقها البرّي الّذي سلكته من حلب إلى نهر الفرات، ورحلاتها الأخرى بمحاذاة الضفّة اليُسرى للنهر بدءًا من «تل أحمر» إلى مدينة «عنه»(*)، كانت في جزء منها استجابة لملاحظة أبداها «هوجارث»- إلى جانب نصيحة «برنهارد موريتز» Bernhard Moritz (انظر الفصل الثالث)- مفادها أنّ تلك المناطق نادرًا ما وطئتها أقدام المستكشفين منذ بعثة «تشسني» قبل سبعين عامًا، لكنّها تبدلت كثيرًا الآن حيثُ انتشرت القرى الزراعيّة في أماكن لم يكن فيها من قبل سوى القليل من العرب الرُحّل[٢٣]، وأنّ ثمّة الكثير من البقاع الجديد التي يجب إضافتها إلى الخارطة[٢٤].

إلى جانب تأثير «هوجارث» في اختيار «بيل» لمسار رحلاتها، لعلنا نفطن إلى تأثيره على أسلوبها في الكتابة عن تلك الرحلات. ففي كتابها «من سلطان إلى سلطان»، تقدّم «بيل» معلومات غزيرة عن الأوضاع الحالية التي تعيش فيها المناطق التي مرّت بها؛ بما في ذلك أسماء القرى والبلدات الموجودة، إضافة إلى المجموعات القبلية ومراعيها وآرائها السياسيّة وأسماء شيوخها، متبعة في ذلك ميل «هوجارث» إلى وصف الأحوال الراهنة في قصص رحلاته[٢٥]. كذلك استهوت الجغرافيا التاريخيّة هي الأخرى «بيل»

(*) مدينة عراقية قديمة تبعد عن المدينة الحديثة عشرة كيلومترات، وتقع على ضفاف نهر الفرات في محافظة الأنبار غرب مدينة الرمادي. يُكتب اسمها عنه، ويُلفظ عانة. [المترجم]

بدرجة كبيرة؛ فأبحاثها تشهد على ما بذلته من جهد في تحديد أماكن أطلال مواقع الاستيطان القديمة، وعلى مساعيها التالية لفهم أسمائها العتيقة، وتحديد طُرق القوافل والمسارات العسكريّة ومعابر الأنهار القديمة. مثل هذه الدراسات كانت تتطلب في الغالب الرجوع للجغرافيين والمؤرخين المتخصصين في العصور ما قبل الحديثة، الّذين أطلعوها على أسماء المناطق التي زارتها ومعلومات عنها. ثمّة إشارات إلى ذلك يُصادفها القارئ متناثرة هُنا وهناك في أعمال «بيل» المنشورة؛ ففي كتابها «من سلطان إلى سلطان» على سبيل المثال، يتعرّض القراء لسيل عارم من المعلومات التي استخرجتها من مؤلفين كلاسيكيين من أمثال «أميانوس مارسيليانوس»[٢٦] و«زينوفون»[٢٧] و«اسطرابون»[٢٨] و«لوتشيان»[٢٩] و«بطليموس»[٣٠]، ومن كُتب قديمة مثل «اللوحة البويتينغرية»[٣١] والرحلة الأنطونيّة[٣٢] والمحطات الفرثيّة لا يزيدور الكرخي[٣٣]. ولم تغفل المؤرخين والجغرافيين العرب كابن خردانبة[٣٤] والإصطخري[٣٥] وابن جبير[٣٦] وياقوت[٣٧] وأبو الفداء[٣٨]، الّذين أعانوها أيضًا في تعيين مستوطنات العصور ما قبل الحديثة، ومواضع المسارات والمعابر الأقدم، والأماكن والمعالم الأخرى ذات الأهمية التاريخيّة. وعلى الرغم من أنّه قد تبيّن بعدئذ خطأ[٣٩] بعض مواقع الأماكن الأثرية التي اقترحتها «بيل» بناءً على تلك الدراسات الجغرافيّة التاريخيّة، فإن منهجها في التحقيق كان يُطاول على نحو جوهري دراسات «هوجارث» الجغرافيّة، ورجوعه المُشابه للمؤلفين القدامى[٤٠].

ثمّة إشارة أخيرة عن تأثير «هوجارث» على «بيل»، هي اهتمام الأخيرة لا بآثار الفترات الإغريقيّة والرومانيّة القديمة فحسب، بل بالآثار التي تعود للعصرين البرونزي والحديدي الأسبقين. ذلك أنّ «بيل» لم تتردد في تقدير تاريخ ووظيفة العديد من المعالم والتلال الأثريّة التي تنتمي للعصر ما قبل القديم، وكانت تحرص على الإشارة إلى ذلك بتفصيل شديد. كان هذا

انعكاسًا لاهتمامات «هوجارث» الخاصّة التي رغم تجذّرها داخل العالم الكلاسيكي، فإنها حادت من خلال رحلاته ودراساته في وسط الأناضول وشمال سوريا إلى عصور تاريخية أقدم. هكذا استحوذ الحثيون بوجهٍ خاص على تفكيره. ونشهد في «بيل» فضولاً واهتمامًا متزايدين بالحضارة ما قبل الكلاسيكيّة مع توغله أثناء رحلة العام 1909 إلى بلاد الرافدين، وقد بلغا ذروتهما في تقاريرها الحماسية والمستفيضة عن اثنين من أشهر المواقع الأثريّة بالمنطقة؛ وهما بابل وآشور.

لحدٍّ كبير، لم تتوقّف علاقة «هوجارث» بــ«جيرترود بيل» عند اهتمامهما العلمي المُشترك بالشرق الأدنى؛ سواء ماضيه أو حاضره. فشأن «بيل»، لعب «هوجارث» دورًا مهمًا في الشئون العربيّة خلال الحرب العالميّة الأولى؛ حيثُ عُين في العام 1915 بسبب معرفته الواسعة بجغرافيا وشعوب الشرق الأدنى، مُديرًا لما عُرِف بالمكتب العربي بقطاع الاستخبارات البحريّة البريطانيّة في القاهرة، الّذي يجمع لكبار صنّاع السياسة معلومات حيويّة عن حركات وولاءات الجماعات العربيّة في الجزيرة العربيّة وفلسطين وسوريا وبلاد الرافدين وتحالفهم المُحتمل مع بريطانيا[٤١]. كان «هوجارث» مسئولا عن تجنيد واحد من صنائعه الأركيولوجيين من عمليات التنقيب في كركميش؛ وهو «توماس إدوارد لورنس»، للاتصال بالقيادة العربيّة في الحجاز، وهو ما أفضى في نهاية الأمر إلى الدور الرئيس الذي لعبه لورنس في الثورة العربيّة الكُبرى[٤٢]. كذلك دعا «هوجارث»«بيل» بصفته مُديرًا للمكتب العربي، كي تلتحق بالمكتب في العام 1915، وهو الإجراء الّذي كان إيذانًا بانطلاق عملها الأسطوري في الشئون البريطانية–العربية وشئون العراق السياسيّة[٤٣]. وسيثني «توماس إدوارد لورنس» لاحقًا على «هوجارث» بسبب معارفه العظيمة وحكمته الدقيقة[٤٤]، وما من شك في أنّ

مديح «جيرترود بيل» ما كان ليقل بأي حال من الأحوال عن ثناء «لورنس» على «هوجارث»؛ نظرًا لقوة تأثيره على رحلاتها ومساعيها الأثريّة وأنشطتها السياسيّة.

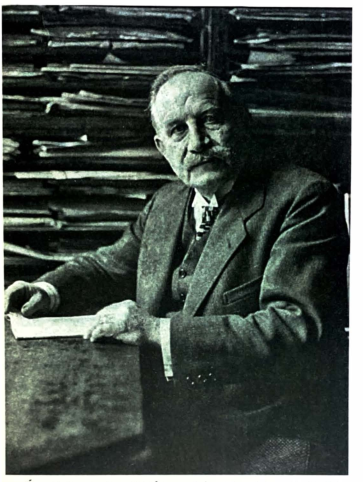
جوزيف سترزيجوفسكي

لا يُمكن استكمال النقاش عن اهتمامات «بيل» الأثرية بشكل صحيح، دون أن نُقرّ بالدور الّذي لعبه مصدر إلهام ومعرفة آخر حول الشّرق الأدنى؛ وهو العالم الألماني«جوزيف سترزيجوفسكي» الّذي سبق أن أشرت إليه في الفصل الأول (انظر شكل ٢-٣). إذْ كان «سترزيجوفسكي» صاحب تأثير خاص فيما يتعلّق بأبحاث «بيل» عن الفن والعمارة بالفترتين البيزنطيّة والإسلاميّة الأولى، وقد اقتدت بقوّة بمنهجه العلمي في أعمالها المكتوبة.

وُلِد «سترزيجوفسكي» في ظل ظروف متواضعة بالعام 1862؛ إذْ كان ابنًا لأحد أصحاب مصانع الأقمشة في سيليزيا بالنمسا، فكان هدفًا للكثير من التحامل داخل البيئة الأكاديميّة، وأُعتبر غريبًا داخل دوائر النخبة العلميّة الألمانيّة في أواخر القرن التّاسع عشر، وبالتالي ربّما تكون مثل هذه العوامل قد شكّلت شخصيته العنيفة والمتمرّدة[٤٥]. عارض الآراء التقليديّة حول الفن وسعى إلى إسقاط الجيل الأكبر من الأكاديميين الألمان ضيقي الأفق، ممَن كان يتصوّر أنّهم حظوا بأولويّة وشأن رفيع لا يستحقونهما في دراسات العصر الكلاسيكي؛ واللغات القديمة بخاصّة، على حساب حقول دراسة العالم القديم المهمّة الأخرى. وخلال العام 1909 الّذي شهد انطلاق «بيل» إلى أولى رحلاتها إلى بلاد الرافدين، تولّى «سترزيجوفسكي» منصب أستاذ تاريخ الفنّ في جامعة فيينا، وظل يحتله حتّى تقاعد في العام 1934 (توفّي في العام 1941)[٤٦].

انصبّت خبرة واهتمامات «سترزيجوفسكي» إلى الثقافات والبلدان القديمة التي تقع خارج الإطار الثقافي لروما، فنشر على مدار مسيرته المهنيّة كمًّا هائلا من المقالات والمراجعات والبحوث عن الفن والعمارة في أرمينيا وعن الآثار البيزنطيّة والسلافية والصربيّة والجرمانية والقبطية، والأهم، آثار الشرق الأدنى(٤٧). وقد انصب تركيزه في المقام الأول على الفترات الهلينيستيّة والبيزنطيّة والإسلامية الأولى في الشرق الأدنى، فاكتسب خبرة فريدة عن الثقافة المادية في تلك العصور. ومع تقدّم أبحاثه، كان يتحرر شيئًا فشيئًا من أوهام الفكرة التقليديّة التي تقول بأنّ العالم القديم؛ لاسيما روما، كان منبع سائر الفنون الغربيّة العظيمة؛ وهو الاعتقاد الّذي كان لا يزال سائدًا بين مُعاصريه. فكان يرى – على نقيض تلك الفكرة – أنّ الشرق– الّذي كان يعني به الشرق الأدنى– كان معينًا لعدد هائل من التطورات الهامّة التي امتدت إلى الغرب، وأثّرت في النهاية على تطوّر الفن والعمارة الأوروبيين في القرون الوسطى(٤٨).

أولى منهج «سترزيجوفسكي» التحليلي أهمية كُبرى لأسلوب وشكل الفن والعمارة؛ ذلك لأنّه كان يصف تلك الخصائص الشكلية بدقّة، ثمّ يُقارنها بما في المواقع الأخرى التي تُظهر سمات مُشابهة مورفولوجيًّا، حيثُ تُشير تلك التشابهات إلى وجود مسار من الانتشار الثقافي، الّذي نشهد وفقًا له انتقال الخصائص الشكليّة لأسلوب فنّي ما أو خاصية معمارية مُعيّنة من المنبع، عبر الزمان والمكان. وفي الغالب كان هذا التحليل الشكلي المُقارن يُجرى على حساب المصادر والنقوش النصيّة التي يُمكنها إتاحة سياق تاريخي(٤٩). ومع ذلك، كان «سترزيجوفسكي» يرى أن القطع الأثريّة Artifacts هي الوسيلة الوحيدة للدخول إلى العوالم ما قبل التاريخيّة أو الثقافات الأمية الحصينة الأخرى؛ حيثُ لا توجد نقوش أو معالم تدل على حياة العاديين اليوميّة. وبالتالي، كان يُحاجج قائلاً إنه في الوقت الّذي كانت فيه: «الكتابة حرفة النخبة، عكست الحركات الفنيّة (والأدوات التي أُنتجتها) حياة الناس الحقيقيّة بصورة أشدّ قربًا»(٥٠).



شكل (٢-٣) «جوزيف سترزيجوفسكي»؛ مؤرّخ الفنون النمساوي البولندي الّذي دافع عن الشرق الأدنى القديم في مُقابل روما، باعتباره- أي الشرق الأدنى- مصدرًا للكثير من التقاليد الفنيّة المهمّة التي انتقلت إلى الغرب وأثّرت في الفن الأوروبي القروسطي في نهاية الأمر. وقد تأثّرت بيل بشدة بنظريات سترزيجوفسكي عن أسبقيّة الشرق الأدنى، وتبنّت مقاربته التحليليّة الشكليّة في دراسة الفن والعمارة.

هجمات «سترزيجوفسكي» المستمرّة على زملائه؛ ناهيك عن شخصيته البغيضة- إذْ اشتهر بعدوانيته وعجرفته- جعلته شخصًا غير محبوب بين بعض أقرانه الأكاديميين[٥١]. إضافة إلى أنّ أسلوبه في البحث كثيرًا ما كانت تُحيط به شكوك الباحثين الأشدّ تحفظًا، وكما كتب باحثٌ منهم فإنّ منهجه كان يعوّل على: «عمل تجميعات غريبة دون القيام بالفرز الدقيق الضروري لكل حقيقة على حدة»، ويواصل هذا الناقد قوله بأنّ مثل هذه المقاربة انحرفت «بعيدًا جدًّا عن درب المنهجية الحكيمة ونقد المصدر»[٥٢]. لكن رغم نقاط الضّعف هذه، لم يُمكن انتقاد «سترزيجوفسكي» بسبب اتساع اهتماماته ومقارباته المُبتكرة وإحاطته الفريدة بالمواد غير المطروقة، وحقيقة أنّ أغلب ملاحظاته المورفولوجيّة كانت مُدهشة وتنم عن تصورات بارعة[٥٣].

لكن ما من أحد يتذكّر «سترزيجوفسكي» اليوم بسبب أي من تلك الإنجازات، بل بسبب ميوله العنصريّة. فرغم أنّه كان أكبر نصير للشرق في مواجهة روما، فإنه ضمّ لأجناس السامية وتأثيراتهم السلبيّة إلى بلاد الشرق:

زعم «سترزيجوفسكي» أنّ التغييرات التي طرأت على فنون العصور القديمة المتأخّرة وصعود الفن المسيحي، لم تكن بسبب تطور روماني، بل بالأحرى بسبب التأثير المتغلغل والخبيث للشرق الّذي نهض مُجددًا من غفوته بعد قرون من الهيمنة اليونانيّة، كي يفتك بالأعراف الهلينيّة[٥٤].

وقد تطوّرت ثيماته العنصريّة بمرور الزمن، إلى أن أصبح في نهاية المطاف متعاطفًا مع الحكم النازي الّذي استولى على السلطة في ألمانيا إبان ثلاثينيات القرن العشرين. وبسبب ارتباط اسمه بهذه الفترة المُخزية من

التاريخ، نادرًا ما يتردد اسم «سترزيجوفسكي» اليوم، وكما يكتب أحد الباحثين المُعاصرين فإنّ: «النقاشات حول أهميته العلميّة الحقيقيّة كانت كثيرًا ما تُرهقها الأعذار والحرج، أو أن يكون عمله غير موثوق من الأساس»(٥٥) لكن «جاس إلسنر» J. Elsner يكتب بلهجة مقنعة:

كان أثر هذه المقاربة؛ إذا جردناها مما فيها من سياسة نازيّة مبكرة، جوهريًّا في تأسيس تاريخ الفن الإسلامي، وفي دراسة إنتاج الصورة بالأطراف الشرقية من الإمبراطوريّة الرومانيّة، مع رؤية تقاوم المركزية الرومانيّة، بل ومن سخرية القدر، أن يمتد تأثير هذه المقاربة إلى دراسة الفن اليهودي الّذي يُمكننا أن نُعدّ «سترزيجوفسكي» رائدًا له بحقّ(٥٦).

لابد أن تظل تلك الأمور ماثلة في أذهاننا حين نتعرّض لإسهامات «سترزيجوفسكي» في حقل دراسات تاريخ الفن في ألمانيا إبان الفترة التي سبقت صعود النازية، وعِظم تأثيره على آخرين من أمثال «جيرترود بيل».

بحلول العام 1909، صـــارت «بيل» على معرفـــة وثيقـــة بـــ «سترزيجوفسكي» وتخصصه في تاريخ الفن بالشرق الأدنى، رغم أنّ معرفتها هذه بـــ«سترزيجوفسكي» تمتد إلى العام 1896 حين كانت تقرأ كُتبه على متن القطار الّذي كان يحملها من لندن إلى منزل أسرتها في راونتون بنورث يوركشاير(٥٧). كذلك كان اهتمام واطلاع «بيل» على إنتاج «سترزيجوفسكي» العلمي، سببًا في كتابتها مراجعة مؤيدة في العام 1905 لبحثه الشامل المنشور في العام 1904 عن البرنامج الفنّي والمعماري بقصر المشتى الصحراوي(٥٨). وكما أشرت في الفصل الأول، فقد نُشرت مُراجعة «بيل» في دورية «ريفيو أركيولوجيك»، بناءً على طلب صديقها وناصحها الأمين «سالمون ريناخ»(٥٩). وقد جذبتها هذه المراجعة؛ إضافة إلى زيارتها لذلك الموقع، إلى عالم الجدل الّذي كان محتدمًا آنذاك لبعض الوقت حول

قصر المشتى؛ بسبب الصعوبة الشديدة في تحديد تاريخ بنائه وأصله العرقي[٦٠]. كما جعلتها أيضًا على دراية؛ للمرّة الأولى، بالمُنجز العلمي لشاب ألماني يحمل اسم «إرنست هرتسفلد»، كان يصوغ استنتاجاته البارعة حول المشتى، قبل أن تتبادل معه لاحقًا مراسلات مفعمة بالحياة[٦١].

كانت «بيل» على دراية بأعمال «سترزيجوفسكي» الأخرى، بما فيها كتابه المُثير للجدل «الشرق أم روما» (لايبزيج، 1901) الّذي كان يرى فيه ضرورة أن نُعطي بلاد الشرق التقدير الكافي لطاقته الإبداعيّة، ولأنّه كان المعين الأول لعدد هائل من التطورات الفنيّة التي امتدت إلى الغرب وأثرت في الفن الأوروبي القروسطي[٦٢]. كما قرأت «بيل» بعناية أيضًا كتاب «سترزيجوفسكي» التالي «آسيا الصغرى، بقعة جديدة في تاريخ الفنّ» (لايبزيج، 1903) الّذي استكمل فيه الأفكار نفسها؛ إذْ كان يرى أنّ «الثقافتين الإغريقية والرومانية كانتا ذات تأثير بسيط نسبيًّا على آسيا»، وبخاصة الأناضول «حيثُ صمدت التقاليد المحليّة»[٦٣]. وفي هذا السياق، ميّز «سترزيجوفسكي» بين المستوطنات السّاحلية في الأناضول التي قدّمت معالم فنيّة ومعمارية يونانية ورومانية بسبب احتكاكها مع الثقافة الهلنستيّة، وبين المستوطنات الموجودة في الدّاخل التي كانت تضم عناصر «شرقيّة بالكامل». ذلك أنّ المرء يُصادف في أحشاء الأناضول؛ على سبيل المثال، «كنائس ذات برجين في واجهة البناء تستحضر النموذجين الأوليين الحثي واليهودي، حيثُ الأبواب والنوافذ تخترق الجدران الجانبيّة؛ كما في سوريا، والدعامات المركبة بدلا من الأعمدة، والأقواس بدلاً من السواكف، والقباب في محل الأسقف الخشبيّة المجوّفة»[٦٤].

كانت «بيل» حين زارت موقع بنبركيليسي في الأناضول لأول مرّة، تحمل نسخة من كتاب «سترزيجوفسكي»؛ «آسيا الصغرى»، في حقيبة يدها،

وقد كان هذا الكتاب هو ما أوحى لها في الأصل بالاهتمام بالصروح المسيحيّة في العام 1905[٦٥]. فكانت تعود إليه هي و«وليام رامزي» في أغلب الأوقات أثناء رسم مخططاتهما وتسجيل استنتاجاتهما حول تواريخ وتطور العمارة الإكليريكيّة التي تنتمي للعصور القديمة المتأخّرة بهذا الموقع الأثري في العام 1907. وأخيرًا، فقد أهديا عملهما المنشور بعنوان «ألف كنيسة وكنيسة» الصادر في العام 1909 (لندن) إلى «سترزيجوفسكي». وإلى ذلك، تكشف مساهمة «بيل» في هذا العمل بوضوح عن تأثير «سترزيجوفسكي»، لا في دفاعها عن أهمية التقاليد الفنيّة في الشرق الأدنى فحسب، بل أيضًا في الطريقة التي أعدت بها تصنيفاتها النوعيّة للمباني وتبويباتها المعماريّة، والاهتمام الّذي أولته للتطورات المورفولوجيّة بالشكل والزخرفة المعماريين، باعتبارها عوامل تُحدد التطورات التي طرأت عبر الزمان والمكان[٦٦].

وقد استمرّت دراسة «بيل» للمواقع القديمة والآثار التي صادفتها إبان رحلتها في العام 1909 تحمل بصمة مُعلّمها الخاص «سترزيجوفسكي»، وبخاصة في استعانتها بتحليله الشكلي المُقارن للفن والعمارة. كما قبلت أيضًا بالطاقة الإبداعيّة المستديمة للشرق، وتابعت استهداف العناصر الخاصّة بالشرق الأدنى في البقايا القديمة التي فحصتها. وقد دلّت عبارات وردت في رسائل «بيل» على أنّ «سترزيجوفسكي» كان في بالها في أغلب الأحيان أثناء زيارة أماكن شتّى بالشرق الأدنى، كما في عبارتها: «سيفقد سترزيجوفسكي صوابه من البهجة بسبب هذا الكشف: لابد أن أكتب إليه الآن» (عند اكتشافها قلعة الأخيضر)[٦٧]، و: «ستتملكه الفرحة بسببهم» (عن الأجزاء الأولى من حليات الجدران الجصيّة التي وجدتها في سامراء[٦٨]. كما نرى أيضًا إشارة في رسائلها للعلاقة الشخصية التي كانت تربط بينهما، والتي تُشير بعضها

إلى زيارتها له في جراتس أو فيينا[٦٩]. وأخيرًا، تحمل دراسة بيل الأكثر طموحًا؛ وهي بحثها حول قصر ومسجد الأخيضر، بصمة منهجية «سترزيجوفسكي» الفنيّة والمعمارية بقوّة، كما سأناقش على نحو أوسع في الفصول المقبلة. وإجمالاً، ترك حضور «سترزيجوفسكي» الهائل في حياة «بيل» أثرًا عميقًا في منجزها العلمي المتعلّق بالشرق الأدنى.

التحضير لرحلة العام 1909

تأهبت «بيل» للانطلاق من حلب؛ نقطة البدء الرسميّة لرحلتها، وباتت مزوّدة بكل المؤونة والأدوات اللازمة لبعثة استكشافيّة لائقة لأماكن نائية. اشترت حيوانات النقل في حلب وكذلك أغلب طعامها وعلف الدواب؛ لأنّها كانت تعلم أنّها لن تستطيع الاعتماد على إيجاد مؤونة مناسبة بالأماكن الأبعد في الطريق الّذي كانت تسلكه[٧٠]. وهكذا، كان لديها كمّ هائل من الثياب المناسبة لكل الفصول ودرجات الحرارة، فضلا عن المتاع الشّخصي. كما استخدمت الخيام القماشية كمأوى خاصة لنومها ونوم رجالها حين يتعذر الوصول إلى المأوى الأخرى في البلدات والمدن. وكثيرًا ما كانت تظهر الخيام في صور «بيل» الفوتوغرافيّة مُقامة وسط أنقاض المواقع الأثرية، على مشارف المستوطنات غير المأهولة أو تطل على الريف أو الصحراء مُباشرة[٧١].

التصوير الفوتوغرافي

كان السجل الفوتوغرافي الّذي عنيت «بيل» بعمله، من أكثر الجوانب المحمودة لرحلاتها في الشرق الأدنى. إذْ كانت تحمل بالفعل كاميرا أثناء رحلة العام 1905 إلى الشرق، ثمّ في العام 1907 حين التقطت صورًا فوتوغرافيّة غزيرة بصحبة «رامزي» في بنبركيليسي بالأناضول، لتؤكّد على

قيمة الصورة في توثيق المواقع والمعالم الأثرية كما ينبغي. فكانت لهذه الصور في أبحاثها الأركيولوجية نفس مكانة أوصافها ومخططاتها المكتوبة في تسجيل المباني والمعالم الأثرية، كما ساعدتها في تحفيز ذاكرتها عند رجوعها إلى الوطن وانخراطها في التصنيف والبحث المُقارن[٧٢]. وبالنسبة لقراء رحلاتها وأبحاثها الأركيولوجيّة، فقد قدّمت صور «بيل» الفوتوغرافيّة عونًا هائلاً لهؤلاء القراء على استيعاب الأماكن التي وصفتها، وعلى تذوّق جمالها أو أهميتها المعمارية بدرجة أكبر. أمّا بالنسبة لنا نحنُ اليوم، فتوفّر صور «بيل» الفوتوغرافيّة سجلاً بالغ الثراء عن ماض لم يعد له وجود على الأغلب، أو تدهور كثيرًا منذئذ.

يُشير ما تبقّى من أفلام النترات السلبيّة الخاصّة بـ«بيل» المحفوظة في جامعة نيوكاسل، إلى أنّها كانت تستخدم كاميرات محمولة مزوّدة ببكرات أفلام؛ وهي تقانة أكثر تطورًا من الكاميرات الأثقل والأقدم التي كانت تتطلّب وجود صفائح زجاجيّة ثقيلة[٧٣]. التقطت «بيل» أغلب صورها الفوتوغرافيّة خلال العام 1909 باستخدام كاميرا عاديّة، لكنها كانت تحمل أيضًا كاميرا للتصوير البانورامي؛ لأنّها كانت تعي قيمة التقاط صور أوسع للمواقع والمناظر. وفي الوقت ذاته، كانت تسعى بين الحين والآخر لتصوير مشاهد من زوايا أوسع من خلال سلسلة من اللقطات المتداخلة، وكان لهذه المشاهد البانوراميّة؛ كما أكّد «ج.كرو» J. Crow؛ فاعلية خاصّة في تصوير خلاء صحاري بلاد الرافدين الشّاسع في مقابل ما للصروح الأثرية التي تنتصب في وسطها من بهاء فريد، ومن بينها إيوان المدائن أو قصر الأخيضر الصحراوي[٧٤]. وكما لاحظ «كرو» أيضًا، فإنّ تلك المشاهد تصبح أشد حتمية حين تضم ظلال المصوّرة نفسها، التي نادرًا ما نراها بطريقة أخرى[٧٥].

المعدّات الميدانية

لم تحمل «بيل» معها معدات رسم خرائط أو مسح أراض متطوّرة في العام 1909، وعولّت في رسم مخططات البقايا الأثرية على بوصلة فقط كي تعرف من خلالها الجهات الأصليّة، ثم استخدمت شريط قياس يدوي بسيط ومسطرة خشبيّة لقياس أبعاد الجدران والمعالم الأخرى، التي أُدرجت في دفاترها الميدانيّة وذات الأحجام المتفاوتة. كانت «بيل» ترسم بعض المعالم بالتقريب؛ لاسيما إذا كانت منكوبة بشكل خاص أو لا تسترعي اهتمامًا عاجلا، ثم تقيسها بخطوات الأقدام؛ كما دوّنت في دفاترها الميدانيّة[٧٦]. كذلك لم تكن تحمل مزواةً لتحديد الاتجاهات ورسم خارطة مناسبة حتّى رحلتها بين العامين 1913 و1914 إلى الجزيرة العربيّة[٧٧]. لكنّها كانت تحمل؛ مع ذلك، بارومترًا معدنيًّا ساعدها في قياس المرتفعات فوق مستوى سطح البحر، وتعيين التغييرات التي طرأت على طوبوغرافيا المنطقة التي كانت تسافر عبرها[٧٨].

الخرائط

كانت «بيل» مزوّدة بأفضل الخرائط المتاحة آنذاك. لمّا بالنسبة لرحلاتها الأولى عبر الشرق الأدنى، فقد اعتمدت على خرائط أعدّها رسّام الخرائط الألماني الشهير رفيع المقام «هاينريش كيبرت» Heinrich Kiepert(1819– 1899)[٧٩]. كان مُنجز «كيبرت» يتمثّل في إنتاج خرائط مفصلّة لأجزاء كثيرة من العالم القديم، وأغلب تلك الخرائط إذا عرفنا اهتمامه وخلفيته عن التاريخ القديم، كانت تسعى لتحديد مواقع المدن والبلدات القديمة التي اشتهر عنها التواجد بمناطق شتّى[٨٠]. وقد كانت مثل هذه الخرائط ذات فائدة وقيمة هائلتين بالنسبة للكثيرين من الرحالة الأوروبيين، ممن نفخت

الحياة في رحلاتهم؛ كرحلات «بيل»، المناظر الطبيعيّة التي تعود للعصور القديمة وتعدد المدن والمخافر الأماميّة العسكريّة والحدود والطرق ومسارات الحملات القديمة التي عمّرت تلك المناطق.

بحلول العام 1909، آلت أعمال «كيبرت» المتعلّقة برسم الخرائط إلى ابنه «ريتشارد كيبرت» Richard Kiepert (1846– 1915) الّذي واصل ملء الفراغات بخرائط أبيه، وبالتالي تعزز كتاب «المقاطعات الآسيويّة بالإمبراطوريّة العثمانية (بخلاف الجزيرة العربيّة)» (برلين، 1884) بأسماء أماكن إضافية، أتاح أغلبها باحثون ورحّالة أوروبيون مُعاصرون، سافروا عبر تلك الأراضي أو قدّمت أبحاثهم عن مؤرخي أو جغرافيّ العصر الكلاسيكي أو العرب، تخمينات علميّة حول الأماكن التي يحتمل وجود بعض المواقع الأثرية فيها. وقد أدرج عالم الآثار الألماني «ماكس فريهير فون أوبنهايم» Max Freiherr von Oppenheim خرائط «كيبرت» بثرائها التاريخي في كتابه «من البحر المتوسّط إلى الخليج الفارسي» (مجلدان، برلين 1899– 1900)، وهو سرد لرحلته التي قام بها في الشرق الأدنى بين العامين 1892 و1893. ويُمكن لقارئ المجلدين أن يرى فيهما؛ على سبيل المثال، مواقع أماكن أشار إليها الكولونيل «فرنسيس تشسني» F.R.Chesney إبّان رحلته على متن باخرة بين العامين 1835 و1837 في قلب بلاد الرافدين عبر نهر الفرات، والمواقع التي أشار إليها رفيقه في السفر «ويليام فرانسيس إينسوورث» W.F.Ainsworth، وتلك التي كانت موجودة أيضًا في خرائط «هاينريش كيبرت» الأصليّة[٨١]. علاوة على أماكن اكتشفها رحالة أوروبيون محدثون من أمثال «روبرت كولدفاي» و«إدورد سخاو» Eduard Sachau و«ملكيور دي فوج» و«برنهارد موريتز»[٨٢].

ربّما كانت خرائط «كيبرت» الخاصّة بـ«بيل» أقرب إلى تلك التي رسمها من أجل «أوبنهايم»، ونعرف كذلك من يومياتها أنّه قد أُتيح لها فحص تلك الخرائط مع «أوبنهايم» نفسه ومع «موريتز»، حين كانت في القاهرة في يناير العام 1909[٨٣]. وخلال تلك المناسبات، نصحها «أوبنهايم» و«موريتز» بالمسارات التي تتبعها في سوريا وبلاد الرافدين والأناضول. بل يبدو أنّ «أوبنهايم» قد زوّدها بملاحظات إضافية حول الضفة اليُسرى لنهر الفرات بالقرب من قرية سيرين؛ لأنّه سبق أن مرّ بها في العام 1899 في طريقه لموقع «تل حلف» الأثري في الشمال الشرقي بالقرب من رأس العين[٨٤]. وإجمالا، فإنّ جودة الخرائط التي حملتها «بيل» في رحلتها العام 1909، والنصائح الحكيمة التي أسداها لها زملاؤها ممّن سافروا بالفعل إلى تلك المناطق التي كانت على وشك زيارتها، أهلتها جيدًا للبعثة الوشيكة.

رحلة الفرات: "*البداية – حلب*"

بدأت رحلة «بيل» جديًا في أوائل العام 1909، بعد أن سافرت على متن قارب إلى مصر وبيروت، ثمّ بالقطار إلى حلب. وقد كانت الأخيرة؛ حسب تعليقها، هي المدخل إلى آسيا[٨٥]. وفي حلب، اشترت ما يلزمها من خيول ومؤن، واستأجرت حمّالين لنقل حقائبها خلال الرحلة الطويلة التي ستقوم بها بمحاذاة نهر الفرات، في قلب بلاد الرافدين.

ولأنّها معنية دائمًا بالشؤون المُعاصرة لكل مكان تزوره وساكنيه، فقد سارعت «بيل» للقاء سكّان حلب – من التجّار الأثرياء إلى أصحاب الدكاكين؛ ومن الجنود إلى العُمّال– وتناقشت معهم حول التطورات السياسية والاقتصادية الجارية. كان أكثر ما يشغلهم هو الإصلاحات التي جرت مؤخّرًا بالحكومة العثمانية نتيجة تمرّد حركة «تركيا الفتاة» في العام 1908، وقد سعت «بيل» إلى تسجيل ردود أفعالهم[٨٦]. لكن ما أشعل حماسها أيضًا

كان تاريخ المدينة الطويل الذي قد نصادف آثاره عند كل منعطف. وكان «روس بيرنز»(*) Ross Burns قد قال أنّه يوجد في حلب: «نوع من استمراريّة للزّمن؛ حيثُ تتراكم ومضات الماضي داخل الحاضر، بدلا من أن تتبدد بمرور الوقت»(٨٧). ويُعتقد أنّ حلب واحدة من أقدم مُدن العالم التي ظلّت مأهولة بالسكان طوال تاريخها، وقد أقدمت «بيل» كرحّالة متمرسة وعاشقة للتاريخ، على تعلّم أكبر قدر ممكن عن ماضي المدينة الحافل.

كانت حلب لا تزال محتفظة في العام 1909 بطابعها وسحرها الذي ينتمي للعصر ما قبل الحديث، وكان الحماس يتملّك «بيل» لزيارة وتصوير مساجدها وخاناتها العتيقة الكثيرة، فضلا عن القلعة الضخمة في وسط المدينة. ويبدو أنّها كانت مهتمة بشكل خاص بالعثور على آثار تتعلّق بالمراحل الأولى من تاريخ حلب، ويشمل ذلك على سبيل المثال، تقريرها عن حجر ينتمي للقرن الثالث عشر قبل الميلاد ويحمل نقوشًا باللغة الهيروغليفية الحثيّة، وجدته مقلوبًا بأحد جدران مسجد مملوكي صغير يعود تاريخه إلى القرن السادس عشر الميلادي، وهو جامع «القيقان» بالقرب من باب أنطاكية(٨٨). وقد اكتشفت «بيل» مزيدًا من النقوش الحثيّة فوق تحصينات قلعة حلب نفسها، واشترت بعض الأختام الأسطوانية الحثية والآشورية من تاجر آثار(٨٩). أمّا بالنسبة للعصور القديمة اللاحقة، فقد زارت «بيل» المدرسة الحلوية التي تنتمي للقرن الثاني عشر والتي أُستخدم في بناء قاعة الصلاة المقببة بها، بعض تيجان الأعمدة الخاصة بكاتدرائية بيزنطية تعود للقرن السادس الميلادي(٩٠). وخلال زيارتها إلى جامع الشعيبية، أثارت إعجابها بشكل خاص العبارات المنقوشة بالخطّ الكوفي والزخارف المنحوتة

(*) سفير أستراليا الأسبق في سوريا، ومؤلّف كتاب «تاريخ حلب» (2016). [المترجم]

على هيئة أوراق أشجار متشابكة والتي تعود للقرن الثاني عشر، واعتبرت المسجد واحدًا من: «أجمل صروح الفن الإسلامي في مدينة حلب كلّها»[٩١].

لم تكن «بيل» تقدّم جديدًا بملاحظاتها عن تلك البقايا الأثرية في حلب؛ فأغلب تلك المواقع والصروح كان معروفًا من قبل وسبقت دراسته. لكن الثمين هو صورها الفوتوغرافية التي تسجل معالم معمارية مهمة بالمدينة، بعضها لم يعد موجودًا أو مرّ بتغيرات عميقة خلال السنوات المائة الأخيرة. ذلك أنّ المرء قد يُلاحظ على سبيل المثال، أنّ مئذنة جامع الطواشي الخلاب الذي ينتمي للقرن الرابع عشر لم يعد لها وجود، رغم وجود الأعمدة الصغيرة المنحوتة على نحو رائع في واجهة المسجد الخارجية (انظر شكل ٢-٤)، في حين كانت المقرنصات الموجودة عند المدخل الرئيس؛ والتي تظهر بوضوح في صور «بيل»، لا تزال كما هي لم تمسّ حين زارت مؤلفة هذا الكتاب المسجد في العام 2009[٩٢]. لكن المُحزن هو أنّ المئذنة السلجوقية السامقة ذات الحجارة المربعة التي تنتمي للقرن الحادي عشر، التي كانت ترتفع بشموخ فوق جامع حلب الكبير والتي صورتها «بيل» (انظر شكل ٢-٥)[٩٣]، سقطت في العام 2013 أثناء تبادل للقصف بالأسلحة الثقيلة خلال الحرب الأهلية السورية.

صوّرت «بيل» أيضًا «خان الوزير» الرائع، وكانت هذه المحطّة لاستراحة القوافل التي يرجع تاريخ بنائها إلى القرن السابع عشر، مُصممة وفق الشكل النموذجي للذي يحتوي على فناء مفتوح بالطابق الأرضي مُحاط بمبنى يضم طابقين. كانت الغرف في الطابق الأرضي تُستعمل كمخازن لبضائع التجّار، أمّا الطابق العلوي فكان مُخصصًا لحجرات نوم الضيوف والتجار المقيمين، والتي كانت مزودة بشرفات تطل على الفناء الموجود بالأسفل[٩٤]. لكن أبرز ما في الخان هو مدخله الضخم، وواجهته الداخلية

التي تتميز بوجود نافذتين مُحاطتين بزخارف منحوتة بعناية وبناء حجري يتناوب فيه اللونين الأبيض والأسود (انظر شكل ٢-٦)[٩٥]. كان الخان إبّان زيارة «بيل» له في العام 1909 قد تحوّل إلى مصبغة، رغم بقاء المبنى الأساسي سليمًا[٩٦]. أمّا واجهته الخارجية المنمقة التي تتميز هي الأخرى بزخارف دقيقة منحوتة تُحيط بالنافذتين، فقد حجبتها عن النظر لحدّ كبير الشوارع الضيقة والمنشآت المُحيطة التي شُيدت بالقرب منها[٩٧]. لكن منذ الخمسينيات، تبدّلت الصورة في الخارج ببناء طريق حديث وباحة لوقوف السيارات، أتاحا مشهدًا للخان بلا عوائق للرؤية[٩٨]. وتحوّل الخان من الداخل إلى حوانيت لبيع الأنتيكات والسجاد والمصنوعات اليدوية المحليّة. وقد عرفت أثناء تأليف هذا الكتاب أنّ أجزاءً من هذا المبنى تحولّت إلى أنقاض في العام 2012 أثناء الحرب الأهلية السورية، لكننا لا نزال نجهل حجم الضرر الذي أصاب هذا النموذج الباهر على الحياة التجارية التي كانت تنبض بالحياة ذات يوم في حلب القديمة.

كانت حلب بالنسبة لـ«بيل» تُشكّل بداية مشوقة وعابرة لرحلتها الطويلة. وقد سارت تحضيراتها للرحلة على ما يُرام بمساعدة خادمها «فتّوح»، فأصبح لديها الآن اثنا عشر حصانًا، وحمارًا، وسبعة رجال، فانطلقت من حلب عبر الريف المتموج المفتوح متجهة إلى نهر الفرات[٩٩]. وقد تمكّنت أثناء ذلك من رؤية المشهد العامر بالتلال الأثرية والروابي العشبية التي كانت تحدد مكان المستوطنات العتيقة[١٠٠]. وتذكّرت عندما شرعت في طريقها شرقًا، الشخصيات التاريخية العظيمة التي اجترأت على هذا الطريق من قبل:

مع «زينوفون» و«جوليان» وسائر الجيوش التي سيّرها حلم بإقامة إمبراطورية تقوّضت وتحطّمت على صخرة الشرق القديم، تجري الأفكار تجاه النهر الّذي كان الأشهر بين كل خطوط الحدود[١٠١].

الوجهة الأولى على شاطئ الفرات– قرية تل أحمر

وصلت «بيل» وحاشيتها إلى نهر الفرات بعد عبور مدينة «منبج» في السابع عشر من فبراير العام 1909. وقد أصابتها سعادة غامرة عندما أبصرت لأول مرّة هذا «التيّار النبيل» يتدفق بين المنحدرات الصخرية البيضاء، وكتبت أنّ مياهه الجارية كانت «مشحونة بتاريخ العالم القديم»[١٠٢]. وسارعت فور أن عثرت على إحدى المعديات التي ترسو عند حافة النهر، بالانتقال هي والحيوانات المحمّلة بحقائبها إلى قرية «تل أحمر» على الشاطئ الآخر، والتي تقع عند سفح الموقع الأثري المرتفع الّذي اتّخذت اسمها منه[١٠٣]. كانت هذه هي بداية رحلة «بيل» على الضفة الشرقية لنهر الفرات، وأصبح ما تكتبه من تقارير أثرية أكثر تفصيلاً؛ لأنّها كانت تدرك أنّ القليلين ممّن سافروا إلى هذا الجانب من النّهر، لم يقم أي منهم بأي مسعى منهجي لتسجيل بقاياها الأثرية[١٠٤].

كانت «تل أحمر» محطة أثرية هامة بالنسبة لــ«بيل»؛ إذ كان صديقها «ديفيد هوجارث» قد سبقها إلى هناك منذ عام واحد فقط، وصادف أثناء تفحّص الموقع العديد من الشظايا الحجرية المنحوتة، التي غطّى البعض منها عبارات منقوشة باللغة الهيروغليفية الحثيّة لم تفكّ شفرتها بعد. ولأنّه كان يتلهّف إلى نسخ تلك العبارات المنقوشة، فقد أعدّ نسخاً بورق الكبس من تلك العبارات المنقوشة على الصخور، لكن الأوراق تلفت بسبب الرطوبة العالية وأصبحت غير قابلة للقراءة[١٠٥]. ومن ثمّ طلب «هوجارث» من «بيل» أن تعيد نسخ تلك النقوش[١٠٦].

اكتشفت «بيل» أثناء تجوالها في الموقع، الحجارة المنحوتة والمنقوشة محل النقاش داخل تجويف صغير يقع خلف البوابة الشمالية الغربية للمدينة،

وكلها تنتمي لنصب واحد أُنشئ في الأصل في ذلك الموضع خلال العصور القديمة[١٠٧]. كان النصب يحمل على أحد جانبيه صورة منحوتة لثور وشخص واحد على الأقل. وقد استخرجت «بيل» الحجارة المنقوشة بمساعدة سكّان القرية، ومن ثمّ قامت بنسخ تلك النقوش (انظر شكل ٢–٧)[١٠٨]. وكانت عملية النسخ هذه تقتضي كبس ورق رطب قابل للتشكيل، فوق سطح الحجر المنقوش والدّق على ظهر الورقة بفرشاة ضغط خشنة. وعندما تجفّ الورقة، تُنتزع من فوق سطح الحجر وقد صارت الآن صورة مجسمة طبق الأصل من النقوش. وفي وقتٍ لاحق، نقلت «بيل» هذه النسخ إلى «هوجارث» في إنجلترا[١٠٩]، حيثُ تمكّن من التأليف بين أجزاء النقوش ونشرها في إحدى الدوريات الأثرية الإنجليزيّة، إلى جانب مكتشفات أخرى من «تل أحمر» و«كركميش» والمواقع المجاورة[١١٠]. وقد اعترف المقال كما ينبغي بإسهام «بيل» في هذه النقوش[١١١]. لكن ما يُثير الاهتمام هو أنّ التقرير استعان أيضًا ببعض الصور الفوتوغرافية التي التقطتها «بيل» لمنحوتات «تل أحمر» البارزة الأخرى (انظر شكل ٢–٨)، ناهيك عن الصور التي التقطتها للنقوش الحجرية البارزة في موقع «أرسلان تيبي» Arslan Tepe بالقرب من مدينة «ملَطْية» في وقت لاحق في العام 1909[١١٢]، وهي الصور التي أتاحت نماذج للمقارنة مع منحوتات «تل أحمر» و«كركميش»[١١٣]. وعمومًا، يدين تقرير «هوجارث» المنشور بفضل كبير لـ«بيل»، لا بسبب الجهود التي بذلتها في نسخ النقوش فحسب، بل بسبب صورها الفوتوغرافية التي قدّمت توثيقًا هامًّا لفنون ممالك شمال بلاد الرافدين الحثية–الآرامية الحديثة، التي لا تزال بعيدة المنال.

أسفر البحث والتنقيبات اللاحقة في موقع «تل أحمر»؛ والتي استمرّ بعضها إلى يومنا هذا، عن قدر هائل من المعلومات عن الموقع، أتاحت وضع المادة التي نقّبت عنها «بيل» في سياقها التاريخي المناسب. وقد كشفت التنقيبات الفرنسية التي جرت تحت إشراف عالم الآثار «فرانسوا ثورو-دانجين» F. Thureau- Dangin في الفترة من 1929 إلى 1931؛ إضافة إلى الأبحاث الأحدث التي قامت بها البعثتين الأسترالية والبلجيكية تحت إشراف «جاي بونينس» Guy Bunnens بدءًا من العام 1988، أنّ هذا الموقع كان موضع مدينة «تل برسيب» التي كانت جزءًا من مملكة «بيت عديني» الآرامية القبلية، والتي تأسست بفترة ما في أوائل الألفية الأولى قبل الميلاد[114]. وقد توسّع حكّام هذه المستوطنة الآراميون؛ وكانت تُعرف كذلك باسمها الحثي «ماسواري»، وحصّنوا المدينة التي تمتعت برخاء هائل إلى أن غزاها الملك الآشوري الحديث «شلمنصر الثالث» في العام 856 قبل الميلاد[115]. فأعيدت تسمية المدينة لتحمل اسم «كار- شلمنصر»، وتحوّلت إلى مركز تحكّم إمبراطوري اكتمل ببناء قصر آشوري فخم فوق قمتها المحصّنة. وقد عُثر أيضًا على بقايا أخرى تنتمي للفترة الآشورية الحديثة في البلدة السفلى، وهي منازل النخب الثرية الواسعة التي يُغطّي أرضيات أفنية البعض منها فسيفساء حصويّة دقيقة باللونين الأسود والأبيض[116]. وإضافة إلى بقايا العصر الحديدي، سلّطت التنقيبات الضوء على مواد تنتمي لمساكن أسبق بكثير في «تل أحمر»، يعود تاريخ بعضها إلى منتصف الألفية الثالثة قبل الميلاد، وتضم مقبرة ضخمة متميّزة مؤثثة بصورة مترفة محفورة في الصخور تحمل اسم «الهايبوجيوم»، إضافة إلى معبد[117].



شكل (٢-٤) الصورة التي التقطتها «بيل» لعامود صغير يكلله تاج منحوت بشكل معقّد على واجهة مسجد الطواشي الذي ينتمي للقرن الرابع عشر في حلب.

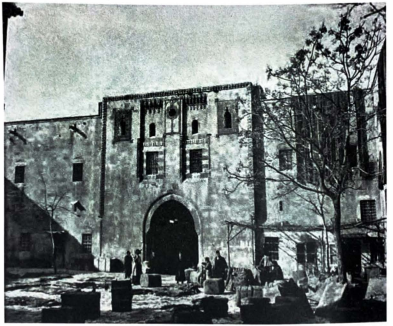
رأى «فرانسوا ثورو- دانجين» النصب الحجري الّذي استنسخته «بيل» لهوجارث في الموقع مرّة أخرى في العام 1928، ثمّ نقله وأعاد تجميعه في متحف حلب (المعروف الآن باسم «متحف حلب الوطني»)(١١٨). ويحمل النصب صورة إله العواصف الحثي يلبس خوذة بقرنين، ويقف فوق ظهر ثور ملوحًا بفأس يحملها في يدٍ، وفي الأخرى رمح له ثلاثة أسنة. وقد خضعت أخيرًا النقوش المكتوبة بالهيروغليفية الحثية التي استنسختها «بيل» بإتقان للفحص والترجمة، ونحنُ نعرف الآن أنّها كُتبت للاحتفال باسترجاع ابن الملك «أرياهيناس» عرش «ماسواري»، عقب فترة قصيرة من الصراعات بين السلالات الحاكمة(١١٩). ورغم أنّ النصب يقدّم تاريخًا لحكّام المدينة الآراميين، فإن العبارات المنقوشة كُتبت باللغة اللوية وهي لغة الحثيين، وتنتمي الزخارف المنحوتة في نقش إله العواصف إلى ما يُعرف بتقاليد النحت الحثية التي كانت تُستعمل في أماكن مثل مدينة كركميش المُجاورة(١٢٠). وتفسير ذلك أنّ حكّام «تل برسيب» اختاروا تبنّي أسلوب جارتهم القوية؛ كركميش، الفعال في الدعاية كوسيلة للتأكيد على سلطتهم(١٢١)؛ لأنّ الآراميين آنذاك لم تكن لديهم تقاليد تخصّهم تتعلق بالفن والعمارة التذكاريين.



شكل (٢-٥) الصورة التي التقطتها «بيل» لجامع حلب الكبير الذي أُقيم في الأصل إبان الفترة الأموية في أوائل القرن الثامن، ثمّ أُعيد ترميمه وتجديده عدّة مرّات منها تجديده أثناء حكم السلاجقة في القرن الحادي عشر، الذين أضافوا للمسجد مئذنة حجرية رائعة الزخارف. لكن هذه المئذنة سقطت للأسف أثناء تبادل القصف بالأسلحة الثقيلة في العام 2013 .

في العام 1999، اكتشف الباحثون نصبًا مشابهًا بالقرب من قرية «قبة» التي تقع على مسافة قصيرة من «تل أحمر» في اتجاه مجرى النهر[١٢٢]. ومن حُسن الحظّ أنْ استعاد الباحثون الحجر الذي وجدوه على هيئة قطعتين، قبيل إتمام بناء سد تشرين على نهر الفرات وارتفاع منسوب المياه التي غمرت تمامًا المنطقة التي عُثر على النصب بها[١٢٣]. اليوم، يقف هذا النصب جنبًا إلى جنب نصب «هوجارث- بيل» داخل متحف حلب الوطني. ويحمل

إلى جانب نقش مماثل لإله العواصف الذي يقف فوق ظهر ثور، نقوشًا تحتفي بانتصارات «هامياتيس» Hamiyatas؛ ابن ملك «ماسواري» الذي اغتصب السلطة، ويعود تاريخ هذا النصب إلى فترة أسبق قليلا من الفترة التي ينتمي إليها نصب «تل أحمر» الذي استنسخت «بيل» نقوشه[١٢٤]. لكن تكوينه وأسلوب نقش أيقوناته والاستعانة باللغة اللوية يُشبه لحدّ كبير تكوين وأسلوب ولغة نصب «هوجارث- بيل»، ونُصب أخرى عثر عليها الباحثون في «تل أحمر»، وكلها يُظهر رواج الأسلوب التذكاري الخاص بالدولة الحثية الحديثة في منطقة «تل أحمر» خلال هذه الفترة[١٢٥].



شكل (٢-٦) الصورة التي التقطتها «بيل» لواجهة مدخل خان الوزير الداخلية، وهو محطة لاستراحة القوافل في حلب تنتمي للقرن السابع عشر. وقد أثرى البناء بالحجارة البيضاء والسوداء والزخارف الدقيقة المنحوتة حول النافذتين المطلتين من أعلى المدخل، مشهد الفناء الداخلي.

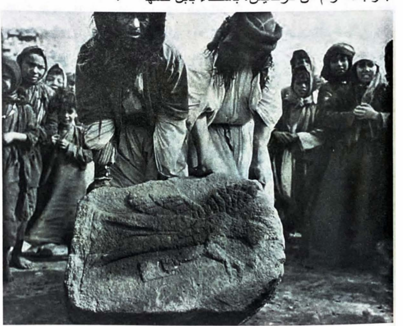
لم تر «بيل» هذا النصب في العام 1909، لكنها مرّت بقرية «قبة» وسجّلت ملاحظات عن البقايا القديمة الأخرى التي تشمل قطعتين حجريتين منحوتتين، تحمل إحداهما نقوشاً باللغة الهيروغليفية الحثية (انظر شكل ٢-٩)، وتحمل الأخرى نحتًا بارزًا. كما عثرت إضافة إلى ذلك على رأس وسيقان أسد مصنوع من البازلت[١٢٦]. وقد اكتشف «توماس إدوارد لورانس» هو الآخر نحتاً بارزًا في قرية «قبة»، ربّما يكون نفس النحت الذي سبق أن مرّت به «بيل»[١٢٧]. وفي وقت قريب، عثر الباحثون على نحت بارز آخر بالقرب من القرية. ويبدو من هذا المخزون من الأدلة أنّ قرية «القبة» كانت على الأرجح مقرًّا لمستوطنة قديمة معاصرة لتل أحمر[١٢٨].



شكل (٢-٧) أحد أجزاء النصب الحجري الضخم في «تل أحمر»، الذي استنسخت «بيل» نقوشه المكتوبة باللغة الهيروغليفية الحثية. ويحتفي النصب المزين هو الآخر بنقش بارز لإله العواصف في الدولة الحثية الحديثة، باسترجاع ابن أحد الملوك الآراميين عرش «ماسواري» («تل أحمر» القديمة) إبان الجزء الأول من الألفية الأولى قبل الميلاد.

كركميش

اعتزمت «بيل» أثناء نزولها في «تل أحمر»، وقبل أن تشرع في رحلتها باتجاه مصب نهر الفرات، القيام برحلة قصيرة إلى كركميش وهي تعي تمامًا أهمية المدينة كـ «عاصمة جليلة»[١٢٩]. كانت زيارتها تقتضي ركوب معدية لعبور نهر الفرات الذي يتدفق حثيثًا، إلى الضفة الغربية ومن ثمّ السفر شمالا عن طريق البر على ظهور الخيل[١٣٠]. وقد أعلنت «بيل» عندما اقتربت من الموقع الكبير المرتفع؛ حيث تُشرف قلعته في الشمال الشرقي على «جريان النهر المهيب»، أنّ ما من موقع آخر على نهر الفرات أجدر بالاحترام من كركميش، باستثناء بابل نفسها[١٣١].



شكل (٢-٨) حجر طويل منحوت يحمل صورة الروح الحارسة للإنسان «جنيوس» المجنّحة التي تحمل رأس نسر من قرية «تل أحمر»، ويعود تاريخه إلى أوائل القرن الأول قبل الميلاد. وكانت «بيل» هي التي اكتشفته وصورته.

تحظى كركميش بتاريخ ثري وطويل. حيثُ اكتسبت المدينة التي ظلّت مُحتلة بدءًا من القرن الرابع إلى الأول قبل الميلاد، أهمية عظيمة إبان فترة الإمبراطورية الحثية، لاسيما حوالي العام 1352 قبل الميلاد، عندما استولى الملك «سابيليوليوما الأول» Suppiluliuma I على المدينة وولّى ابنه نائبًا عن الملك الحثي في سوريا[١٣٢]. وقد استمرت هذه السلالة الملكية عدة أجيال، حافظت خلالها على مكانة المدينة التجارية والسياسية داخل هذه المنطقة في شمال سوريا، لتواصل البقاء حتّى بعد سقوط الإمبراطورية الحثية حوالي العام 1200 قبل الميلاد[١٣٣]. واستعادت كركميش بعضًا من عزّها خلال الفترة المعروفة باسم الفترة الحثية الحديثة، التي تبدأ من القرن العاشر قبل الميلاد وتستمر حتى حوالي العام 717 قبل الميلاد، وهي الفترة التي تتابع خلالها على حكم المدينة سلالتين متعاقبتين من آل «سوهي» Suhi و«أستيروا» Astiruwa[١٣٤]. ورغم ذلك، قطع هذه الفترة غزو آشوري وتوسع إمبراطوري، وتعرّض ملوك كركميش خلال هذه الفترة للمقاومة في أغلب الأحيان واضطروا إلى دفع جزية لملوك الدولة الآشورية الحديثة[١٣٥]. وقد جرى خلع آخر ملوك الدولة الحثية الحديثة في كركميش إبّان حكم الملك الآشوري الحديث «سرجون الثاني» في العام 717 قبل الميلاد، وبعدها خضعت المدينة والأراضي التابعة لها للإدارة المباشرة لحاكم آشوري. وفي النهاية، جرى التخلّي عن الموقع بعد العام 605 قبل الميلاد بفترة وجيزة، وهو العام الذي لحقت خلاله بولي العهد البابلي «نبوخذ نصر» هزيمة ساحقة على يد حلفاء آشور المصريين، بقيادة الملك الفرعوني «نخاو الثاني»[١٣٦]. وقد تعرّضت كركميش للاحتلال جزئيًا بعدئذ بوقت طويل خلال العصر الهلنستي، تحت اسم «إفروبوس»Europos[١٣٧].

كان الأوروبيون قد سبق أن قاموا باستكشاف الموقع والتنقيب فيه عند زيارة «بيل» لكركميش في العام 1909، ومن بين هؤلاء «باتريك هندرسون»

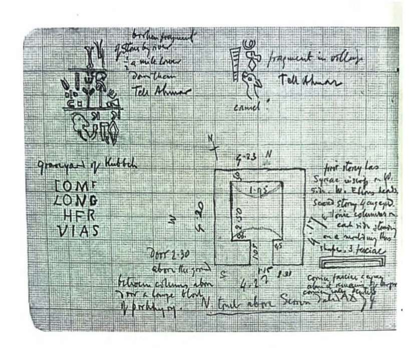
Patrick Henderson الذي كشف بين العامين 1878 و1881 عن وجود دَرَج ضخم مُزين بزخارف حجرية بارزة، على الجانب الجنوبي الغربي من التل المؤدّي للقلعة. وقد أرسل ستًا من تلك الحجارة المنحوتة إلى لندن، في حين ظلّت المنحوتات البارزة الأخرى في مكانها وتعرّضت لحدٍّ ما لعوامل التعرية، ووجدتها «بيل» وصورتها أثناء تجولها في الموقع(١٣٨). وفي ربيع العام 1908، زار «ديفيد هوجارث» كركميش إلى جانب عدة مواقع أثرية أخرى في المنطقة من ضمنها «تل أحمر». وبعد زيارة «بيل» للموقع بفترة قصيرة، تقدّم «هوجارث» بطلب للتنقيب في الموقع لصالح المتحف البريطاني وحصل على الترخيص المطلوب(١٣٩)، على أمل أن يُسفر التنقيب في كركميش عن بقايا أكثر أهمية من بينها النقوش المكتوبة بالهيروغليفية الحثية التي يتلهّف إليها بشدة. وقد بدأت أعمال الحفر تحت إشراف «هوجارث» في أوائل العام 1911، وتواصلت بقيادة «ليونارد وولي» Leonard Wooley في الفترة بين 1912 و1914، إضافة إلى العام 1920(١٤٠). ونُشرت نتائج تنقيبات المتحف البريطاني في ثلاثة كُتب أثرية فخمة، حيثُ ترجع أبرز اللقايا إلى عصر الدولة الحثية الحديثة، بخاصة في القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد، وهي الفترة التي شهدت بناء المدينة وتزيينها برواق(*) بلاطي ومعبد وبوابات للمرور إلى قلب المدينة، وقلعة وواجهات مزخرفة بحجارة طويلة منحوتة بوفرة(١٤١).

تمتد الحدود السياسية الحديثة بين تركيا وسوريا؛ التي أُقيمت في العام 1920، عبر بلدة كركميش الخارجية. وقد شهد التل المؤدّي للقلعة والبلدة الداخلية؛ وكلاهما على الجانب التركي من الحدود، استئناف أعمال التنقيب

(*) في الأصل حيث– حيلاني أو خيلاني bit-hilani وهو نوع من المباني يُعرف في الآرامية بالبيت العالي، ويتألف من قاعتين طويلتين متقاطعتين يتقدمهما بهو محمل على أعمدة. [المترجم]

منذ العام 2011 على يدّ فريق تركي- إيطالي، واصل استكشاف واستيعاب تاريخ مستوطنة كركميش الطويل[١٤٢].

بالنسبة لكثيرين اليوم، لا تكمن أهمية كركميش بالضرورة في بقاياها القديمة، بل في ارتباطها الخاص بأحد أبرز الشخصيات في القرن العشرين، وأعني به «توماس إدوارد لورنس» أو «لورنس العرب». إذْ ساهم هذا الشخص اللافت للنظر؛ الذي سيلعب دورًا رئيسًا في الثورة العربية ضد الأتراك إبّان الحرب العالمية الأولى، في عمليات التنقيب الأثرية في كركميش بالفترة بين 1911 و1914. حيثُ ساعد في العمل اليومي بأعمال الحفر في المشروع من خلال عمله كمتدرب أثري، أولا تحت إشراف «هوجارث» ونائبه «كامبل تومبسون» Campell Thompson (1911)، ثم تحت إشراف «ليونارد وولي» (1912- 1914) (انظر شكل ٢-١٠). وكانت مهامه العديدة تشمل استنساخ النقوش القديمة، ورسم شظايا المنحوتات، وقياس وفرز القطع الأثرية الأخرى، وأحيانًا شراء آثار من المحليين بالمناطق المُجاورة التي يعرفون بوجود مستوطنات ومقابر قديمة بها[١٤٣]. وقد تولّى «لورنس» الذي اشتهر باهتمامه الخاص بالخزف، مسئولية اللقايا المصنوعة من الفخار والتي تشمل رسمها وتصويرها ونقل النقوش المكتوبة على الآنية القديمة وتحديد منشأها[١٤٤]. وأخيرًا، ساعد «لورنس» في الإشراف على العمّال المحليين الذين يعملون في الحفر، وأغلبهم كانوا من المزارعين القادمين من قرية جرابلس القريبة. حيثُ كان توجيه ما بين 100 إلى 250 رجلا غير مدربين ويجهلون الطرائق اللازمة لحفر موقع أثري عملا شاقًا في بعض الأحيان[١٤٥]. ومع ذلك، وجد «لورنس» في المهمة متعة غامرة؛ ذلك أنّه أقام علاقات ودية مع عمّاله، وزارهم في بيوتهم أثناء ساعات الراحة، والتقى أسرهم ودرس حيواتهم الشخصيّة[١٤٦].



شكل (٢-٩) صفحة من دفتر «بيل» الميداني، تكشف نسخها اليدوية لنقشين اثنين كُتبا بالهيروغليفية الحثية في موقع «تل أحمر» (في الأعلى يمينًا)، وفي «القبة» (في الأعلى يسارًا، وكلاهما لم تجر أي دراسات أخرى بشأنهما)، ونقش باللغة اللاتينية من حجر بمقبرة في «القبة» (في الأسفل يسارًا)، ومخطط وملاحظات عن المدفن البرجي الشمالي في قرية «سيرين» (في الأسفل يمينًا).

لم يستخف «لورنس» أو يتخلّى عن مسئولياته الأثرية، رغم استمراره في الاندماج مع سكّان جرابلس(١٤٧). بل على العكس،يتبدّى إجمالا كمشارك مُلتزم يقظ الضمير في نجاح مشروع كركميش. وقد كشفت تقييمات حديثة لدفاتر «لورنس» الميدانية ومسوداته والتقارير الأخرى التي كتبها، أنّه كان مُنقّبًا واعيًا احتفظ بسجلات مفصلة ودقيقة للقايا الأثرية، لا سيما الفخارية(١٤٨).

كانت كركميش ميدانًا حاسمًا للتدريب فهم منه «لورنس» الشرق الأدنى؛ لا بسبب ماضيها الصاخب، بل بسبب حاضرها أيضًا الّذي كان على أعتاب تغيير اجتماعي وسياسي مُزلزل. فطوّر وصقل هناك مهاراته في اللغة العربية، ونمّى تقديرًا من خلال علاقاته الوثيقة بعماله ولأسرهم، لقيم وتقاليد ومعتقدات هؤلاء العمّال، وتعاطفًا مع فقرهم بسبب نظام إداري تركي فاسد، ونظام إقطاعي شبه قروسطي هيمن عليه شيوخ قبليون(١٤٩). وقد رأى «لورنس» في هؤلاء القرويين- لاسيما في «دحوم»؛ وهو صبي قروي من جرابلس عقد معه «لورنس» علاقة وثيقة من نوع خاص- مزايا العربي النموذجي. ذلك أنّ سكّان جرابلس من وجهة نظر «لورنس»؛ بعزلتهم النسبية في منطقة ريفية داخل الأراضي السورية، لم يكونوا قد تلوثوا بعد بقوى التحديث الأوروبية المُفسدة التي كانت تحل بمدن الشرق الأدنى. وقد نالت طبيعتهم البسيطة ومرحهم وسخائهم إعجاب «لورنس»(١٥٠). ويُقال إنّ تعلّق «لورنس» بهؤلاء الناس كان حافزًا لدوره الفاعل في الثورة العربية ضد تركيا خلال الأعوام التي تلت، وهو الدور الذي توجه بجهوده في تأمين حقّ العرب في تقرير مصيرهم في أعقاب سقوط الإمبراطورية العثمانية(١٥١).

اللافت للنظر أنّ «جيرترود بيل» و«توماس إدوارد لورنس»؛ وكلاهما من أبرز اللاعبين الإنجليز البارزين على مسرح السياسة في الشرق الأوسط خلال أوائل القرن العشرين، كلاهما له ماض في علم الآثار، ولّنهما سيلتقيان في الواقع لأول مرّة بأحد المواقع الأثرية في كركميش. ذلك لّنه عند عودة «بيل» عبر شرق الأناضول من رحلتها الثانية في بلاد الرافدين في ربيع العام 1911، قررت أن تزور الموقع على أمل العثور على «هوجارث» هناك(١٥٢). لكن «هوجارث» كان قد غادر بالفعل؛ ولذلك بدلاً من لقائه حظيت بجولة بين أعمال التنقيب التي تجري في الموقع بصحبة عضوي البعثة الآخرين؛ «ريجينالد كامبل تومبسون» و«توماس إدوارد لورنس»(١٥٣).

وتقدّم إحدى رسائل «لورانس» للديار سردًا طريفًا للحديث الرشيق الذي دار عقب الجولة بينهم الثلاثة، الذي أطلقت خلاله «بيل» على العمليات البريطانية وصف «ما قبل تاريخية»، وذلك عند مقارنة كركميش بالحفريات الألمانية المهيبة في «قلعة شرقاط» (آشور)، فاضطر «لورانس» و«كامبل تومبسون» إلى التخفيف من حدّة انتقاداتها من خلال «استعراض سعة المعرفة»:

أصابها الذهول (خلال خمس دقائق) بسبب ما أعرفه عن العمارة البيزنطية والصليبية والرومانية والحثية والفرنسية، وبسبب ما يعرفه «تومبسون» عن الفلكلور اليوناني والعمارة الآشورية وإثنولوجيا بلاد الرافدين، وما أعرفه عن فخار ما قبل التاريخ والعدسات [كذا] المقربة، وعن أشغال المعادن في العصر البرونزي، وعن «ميريديث» و«أناتول فرانس» و«الأكتوبريين»، وبسبب ما يعرفه «تومبسون» عن حركة تركيا الفتاة والإضافة في اللغة العربية وسعر ركوب الجمال، وعن عادات الدفن الآشورية وأساليب التنقيب الألمانية مع سكك حديد بغداد. كل هذا كان عبارة عن فاتح شهية، وحين انتهينا (أصبحت أكثر تهذّبًا) استقرّ كل منّا على سبعة أو ثمانية موضوعات وسألناها عنها. وقد أحسّت بسرور كبير عن تناول قدح من الشاي بعد ساعة ونصف، وقالت لـــ«تومبسون» أنّه حقق عجائب أثناء عمليات الحفر، وأنّها تعتقد أنّنا استخرجنا كل ما يُمكن استخراجه من المكان: وأفصحت عن إعجابها بشكل خاص بكمال دفاترنا(١٥٤).

بالقطع، لم تكن معايير التنقيب عن الآثار التي كان يتبعها الفريق الأثري البريطاني في كركميش ترقى للمعايير المتبعة في مشاريع أثرية كانت تعمل آنذاك بمناطق أخرى من الشرق الأدنى(١٥٥). وكانت «بيل» بعد أن زارت المشاريع الألمانية في بابل وآشور بالعامين 1909 و1911، قد شهدت فعلا بعض أدق عمليات التنقيب في أوائل القرن العشرين، التي اشتهرت بالإتقان الذي وصف ورسم به علماء الآثار المنشآت المعمارية، وإدراكهم الدقيق للموقع الزمني لكل مبنى (انظر الفصل الرابع). لقد كانت مُحقّة بعض الشيء في انتقادها لعمليات الحفر في كركميش، التي يبدو أنّ

غايتها الرئيسة كانت جمع المواد المنقوشة والحجارة المنحوتة، على حساب طبقات الصخور والسياق[١٥٦]، رغم أنّه لم يكن من اللائق أن تجهر بهذا الرأي أمام العاملين في التنقيب بهذا الموقع. وعلى أي حال، نحنُ نعلم أنّ «بيل» لم تشجب بقوة جهود التنقيب التي قام بها «تومبسون» أو «لورنس»، سواء في يومياتها أو رسائلها أو بأي موضع مكتوب آخر، بل اكتفت بالتعليق على ما كانوا يجدونه وأنّها أمضت يومًا ممتعًا في صحبتهم، وكتبت أنّ «لورنس» كان: «صبيًا يسترعي الاهتمام، وسيُصبح رحالة يومًا ما»[١٥٧]. وقد وصف «لورنس»«بيل» في رسالة إلى أمّه بأنّها: «امرأة عذبة، تبلغ من العمر حوالي ستة وثلاثين عامًا [وكانت «بيل» تبلغ في الحقيقة آنذاك اثنين وأربعين عامًا]، ليست جميلة (عدا حين تسدل خمارها، ربّما)»[١٥٨]. كانت هذه طبيعة هذا اللقاء الأول العابر بين «لورنس» و«بيل». لكن خلال حياتيهما المليئة بالأحداث، سوف تتقاطع مساراتهما عدة مرّات، لا في حلبة الأركيولوجيا، بل على مسرح السياسة والحرب في الشرق الأوسط. ولعلنا ننسب لهذين الشخصين بعض القرارات السياسية الأكثر حسمًا– وإثارة للجدل فيما بعد– المتعلقة بالشرق الأوسط، والتي لا زلنا نشعر بتداعياتها بعد مرور قرن كامل من الزمن.

مدافن «سيرين» البرجية

استمرّ علم الآثار في الاستحواذ على اهتمام «بيل» أثناء سفرها إلى ضفة نهر الفرات الشرقية، وكانت تعتزم القيام بهذه الزيارة وتسجيل بقايا كل العصور التاريخية. وبسبب معرفتها بالآثار الكلاسيكية من عملها الأثري في وقت سابق في بنبركيليسي بالأناضول، استمرّت العمارة والقطع الأثرية اليونانية الرومانية في التمتع ببعض الجاذبية. وبالتالي، تملّكها حماس شديد لزيارة وتسجيل بقايا مدفنين برجيين ينتميان للعصر الروماني، يقعان على مسافة أربع ساعات من «تل أحمر»، بالتلال المتعرجة خلف قرية «سيرين»[١٥٩]. كانت «بيل» على دراية بالفعل بوجود المدفنين؛ إذْ كان

«ماكس فون أوبنهايم» قد زارهما في العام 1898 وذكرهما في كتاباته[١٦٠]. مع ذلك؛ كما ذكرت «بيل»، كان تركيزه على إحدى العبارات المنقوشة فوق المدفن يعني وجود مزيد من الملاحظات على عمارة المباني والمعالم الخاصّة الأخرى، وهو ما يستحق القيام بأبحاث إضافية والتقاط المزيد من الصور الفوتوغرافيّة[١٦١]. وكان التقرير الذي كتبته «بيل» عن المدفنين البرجيين المنشور ضمن كتابها «من سلطان إلى سلطان» (ص: 8– 36)، هو الوصف المعماري الأكثر تفصيلاً لهذين الصرحين، حتّى ظهرت دراسة «روديجر جوجريفه» R.Gogräfe في العام 1995[١٦٢].



شكل (٢–١٠) «توماس إدوارد لورنس» (إلى اليسار) و«ليونارد وولي» (إلى اليمين) يقفان إلى جانب أحد الحجارة المنحوتة التي كانت ضمن جدارية كركميش الطويلة.

إنّ الجانب الأكثر قيمة في تقرير «بيل» هو أنّها حين زارت المدفنين البرجيين في العام 1909، كانا لا يزالان يحتفظان برونقهما مقارنة بما كانا عليه في العام 1992، حين زار «جوجريفه» الموقع. ذلك أنّ الجزء العلوي بالطابق الثاني في المدفن الشمـــالي كان قد سقط بالكامل آنئذ (انظر شكل ٢-١١)(١٦٣)، أمّا في حالة المدفن الجنوبي، فلم يتبق منه إلا كومة من كتل الحجارة المنهارة(١٦٤). ولهذا السبب اعتمد «جوجريفه» بقوة على صور «بيل» في إعادة بناء المدفن الجنوبي (إلى جانب الصور التي أعدّها «أوبنهايم» و«هنري بوجنون» Henry Pognon). واضطر إلى الاستناد على صور «بيل» الفوتوغرافية للمدفن الجنوبي بشكلٍ خاص؛ لأنّها كانت تشكّل أساس السجل الوحيد المُتوفر لهذا البناء.

ورغم أنّ «بيل» كتبتما كتبته قبل قرن تقريبًا، فإن وصفها لمعالم المدفنين البرجيين يُشبه بشكل أساسي ما كتبه «جوجريفه». وكان البرج الشمالي القائم على التلال الموجودة خلف قرية «سيرين» هو الأقرب إلى هيئته الأولى، ويتألف من برج مُربع تم تشييده بقوالب من الحجارة، ومُقسّم إلى طابقين اثنين. الجزء العلوي من الطابق الأول يُزينه «كورنيش» ناتئ قليلاً، وأسفله في الجهتين الشرقية والغربية رأسا حيوانين منحوتتين(١٦٥). وعلى الجانب الغربي أيضًا نقش سرياني يرجع تاريخه إلى العام 73 ميلادي، يقول إن المدفن بناه الملك «مانو» وإنّه كان مُخصصًا له ولابنه، ولا يزال هذا النقش موجودًا إلى يومنا هذا(١٦٦).

كان مدخل حجرة الدفن بالطابق الأرضي يقع في الجانب الشرقي، عبر فتحة صغيرة تؤدّي إلى الجهة الشمالية من المحور الأوسط(١٦٧). وكان جثمان أو جثامين المتوفين تُدفن داخل هذه الحُجرة، إضافة إلى الحجرة الموجودة في الطابق العلوي. وكانت الحجرة السفلية تُغلق في السابق

باستخدام حجر بازلتي مستطيل مُنزلق، كان وقت زيارة مؤلفة هذا الكتاب للمكان في العام 2009 مطروحًا على الأرض أمام المدخل. أمّا الجزء الداخلي فكان يتألف من حجرة يغطيها سقف معقود، وتصطف على جوانبه الأربعة دكك، مع فتحة صغيرة يدخل منها الضوء في الجدار الخلفي. وكان الطابق الثاني هو الآخر يضم حجرة للدفن لها مدخل من الجهة الشرقية مثل الحجرة السفلية. لكن في حالتها، كان الحجر البازلتي المُستخدم في إغلاقها لا يزال في مكانه[١٦٨].

كان كل جانب من جوانب الطابق الثاني بالمدفن البرجي مُزيّن بأربعة عواميد مُحززة ملتصقة بالجدران، في كل ركن عامود. وكل منها يحمل تاجًا أيقونيًا يعلوه طابان يشمل ساكفًا يضم ثلاث لفافات، ودنطيل، وكورنيش بارز في الأعلى[١٦٩]. كان السقف لم يعد موجودًا أثناء زيارة «بيل»، ورغم ذلك خمّنت أنّه كان على هيئة هرم[١٧٠]. والمثير للدهشة أنّ «جوجريفه» عثر على حجر كان قد سقط في مكان قريب، وكان له جانب منحدر وحلية على شكل بروز، فاستنتج «جوجريفه» أنّ هذا الحجر كان أحد أحجار سقف على شكل هرم[١٧١].

لم يكن المدفن البرجي الثاني خلف قرية «سيرين»؛ والذي يقع على مسافة كيلومترين جنوب المدفن الأول، محفوظًا بشكل جيد كسابقه. إذْ لم يكن قد بقي منه وقت زيارة «بيل» إلا جداره الجنوبي، ومنه لاحظت أنّ الطابق السفلي كان مزينًا بدعامة ضحلة قريبة من الجدار في كل ركن، وأنّ المدفن كانت له فتحة للدخول. وكان الطابق العلوي يتميّز بوجود عواميد ملتصقة بالجدار، لكنها لم تكن محززة. وفي مكان الباب المؤدّي للحجرة كان ثمّة محراب مقوس، ربّما من أجل تمثال ما[١٧٢].

وقد لاحظت «بيل» أثناء سيرها على جانب التل بالقرب من المدفن البرجي الشمالي، وجود العديد من المدافن المقطوعة في الصخور التي تمتلئ الآن بالتراب والحجارة، فخمّنت أنّ التل كان في السابق مقبرة للمستوطنة القديمة التي كانت موجودة بالقرب من ضفة النهر في الأسفل[١٧٣]. ولاحظ «جوجريفه» في العام 1992 وجود كثير من القبور المقطوعة في الصخر بالمناطق المجاورة للمدفن البرجي الجنوبي[١٧٤]. وقد لاحظت مؤلفة هذا الكتاب في العام 2009 وجود ما تبدّى كأنّه قمة ممر رأسي مكشوف يؤدي إلى مقبرة مقطوعة في الصخر، جنوب المدفن البرجي الشمالي مباشرة، إضافة إلى مقابر أخرى تعرضت للنهب منذ عهد قريب. وأخيرًا، إنّ ما يسترعي الانتباه هو أنّ المرء يستطيع أن يرى بوضوح في صور «بيل» الفوتوغرافية للمدفن البرجي الشمالي، تلاً من القوالب الحجرية جهة الجنوب الغربي[١٧٥]، ولعل هذه الحجارة بقايا مدفن برجي آخر، وهو تخمين يُضفي مزيدًا من المصداقية على ملاحظات «جوجريفه» بشأن ما تبدّى وكأنه حجارة الأساس لمثل هذا البناء بتلك المنطقة[١٧٦]. وقد لاحظت مؤلفة هذا الكتاب أيضًا في العام 2009 البقايا المكشوفة لتلك الأساسات، في حين اختفت عمليًا كل الحجارة المتبقية من ذلك البناء نهائيًا. بإيجاز، لا ريب أنّه كانت توجد «مدينة أموات» Necropolis فوق التل الذي شُيد عليه المدفنان البرجيان؛ في رأي «بيل»، لكن لسوء الحظّ أن تداعت هذه المقبرة القديمة، بخاصة خلال السنوات المائة الأخيرة.

تكشف الأبحاث الأخيرة حول المدافن البرجية بالشرق الأدنى أنّ مدفني قرية «سيرين» البرجيين ينتميان إلى فئة تختلف عن الأبراج الجنائزية ذات الزخارف الأبسط بكثير، والتي شاع استخدامها بوفرة في تدمر بوسط سوريا، والتي تنتشر عبر الصحراء في «حلبية» و«دورا أوربوس» و«باغوز» على نهر الفرات (وكانت «بيل» قد زارت الأخيرة في فبراير 1909)[١٧٧].

في الواقع، يبدو أنّ مدفني قرية «سيرين» البرجيين أقرب إلى المدافن المعروفة في الشمال والشمال الشرقي التي يرجع أغلبها إلى مملكة «أديسا»، حيثُ يبدو التأثير اليوناني الروماني أقوى مقارنة بتأثير تدمر(١٧٨). وربّما كانت أراضي «سيرين» نفسها جزءًا من مملكة «أديسا» هذه(١٧٩). ورغم أنّ «بيل» لم يكن متاحًا لها هذا القدر من الأدلة المتاح لنا اليوم، فإنه من الواضح أنّها كانت على المسار الصحيح حين انتبهت لوجود اختلاف بين المدفنين البرجيين في «سيرين»، وبين المدافن الموجودة في تدمر؛ إذ كتبت: «إنّ مدافن تدمر وحوران البرجية الشهيرة لا تغطيها أسقف على شكل أهرامات، كما أنّ واجهات جدرانها لا تقطعها في أي نقطة عواميد متصلة» (مثل المدفنين البرجيين في «سيرين»)(١٨٠).

مواقع الفرات الأثرية

تنقل كتابات «بيل» حالة الابتهاج التي اعترتها أثناء سفرها من «تل أحمر» إلى «سيرين»، وأثناء شقّ طريقها بمحاذاة مجرى الفرات، ثمّ دخولها إلى الأراضي قليلة السكان في قلب سوريا. وكان جزء من حماسها يرجع إلى حقيقة أنّها كانت تقتحم الآن منطقة نادرًا ما كان الأوروبيون يطأونها. فلا «هوجارث» و«أوبنهايم» تماديا إلى هذا الحدّ جنوبًا، كما أنّ الرحالة الأسبقين مثل الكولونيل «تشسني» ورفيقه «أينسورث» (1835) بالكاد شاهدا الضفة الشرقية من على متن قارب في النهر. ولم يلتق مسار «بيل» مع مسار آخرين جرؤوا على اقتحام هذا المسار من قبلها، من أمثال «إدورد سخاو» Eduard Sachau و«فريدريك ساري» Friedrich Sarre و«إرنست هرتسفلد» Ernst Hertzfeld، إلا جنوبًا عند مدينة «الرقة».

شغفت «بيل» أيضًا بمشهد التلال المتموجة المفتوح الذي يمتد بعيدًا عن ضفتي النهر، مقفرًا إلا من بعض الخيام بين الحين والآخر لجماعات من البدو الرعويين. كان المشهد ينقل إحساسًا بالحرية والبساطة غير المثقل بأي هموم، وعنه كتبت:

تطاير دخان نيران المُخيّم الصباحية الأزرق الرفيع من بين التجاويف وطفا معه قلبي؛ إذْ هَاهُنا أرى حياة الصحراء، في أماكن مفتوحة وتحت سماء مفتوحة، وحين تعرفها حقّ المعرفة، سيتهلل الشخص البدائي السرمدي الذي يقبع بين ضلوعك عندما تعود إليها[١٨١].

أدركت «بيل» حين لم تصادف إلا قرية واحدة بين «السعودية» والرقة بالضفة الشرقية لنهر الفرات، أنّ الأرض كانت تخلو لحدّ كبير من حياة الاستقرار والأنشطة الزراعية، ولَنّها- أي الأرض- كانت موطنًا لقبائل بني سعيد وعِنزة والولدة وجماعات البدو الرعويين الذين كانوا يتنقلون مع قطعانهم بحسب توافر المراعي ومصادر الماء خلال المواسم المختلفة[١٨٢]. ورغم ذلك افترضت؛ بالنظر لاحتمال خصوبة الأرض ووفرة المواقع التي تضم تلالا أثرية محطّمة بالقرب من النهر، أنّ هذه المنطقة لم تكن نادرة السكان هكذا دائمًا:

إنّ الحضور الجليل للنهر في قلب الأراضي البور التي لا تتطلب؛ في وجود ماء النهر، إلا القليل من العمّال لتحويلها إلى أراضٍ خصبة، لا يُفارق خيالي. إذْ لا أصدق أنّ الضفة الشرقية كانت قليلة السكان على هذا النحو، ورغم أنّ الظرف الحالي ربّما يرجع إلى عصور مبكّرة جدًا، فإنه من الجائز أنّه كان يوجد في يومٍ من الأيام حزام متصل من القرى بمحاذاة النهر، ولماكن هذه القرى لا تزال تحددها الأكوام الأثرية[١٨٣].

وكما خمّنت «بيل»، فقد شهدت هذه المنطقة التي كانت «بيل» تطوف بها داخل سوريا، تقلبات هائلة فيما يتعلّق بالمستوطنات البشرية على مدار تاريخها الطويل. ذلك أنّه خلال بعض العصور، استوطنت كثير من البلدات والقرى الزراعية ضفة الفرات الشرقية، في حين تحوّلت خلال عصور أخرى؛ من بينها فترة أوائل القرن العشرين حين مرّت بها «بيل»، إلى مراعٍ لا تطأها إلا أقدام القليل من جماعات البدو الرعويين المتناثرين. وقد تتبعت «دراسات المشهد الطبيعي» Landscape Studies الحديثة بعناية تلك التذبذبات التي شهدها استيطان تلك المنطقة، ووضعت في اعتبارها التقارير التاريخية إضافة إلى الملاحظات التي سجّلتها «بيل» والرحّالة الآخرون عن الظروف المحليّة، فضلا عن تفسير التغييرات التي أدّت إليها الظروف الاقتصادية والاجتماعية(١٨٤). إذْ يُمكننا أن نعزو العدد القليل للسكان في الفرات الأوسط بالفترة بين القرنين السابع عشر والعشرين، إلى غياب الأمن والتحكّم الإداري في هذه المنطقة التي كانت تتبع آنذاك الحكومة العثمانية(١٨٥). كما يجري اللجوء في كثير من الأحيان إلى طابع المنطقة الحدودي الذي حفّزه مناخ دون المستوى الأمثل، لتفسير تقلبات استراتيجيات الكفاف. إنّ أغلب منطقة الفرات الأوسط هذه، بخاصة هذا الجزء الذي تُغطيه «بحيرة الأسد» خلف سدّ «الطبقة»، يقع ضمن ما يسمى بـ«منطقة اللايقين» بالشرق الأدنى، إذْ تُشير «خطوط تساوي المطر» Rainfall Isohyets بين 200 إلى 300 مليمتر سنويًا إلى وجود احتمال كبير لفشل المحاصيل، وألا تحقق جهود الزراعة النجاح دائمًا(١٨٦). وهكذا، قد يتبنّى السكّان المحليون بسبب الظروف المناخية القاسية شكلاً من أشكال الاقتصاد البدوي الرعوي، والاعتماد على تربية الخراف والماعز بدلاً من زراعة المحاصيل. وإجمالا، شهد وادي الفرات الأوسط تاريخًا متنوعًا من النمو والتراجع؛ ومن الرخاء والفقر؛ وكانت «بيل» من بين أوائل من انتبهوا إلى تلك التناقضات اللافتة عبر الزمن.





شكل (٢-١١ أ، ب) صورة التقطتها «بيل» للمدفن البرجي الشمالي في قرية «سيرين» (الصورة في الأعلى)، والصورة التي التقطتها المؤلفة لنفس المدفن البرجي في العام 2009 (الصورة في الأسفل). اختفى تمامًا خلال القرن الماضي الجزء العلوي من الطابق الثاني في المدفن المُزين بتيجان تحمل طاباتًا يتألف من قوس نصر وكورنيش، كما اختفى بناء المدفن البرجي الحجري الذي نراه في صورة «بيل» على اليسار. نرى أمام المدفن البرجي مباشرة خندقًا يمرّ منه اللصوص إلى مدفن ثالث مُحتمل.

عند هذه النقطة في تقاريرها المكتوبة، يُصبح توثيق «بيل» للمواقع القديمة والقطع الأثرية المتناثرة مفصلاً بشكل خاص، إضافة إلى احتوائه على ملاحظات عن الجماعات القبلية الحديثة التي صادفتها. إذْ كانت تدون في كثير من الأحيان أسماء المواقع التي تتراكم فيها الأحجار، وآثار البقايا القديمة التي اكتشفتها في تلك المواقع والمسافة التي تفصل بين كل موقع وآخر. ومن ثمّ نستطيع في الغالب؛ من خلال تلك التقارير، أن نتتبع طريقها بدقة عبر التعرجات الطويلة بمحاذاة النهر، وأن نقارن ما لاحظته بما هو معروف الآن عن تلك الأماكن.

لقد أتاحت الدراسات المسحية الأثرية وأعمال التنقيب المكثّفة لحدّ بعيد التي كانت تجري هُنا؛ بخاصة منذ أواخر الستينيات، قدرًا كبيرًا من معرفتنا الحالية عن الماضي القديم لهذه المنطقة في الفرات. وقد أجريت أغلب هذه الجهود قُبيل بناء السدود الكهرومائية على طول نهر الفرات، في ظل حقيقة أنّ البحيرات التي ستنشأ خلف تلك السدود ستغطّي أجزاءً واسعة من الوادي، وستغمر المستوطنات القديمة بماء بشكل دائم. وقد اكتمل بناء أول سدّ في منطقة «الطبقة»، على مسافة أربعين كيلومترًا أعلى مدينة «الرقة»، في العام 1975. واستحدث بحيرة يبلغ طولها خمسة وثلاثين كيلومترًا فوق السدّ مباشرة. واكتمل بناء السدّ الثاني عند قرية «تشرين» شمالا في العام 1999، وملأ قسمًا ضخمًا آخر من وداي النهر يصل إلى «تل أحمر»، التي كفل لها ارتفاعها الكبير البقاء فوق سطح الماء بهذه المنطقة التي كانت يومًا مأهولة بعدد كبير من السكّان. وتحافظ أعمال التنقيب الأثرية والدراسات المسحية في وادي النهر على سجل حيوي لهذا المشهد الأثري، بعد أن صارت الآن الكثير من المستوطنات القديمة غارقة تحت الماء عشرات الأمتار. كما توفّر البانوراما

الفوتوغرافية التي التقطتها «جيرترود بيل» لمناطق عديدة بوادي الفرات في هذه المنطقة منذ أكثر من قرن، لمحات نفيسة من مشهد أثري تبدّل أو اختفى تمامًا الآن.

كانت بعض الأماكن القديمة التي مرّت بها «بيل»؛ مثل قرية «جعد المغارة»(١٨٧)، و«تل المريبط»(١٨٨)، تمتلئ بالسكان بعصور ما قبل التاريخ(١٨٩). إذْ تكشف بقايا العصر الحجري الحديث في «تل المريبط»؛ التي يعود تاريخها للفترة بين 10,000 و8700 قبل الميلاد، آثار أكواخ بيضاوية أو مستديرة شبه تحت الأرض، ظلّت مأهولة بالسكان طوال عصور ممتدة. وكان البشر في كلا الموقعين يجربون زراعة المحاصيل الغذائية، وتربية قطعان من الخراف والماعز، ما يجعلهم بين أوائل المجتمعات الزراعية في العالم(١٩٠).

كما أظهرت مواقع أثرية أخرى- أعني بذلك تل «الشيخ حسن» الذي مرّت به «بيل» ويقع أسفل «منباقة» مباشرة، ورأس «جبل عرودة» العالي على الجانب الآخر من النهر- أدلة على وجود سكّان يعود تاريخها إلى العام 3600 قبل الميلاد(١٩١). وبالنظر إلى عمارة تلك المواقع والأدوات الفخارية والإدارية (ألواح عددية وأختام أسطوانية)، فإنّ سكّان هذه المواقع يتألفون من مستعمرين جاءوا من جنوب بلاد الرافدين كانوا يعيشون في سوريا، ربما من أجل ممارسة التجارة على طول نهر الفرات(١٩٢).

تحظى بعض الأماكن التي كتبت عنها «بيل» بأهمية خاصّة؛ باعتبارها أماكن كانت مأهولة بالسكان بشكل ملحوظ إبان العصر البرونزي المبكر بالألفية الثالثة قبل الميلاد، وتشمل «قرة قوزق» و«تل البنات» و«شمس الدين»(١٩٣)، و«تل الظاهر»(١٩٤)، و«الجرنية»(١٩٥)، و«تل حلاوة»(١٩٦). حيثُ كشف البحث الأركيولوجي بتلك المواقع والأراضي المُحيطة بها عن وجود

منطقة مُحاذية للنهر ذات كثافة سكّانية عالية تتألف من قرى وبلدات زراعية، ومراعٍ تمتد داخل السهوب التي تقع خلفها. وتتمتع بعض تلك المستوطنات بمعالم شبه حضرية مثل أسوار المدن دقيقة البناء والتخطيط؛ ومعاقل وبوابات مُحصّنة؛ ومنازل فسيحة؛ ومجمعات معابد ضخمة وصروح جنائزية[١٩٧]. كما تشهد أيضًا الأدلة على وجود مبادلات بعيدة المدى- جرى العثور عليها في أغلب الأحيان داخل مقابر الموقع وتتخذ شكل الأسلحة النحاسية والبرونزية، والأواني المستوردة جميلة الصنع، والحلي المصنوعة من الذهب والفضة والحجارة شبه النفيسة- على الطابع المزدهر والكوزموبوليتاني لوادي نهر الفرات أثناء هذه الفترة بالعصور القديمة[١٩٨].

يبدو أن «بيل» كانت منجذبة بشكل خاص لـ«منباقة» Munbayah؛ بحجمها الكبير وأطلالها المهيبة التي انتبهت إليها «بيل». إذ اعتبرت «منباقة»؛ إضافة إلى «الجرنية»، الموقعين الأكثر إثارة للاهتمام من بين كل المواقع التي مرّت بها بين «تل أحمر» و«قلعة جعبر»، وتكتب أنّه راودها إغراء: «رفع الأتربة ورؤية ما يوجد أسفلها»[١٩٩]. كما يشهد على اهتمام «بيل» بـ«منباقة» الصور الفوتوغرافية الهائلة التي التقطتها للموقع والمُخطط الذي رسمته للموقع في دفترها الميداني[٢٠٠]. وقد خمّنت أنّ التلال العشبية وصفوف الحجارة التي تعقبتها، كانت بقايا أسوار المدينة بالمستوطنة، أمّا الفراغات الموجودة بينها فكانت بوابات المدينة التي أطلقت «بيل» بذكاء على إحداها اسم «باب الماء»؛ لأنّها تُطل على نهر الفرات (انظر شكل ٢-١٢)[٢٠١].

لقد أصبحت لدينا معرفة ممتازة عن موقع «منباقة»؛ بعد ما يزيد على القرن، بسبب أعمال التنقيب المكثّفة التي قام بها هناك فريقي أثري ألماني بين العامين 1969 و1994[٢٠٢]. كانت «منباقة» مأهولة بالسكان منذ الألفية

الثالثة قبل الميلاد ولديها مقبرة فوق قمة التّل تنتمي للعصر الروماني- البيزنطي، لكن الفترة التي شهدت أكثر كثافة سكانية كانت إبّان العصر البرونزي الحديث بالنصف الثاني من الألفية الثانية قبل الميلاد. وخلال هذه الفترة كان الموقع الّذي كان اسمه القديم «إيكالته» Ekalte، مستوطنة مزدهرة تمتد حوالي 15 هكتارًا، ولديها صلات واسعة مع كل أرجاء الشرق الأدنى. وكانت تحتوي على العديد من المعابد الضخمة ومنشآت الإنتاج الحرفي وأحياء تضم بيوتًا للسكنى جيدة التجهيز(٢٠٣). وقد تبيّن أنّ الأسوار التي حاولت «بيل» رسم مخطط لها، أسوار مدينة يعود تاريخها إلى العصر البرونزي الحديث، وتضم الأسوار المُحيطة بأطراف المدينة Aussenstadt، وبوسطها Innenstadt، وبمنطقة أعلى التلّ Kuppe(٢٠٤). وحددت «بيل» بشكل صحيح مواضع البوابات الشمالية والجنوبية المؤدية إلى وسط المدينة. ورغم أنّها تصوّرت أنّها عيّنت مكان «باب الماء» في المساحة الواقعة بين جدارين حجريين عاليين، فإن ما رأتهما في الواقع كانا جداري معبدين-بيتين(*) ضخمين (معبدا «ستينباو»1 و2)، شُيدا بأعلى نقطتين بالتلّ وكانا يطلان على النهر في الأسفل(٢٠٥). وإجمالا، أكدت الأبحاث على الطبيعة المهيبة لمستوطنة «منباقة» خلال العصر القديم، لتبرر بحقّ رغبة «بيل» في «رفع الأتربة» و«رؤية ما يوجد أسفلها»(٢٠٦).

قلعة جعبر

كانت «قلعة جعبر» أحد أروع مواقع العصر الإسلامي التي مرّت بها «بيل» أثناء انطلاقها جنوبًا بالضفة الشرقية لوادي نهر الفرات؛ إذْ وصفتها في رسالة إلى أمّها بأنها: «أبدع قلعة بكل التاريخ العربي». تنتصب القلعة

(*) المعبد البيت Temple in Antis هو أبسط أنواع المعابد الكلاسيكية، حيثُ يُشبه مُخططه مُخطط البيت العادي. [المترجم]

بمحاذاة النهر لتحرس ممرًا تجاريًا يمتد باتّجاهي منبع ومصبّ الفرات، إضافة إلى المعبر الذي كان يوفّر حلقة وصل حيوية بين حلب في الغرب والموصل في الشرق(٢٠٧). ويُمكن للمرء إذا كان يقترب من مسافة بعيدة، أن يرى دفاعاتها وأبراجها ومئذنتها البارزة في القلب منها، ترتفع عاليًا فوق هضبة مرتفعة بالوادي، كما تبيّن صور «بيل» الفوتوغرافية (انظر شكل ٢-١٣). ولا تقل القلعة اليوم روعة عن الأمس، رغم تبدّل المشهد المُحيط تمامًا. ذلك لأنّ مياه بحيرة الأسد الصناعية التي تكونت نتيجة بناء سد «الطبقة» تُحيط بالقلعة وترتفع إلى أساساتها، ومع ذلك تنتصب القلعة كأنّها جزيرة وسط المشهد الأزرق، لا يربطها بالشاطئ سوى طريق معبّدة ضيقة(٢٠٨).

شُيدت القلعة إبان القرن السابع الميلادي، لكنها لم تحظ بأهميتها القصوى كحصن منيع على النهر إلا بين القرنين الحادي والرابع عشر، وذلك حين توالى عليها حكم السلاجقة ثمّ الزنكيين ثمّ الأيوبيين ثمّ المماليك. كما خضعت أيضًا لاحتلال الفرنجة مُدة قصيرة في أوائل القرن الثاني عشر، حين استولى عليها الصليبيون من إمارة «أديسا»(*)(تُعرف اليوم باسم «أورفة»). وقد شهدت القلعة في عهد «نور الدين زنكي» (1146– 1174) تجديدًا هامًا، وأغلب ما نراه اليوم؛ الذي يشمل تحصيناتها المنيعة ومئذنتها وجامعها الداخليين، يُعزى لهذا الحاكم. كما أمر المماليك بإجراء بعض الترميمات في «قلعة جعبر» بالقرن الرابع عشر، بعد تدمير القلعة على يدّ المغول بالقرن المنصرم، لكنها لم تستعد قطّ مجدها وأهميتها السابقين، ويبدو أنّه جرى التخلّي عنها بعدئذ بفترة قصيرة(٢٠٩).

في الواقع، كان ما تعرفه «بيل» عن «قلعة جعبر» حين زارتها في العام 1909 قليلاً، ولا يُقدّم دفتر يومياتها ورسائلها إلا أوصافًا مُختصرة، ومما

(*) هي إمارة الرّها في المصادر العربية. [المترجم]

لا ريب فيه أنّه لم يسبقها إلى زيارة القلعة أو الكتابة عنها بأي شكل إلا عدد قليل من الرحالة والباحثين الأوروبيين. مع ذلك، تمكّنت «بيل» أثناء تأليف كتابها «من سلطان إلى سلطان»، من تقديم خطوط تاريخية عريضة موجزة بناءً على معلومات استخرجتها من كُتب المؤرخين والجغرافيين القروسطيين من أمثال أبو الفداء وياقوت الحموي وبنيامين التطيلي(٢١٠). وتسجّل صورها الفوتوغرافية لقلعة جعبر تفاصيل معمارية لم يعد لها وجود اليوم. ولقطاتها النائية للقلعة إذْ تقفُ شامخة عند وادي النهر؛ الّذي تحوّل اليوم إلى بحيرة الأسد، جديرة بالملاحظة. كما تستحق الاهتمام صورتها الفوتوغرافية لحائط مُشيد بالطوب بأحد المباني المعقودة الواسعة، التي تقع مباشرة أعلى البوابة الحصينة بالجانب الجنوبي الغربي. والزخارف المتدرجة مُعينة الشكل على غرار الطوب التي تُزين السور الخارجي؛ والمعروفة باسم «هزارباف» Hazarbaf، لافتة للنظر بشكل خاص (انظر شكل ٢-١٤)(٢١١). وقد انهار جزء من هذا السور خلال الجزء الأخير من القرن العشرين، ومن ثمّ فإنّ ما نراه اليوم من عرض السور هو نصف ما رأته «بيل» تقريبًا منذ قرن. وتسجّل صورتها الفوتوغرافية للمئذنة الأسطوانية ذات القاعدة المربعة بجانب المسجد المُقام في وسط القلعة، الّذي يُمكننا أن نُرجعه إلى «نور الدين زنكي» (1170 ميلادي) على أساس النقوش المكتوبة بالقرب من رأس المئذنة، حالتها الأولى قبل أن تخضع للترميم أثناء الانتداب الفرنسي؛ إذْ حلّ الآن محل البناء المتآكل من الطوب بناء حديث بالآجر والخرسانة(٢١٢).

هرقلة

كان لا يزال أمام «بيل» المزيد من مواقع العصر الإسلامي المهمة بعد «قلعة جعبر» مُباشرة. إذْ بعد مَسيرة بلغت يومًا ونصف اليوم على ظهور الجياد جنوب النهر (قطعت خلالها خمسين كيلو مترًا)، وصلت إلى أطلال

«هرقلة» الغامضة، التي وصفتها بأنّها حصن مستطيل الشكل يُحيط به خندق وساحة مسوّرة، ويتميّز بوجود أربعة أبراج عند كل ركن وأقبية من الطوب تطلب بناؤها إقامة هياكل مؤقّتة(٢١٣). لم تصدق «بيل» أنّ بناء «هرقلة» يعود للعصر الإسلامي، وبذلك اتفقت مع باحثين آخرين بخاصة «سخاو» الذي اعتبرها معسكرًا أو حصنًا رومانيًا(٢١٤). وقد اقترحت الأبحاث التي أجراها «ساري» و«هرتسفلد» عقب رحلتهما جنوب الفرات في العام 1907، تاريخًا بديلاً يؤكّد على أنّ تاريخ بنائها يعود للعصر الإسلامي بأوائل القرن التاسع الميلادي إبّان الدولة العباسية(٢١٥). ووفقًا لمصادر «ساري» و«هرتسفلد» التي اعتمدا فيها على مؤرخين عرب، فإنّ بناء «هرقلة» كان في الحقيقة في عهد الخليفة هارون الرشيد، وهي تمثّل بقايا صرح تذكاري لم يكتمل لتخليد الانتصار على البيزنطيين في «هيراكليون» بالأناضول(٢١٦). ومع أنّه قد تبيّن أن تاريخ البناء الذي طرحته «بيل» لم يكن صحيحًا، فإنها أدركت بشكل صحيح معماريًا أنّ الأقبية المُشيدة بالطوب كانت تدعم مصطبة شُيد فوقها طابق علوي، وهي ملاحظة انتبه إليها «هرتسفلد» هو الآخر وسار على نهجها كل الباحثين الآخرين(٢١٧).

الرقــة

عثرت «بيل» بعد أن وصلت إلى الرقة بالقرب من نقطة التقاء الفرات مع نهر «البليخ»؛ على مسافة ثمانية كيلو مترات من «هرقلة»، على ثروة من أطلال العصر الإسلامي. ومثل «قلعة جعبر»؛ اعتمادًا على يومياتها ورسائلها التي كتبتها إبان زيارتها للموقع، فإنّ «بيل» لم تكن لديها خلفية تاريخية كبيرة عن الرقة(٢١٨). ورغم ذلك، يكشف سردها التالي عن الموقع في كتاب «من سلطان إلى سلطان»، أنّها تعلّمت ما يكفي لتكوين ملاحظات مطلعة عديدة عن البقايا التي سجّلتها وصورتها هناك.

نجحت «بيل» في تخمين ما يتعلّق بحقلي أنقاض رئيسين في الرقة؛ حيثُ كانت الأنقاض الشرقية هي موضع أقدم مُدن العصر الكلاسيكي التي عُرفت باسم «نيكفوريوم» و«كاليسيوم»[٢١٩]. ترجع أصول الرقة الأولى إلى العصر الهلنستي، وقد تمكّنت «بيل» من العثور على آثار تؤكِّد ذلك في شكل شظايا أعمدة رخامية، وتيجان متناثرة في المنطقة القريبة من مئذنة مربعة لا تزال موجودة في منتصف حقل الأنقاض[٢٢٠]. ونحنُ نعرف الآن أنّ المئذنة والمسجد الذي كانت تنتمي إليه المئذنة كانا قائمين في وسط هذه المدينة، التي سُميت باسم «الرقة» بعد الفتح العربي خلال العامين 639 و640. حظيت المدينة بالتجميل في عهد الدولة الأموية بالقرن الثامن الميلادي حين أسس الخليفة «هشام بن عبد الملك» سوقًا جديدًا في الرقة، وشيد قصرين، وكلّف ببناء جسر فوق النهر وحفر قناة لتزويد المدينة بالماء[٢٢١]. لكن اللافت للنظر هو أنّ المئذنة المربعة التي لاحظت «بيل» أنّها مُشيدة بالطوب فوق قاعدة حجرية لم يعد لها وجود الآن، وأنّ الصورة التي التقطتها إلى جانب الصورة التي التقطها «ماكس أوبنهايم»، هما السجلان المرئيان الوحيدان لهذا المبنى الذي كان مهيبًا يومًا ما (انظر شكل ٢-١٥)[٢٢٢].

كذلك خمّنت «بيل» بشكل صحيح أنّ حقل الأنقاض الغربي في الرقة كان يمثِّل بقايا مدينة «الرافقة»، التي أسسها الخليفة العباسي «أبو جعفر المنصور» حوالي العامين 771-772. وقد وسّع وكبّر حفيده «هارون الرشيد» هذه المدينة الجديدة بين العامين 786 و808، لتقوم بدور العاصمة الصيفية لبعض الوقت[٢٢٣]. وقد لاحظت «بيل» التفاصيل الإنشائية بسور المدينة المزدوج المبني على هيئة حدوة حصان، وتلال الأنقاض التي يُمكن رؤيتها بوضوح وسط الصحراء التي توجد بها الحجارة[٢٢٤]. مع ذلك، لم تسجل «بيل» أكوام الأنقاض الموجودة شمال سور المدينة، التي أظهرت أعمال التنقيب أنّها موقع مجمّع قصور شيده «هارون الرشيد» وبلاطه[٢٢٥].

وانجذبت بدلا من ذلك إلى المباني المحطّمة التي لا يزال من الممكن رؤية الأجزاء المتبقية منها فوق الأرض، وتشمل بوابة بغداد في الركن الجنوبي الشرقي من ساحة «الرافقة» المسورة، وما يُسمّى بقصر البنات- وهو قصر محطّم داخل الأسوار شمالاً- والمسجد الجامع والمئذنة في منتصف المدينة.



شكل (٢-١٢) صورة التقطتها «بيل» لباب الماء في موقع«منباقة». ترجع أغلب الحجارة الضخمة في هذه المنطقة فوق قمة التلّ إلى معبدين ضخمين ينتميان للعصر البرونزي.

لا غرو أنْ كانت «بيل» مُعجبة بآثار بوابة بغداد، بسبب واجهتها أنيقة الزخارف المبنية بالطوب (انظر شكل٢-١٦)[٢٢٦]. مع ذلك؛ في واقع الأمر، ما من صرح آخر في كل العالم الإسلامي أثار مثل هذه النزاعات حول

تاريخ بنائه. إذْ نسب «كيبل كريزويل» K.A.C.Creswell هذا المبنى المميز إلى عهد الخليفة المنصور، واعتبره ينتمي قلبًا وقالبًا للساحة الحصينة المسورة بمدينة «الرافقة» التي شُيدت في أواخر القرن الثامن[٢٢٧]. وحاجج «روبرت هيلنبراند» R.Hillenbrand أنّ معالمها الزخرفية ونوعية القوس المعقود فوقها يجعلها تنتمي لفترة أحدث، ربّما إلى أواخر القرن الحادي أو الثاني عشر؛ حيث تتشابه مع العمارة السلجوقية إبّان الدولة الزنكية[٢٢٨]. ورأى «لورينز كورن» L.Korn لأنّ أوجه التشابه الزخرفية بينها وبين «قصر العاشق» في سامراء، يؤكّد أنّ تاريخ بنائها يعود إلى أواخر القرن التاسع أو أوائل القرن العاشر[٢٢٩]. أمّا «بيل» فلم تخمّن تاريخ بناء بوابة بغداد أثناء وصفها في كتاب «من سلطان إلى سلطان»، واكتفت بالإشارة إلى أنّ الفرنسي «هنري فوبلت» H.Viollet نسب البوابة إلى «هارون الرشيد»[٢٣٠]. ومع ذلك حتّى عند هذه المرحلة، بدا أنّ «بيل» تعي أنّ بعض معالم البوابة المعمارية يُمكنها أن تلعب دورالمؤشرات التشخيصية إلى تواريخ لاحقة. إذْ لاحظت على سبيل المثال أنّ «قوس بوابة بغداد المسطح المدبب» يُمكن مُقارنته بمبنى يعود للقرن الثالث عشر بالقرب من «الأخيضر»[٢٣١]. واللافت للنظر أنّ هذا الشكل من الأقواس هو الّذي جعل آخرين مثل «جون وارن»John Warren يتشككون في التاريخ الذي حدده «كيبل كريزويل» لبناء بوابة بغداد بالقرن الثامن، وينسبون المبنى ككل إلى فترةٍ لاحقة[٢٣٢]. واليوم، لا يزال التاريخ الدقيق الذي شهد بناء بوابة بغداد في الرقة غير متفق عليه، رغم أنّ البعض الآن ينسبون بناءها إلى خلفاء الدولة العباسية الأوائل[٢٣٣].

وتسلط صور «بيل» الفوتوغرافية لقصر البنات في الرافقة؛ الذي وصفته بقولها إنّه «مجموعة أنقاض قصر بالقرب من السور الشرقي»، الضوء على الزخارف اللافتة للنظر بالإيوان[٢٣٤]. وتُعدّ الصور التي التقطتها لبرج القصر المؤلف من أربعة طوابق بالجانب الشرقي، حيثُ غطّت

زخارف جصية ثرية الحوائط المُشيدة بالطوب، جديرة بالملاحظة[٢٣٥]. كما أنّ الصورتين اللتين التقطتهما «بيل» للبرج وزخارفه يتمتعان بقيمة هائلة؛ إذْ لم يعد هذا المبنى المذهل قائمًا (انظر شكل ٢-١٧)[٢٣٦]. تحظى أيضًا صورة «بيل» للركن الجنوبي الغربي في قصر البنات، الذي كان يجتازه قبو مُقرنص أنيق الزخارف وأقواس غير نافذة Blind Arches (انظر شكل 18.2)[٢٣٧]. كان قسم هائل من هذه الأسقف المعقودة قد سقط بالفعل إبّان زيارة «كريزويل» للموقع وتصويره في الثلاثينيات، ومن ثمّ فنحنُ سعيدو الحظّ أن قامت «بيل» بتوثيق هذا الجزء البديع والرائع من القصر[٢٣٨].

أمضت «بيل» القدر الأكبر من زيارتها إلى الرقّة التي استمرّت ثلاثة أيام في وسط الرافقة، تفحص وترسم مخططات لمسجد المدينة الجامع. ورغم حالته المدمرة، استطاعت «بيل» تمييز أسواره الخارجية المبنية بالطوب اللبن مع زوايا دائرية مُحصنّة في فنائه الأوسط حيثُ كانت تنتصب مئذنة مُشيدة بالطوب فوق قاعدة حجرية مُربّعة. وقد أصابت «بيل» في تحديد تاريخ بناء المئذنة في عهد نور الدين زنكي (1165- 1166)[٢٣٩]؛ وذلك اعتمادًا على شكل المئذنة المميز والزخارف المجوفة بالقرب من الرأس، ومقارنتها بعين الرضا مع المئذنة التي كانت قد رأتها منذ وقت قصير في قلعة جُعبر. وعلى نحو مماثل، حددت بشكل صحيح تاريخ بناء أحد أروقة المسجد المبنية بالطوب؛ التي لا تزال على حالها بالجهة الجنوبية من الفناء، في عهد نور الدين زنكي بناءً على الكتابة الكوفية فوق القوس الأوسط، التي تسجّل قيامه بتجديد المسجد[٢٤٠]. مع ذلك، ارتابت «بيل» في أن يكون نور الدين قد احتفظ على نحو جوهري بالتصميم الأصلي للمسجد من دون تغيير أثناء إصلاحاته، وهي مسألة تناولها آخرون مثل «كريزويل» الذي صحح التاريخ الأصلي لبناء المسجد ونسبه إلى الخليفة العباسي المنصور حوالي العام 772 ميلادي[٢٤١].



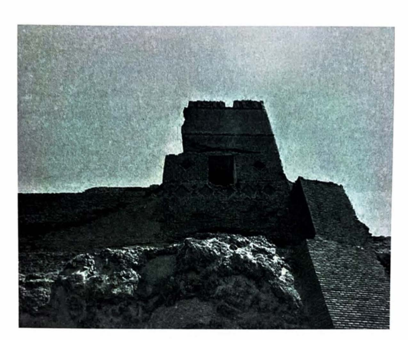
شكل (٢-١٣) صورة التقطتها «بيل» لقلعة «جعبر» التي تنتمي للعصر الإسلامي، تُطل على وادي نهر الفرات في الخلف. غمرت المياه وادي النهر عقب اكتمال بناء سدّ الطبقة وتكون بحيرة الأسد خلفه إبان السبعينيات، وتنتصب القلعة الآن كأنّها جزيرة وسط مياه البحيرة الزرقاء.

التقطت «بيل» بقدرتها الهائلة على الملاحظة تفاصيل مهمة بالمسجد؛ وهي التفاصيل التي دونتها أو رسمت مُخططات لها أو سجلتها من خلال الصور الفوتوغرافية. ويكاد يتطابق تقديرها على نحو مُذهل لعدد وأماكن المداخل المؤدية إلى قلب المسجد مع ما أكّدته أحدث المسابر الألمانية عن المبنى[٢٤٢]. وتقدّم صورها بشكل واضح تفاصيل التيجان الجصية التي تزيّن العواميد المتصلة التي تظهر في رواق نور الدين[٢٤٣]، إضافة إلى دعامة مستديرة مُشيدة بمداميك الطوب ذات الوصلات المفتوحة Open-Jointed[٢٤٤].

إضافة إلى اهتمامها بعمارة الرقة، أعربت«بيل» عن تقديرها للأواني الفخارية التي رأتها مبعثرة بين أنقاض مدينتي الرافقة والرقة. كان «فخار الرقة» قد حازِ بالفعل قيمة عالية إبّان زيارة «بيل» بسبب جماله وبراعة تصنيعه؛ حيثُ عثر محليون على آنية كاملة بين الأنقاض جمعوها وباعوها إلى تجّار في حلب، وقد وجد أغلبها طريقه إلى زبائن أوروبيين[٢٤٥]. وكانت الرقة تشتهر في عِزّها في العالم الإسلامي بصناعاتها الحرفية، بخاصة الفخار والزجاج الذي استمرّت في تصنيعه طوال خمسمائة عام حتّى زوال الإنتاج قبيل غزو المغول لسوريا بين العامين 1258 و1260[٢٤٦]. وكانت ورش الفخاريين التي انتشرت بعدة أماكن داخل وخارج الرافقة والرقة، تُنتج تشكيلة من الفخار المزجج وغير المزجج، وأشهره الذي يعود للنصف الثاني من القرن الثاني عشر وحتّى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، ويتألف من قطع فخارية لامعة مصنوعة من عجينة الحجر التي كانت رائجة على نطاق واسع في الشرق الأدنى وحتّى جنوب أوروبا[٢٤٧].



شكل (٢-١٤ أ) صورة التقطتها «بيل» لتفاصيل من واجهة مُشيدة بالآجر فوق بوابة قلعة «جعبر» القروسطية.



شكل (٢-١٤ ب) في العام 2009، التقطت المؤلفة صورة فوتوغرافية لنفس المعالم الموجودة في الشكل (٢-١٤أ)، توضِّح الضرر الذي أصاب النمط الزخرفي المُشيد بالطوب.

وعمومًا، ترك موقع الرقة انطباعًا مميزًا لدى «بيل»؛ إذْ غمرتها تلك الزيارة في آثار العصر الإسلامي، وجعلتها تدرك بحقٍّ مكانة الرقة الهامة في تطور الفن والعمارة بشكل عام، بسبب مزجها للتقنيات والمواد والتصميمات الخاصة بسوريا وبلاد الرافدين. لقد كانت الرقة هي أكثر الأماكن التي زارتها إثارة للفضول؛ إذْ لم يسبق «بيل» في دراسة آثارها إلا عدد قليل من الباحثين، وقد كانت تتطلع للقيام بمزيد من الأبحاث عند عودتها إلى إنجلترا. وقد تأكدت أهمية الرقة بالنسبة لــ«بيل» في رسالة إلى والديها، تروي فيها خططها لتأليف كتاب إضافي تدرس فيه الفن والعمارة في الرقة إضافة إلى الأخيضر وسامراء؛ والموقعان الأخيران هما اللذان أفرغت بهما أغلب قواها خلال رحلة العام 1909[٢٤٨]. وفي النهاية، لم تقم «بيل» بتأليف

هذا الكتاب- إذْ صار الأخيضر هو الموقع الذي استنفد أغلب مساعيها البحثية في ميدان أركيولوجيا العصر الإسلامي- لكنها لم تنس الرقة قطّ، والاستعانة بزخارفها وأشكالها المعمارية في خدمة الأخيضر، لتساعد في التأسيس لمكانة وأهمية هذا الموقع في تطور عمارة بلاد الرافدين.

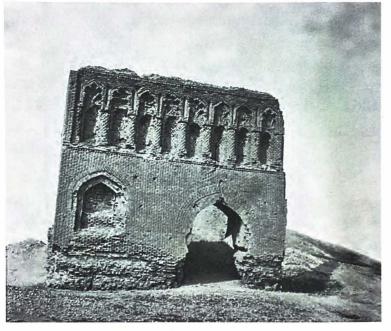


شكل (٢-١٥) صورة التقطتها «بيل» للمئذنة المربعة المُشيدة بالطوب وسط حقل الأنقاض في الرقة. يرجع تاريخ بنائها إلى الدولة الأموية بالقرن الثامن الميلادي، والصورة هي السجل المرئي الوحيد لهذا المبنى الذي لم يعد موجودًا أيضًا.

جنوب الرقة إلى مدينة «عنه»

لم يذبل اهتمام«بيل» مع استمرارها في التقدم بمحاذاة الضفة الشرقية لنهر الفرات جنوب الرقة وحتى «عنه». وقد تابعت التوقف لفحص المواقع الأثرية التي تنتشر بوفرة في هذه المنطقة بوادي النهر، وتصوير البقايا القديمة وتقدير أعمارها وأهميتها وأسمائها العتيقة. وقد شملت أبرز معالم هذه المنطقة في الوادي التي مرّت بها «بيل» الآن، حصن «الحلبية» المثير للإعجاب الذي لا يزال متماسكًا؛ قبالة مسار «بيل» على الجانب الأيمن من النهر، والذي يقع على مسافة مائة كيلومتر جنوب الرقة[٢٤٩]. كانت على دراية كبيرة بتاريخ هذا الموقع؛ إذ أُقيم أول الأمر خلال القرن الثالث الميلادي على يدّ ملكة تدمر الشهيرة «زنوبيا»، التي امتدت مملكتها يومًا إلى مشارف الفرات. وعقب تمرّد الملكة «زنوبيا» وإعلان استقلال مملكتها عن روما، استولى الرومان على حصن«الحلبية» بعد استيلائهم على تدمر بفترة قصيرة في العام 273 ميلاديًا[٢٥٠]. بعدئذ أصبح الحصن جزءًا مهمًا من دفاعات روما الشرقية ضد المملكة الساسانية في الشرق، واستمرّت «الحلبية» في دورها كخطّ دفاع مهم على الجبهة الشرقية في عصر الإمبراطور البيزنطي «جستينيان الأول» في القرن السادس الميلادي، والذي قد يُنسب إليه بعض الأنقاض المثيرة للإعجاب داخل الموقع، والتي لا يزال من الممكن أن نراها اليوم، مثل سور وبوابات المدينة الحجرية المذهلة، ومبنى حرس مؤلف من ثلاثة طوابق شُيد داخل سور المدينة، وقلعة فوق قمة الحصن الغربية[٢٥١]. لم تعبر «بيل» النهر لفحص هذا الموقع عن كثب، بل استقرت على فحص حصنه الشقيق المُعاصر والأقل إثارة للإعجاب؛ وهو حصن «زلبية»Zalebiye بالجانب الأيسر من النهر، ويقع على مسافة ثلاثة كيلومترات جنوب «الحلبية». لم تقم «بيل» برسم مُخطط «زلبية»، لكنها سجّلت وصفًا موجزًا لأسواره ذات الأبراج التي تجثم عاليًا فوق النهر، وبوابته المُحصنة، وبقايا بلدة كانت تقع خلف الحصن شمالاً[٢٥٢]. في الواقع،

لم تجر أي أعمال تنقيب منهجية في «زلبية»، وتشهد الصور الفوتوغرافية على حقيقة أنّ أنقاض الحصن حين زارت «بيل» الموقع تتشابه لحدّ كبير مع هيئتها الآن. وبالمثل كما يتضح من صور «بيل» الفوتوغرافية له، يبدو مجرى الفرات بداية من «الحلبية»، كأحد المناطق القليلة التي استمرّت عمليًّا كما هي من دون تغيير(٢٥٣).



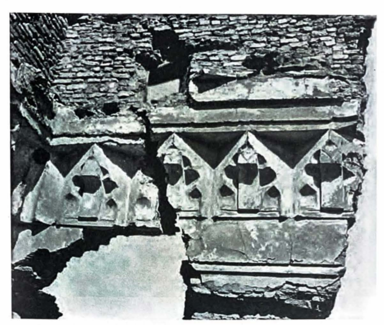
شكل (٢-١٦) صورة التقطتها «بيل» لبوابة بغداد الرائعة في الرقة، بمدخلها المعقود الرائع المبني بالطوب، وفي الجانب محراب تُزينه زخارف باستعمال الطوب بأسلوب «اله زارباف»، وفي الواجهة العلوية محاريب تزينها عقود ثلاثية تستقر فوق عواميد صغيرة متصلة بالجدار. تنتصب بقايا البوابة بالركن الجنوبي الشرقي في ساحة «الرافقة» المسورة المحصنة، التي شيدها الخليفة العباسي المنصور في القرن الثامن الميلادي، رغم الاعتقاد بأنّ البوابة نفسها تمثّل أسلوبًا أحدث للبناء خلال الفترة الإسلامية.

اللافت للنظر أنّ حصني «الحلبية» و«زلبية» كلاهما ارتكز إستراتيجيًا بنقطة على الفرات يضيق عندها مجرى النهر بين نتوءات صخرية. وقد يسّرت هذه الطوبوغرافيا الخاصة الوسائل التي تمكّن من خلالها المدافعون القدامى في كلا الموقعين من الإشراف على حركة المرور النهرية ومراقبة المعبر المتحرك فوق النهر[٢٥٤]. وكان هذا المجرى الضيق قد وقع عليه الاختيار في الماضي القريب باعتباره المكان المُقترح لبناء سدّ آخر في سوريا، كان مُقررًا له في الأصل أن يكتمل بناؤه بحلول العام 2012 تقريبًا[٢٥٥]. ربّما كان حصنا «الحلبية» و«زلبية» ليتأثّرا ببناء السدّ، ناهيك عن كثير من المواقع الأثرية الأخرى شمال النهر، التي إمّا كانت ستغمرها المياه جزئيًا أو ستغرق بالكامل. لكن الاضطرابات السياسية الأخيرة في سوريا أوقفت هذه المبادرة- ومن ثمّ؛ في الوقت الراهن، لا تزال هذه المنطقة القديمة من نهر الفرات وحرسها المسورون المهيبون الذين جاءوا من عهود صاخبة أخرى قائمة.

تابعت «بيل» رحلتها جنوب بلدة «دير الزور»؛ حيثُ استطاعت الحصول على المؤن وأن تريح الحيوانات التي تحمل الأمتعة، واستمرّت في زيارة وتسجيل بقايا المواقع الأثرية التي يجدر أن نذكر منها موقع قرية «البصيرة» بالقرب من نقطة التقاء نهر «الخابور» مع نهر الفرات؛ مكان «قرقيسيا» القديمة، وهي محطة حدودية أنشأها الإمبراطور الروماني «دقلديانوس»' (245- 311 ميلادي)[٢٥٦]. وقد لاحظت هُنا وجود حجرات صغيرة بجدران مُشيدة بالحجارة والآجر الذي انتزعه المحليون؛ وآثار محتملة لأقبية؛ إضافة إلى مبنى لاحق أُطلق عليه المكان المحليون اسم «كنيسة»، لكنها لم ترسم مخططات لتلك المعالم أو تريثت قليلًا كي تستوعبها بدرجة أكبر[٢٥٧]. وواصلت «بيل» رحلتها جنوبًا إلى «وردي» قبالة بلدة «البوكمال»، حيثُ زارت المدافن البرجية القائمة في «باغوز» أعلى المنحدرات التي تقع خلف وادي النهر. ونرى في كتابها «من سلطان إلى سلطان» الصورة التي التقطتها للمدفن المتماسك الذي يشتهر في مواضع

أخرى باسم «برج البوجلال»[٢٥٨]. وقد خمّنت «بيل» بعد تأمّل سلالمها الداخلية وغرف الدفن أسفل أساسات الأبراج وداخل الصخر الأصمّ، أنّ المدافن تعود إلى القرنين الأول أو الثاني الميلادي. مع ذلك، تقترح دراسات حديثة حول المدافن وتشابهها مع مدافن برجية بنفس الترتيب في تدمر، أنّها ترجع لتاريخ أسبق بوقتٍ ما خلال القرن الأول قبل الميلاد[٢٥٩].



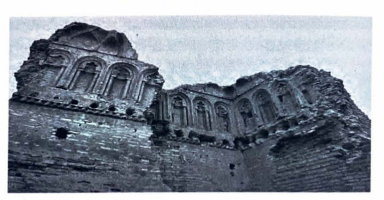


شكل (٢-١٧ أ، ب) برج «قصر البنات» المؤلف من أربعة طوابق، كان مقامًا للنخبة في الرقة وينتمي للقرن الثاني عشر (الصورة الأولى). يتميز البناء بزخارفه الجصية الثرية فوق الطوب، التي تشمل إفريزًا يتألف من قلنسوات على هيئة عوارض تضم عقودًا أصغر ناتئة غير نافذة، بينها فجوات مثلثة غائرة كفلت وجود تضاد بين الضوء والظلّ (الصورة الثانية). تُعد الصور التي التقطتها «بيل» من بين بعض الصور القليلة التي التقطت لهذا المبنى المذهل الذي لم يعد له وجود الآن.

كان المشهد يتبدّل مع تقدّم «بيل» في طريقها جنوب هذا المنطقة بمحاذاة النهر. كان المجرى نفسه تبرز في وسطه العديد من الجزر، أمّا الضفتان الشرقية والغربية فكانتا عبارة عن أراض صحراوية سكنتها قبائل «الدليم» و«العميرات» وعشيرة «الغراف» البدوية الرعوية، وكانت تعترضها الآن بين الحين والآخر حقول مزروعة وبساتين نخيل وأشجار فاكهة[٢٦٠]. كما لاحظت «بيل» أيضًا وجود نواعير Norias خشبية؛ وهي سواق تنقل ماء النهر إلى مستويات أعلى بالضفتين، تئن وتروي الحقول والحدائق[٢٦١]. وقد دفع هذا المشهد الجديد «بيل» إلى أن تكتب أنها: «عبرت

حدًا غير مرئي» إلى بلاد بابل[٢٦٢]. ولعله ليس من قبيل المصادفة، أن امتدت هُنا في هذه المنطقة جنوب بلدة «البوكمال» وشمال «عانة» على نهر الفرات، الحدود السياسية الحديثة بين سوريا والعراق بعد الحرب العالمية الأولى، على يدّ مسئولين أوروبيين من بينهم«بيل» نفسها.





شكل (٢-١٨ أ، ب) صورة التقطتها «بيل» لأحد أركان غرفة في «قصر البنات»، تتضح فيها الزخارف الجصية أعلى الحائط المشيد بالطوب (الأولى). وقبو مقرنص سليم ينتصب أعلى أقواس غير نافذة تتشكل من خمس نقاط ناتئة فوق عواميد متصلة ومدماك من الحجارة البارزة على هيئة ناب كلب. انهار القبو منذئذ كما تكشف الصورة التي التقطت لنفس الركن بالقصر في العام 2009 (الثانية) .



شكل (٢-١٩) منذنة ثمانية الأضلاع تنتمي للقرن الثاني عشر الميلادي فوق جزيرة «عانة» في نهر الفرات؛ العراق في الوقت الحاضر. كانت المئذنة قبل أن يؤدي سدّ «حديثة» إلى غرق الجزيرة في الثمانينيات، قد جرى تقطيعها إلى أجزاء ثمّ إعادة بنائها في بلدة «عانة» الجديدة. لكن المئذنة لم يعد لها وجود بعد قصفها بقنبلة في العلم 2006.

عبرت «بيل» بعد أن بلغت مستوطنة «راوة» بالضفة الشرقية لنهر الفرات، إلى الضفة المقابلة على متن «معديّة» صغيرة، وبذلك وصلت إلى «عانة» وهي بلدة سوق كثيفة السكّان على طريق البريد القادم من بغداد. تشغل البلدة شريطًا بريًّا ضيقًا على حافّة الماء يبلغ طوله عدّة كيلومترات، وتتميّز بالبيوت المبنية بالطوب اللبن وأكشاك السوق، وتتخللها الحدائق وبساتين النخيل. مع ذلك، لم تكن «بيل» ترغب في البقاء فسارعت إلى الانتقال على متن «معديّة» أخرى إلى جزيرة «لباد» بمجرى الفرات، قبالة الجانب الخفيض من «عنه». كانت البقايا الأركيولوجية تتناثر بكثافة فوق الجزيرة؛ إذْ كانت مأهولة بالسكان منذُ الدولة البابلية القديمة[٢٦٣]. كما كانت تشتهر أيضًا بأنّها كانت مأهولة بالسكان إبان الدولة الآشورية الحديثة بأوائل الألفية الأولى قبل الميلاد[٢٦٤]. كانت أبرز الآثار بالجزيرة بقايا تنتمي للعصر الإسلامي الحديث، وأعني بها مئذنة رائعة مُشيدة بالطوب كانت تنتصب يومًا إلى جوار المسجد الجامع الذي ينتمي للقرن الثاني عشر الميلادي. إنّ الصور التي التقطتها «بيل» لهذه المئذنة الشاهقة بشكلها ثماني الأضلاع، وتقسيمها إلى ثمانية صفوف من المشكاوات ذات العقود البارزة، لافتة للنظر على نحو فريد (انظر شكل ٢-١٩)، كذلك المشاهد التي التقطتها من فوقها التي تشمل «فردوس الجزيرة الوارف من أشجار الفاكهة وبساتين النخيل وحقول الذرة» (انظر شكل ٢-٢٠)[٢٦٥]. ولم تتمكن «بيل» من التنبؤ بأنّ هذه الجزيرة العتيقة الرائعة لن يكون لها وجود بحلول نهاية القرن العشرين؛ إذْ مع بناء سدّ «حديثة» العراقي في الثمانينيات، غمرت المياه تمامًا الجزيرة الموجودة عند «عنه»، حيثُ تحلّ محلها الآن بحيرة واسعة[٢٦٦]. وقد قام أهالي بلدة «عانة» بنقل المئذنة ثمانية الأضلاع إلى البلدة الجديدة على الضفة الغربية في العام 1985، لكن للأسف دمّرت قنبلة في يونيو العام 2006 هذا

الأثر الأخير من تراث البلدة القديم الثري[٢٦٧]. لتظلّ صورة «بيل» واحدة من أجمل وأوضح الصور لهذا الصرح فوق الجزيرة التي شهدت بناءه الأول.



شكل (٢-٢٠) صورة التقطتها «بيل» من أعلى المئذنة التي كانت موجودة فوق جزيرة «عنه». ونرى فيها المساحات الخضراء الوارفة شمال الجزيرة، كما نرى بقايا الجسر الذي كان يربط في السابق الجزيرة بالبلدة في ضفة النهر الغربية. لكن مع اكتمال بناء سدّ «حديثة»، غمرت المياه هذه الجزيرة كليًّا.

بوصول «بيل» إلى «عنه»، نبلغ نهاية المرحلة الأولى الكُبرى من رحلتها في العام 1909. وكانت رحلتها قد استمرّت حتّى هذه النقطة 26 يومًا بدءًا من حلب، غطّت خلالها 625 كيلومترًا وأعدت تقاريرًا عن ما يزيد على مائة موقع أثري[٢٦٨]. ورغم أنّها لم تلتقط إلا أقل من مائتي صورة فوتوغرافية، فإن هذه الصور توفّر سجلاً لا يُقدر بثمن للأنقاض والمشاهد الكثيرة التي مرّت بها طوال الطريق. وأغلب هذه الصور الفوتوغرافية تزداد قيمتها أكثر من ذي قبل، لأنّ موضوعاتها تغيّرت بشكل درامي أو لم تعد موجودة. لكن هذه المآثر لم تضع حدًّا بأي حال من الأحوال لرحلة «بيل» الطويلة أو تشكّل ذروة إنجازاتها؛ ذلك أنّها كانت على موعد مع جائزة أروع من الفخامة الأثرية.

هوامش الفصل الثاني

(1) Gertrude L. Bell, Amurath to Amurath (London, 1911), pp. 1–3.

(2) Ross Burns, Monuments of Syria: An Historical Guide (London, 1992), p. 28.

(3) David Gill, 'Hogarth, David George (1862–1927)', Oxford Dictionary of National Biography (Oxford, 2004), available at www.oxforddnb.com.ezproxy.library.ubc.ca/view/article/33924 (accessed 29 July 2015); David Hogarth, Accidents of an Antiquary's Life (London, 1910), p. 6.

(4) Hogarth, Accidents, pp. 7–11.

(5) Gill, 'Hogarth'.

(6) David Hawkins, 'Karkamiš', Reallexikon der Assyriologie und Vorderasiatischen Archäologie (Berlin, 1976–80), p. 434; Gill, 'Hogarth'.

(7) C.R.L. Fletcher, 'David George Hogarth, President R.G.S. 1926–27', The Geographical Journal 71 (1928), p. 333; Gill, 'Hogarth'.

(8) انظر بشكل خاص رحلات «هوجارث» إلى قبرص، التي جاء وصفها في:

Devia Cypria: Notes of an Archaeological Journey in Cyprus in 1888 (London, 1889) and in A Wandering Scholar in the Levant (New York, 1896); see also Adam Hill, Stepping Stones in the Stream of Ignorance: D.G. Hogarth as Orientalist and Agent of Empire (MA thesis, Southern Illinois University Edwardsville, 2008), pp. 32–46.

(9) على سبيل المثال، يصف كتاب «هوجارث» (The Nearer East (New York, 1902، طوبوغرافيا ومناخ وبيئة وجماعات السكان والاقتصاد وخطوط الاتصال في البلقان والشرق الأدنى ومصر. انظر أيضًا:

David Hogarth, 'Geographical conditions affecting populations in the east Mediterranean lands', The Geographical Journal 27 (1906), pp. 465–77.

(10) Hogarth, Accidents, p. 2; Hill, Stepping Stones, p. 31.

(11) Hogarth, Accidents, p. 2.

(12) Gill, 'Hogarth'.

(13) David George Hogarth, The Life of Charles M. Doughty (London, 1928).

سيُكمل ابن «هوجارث» الكتاب بعد وفاة أبيه. انظر أيضًا:

Jeremy Wilson, Lawrence of Arabia (New York, 1990), p. 816.

الذي تُناقش فيه مقدمة «توماس إدوارد لورنس» المُلغاة لهذا الكتاب.

(14) Fletcher, 'David George Hogarth', p. 330.

(15) رسائل ويوميات «بيل»، أبريل 1896 وأبريل 1899، أرشيف «جيرترود بيل».

(16) رسالة «جيرترود بيل» إلى أمّها، 11 أبريل 1899، أرشيف «جيرترود بيل».

(17) David Hogarth, 'Problems in exploration: I. Western Asia', The Geographical Journal 32 (1908), p. 556.

(18) Bell, Amurath, p. 29, fn. 1; Gertrude L. Bell, 'The east bank of the Euphrates from Tel Ahmar to Hit', The Geographical Journal 36 (1910), p. 513.

(19) رسالة «جيرترود بيل» إلى أمّها، 8 أكتوبر 1909، أرشيف «جيرترود بيل». إضافة إلى:

David Hogarth, 'Carchemish and its neighbourhood', University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology 2 (1909), pp. 165–84.

إضافة إلى وجود أربع رسائل أرسلها «هوجارث» إلى «بيل» بين العامين 1902 و1911 في «أرشيف جيرترود بيل» بجامعة نيوكاسل. حيث تتيح أولى الرسائل (وتعود إلى يناير العام 1911) تفاصيل عن نقوش تل أحمر، وفيها يصف «هوجارث» محاضرة سمعها عن الإمبريالية ألقاها صديقهما المُشترك اللورد «كرومر».

(20) رسالة «جيرترود بيل» إلى أبيها، 2 مارس 1917، أرشيف «جيرترود بيل». وفيها تقول إنّها ترغب بعد الحرب في اجتياز الصحراء العربية، لكنّها ستعود للوطن أولا لإحضار المزواة ومعدات أخرى.

(21) رسائل «جيرترود بيل» إلى والديها، 31 مارس و1 أبريل و23 و26 مايو 1900، أرشيف «جيرترود بيل»، التي تُعرب فيها لأول مرة عن اهتمامها ببن رشيد.

(22) David Hogarth, 'Obituary: Gertrude Lowthian Bell', The Geographical Journal 68 (1926), p. 366.

(23) Hogarth, 'Problems', pp. 556–7.

(24) المرجع السابق، ص 562–563. انظر أيضًا نعي «هوجارث» لـــ«بيل».

'Gertrude Lowthian Bell', p. 365.

وفيه يقول إنّ: «بيل تظل الأكثر دراية بجزء لا يُستهان به من المنطقة التي تمتد من الرقة إلى عانة».

(25) نستطيع أن نُلاحظ اختيارها للـــ «الدورية الجغرافية»The Geographical Journal لتنشر فيها ما كتبته عن منطقة جنوب ضفة الفرات الشرقية، وكانت هذه الدورية قد نشرت مؤخرًا تقريرين اثنين لـــ«هوجارث» هما: Geographical conditions و Problems.

(26) Bell, Amurath, p. 23, fn. 4; p. 24, fn. 3; pp. 54, 62, 76, 79, 113 and 200.

كان «أميانوس مارسيليانوس»Ammianus Marcellinus (330– 395 م.) مؤرخًا لاتينيًا شارك في حملة «جوليان» على فارس، وروى تفاصيلها في تاريخه.

Ammianus Marcellinus, Books 22–5. John F. Matthews, 'Ammianus Marcellinus', in Simon Hornblower and Antony Spawforth (eds), The Oxford Classical Dictionary, 3rd revised edition, online version (Oxford, 2005), available at www.oxford reference.com.ezproxy.library.ubc.ca/view/10.1093/acref/9780198606413.001. 0001/acref-9780198606413-e-361?rskey=Oqh5jT&result = 363 (accessed 29 July 2015).

(27) Bell, Amurath, pp. 16, 18, 24, 73, 82 and 114.

كان «زينوفون» مؤرخًا إغريقيًا اشتهر بدوره في حملة الأمير الفارسي «كورش» ضد أخيه «أرتشير الثاني» ملك فارس في العام 401 ق.م.، ونجد رواية «زينوفون» في كتاب «أناباسيس»Anabasis، وتذكر «بيل» بشكل مُتكرر مسار الزحف الكبير الذي قامت به قوات حملة «كورش»، والتي ضمّت عشرة آلاف من القوات المُساعدة الإغريقيّة، إلى معركة «كوناكسا» بالقرب من بابل، ومسار انسحابهم إلى البحر الأسود. انظر:

Christopher J. Tuplin, 'Xenophon', in Hornblower and Spawforth, The Oxford Classical Dictionary.

(28) Bell, Amurath, pp. 10, 22, 23.

كان «إسطرابون» جغرافيًا إغريقيًا (64 ق.م.– 21 م.) ألّف كتابين مسهبين، حمل أحدهما عنوان Geographica (في سبعة عشر جزءًا)، يصف فيه الطبيعة الجغرافية للبلدان الكُبرى ضمن العالم الروماني؛ علاوة على تطورها التاريخي والاقتصادي وعاداتها وحيواناتها ونباتاتها. وقد خصص الجزء السادس عشر لجغرافيا الشرق الأدنى. انظر:

Nicholas Purcell, 'Strabo', in Hornblower and Spawforth, The Oxford Classical Dictionary.

(29) Bell, Amurath, p. 21.

يُنسب لـ«لوتشيان» (115– 180)؛ الذي ولد في سوريا وسافر في أرجاء آسيا واليونان وإيطاليا وبلاد الغال، تأليف كتاب «عن الربّة السورية»De Dea Syria؛ الذي يضم وصفًا لأجزاء من سوريا. انظر:

Linda Dirven, 'Author of "De Dea Syria" and his cultural heritage', Numen 44 (1997), pp. 153–79; Kenneth Snipes, 'Lucian', in Alexander P. Kazhdan (ed.), The Oxford Dictionary of Byzantium (Oxford, 1991); an updated version is available online at www.oxfordreference.com.ezproxy.li
brary.ubc.ca/view/10.1093/acref/9780195046526.001.0001/acref-

9780195046526-e-3209?rskey=eMTOu3&result = 3209 (accessed 29 July 2015).

(30) Bell, Amurath, pp. 28, 38, 44 and 113–14.

كان «بطليموس» فلكيًا شهيرًا عاش في الإسكندرية خلال القرن الثاني الميلادي. وقد اشتغل بالجغرافيا إلى جانب جهوده في علمي الفلك والرياضيات. وتضم جهوده الجغرافية جداول تحتوي على مواقع كل الأماكن المعروفة في العالم آنذاك. وكان الكتاب مزوّدًا بخرائط وصل بعضها إلينا. انظر:

Andrew D. Barker, 'Ptolemy', in Hornblower and Spawforth, The Oxford Classical Dictionary.

(31) Bell, Amurath, pp. 23, 200.

كانت «اللوحة البويتينغرية» عبارة عن خارطة رُسمت إبان القرن الثاني الميلادي أو قبل ذلك، تمثّل العالم المأهول بالسكان من إسبانيا وبريطانيا في الغرب إلى الهند في الشرق. انظر:

Nicholas Purcell, 'Peutinger Table', in Hornblower and Spawforth, The Oxford Classical Dictionary.

(32) Bell, Amurath, pp. 23, 28, fn. 1.

الوثيقة عبارة عن مجموعة مكتوبة تضم حوالي 225 مسارًا بشبكة الطرق في الإمبراطورية الرومانية، وتقدّم الوثيقة بداية ونهاية والمسافة الكلية لكل مسار، علاوة على المسافات بين كل محطات الاستراحة الرئيسة. انظر:

Nichols Purcell, 'Itineraries', in Hornblower and Spawforth, The Oxford Classical Dictionary.

(33) Bell, Amurath, pp. 108–14.

كان «إيزيدور الكرخي» جغرافيًا عاش بين القرن الأول قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي. وكتابه الأشهر «المحطات الفرثية» عبارة عن وصف لمسار التجارة البرية من أنطاكية إلى الهند، لاسيما محطات القوافل التي كانت ترعاها الحكومة «الأرساسيديّة» أثناء وجودها حوالي العام 26 ق.م.، انظر:

Rüdiger Schmitt, 'Isidorus of Charax', in Encyclopedia Iranica XIV/2 (2007), pp. 125–7; an updated version is available online at http://www.iranicaonline.org/articles/isidorus-of-charax (accessed 29 July 2015).

(34) Adam Silverstein, 'Ibn Khurradadhbih', in J.W. Meri (ed.), Medieval Islamic Civilisation: An Encyclopedia (London, 2006), pp. 359–61.

عاش بن خردانبة في القرن التاسع الميلادي إبان الخلافة العباسية، ويشتهر في المقام الأول بدراساته الجغرافية عن أراضي المسلمين «كتاب المسالك والممالك». ويضم الكتاب وصفاً لشبكة طرق الخلافة والمسارات البرية والبحرية، إضافة إلى معلومات عن الإيرادات التي كان يجري جمعها من مُختلف مناطق الخلافة. كما يصف أيضًا البلدان غير الإسلامية بما فيها الصين وبيزنطة ومنطقة المحيط الهندي.

(35) عن الاصطخري، انظر:

Marina A. Tolmacheva, 'Geography', in J.W. Meri (ed.), Medieval Islamic Civilisation: An Encyclopedia (London, 2006), pp. 285–6.

ألّف الاصطخري الذي عاش في القرن العاشر الميلادي، أعمالا مرجعية تتعلق بالجغرافيا الإسلامية، قدّم بها معلومات عن طبوغرافيا مناطق مُختلفة، وبيانات إدارية ومسارات تجارية وبريدية، ووصفًا للحدود ومعلومات عن لغات ومُكّان تلك المناطق.

(36) David Morray, 'Ibn Jubayr, Abu'l-Husayn Muhammad B. Ahmad', in Meri, Medieval Islamic Civilisation, pp. 358–9.

كان ابن جبير رحالة وكاتبًا أندلسيًا ولد في العام 1145 ميلاديًا، اشتهر بما كتبه عن رحلاته في كتاب «رحلة بن جبير» عن بلاد الرافدين والشرق ومصر وحجّه إلى مكة.

(37) Claude Gilliot, 'Yaqut', in Meri, Medieval Islamic Civilisation, pp. 869–70 (the full article is pp. 284–8).

ولد ياقوت (الرومي الحموي) عبدًا في القرن الثاني عشر، ثمّ اشتراه تاجر من حماة في سوريا. سافر ياقوت إلى أماكن كثيرة في الشرق الأوسط، وألّف العديد من الكتب المتبحرة منها «معجم البلدان»، الذي يضم معلومات جغرافية وتاريخية مفيدة حول أسماء الأماكن في العالم الإسلامي.

(38) Daniella Talmon-Heller, 'Abū al-Fidā', al-Malik al-Mu'ayyad 'Imad al-Din', in G. Kramer, D. Matringe, J. Nawas and E. Rowson, The Encyclopaedia of Islam, Three (Leiden, 2008), 2008/1: pp. 39–40.

كان أبو الفداء أميرًا سوريًا أيوبيًا عاش بين القرنين الثالث والرابع عشر الميلاديين، اشتهر بكتاباته المتبحرة حول تاريخ البشرية وجغرافيا العالم.

(39) تجمع الآراء على أنّ Thapsaus؛ على سبيل المثال، التي تظهر في كتابات «زينوفون» وعند اجتياز الجيش الإغريقي نهر الفرات في العام 401 ق.م.، تقع بمنطقة Zeugma شمال Birijek، وليس بـ Dibseh كما أوردت «بيل» (من سلطان إلى سلطان؛ الصفحات 18 و22 و24 و27). ويقوم تعيين «بيل» لمكان Thapsacus في Dibseh على اقتراح قدّمه صديقها «برنهارد موريتز»(مرجع سابق، ص 18). لمزيد

من الدراسات المتعلقة بتحديد موقع Thapsacus في Zeugma وإمكانية وجود Thapsacus أدنى عند حلبية- زلبية أيضًا. انظر:

Michal Gawlikowski, 'Thapsacus and Zeugma: The crossing of the Euphrates in antiquity', Iraq 58 (1996), pp. 123–33.

(40) على سبيل المثال، أدّى تكرار ذكر اسم مدينة «إيروبوس»Europus على نهر الفرات بالروايات الكلاسيكية لكل من «أبيان» و«طونتشيان» و«بطليموس» و«بروكوبيوس» و«اللوحة البويتينغرية»، إلى استنتاج «هوجارث» إلى أنّ الاسم كان المُرادف الإغريقي الروماني لجرابلس، مكان تل كركميش الأثري.

Hogarth, 'Carchemish and its neighbourhood', pp. 167–9.

والحقيقة، علينا إن كان ينبغي أن نبحث عن المصدر الأصلي الذي ألهم تحريات «بيل» حول المسائل المتعلقة بالجغرافيا التاريخية- وألهم «هوجارث» أيضًا- أن نتجه إلى «وليم رامزي»؛ الباحث الذي كانا يعرفانه جيدًا. وكما هو معروف، صاحب «هوجارث»«رامزي» في رحلاته المتعلقة بدراسة الكتابات المنقوشة في الأناضول إبان ثمانينيات القرن التاسع عشر، في حين عملت «بيل» مع «رامزي» في بنبركيليسي بالأناضول. وسيصبحان سويًا على دراية جيدة بمنهج «رامزي» في دراسة الجغرافيا القديمة، الذي نجده بصورة مسهبة في أعمال مثل كتابه المهيب «الجغرافيا التاريخية لآسيا الصغرى» (لندن، 1890). وقد تعرّض هذا الكتاب للكثير من المصادر القديمة؛ سواء أركيولوجية أو تتعلق بدراسة النقوش القديمة، من كل العصور التاريخية، وألّف بينها وبين ملاحظاته الدقيقة عن طبوغرافيا الأراضي التي سافر عبرها. وقد حظي «رامزي»؛ باعتباره باحثًا كلاسيكيًا بامتياز، بمكانة علمية لا تُضاهى في حقل المصادر النصية القديمة، لكنه كان يُدرك هو الآخر أهمية رؤية والتنقل بين المشاهد الطبيعية التي جاء ذكرها في هذه النصوص القديمة، فكتب: «الطوبوغرافيا أساس التاريخ». وهو ما اتفق معه فيه تمامًا كل من «هوجارث» و«بيل» اللذين استمدت أبحاثهما معلوماتها بصورة مُكثفة من زيارتهما لمنطقة الشرق الأدنى، ورحلاتهما سواء على الأقدام أو فوق ظهور الجياد عبر مناطقه المختلفة.

(41) Gill, 'Hogarth'.

(42) Hill, Stepping Stones, p. 9.

(43) Wallach, Desert Queen, pp. 145–6.

(44) المرجع السابق، ص 16. من كتاب:

T.E. Lawrence, Seven Pillars of Wisdom (New York, 1991), p. 58.

(45) Margaret Olin, 'Art history and ideology: Alois Riegl and Josef Strzygowski', in Penny S. Gold and Benjamin C. Sax (eds), Cultural Visions: Essays in the History of Culture (Amsterdam, 2000), pp. 162–3.

(46) Suzanne Marchand, 'The rhetoric of artifacts and the decline of classical humanism: The case of Josef Strzygowski', History and Theory 33 (1994), p. 110.

(47) Marchand, 'Rhetoric of artifacts', p. 121.

(48) Talinn Grigor, 'Orient oder Rom? Qajar "Aryan" architecture and Strzygowski's art history', Art Bulletin 89 (2007), p. 564.

(49) Marchand, 'Rhetoric of artifacts', p. 118; Jaś Elsner, 'The birth of Late Antiquity: Riegl and Stzygowski in 1901', Art History 25 (2002), pp. 375–6.

(50) Marchand, 'Rhetoric of artifacts', pp. 109 –11, 123.

(51) المرجع السابق، ص 116.

(52) المرجع السابق، ص 120.

(53) المرجع السابق، ص126. انظر:

Robert Hillenbrand, 'Creswell and contemporary Central European scholarship', Muqarnas 8 (1991), pp. 27–8.

(54) Olin, 'Art history and ideology', pp. 164–5; Elsner, 'Birth of Late Antiquity', p. 372.

(55) Olin, 'Art history and ideology', p. 167.

(56) Elsner, 'Birth of Late Antiquity', p. 361.

(57) رسالة «جيرترود بيل» إلى أمّها، فبراير 1896، أرشيف «جيرترود بيل». وانظر:

Maciej Szymaszek, 'Josef Strzygowski in the letters and diaries of Gertrude Lowthian Bell', in P.O. Scholz and M.A. Długosz (eds), Von Biala nach Wien: Josef Strzygowski und die Kunstwissenschaften zum 150. Geburtstag von Josef Strzygowski (Vienna, 2015), p. 101.

(58) Bruno Schulz and Josef Strzygowski, 'Mschatta', Jahrbuch der Ko¨niglichen Preuszischen Kunstsammlungen 25 (1904), pp. 205–73.

(59) Bell, Review of 'Mschatta', pp. 431–2; Szymaszek, 'Josef Strzygowski', pp. 102–4.

(60) Marchand, 'Rhetoric of artifacts', pp. 124–5; Thomas Leisten, 'Concerning the development of the hira-style revisited', in Ann C. Gunther and Stefan R. Hauser (eds), Ernst Herzfeld and the development of Near Eastern studies, 1900–1950 (Leiden, 2005), p. 373.

(61) انظر الفصل الرابع، و:

Lisa Cooper, 'Archaeology and acrimony: Gertrude Bell, Ernst Herzfeld and the study of pre-modern Mesopotamia', Iraq 75 (2013), pp. 143–69.

(62) Marchand, 'Rhetoric of artifacts', p. 119.

(63) المرجع السابق، ص 120.

(64) Allan Marquand, 'Strzygowski and his theory of early Christian art', Harvard Theological Review 3 (1910), pp. 361–2.

(65) Bell, 'Notes on a journey', p. 30 n. 19.

تُشير رسالة «جيرترود بيل» يوم 13 مايو 1905 إلى أنّها استعانت بكتاب «سترزيجوفسكي» كمرجع يهديها إلى عمارة الكنائس في بنبركيليسي. انظر:

William M. Ramsay and Gertrude L. Bell, The Thousand and One Churches (London, 1909), reprint, with a new foreword by Robert G. Outsterhout and Mark P.C. Jackson (Philadelphia, 2008), pp. xx and xxix; Szymaszek, 'Josef Strzygowski', p. 104.

(66) Ramsay and Bell, Thousand and One Churches, pp. xx–xxi.

(67) رسالة «جيرترود بيل» إلى أبويها، الثاني من أبريل 1909، أرشيف «جيرترود بيل». وانظر:

Szymaszek, 'Josef Strzygowski', p. 108.

(68) رسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، 18 أبريل 1909، أرشيف «جيرترود بيل». وانظر:

Szymaszek, 'Josef Strzygowski', p. 108.

(69) رسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، 5 نوفمبر 1904؛ ورسالة «جيرترود بيل» إلى أبيها، 14 يونيو 1907؛ ورسالة «جيرترود بيل» إلى أبيها، 26 يوليو 1907؛ ورسالة «جيرترود بيل» إلى أمّها، 7 يوليو 1909؛ ورسالة «جيرترود بيل» إلى والديها، 1 يونيو 1911، أرشيف «جيرترود بيل».

(70) رسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، 15 فبراير 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(71) انظر على سبيل المثال صور «جيرترود بيل» الفوتوغرافية أرقام:

J_121, K_023, K_053, K_218, L_052 and L_168, Gertrude Bell Archive.

(72) Jim Crow, 'Gertrude Bell – Fotografin und Archa¨ologin', in Charlotte Tru¨mpler (ed.), Das Grosse Spiel. Archa¨ologie und Politik zur Zeit des Kolonialismus (1860– 1940) (Essen, 2008), p. 599.

(73) المرجع السابق، ص 605.

(74) المرجع السابق، ص605. وانظر صور «جيرترود بيل» الفوتوغرافية أرقام:

K_232, K_239 and L_001 for panoramic views of Ctesiphon, and K_086–090 for panoramas of Ukhaidir, Gertrude Bell Archive.

(75) المرجع السابق، ص 605. وانظر بشكل خاص صورتي «جيرترود بيل» البانوراميتين للأخيضر (K_088 and K_089)، اللتين يبدو واضحًا فيهما ظل «بيل».

(76) انظر على سبيل المثال قياسات «جيرترود بيل» لأنقاض منباقة بخطوات الأقدام، في دفترها الميداني:

GLB12, Royal Geographical Society (London).

(77) انظر رسالة «جيرترود بيل» في أكتوبر (اليوم غير مُحدد) 1913، بأرشيف «جيرترود بيل». حيث تُشير إلى الإرشادات الخاصة بمراقبة النجوم والاهتداء بخارطة رسمها أحد أفراد الجمعية الجغرافية الملكية في لندن. انظر أيضًا رسالة «جيرترود بيل» إلى أمها في الثالث من نوفمبر 1913، أرشيف «جيرترود بيل». كما تصف يومياتها من 4 إلى 7 ديسمبر 1913؛ أرشيف «جيرترود بيل»، العمل باستخدام المزواة في دمشق. وتنطوي يومياتها ورسائلها على الكثير من الإشارات أيضًا إلى معدات حملتها أثناء رحلتها بالجزيرة العربية في العامين 1913 و1914. ولَخيرًا، يضم دفترها الميداني الخاص بتلك الرحلة (رقم GLB 14)؛ المحفوظ بالجمعية الجغرافية الملكية في لندن، حساباتها المسجلة لتحديد خطوط العرض.

(78) تقدّم رسالة «جيرترود بيل» إلى أمّها في الثاني من فبراير 1909، أرشيف «جيرترود بيل». ويوميات «جيرترود بيل» يومي 16 و17 فبراير 1909، أرشيف «جيرترود بيل»، قياسات للارتفاعات فوق مستوى البحر. وهي تُشير إلى الجهاز باسم «البارومتر المعدني».

(79) تُشير «بيل» إلى خرائط «كيبرت» أثناء رحلاتها إلى فلسطين في العام 1899، وغرب سوريا والأناضول في العام 1905، وفي الأناضول بالعام 1907 مرّة أخرى. انظر يوميات «جيرترود بيل» يومي 21 و26 مارس 1905، وأيام 17 و22 و27 أبريل 1905، ورسائل «جيرترود بيل» يوم 13 ديسمبر 1899، و21 مارس 1905 و3 مايو 1907، أرشيف «جيرترود بيل».

(80) Ute Schneider, 'Die Kartierung der Ruinenlandschafter. Spate Wurdigung', in Trumpler, Das Grosse Spiel, pp. 46–7.

(81) F.R. Chesney, The Expedition for the Survey of the Rivers Euphrates and Tigris, carried on by order of the British government, in the years 1835, 1836, and 1837; preceded by geographical and historical notices of the regions situated between the rivers Nile and

Indus, 4 vols (London, 1850); W.F. Ainsworth, A Personal Narrative of the Euphrates Expedition, 2 vols (London, 1888).

(82) Richard Kiepert, 'Syrien und Mesopotamien zur Darstellung der Reise des Dr. Max Freiherrn von Oppenheim von Mittelmeere zu Persischen Golf, 1893, Westliches Blatt und Ostliches Blatt', in M. von Oppenheim, Von Mittelmeer zum Persischen Golf (Berlin, 1899–1900).

(83) يوميات «جيرترود بيل» يومي 27 و28 يناير 1909، ورسالة «جيرترود بيل» يوم 29 يناير 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(84) انظر يوميات «بيل» يومي 21 و22 فبراير 1909، أرشيف «جيرترود بيل»، التي تشير فيها إلى «قرى حددها أوبنهايم» و«طريق أوبنهايم»، إلى جانب وصف للمدافن البرجية شمال سيرين التي سجّلها «أوبنهايم»، والأرصفة الفسيفسائيّة في منطقة «المسعودية» القريبة. وقد علمت «بيل» أيضًا بالتحريات التي أجراها «أوبنهايم» آنذاك في «تل حلف»- حيث تكتب في يومياتها يوم 27 يناير 1909 أنّها اشترت كتابه عن الموقع (Oppenheim's Der Tell Halaf und die verschleierte Göttin, Berlin, 1908). انظر أيضًا إشارتها إلى رحلة «أوبنهايم» في العام 1899 عبر الفرات إلى قلعة نجم ثمّ إلى سيرين، في: Bell, 'The east bank', p. 515, fn.

وقد شهدت علاقة «بيل» مع «ماكس فون أوبنهايم»؛ وهو ألماني ساحر ومتألق برز بشكل دائم في أركيولوجيا الشرق الأدنى وألمانيا أيضًا- فضلًا عن السياسة العثمانية قبل الحرب العالمية الأولى، فترات تألق واضمحلال. لمزيد من المعلومات عن حياته ونشاطاته، انظر:

Gabriele Teichmann, 'Max Freiherr von Oppenheim – Archaologe, Diplomat, Freund des Orients', in Trumpler, Das Grosse Spiel, pp. 239–49.

حيث تعرّفت «بيل» على «أوبنهايم» من خلال صديقها «موريتز» في العام 1907 أثناء وجودها في القاهرة مع أبيها (رسالتي «جيرترود بيل» في الثامن والعاشر من يناير 1907، أرشيف «جيرترود بيل»). وكما أشرنا، فقد تبادلت الحديث معه أكثر من مرة في العام 1909، وكانت كلها أحاديث ودية ومفيدة. وفي العام 1911، خططت أثناء قيامها برحلة أخرى داخل بلاد الرافدين والأناضول، للقاء مع «أوبنهايم» أثناء قيامه بالتنقيب في «تل حلف»، لكنها أخفقت في رؤيته هناك لتراه في حلب بدلًا من ذلك. وتقدّم رسائلها رأيًا أقسى فيه من وجهة نظرها:

(على متن قارب «النيجر») ازدحم اليوم التالي للغاية بالكثير من الأمور؛ كبيع جيادي ودفع أجور الناس. ذهبت لتناول الشاي مع السيدة «كوك» حيث جاء «أوبنهايم»

الذي كان لا يزال في حلب، يستعد لرحلته إلى مدينة «رأس العين»- حيث تذكرين أني كنت أتوقع أن أراه مستقرًا هناك. لكم هو شخصٌ مروع! اليهودي السوقي الضئيل الأكثر إثارة للاشمئزاز- أصبح يتصرف الآن بشكل سافر كأنّه العارف ببواطن بلاد الرافدين وأنّ على الجميع انتظار ما سيقوله! لقد أصبح أسوأ مما كان عليه في مصر حيث كان أكثر نظافة وهندامًا. أتوقع ألا يبقى بصحبته أحد من المهندسين أو الناس الذين يرافقونه- شدّ ما هو بغيض (رسالة «جيرترود بيل» إلى أمّها، 29 مايو 1911، أرشيف «جيرترود بيل»).

قُوبل هذه التعليقات المُعادية لليهود ضد «أوبنهايم» أصدرها أيضًا كلا من «ديفيد هوجارث» و«ت. إ.. لورنس»، وكلاهما قابل «أوبنهايم» في سوريا قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى. لكن أكثر ما يُثير الدهشة هو أنّ «أوبنهايم» لم ير نفسه يهوديًا قطّ، إذ كانت أمه مسيحية وأبوه نصف يهودي. انظر:

Lionel Gossman, The Passion of Max von Oppenheim: Archaeology and Intrigue in the Middle East from Wilhelm II to Hitler (Cambridge, 2013), pp. 325, 330.

حيثُ يرى «جوسمان» أنّ خصوم «أوبنهايم» ربّما استغلوا التحامل ضد السامية لتقديم صورة أكثر قتامة لعدو هائل لدود. إذ لم يكن «أوبنهايم» على أي حال، مُجرّد أركيولوجي قبل الحرب، بل عميل خطير لقيصر ألمانيا (المرجع السابق، ص 331). انظر:

Scott Anderson, Lawrence in Arabia (Toronto, 2014), pp. 37–9.

لكن ينبغي رغم ذلك، أن نتحرى لأي مدى كان أفراد مثل «لورنس» و«بيل» واعيين بدوافع ونشاطات «أوبنهايم» السياسية في أوائل العام 1911.

(85) Bell, Amurath, p. 3.

(86) المرجع السابق، ص 3– 10.

(87) Burns, Monuments, p. 28.

(88) صورة «بيل» رقم J_085. تُشير «بيل» إلى موقع هذا الحجر باسم جامع القيقان. يوميات «جيرترود بيل» في 6 فبراير 1909، أرشيف «جيرترود بيل». انظر:

Bell, Amurath, p. 11; Burns,Monuments, p. 38.

يُعدّ الحجر الحثي موضع الحديث رُكنًا أساسية يوثق بناء معبد الإلهين«هبات» و«شاروما» على يد نائب الوصي على عرش الحثيين «تالمي- شاروما» حوالي العام 1300 ق.م.، انظر:

David Hawkins, Corpus of Luwian Inscriptions. Volume 1: Inscriptions of the Iron Age (Berlin, 2000), p. 388.

(89) رسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، 9 فبراير 1909، أرشيف «جيرترود بيل». و:
Bell, Amurath, p. 11, Fig. 2.

(90) Bell, Amurath, p. 11, Fig. 6; Burns, Monuments,

(91) Bell photos J_88–92, Gertrude Bell Archive; Bell, Amurath, p. 12.
ويُعرف المسجد أيضًا بجامع التوتة. انظر:
Burns, Monuments, p. 38.

(92) يوميات «جيرترود بيل»، 10 فبراير 1910، أرشيف «جيرترود بيل». ألبوم صور «بيل» الفوتوغرافية J_075_080، والصورة رقم J_076 هي الصورة التي التقطتها للمئذنة. انظر أيضًا من أجل صور أحدث للمسجد والمئذنة قبل تدميرها:
http://monummamluk-syrie.org/Fiches/Alep/HLB_mos quee_Tawashi_Jawhar.htm.

(93) GB photo J_053, Gertrude Bell Archive.

(94) Robert Hillenbrand, Islamic Architecture (New York, 1994), p. 359.

(95) GB photos J_61 and J_62, Gertrude Bell Archive; H.Z. Watenpaugh, The Image of an Ottoman City: Imperial Architecture and Urban Experience in Aleppo in the 16th and 17th Centuries (Leiden, 2004), pp. 192–3.

(96) GB photo J_059, Gertrude Bell Archive.

(97) GB photo J_058, Gertrude Bell Archive; Watenpaugh, Image, p. 194.

(98) Watenpaugh, Image, p. 194.

(99) رسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، 15 فبراير 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(100) Bell, Amurath, pp. 17–18.

(101) المرجع السابق، ص 16.

(102) المرجع السابق، ص 27؛ ورسالة «جيرترود بيل» إلى أبويها، 17 فبراير 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(103) Bell, Amurath, p. 28.

(104) المرجع السابق، ص 515.

(105) Hogarth, 'Carchemish', p. 179.

(106) Bell, 'The east bank', p. 513; Bell, Amurath, p. 29, fn. 1.
رسالة «جيرترود بيل» إلى أبويها، 17 فبراير 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(107) رسالة «جيرترود بيل» إلى أبويها، 17 فبراير 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(108) Bell, Amurath, pp. 28–30.

يوميات «جيرترود بيل» يومي 17 و18 فبراير 1909، ورسالتي «جيرترود بيل» إلى أبويها، 17 و18 فبراير 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(109) تفاصيل زيارة «بيل» لـــ«هوجارث» في أوكسفورد؛ لمراجعة مستنسخات النقوش والصور الفوتوغرافية، في رسالة «بيل» إلى أمّها بالثامن من أكتوبر العام 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(110) Hogarth, 'Carchemish', pl. 39.

(111) المرجع السابق، ص 179.

(112) لقراءة تفاصيل زيارة «جيرترود بيل» لهذا الموقع، انظر يومياتها في التاسع من يونيو 1909، ورسالتها إلى أمّها في العاشر من يونيو 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(113) Hogarth, 'Carchemish', pp. 180, 182; pls. 40: 1, 2, 4; 41: 1–6.

(114) F. Thureau-Dangin and M. Dunand, Til-Barsib (Paris, 1936); A. Roobaert and G. Bunnens, 'Excavations at Tell Ahmar-Til Barsib', in G. del Olmo Lete and J.-L. Montero Fenollo's (eds), Archaeology of the Upper Syrian Euphrates: The Tishrin Dam Area (Barcelona, 1999), pp. 163–78; G. Bunnens, Tell Ahmar: 1988 Season (Leuven, 1990); G. Bunnens, 'Looking for Luwians, Aramaeans and Assyrians in the Tell Ahmar stratigraphy', in S. Mazzoni and S. Soldi (eds), Syrian Archaeology in Perspective: Celebrating 20 Years of Excavations at Tell Afis (Pisa, 2013), pp. 177– 97.

(115) Guy Bunnens, A New Luwian Stele and the Cult of the Storm-God at Til BarsibMasuwari (Louvain, 2006), pp. 103–4; Bunnens, 'Looking for Luwians', p. 184.

(116) Peter Akkermans and Glenn Schwartz, The Archaeology of Syria (Cambridge, 2003) p. 382.

(117) Lisa Cooper, Early Urbanism on the Syrian Euphrates (London, 2006), pp. 230–2; Guy Bunnens, 'A third-millennium temple at Tell Ahmar (Syria)', paper delivered at the 9th International Congress on the Archaeology of the Ancient Near East, Basel, 12 June 2014.

(118) F. Thureau-Dangin, 'Tell Ahmar', Syria 10 (1929), p. 198 and pls. 28–31; Hawkins, Corpus, TELL AHMAR 1 Stele, p. 239.

(119) فيما مضى؛ في عصر الملك«أرياهيناس»، اغتنمت إحدى الأسر الفرصة لاغتصاب العرش وتنصيب أحد أفرادها ملكًا. كان اسم ابن ذلك الملك المُغتصب «هامياتاس»، ويبدو أنّه تعهد أنّه سيُعيد العرش إلى وريث «أرياهيناس»، الملك الذي أُغتصب منه العرش. لكن ذلك لم يحدث؛ إذ حاول ابن «هامياتاس» الاحتفاظ بالسلطة، فاضطر الوريث الشرعي للاستيلاء على السلطة بالقوة وتمكّن من استرجاع إرثه. انظر:

Bunnens, A New Luwian Stele, p. 103; Hawkins, Corpus, pp. 225–6; Guy Bunnens, 'Assyrian empire building and Aramization of culture as seen from Tell Ahmar/ Til Barsib', Syria 86 (2009), pp. 67–82, here p. 75.

(120) Bunnens, A New Luwian Stele, p. 33.

(121) Bunnens, 'Looking for Luwians', p. 183.

(122) Bunnens, A New Luwian Stele, p. 1.

(123) المرجع السابق، ص 1.

(124) المرجع السابق، ص 85.

(125) المرجع السابق، ص 103 –108.

(126) وربّما ثورًا بحسب:

Bunnens, A New Luwian Stele, p. 6; Bell, 'The east bank', p. 515; Bell, Amurath, p. 30; GB photograph J_135, Gertrude Bell Archive.

(127) Bunnens, A New Luwian Stele, p. 6.

(128) المرجع السابق، ص 6.

(129) Bell, Amurath, p. 31.

(130) المرجع السابق، ص 31–32.

(131) المرجع السابق، ص 33.

(132) Hawkins, 'Karkamis', p. 429.

(133) المرجع السابق، ص 428–434.

(134) J.D. Hawkins, 'Carchemish', in E.M. Meyers (ed.), The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East (New York, 1997), p. 424; Trevor Bryce, The World of the Neo-Hittite Kingdoms (Oxford, 2012), pp. 89–98.

(135) Bryce, World, pp. 83–4.

(136) المرجع السابق، ص 84.

(137) المرجع السابق، ص 84.

(138) Hawkins, 'Karkamis', p. 434; Hogarth, 'Carchemish', pp. 169–71 and pls. 35 and 36:1; Bell, Amurath, p. 34; GB photographs, Album J_145 and J_146, Gertrude Bell Archive.

(139) Wilson, Lawrence, pp. 70–3 and passim.

تقدم سيرة «توماس إدوارد لورنس» هذه جدولا زمنيًا تفصيليًا رائعًا لأعمال التنقيب في كركميش.

(140) Hawkins, 'Karkamis', p. 434.

(141) David Hogarth, Carchemish. Report on the Excavations at Jerablus on Behalf of the British Museum I: Introductory (London, 1914); C.L. Woolley, Carchemish. Report on the Excavations at Jerablus on Behalf of the British Museum II: The Town Defences (London, 1921); C.L. Woolley and R.D. Barnett, Carchemish. Report on the Excavations at Jerablus on Behalf of the British Museum III: The Excavations in the Inner Town, and The Hittite Inscriptions (London, 1952); Hawkins, 'Karkamis'', pp. 436–8.

(142) Nicolo' Marchetti, 'Karkemish on the Euphrates: Excavating a city's history', Near Eastern Archaeology 75 (2012), pp. 132–47.

(143) Wilson, Lawrence, pp. 81, 86, 96, 104, 116–17, 118–19, 122; Paola Sconzo, 'Bronze Age pottery from the Carchemish region at the British Museum', Palestine Exploration Quarterly 145 (2013), pp. 334–8.

(144) Lawrence James, The Golden Warrior: The Life and Legend of Lawrence of Arabia (London, 1990), p. 47; Wilson, Lawrence, p. 80.

(145) المرجع السابق، ص 79.

(146) Anderson, Lawrence in Arabia, p. 33.

(147) تميل إحدى مقالات «ليونارد وولي» عن «ت. إ. لورنس» التي كتبها بعدئذ، إلى تسليط الضوء على جهود «لورنس» بالمشروع. انظر:

Wilson, Lawrence, pp. 128–30.

وفيه تقييم لمقال «ليونارد وولي» عن «ت. إ. لورنس»، تحرير «أرنولد والتر لورنس» (لندن، 1937). حيث يطرح «ويلسون» عدة أسباب للتشكيك في الصورة التي رسمها «وولي» عن «لورنس».

(148) Cooper, Early Urbanism, p. 211; Sconzo, 'Bronze Age pottery'; Paola Sconzo, 'The grave of the court pit: A rediscovered Bronze Age tomb from Carchemish', Palestine Exploration Quarterly 146 (2014), pp. 3–16.

(149) James, Golden Warrior, p. 51.

(150) المرجع السابق، ص 52– 53، 60. وانظر:

Anderson, Lawrence in Arabia, pp. 33–4.

(151) James, Golden Warrior, p. 60; Wilson, Lawrence, pp. 543–5.

يرى البعض أنّ رؤية لورنس الرومانتيكية عن حُرية العرب نبعت من الصورة الذهنية المثالية لصديق لورنس دحوم الجرابلسي. ويُذكر أنّ الإهداء في رواية لورنس عن

دوره في الثورة العربية بكتاب «الأعمدة السبعة للحكمة»، مكتوب لسليم أحمد، وهو الاسم الكامل لدحوم.

(152) رسالة «جيرترود بيل» إلى أبويها، 20 مايو 1911، أرشيف «جيرترود بيل».

(153) رسالة «جيرترود بيل» إلى أبويها، 21 مايو 1911، أرشيف «جيرترود بيل».

(154) رسالة «لورنس» إلى أمه، 23 مايو 1911. في:

M. Brown (ed.), T.E. Lawrence: The Selected Letters (New York, 1988), pp. 36–7.

(155) Jonathan N. Tubb, 'Leonard Woolley und Thomas E. Lawrence in Karkemisch', in Trumpler, Das Grosse Spiel, p. 257.

(156) Tubb, 'Leonard Woolley', pp. 255, 257.

(157) رسالة «جيرترود بيل» إلى أبويها، 21 مايو 1911، أرشيف «جيرترود بيل».

(158) رسالة «لورنس» إلى أمه، 23 مايو 1911. في:

Brown, T.E. Lawrence, p. 37.

(159) Bell, Amurath, p. 36.

(160) Ibid., p. 36, fn. 1; GB diary 21 February 1909, Gertrude Bell Archive; Max von Oppenheim, 'Griechische und lateinische Inschriften aus Syrien, Mesopotamien und Kleinasien', Byzantinische Zeitschrift 14 (1905), pp. 1–72.

(161) رسالة «جيرترود بيل» إلى أبويها، 21 فبراير 1909، أرشيف «جيرترود بيل». لم يتبدّ أنّ «بيل» كانت تعلم بزيارة «هنري بوجنون»H. Pognon، وقيامه بنشر العبارات المنقوشة فوق المدفن الشمالي، حتّى عودتها إلى بريطانيا، لكنّها ذكرت ما أنجزه في كتابها «من سلطان إلى سلطان» (ص 36 و37).

(162) Rüdiger Gogräfe, 'Die Grabturme von Sirrin (Osroene)', Damaszener Mitteilungen 8 (1995), pp. 165–201.

(163) المرجع السابق.

(164) المرجع السابق، ص 186.

(165) ربّما كانا رأسا ثورين، رغم أنّهما لم يعودا موجودين الآن؛ لذلك تصعب معرفة هويتهما بصورة مؤكّدة. وقد خمّنت «بيل»؛ متبعة في ذلك رأي «أوبنهايم»، أنّهما يمثلان الأجزاء الأمامية من أسدين. انظر:

Bell, Amurath, p. 36; Gogräfe, 'Grabturme', p. 180.

(166) Bell, Amurath, p. 36; J.B. Segal, Edessa, 'The Blessed City' (Oxford, 1970), p. 23.

وتوجد ترجمة لنقوش «مانو» في:.

p. 23, fn. 4. 167.

(167) Gogräfe, 'Grabturme', p. 180.

(168) المرجع السابق، ص 180.

(169) Bell, Amurath, p. 37; Gogräfe, 'Grabtu¨rme', pp. 180, 183.

(170) Bell, Amurath, p. 37.

(171) Gogräfe, 'Grabturme', p. 183 and pl. 25b.

(172) Bell, Amurath, p. 38; Gogräfe, 'Grabturme', p. 186.

(173) Bell, Amurath, p. 38.

(174) Gogräfe, 'Grabturme', pp. 184, 186.

(175) GB photographs, Album J_149 and J_150, Gertrude Bell Archive.

(176) Gogräfe, 'Grabturme', p. 183 and pl. 26c.

(177) Warwick Ball, Rome in the East: The Transformation of an Empire (London, 2000), pp. 364, 366–7; Pascale Clauss, 'Les tours funéraires du djebel Baghouz dans l'histoire de la tour funéraire syrienne', Syria 49 (2002), pp. 170–1.

(178) Gogräfe, 'Grabtu¨rme', p. 199; Segal, Edessa, p. 29; Clauss, 'Les tours', p. 173.

(179) Segal, Edessa, pp. 23–4.

(180) Bell, Amurath, p. 37.

(181) المرجع السابق، ص 40.

(182) المرجع السابق، ص 30– 42.

(183) المرجع السابق، ص 47.

(184) استنادًا إلى تقرير «بيل» عن الطواحين البازلتية التي أُدمجت بالمدافن بين تل منباقة وتل المريبط وحقيقة أنّ البدو المحليين كانوا يجهلون ماهية هذه الطواحين، يقترح «توني ويلكنسون» مسألة أنّها كانت أجزاءً من سواق لطحن الحبوب (مقابل الطواحين التقليدية) كانت موجودة بالمناطق المُحاذية للنهر. انظر:

Tony J. Wilkinson, On the Margin of the Euphrates: Settlement and Land Use at Tell es-Sweyhat and in the Upper Lake Assad Area, Syria (Chicago, 2004), p. 5.

وانظر أيضًا:

Bell's photograph of a basalt millstone at Abu Said, further downriver, GB photo J_204, Gertrude Bell Archive.

(185) المرجع السابق، ص 5.

(186) Tony J. Wilkinson, G. Philip, J. Bradbury, R. Dunford, D. Donoghue, N. Galiatsatos, D. Lawrence, A. Ricci and S.L. Smith, 'Contextualizing early urbanism: Settlement cores, early

states and agro-pastoral strategies in the Fertile Crescent during the fourth and third millennium BC', Journal of World Prehistory, published online, 16 April 2014, DOI 10.1007/s10963-014-9072-2.

(187) Bell, Amurath, p. 30.

(188) المرجع السابق، ص 47.

(189) E'. Coqueugniot, 'Dja'de el Mughara (moyen-Euphrate), un village néolithique dans son environnement naturel à la veille de la domestication', in M. Fortin and O. Aurenche (eds), Espace naturel, espace habité en Syrie du Nord (Toronto, 1998), pp. 109 – 14.

(190) Akkermans and Schwartz, Archaeology of Syria, pp. 50 – 2.

(191) Bell, Amurath, p. 44.

(192) Akkermans and Schwartz, Archaeology of Syria, pp. 194–6.

(193) Bell, Amurath, pp. 30, 41, 43.

عن الموقع الأخير، تكتب «بيل» أنّها رأت بين كومة من الحجارة المصقولة، شظايا طابان تزينه زخارف منحوتة على هيئة دانتيل وسعف نخيل، من الجائز أنّها بقايا مدفن برجي. وقد خمّن «ويلكنسون» أنّه ربّما كان عند؛ أو بالقرب من، تل الجوف Tell Jouweif الذي كان مأهولا خلال الألفية الثالثة وخلال العصر الهلنستي المتأخر. ويعرف أيضًا باسم «شمس الدين شرق». انظر:

Wilkinson, On the Margin, pp. 5, 202.

(194) Bell, Amurath, p. 43.

يُعرف أيضًا باسم «شمس الدين الوسطى». وهنا تذكر «بيل» أنّها رأت أكوامًا من المباني الحجرية غير المُحصنة. انظر:

Wilkinson, On the Margin, pp. 249–50.

(195) Bell, Amurath, p. 43.

تمّ اكتشاف العديد من المدافن العمودية التي تنتمي لمقابر العصر البرونزي المبكر هُنا، ومن الواضح أنّه كان ثمّة مستوطنة هُنا أيضًا، رغم أنّ التلّ الأثري الذي لم يتحدد بعد أصله التاريخي يقع الآن داخل قرية حديثة. وقد كان يشهد قبل اندلاع الحرب في سوريا، انعقاد سوق الأحد. انظر:

Jan-Waalke Meyer, Gräber des 3. Jahrtausends. V. Chr. im syrischen Euphrattal. 3 Ausgrabungen in Samseddin und Djerniye (Saarbrucken, 1991), p. 149; Wilkinson, On the Margin, p. 5.

(196) Bell, Amurath, p. 47.

(197) Cooper, Early Urbanism.

(198) المرجع السابق.

(199) Bell, Amurath, p. 44.

(200) Bell photographs, Album J_158–163, Gertrude Bell Archive; Bell, Amurath, Fig. 25. 201.

(201) المرجع السابق، ص 44.

(202) D. Machule, '1969–1994: Ekalte (Tall Munba¯qa). Eine bronzezeitliche Stadt in Syrien', in G. Wilhelm (ed.), Zwischen Tigris und Nil (Mainz am Rhein, 1998), pp. 115–25.

(203) Peter Werner, Tell Munbaqa: Bronzezeit in Syrien (Neumunster, 1998).

(204) R.M. Czichon and P. Werner, Tell Mumba¯qa – Ekalte – I: Die Bronzezeitlichen Kleinfunde (Saarbru¨cken, 1998), Plate 1.

(205) Machule, 'Ekalte (Tall Munba¯qa)', p. 117.

(206) Bell, Amurath, p. 44.

(207) Christina Tonghini, Qal· at Ja· bar Pottery: A Study of a Syrian Fortified Site of the Late 11th–14th Centuries (Oxford, 1998).

(208) Burns, Monuments, p. 175.

(209) Tonghini, Qal· at Ja· bar Pottery, p. 23.

(210) Bell, Amurath, p. 51.

(211) Tonghini, Qal· at Ja· bar Pottery, p. 26.

(212) المرجع السابق، ص 26.

(213) Bell, Amurath, p. 53 and Figs 33–4.

(214) في العام 1855، كان «سخاو» أول أوروبي ينتبه لوجود هذه الأنقاض. انظر:
Eduard Sachau, Reise durch Syrien und Mesopotamien (Leipzig, 1883), p. 245; Bell, Amurath, p. 54, fn. 1.

(215) Kassem Toueir, 'Heraqlah: A unique victory monument of Harun al-Rashid', World Archaeology 14 (1983), p. 296.

(216) المرجع السابق، ص 296. وانظر:
Marcus Milwright, An Introduction to Islamic Archaeology (Edinburgh, 2010), p. 80.
وانظر أيضًا الفصول التالية في كتاب:

Verena Daiber and Andrea Becker (eds), Raqqa III: Baudenkmäler und Paläste I (Mainz am Rhein, 2004).

الذي يقدم مزيدًا من المعلومات حول هذا الموقع:

Kassem Toueir, 'Das Hiraqla des Harun arRasıd', pp. 137–42; S. Chmelnizkij, 'Uberlegungen zum Planungskonzept und zur Rekonstruktion von Hiraqla', pp. 143–8; and U. Becker, 'Uberlegungen zur Anlage von Hiraqla bei Raqqa', pp. 149–56, as well as pls. 88–9.

(217) Toueir, 'Heraqlah', p. 298.

(218) يوميات «جيرترود بيل»، يومي 27 و28 فبراير و1 مارس 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(219) Bell, Amurath, p. 54.

(220) المرجع السابق، ص 55 و56.

(221) Milwright, Introduction to Islamic Archaeology, p. 80.

(222) Stefan Heidemann, 'Die Geschichte von ar-Raqqa/ar-Ra¯fiqa', in S. Heidemann and A. Becker (eds), Raqqa II. Die Islamische Stadt (Mainz am Rhein, 2003), p. 17. See also Lorenz Korn's chapter on the Raqqa mosque and minaret, 'Die Grosse Moschee von ar-Raqqa', in Daiber and Becker, Raqqa III, pp. 19–23. Korn used Bell's photograph of the minaret (see pl. 4b; it is acknowledged on p. 164).

(223) Bell, Amurath, pp. 54, 56–7; Milwright, Introduction to Islamic Archaeology, p. 80.

(224) Bell, Amurath, p. 55.

(225) Milwright, Introduction to Islamic Archaeology, p. 80.

(226) K.A.C. Creswell, Short Account of Early Muslim Architecture (Harmondsworth, 1958), pp. 184–6.

(227) المرجع السابق، ص 187.

(228) Robert Hillenbrand, 'Eastern Islamic influences in Syria: Raqqa and Qal· at Ja· bar in the later 12th century', in Julian Raby (ed.), The Art of Syria and the Jazı¯ra (Oxford, 1985), pp. 27–36.

(229) Lorenz Korn, 'Das Baghdad-Tor (Sudosttor der Halbrundstadt)', in Daiber and Becker, RaqqaIII, pp. 11–18.

(230) Bell, Amurath, p. 59, fn. 1.

(231) المرجع السابق، ص 135. وقد أشار إلى هذه النقطة أيضًا:

Hillenbrand, 'Eastern Islamic influences', p. 28.

(232) المرجع السابق، ص 28.

(233) لقراءة مُلخص مُوجز ووافٍ حول كل التواريخ المُقترحة لبناء بوابة بغداد وشروح هذه التواريخ، انظر:

Stefan Heidemann, 'The citadel of al-Raqqa and fortifications in the Middle Euphrates area', in H. Kennedy (ed.), Muslim Military Architecture in Greater Syria (Leiden, 2006), p. 140, fn. 54.

(234) Bell, Amurath, p. 58; GB photographs, Album J_180, J_183 and J_184, Gertrude Bell Archive.

لم يصدر بعد تقرير كامل عن أعمال التنقيب في قصر البنات، رغم الاعتقاد السائد أنّه قد تم إعادة بنائه ليضم فناءً مركزيًا تُحيط به أربعة إيوانات. وكان الإيوان الخلفي يقود إلى القاعة الرئيسة بالمبنى، في حين كانت الغرف والدهاليز الأضيق تملأ المساحة بين ما وراء الإيوانات، وأغلبها كان مسقوفًا بأقبية ومغطّىً بالجبس. انظر:

Hillenbrand, 'Eastern Islamic influences', p. 37.

وانظر أيضًا:

Stefan Heidemann, 'Die Geschichte von ar-Raqqa/ar-Rafiqa – ein U berblick', in Heidemann and Becker, Raqqa II, p. 48.

(235) Hillenbrand, 'Eastern Islamic influences', p. 38.

(236) Bell photos J_180 and J_183, Gertrude Bell Archive. The online image of J_183 (www.gerty.ncl.ac.uk/photo_details.php?photo_id=2772) is upside down.

(237) Bell photo J_184, Gertrude Bell Archive; Bell refers to this as a dome set upon squinch-arches: Amurath, p. 58; Hillenbrand, 'Eastern Islamic influences', p. 38.

(238) انظر الصورة التي التقطها «كريزويل» لقصر البنات، وهي محفوظة الآن ضمن أرشيف «كريزويل» بالمتحف الأشمولي للفن والعمارة:

http://creswell.as hmolean.museum/archive/EA.CA.6692-0.html.

(239) Bell, Amurath, p. 58; Hillenbrand, 'Eastern Islamic influences', p. 36.

(240) Bell, Amurath, p. 58.

تعترف «بيل» أنّ صديقها السويسري الباحث «ماكس فان برشم»، نشر هذا النقش في الكتاب الذي ألّفه كلا من «فريدريك ساري» و«إرنست هرتسفلد» Archäologische Reisen، الذي كان من المقرر أن يصدر عقب كتاب «من سلطان إلى سلطان»، لذلك من المرجح أن تكون قد استلهمت منه تاريخ بناء هذا الرواق المُغطّى بسقف معقود.

(241) K.A.C. Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2 (New York, 1979), p. 47.

(242) Compare Bell's plan, Amurath, fig. 36, with the plan of the mosque, Abb. 1, in N. Hagen, M. al-Hassoun and M. Meinecke, 'Die Grosse Moschee von ar-Ra¯fiqa', in Daiber and Becker, Raqqa III.

وقد أعادت «بيل» بصورة صحيحة بناء ثلاثة مداخل لجانب المسجد الشمالي، على خلاف تقدير «هرتسفلد» الذي يقول بوجود خمسة مداخل. وقد أشار إلى ذلك «كريزويل» وأكّدته أعمال التنقيب الألمانية الحديثة. انظر:

Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2, p. 48 and fns. 2–3.

(243) Bell, Amurath, Fig. 39= GB photo J_190, Gertrude Bell Archive.

(244) Bell's photograph J_185.

(لاحظ أنّ التعليق المرافق للصورة «مسجد– قاعدة مئذنة» تعليق غير صحيح؛ ذلك أنّ هذا الجزء ينتمي لرواق المسجد المُغطّى بسقف معقود.) أرشيف «جيرترود بيل». وانظر أيضًا:

Hillenbrand, 'Eastern Islamic influences', p. 36.

(245) Bell, Amurath, p. 59.

(246) Milwright, Introduction to Islamic Archaeology, p. 146.

(247) المرجع السابق، ص 148.

(248) رسالة «جيرترود بيل» إلى أبويها، 21 أبريل 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(249) يوميات «جيرترود بيل»، 3 مايو 1909، أرشيف «جيرترود بيل». وانظر:

Bell, Amurath, p. 67.

(250) Ball, Rome in the East, p. 165.

(251) المرجع السابق، ص 165.

(252) يوميات «جيرترود بيل»، 3 مايو 1909، أرشيف «جيرترود بيل». وانظر:

Bell, Amurath, pp. 67–8.

(253) GB photos, J_200–3, Gertrude Bell Archive; the image of the Euphrates's course is J_199.

(254) Burns, Monuments, p. 123.

(255) http://en.wikipedia.org/wiki/Halabiye_Dam.

(256) Bell, Amurath, p. 74.

(257) يوميات «جيرترود بيل»، 6– 7 مايو 1909، أرشيف «جيرترود بيل». وانظر:

Bell, Amurath, pp. 74–5.

(258) المرجع السابق، ص 83 و84. والصورتان الفوتوغرافيتان اللتان التقطتهما «جيرترود بيل» (Album J_213-5) هما لهذا المدفن، أمّا (Album J_216) الذي تُطلق عليه «بيل» اسم مدفن «إرزي الشرقي»، فيشتهر في كل مكان باسم «برج إرزي». انظر:

Clauss, 'Les tours', p. 156 and pls. 3 and 5a.

ومن الواضح أنّ البرج الأخير تعرض لتدهور هائل خلال القرن العشرين، واختفى المدخل الموجود أعلى درج الطابق الأول تمامًا.

(259) المرجع السابق، ص 171.

(260) Bell, Amurath, pp. 85–9.

(261) المرجع السابق، ص 88 و89.

(262) المرجع السابق، ص 89.

(263) Alastair Northedge, 'The Islamic period in the Haditha dam area', in C. Kepinski, P. Lecomte and A. Tenu (eds), Studia Euphratica. Le moyen Euphrate iraquien révéler par les fouilles preventives de Haditha (Paris, 2006), p. 402.

(264) Bell, Amurath, p. 97; Northedge, 'Islamic period', p. 402.

(265) Bell, Amurath, p. 96, Figs 51 (J_223 and J_224) and 56 (J_232).

انظر أيضًا صورة «بيل» رقم J_230 من الجهو الجنوبية من أعلى المئذنة.

(266) Christine Kepinski, Olivier Lecomte and Aline Tenu, 'Studia Euphratica, introduction', in Kepinski, Lecomte and Tenu (eds), Studia Euphratica, p. 15 and Fig. 2.

(267) Northedge, 'Islamic period', p. 402.

(268) بعض المواقع الأثرية ورد ذكرها في يوميات ودفاتر «بيل» الميدانية، أمّا الستون تلا أثريًا على الأقل، فقد خصصت لها الوقت لتفقدها سيرًا على الأقدام، والكتابة عن بقاياها وقطعها الأثرية (مثل الآنية الفخارية) المبعثرة فوق سطح الأرض.

الفصل الثالث

الأخيضر- أبّهة صحراويّة

كان هدف «جيرترود بيل» الرئيس من رحلة العام 1909 هو السفر عبر طرق أقل شهرة في بلاد الرافدين، وزيارة أماكن وبشر لم يكتب عنهم الرحّالة الآخرون إلا القليل. يُضاف إلى ذلك أنّ بعثاتها اتّخذت حتّى الآن منحىً أركيولوجيًا مهمًّا؛ إذْ لم تكن تقنع بتعليق عابر وبصورة فوتوغرافية بين الحين والآخر لموقع أثري أو صرح ما موضع اهتمام. بل أصبحت تسعى الآن إلى وصف ورسم مُخطط وتصوير المواقع الأركيولوجية بشكل منهجي، بكل تفاصيلها المعمارية والفنية التي لا تُعدّ ولا تُحصى، وإلى التحري عن تواريخ إنشائها ومدلولها التاريخي. كان لـ«بيل» طموح أكاديمي عند هذه النقطة؛ ذلك أنّها كانت ترجو أن تترك رحلتها إلى بلاد الرافدين والكُتب اللاحقة أثرًا بالدوائر الأركيولوجية، وأن تعترف بها تلك الدوائر كباحثة جادة ومتحققة عن جدارة. رغم ذلك، ازدادت طبيعة هدفها الجبّارة وضوحًا مع تقدّمها داخل أراض نهري دجلة والفرات. حيثُ سبقها العديد من الباحثين والمستكشفين بالفعل إلى تلك المسارات، ونشروا تقارير مُطلعة عمّا وجدوه من آثار؛ لذلك لم يكن يكفي أن تلتقط بعض الصور وتكتب وصفًا مفصّلا عن موقع أثري ما معروف، بل كان عليها كي تحقق أفضل اعتراف علمي بها أن تكتشف شيئًا جديدًا تمامًا؛ شيئًا مهيبًا بحقّ ولم يسبقها إليه أحد. كان عليها أن تستطيع أن تنسب هذا الاكتشاف لنفسها، وأن تُقدّم للعالم أوراق اعتمادها العلمية من خلال أبحاثها وكتبها التالية.

كانت قلعة «الأخيضر» تُتيح لـ«بيل» كل ما كانت تأمل به. إذْ كانت قلعة مهيبة ومراوغة، وتنعم بعزلتها المدهشة بعيدًا في قلب الصحراء؛ حيثُ

لا يدري الكثير عنها سوى بعض الأوروبيين، ناهيك عن القيام بأي نوع من الدراسة العلمية. وفي الوقت ذاته، كانت موقعًا ملتبسًا ذا طبيعة استثنائية يتطلب بذل جهد ضخم لتحديد تاريخ إنشائه وهويته الحقيقية بشكل صحيح. كانت هذه بالضبط هي التحديات الفكرية التي كانت «بيل» تنشدها، ومن ثمّ اقتحمت «الأخيضر» بمزيج من الحماس والتصميم والهِمّة. وكما تبيّن، كانت «الأخيضر» صرحًا مهمًا وعملاقًا استنفد أغلب سنواتها الخمس التالية من حياتها. ذلك أنّه لم يكن يقتضي منها القيام برحلتين إلى بلاد الرافدين لضمان تسجيل كل ما يتعلّق بالقلعة فقط، بل كان يستلزم بحثًا مكثّفًا في الكُتب المنشورة عن مبانٍ مُشابهة، ومراسلات واسعة مع باحثين لديهم دراية بمواقع أخرى ذات خصائص معمارية وسمات وظيفية مماثلة.

اكتشاف وتوثيق

لم تكن «بيل» تعرف شيئًا عن وجود «قصر الأخيضر»، حين شرعت في رحلتها جنوب الفرات إلى قلب بلاد الرافدين في الشهور الأولى من العام 1909. ورغم ذلك، كانت قد طوّرت بالفعل اهتمامًا بالمنطقة الصحراوية غرب نهر الفرات حيثُ تقع قلعة «الأخيضر»، وخاصة المستوطنات الساسانية التي كان يُعتقد أنّها موجودة هناك. ويُمكن تتبع اهتمام «بيل» بالفترة الساسانية التي تمتد من القرن الثالث إلى القرن السابع الميلادي، منذُ دراساتها السابقة للعصر البيزنطي المُعاصر تقريبًا لحكم الساسانيين، وبخاصة بحثها الواسع عن العمارة والفن الكنسيين بالأناضول في العصور القديمة المتأخرة. إذْ ساقها التحقيق حول أصول بعض المعالم المعمارية مثل الأقبية والقباب التي لاحظتها في كنائس «بنبركيليسي» على سبيل المثال، إلى الاهتمام بأشكال مماثلة وصلت إلينا من أراضي الساسانيين المُعاصرة شرقًا في بلاد الرافدين وفارس[1]. يُضاف إلى ذلك ولع «بيل» بـــ «جوزيف ستزيجوفسكي» وقناعته الراسخة بأنّ على المرء أن يُفتّش عن الأصول

المعمارية والفنية للفن الغربي في الشرق، حيثُ خرجت أغلب هذه الأصول من أراضي بلاد الرافدين وفارس الساسانيّة. وقد كان أبرز ما ترك آثاره على «بيل»، مُعالجة «سترزيجوفسكي» الشاملة لمبنى «قصر المشتى» الصحراوي التي نُشرت في مقال طويل بإحدى الدوريات في العام 1904[٢].
وكما سبق أن أشرت، فقد راجعت «بيل» هذا العمل الهام لحساب الدورية التي كان يُصدرها «سالمون ريناخ»؛ «ريفيو أركيولوجيك»[٣]. فأتاحت لها قراءتها الدقيقة للتقييم البارع والمعقد الذي أجراه «سترزيجوفسكي» لقصر المشتى؛ وهو بناء ينتصب في الصحراء السورية الغربية على مسافة ثلاثين كيلومترًا تقريبًا جنوب عمان، جرعة قوية عن فن وعمارة العصور القديمة المتأخرة والعصرين الساساني والإسلامي المبكّر بالشرق الأدنى. كما شدّتها إلى الجدل المحتدم حول تاريخ وهوية هذا المُجمّع، بواجهته المدهشة المنحوتة في الحجارة، بهذه المرحلة التي كانت قد شهدت مؤخرًا نقل واجهة «قصر المشتى» إلى متحف «القيصر فريدريك» في برلين[٤]. لقد كانت على دراية جيدة بقناعات «سترزيجوفسكي» الخاصة بشأن طابع الموقع المعماري الساساني، وتحديده لتاريخ بناء القصر بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين، ورأيه أنّ المبنى كان قصرًا مُخصصًا لحكّام الغساسنة؛ وهم مسيحيون عرب سكنوا الجزء الغربي من الصحراء السورية وكانوا يحمون الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية[٥]. مشكلة قصر المشتى جعلت «بيل» على دراية أيضًا بالمناذرة (اللخميون)؛ وهم جماعة عربية أشدّ مراوغة لحدّ ما سكنت الصحراء السورية، بشكل رئيس في المناطق المُحاذية وإلى الغرب من نهر الفرات جنوب بلاد الرافدين. كان المناذرة أول من استقلّ عن حكم الساسانيين، إلا أنّ الإمبراطورية الساسانية استوعبتهم في آخر الأمر فساعدوها على حماية حدودها الغربية، خاصة من تهديد التوسع البيزنطي[٦]. وكان بعض الباحثين يرون؛ على العكس من «سترزيجوفسكي»، أنّ المناذرة هم من أنشأوا قصر المشتى[٧].

إلى جانب «سترزيجوفسكي»، يبدو أنّ «برنهارد موريتز» كان المصدر الآخر لمعرفة «بيل» واهتمامها بالمواقع التي ترجع للفترة الساسانية في الصحراء السورية. تعرّفت «بيل»على هذا الباحث العربي الألماني الّذي كان يرأس المكتبة الخديوية في القاهرة بين العامين 1896 و1911[٨]، أثناء رحلاتها إلى الشرق. كان «موريتز» إضافة إلى دراسته المكثفة للنقوش العربية المبكرة، قد قام برحلات واسعة داخل مصر وباقي الشرق الأدنى، وكان على دراية بتاريخ وأركيولوجيا بلاد الرافدين، كما شارك في أعمال التنقيب التي قام بها «روبرت كولدفاي» في المواقع السومرية في «تل زرغل» و«تل الهبا»[٩]. وكانت «بيل» تعرف «موريتز» وأعماله منذ العام 1905[١٠]. ومن ثمّ، أثناء زيارة إلى القاهرة في يناير العام 1907 بصحبة أبيها وشقيقها «هيوجو»، قابلت «بيل»«موريتز» شخصيًّا في المكتبة الخديوية وناقشت معه– برفقة زميله عالم الآثار «ماكس أوبنهايم» في بعض الأحيان– العديد من الموضوعات، ومن بينها الزخارف الساسانية والخرائط والصور الفوتوغرافية. وقد انعكس عثور «بيل» آنذاك على صديق في شخص «موريتز» في تعليقها: «أرسم أنا وموريتز خططًا عظيمة لاستكشاف الصحراء السورية معًا!»[١١]. ويكشف التعليق كذلك اهتمامها المتنامي بتلك المنطقة الصحراوية، والقلاع والبشر الذين سكنوها.

في يناير العام 1909، كانت «بيل» في القاهرة وعلى وشك الانطلاق في رحلتها إلى بلاد الرافدين، وهناك قابلت «موريتز» مرّة أخرى، حيث اقترح عليها جزءًا من المسار الذي عليها اتّباعه: «نصحني موريتز بالعبور من هُناك [كركميش] ثمّ الاتّجاه جنوبًا شرق الفرات؛ حيث توجد عدة بلدان لم يسبق استكشافها أو دراستها بأي شكل. ولذلك سأتبع هذا المسار»[١٢]. وقد كرر «موريتز» نصيحته بالسفر جنوب الضفة الشرقية على العشاء في الليلة التالية، وأوصاها كذلك أن تقوم بجولة جنوب النهر: «من «عانة» إلى قلاع المناذرة»[١٣]. كان «موريتز» يُشير إلى المنطقة الصحراوية غرب الفرات وجنوب مدينة «عانة»، حيث ساد اعتقاد بوجود أفضل مواقع المناذرة هُناك.

من الواضح أنّ «بيل» عملت بنصيحة «موريتز»؛ لأنّنا نعرف أنّها أدرجت المسارات التي أوصى بها في رحلتها إلى بلاد الرافدين. والواقع أنّ الطريق الذي اتبعته بالمنطقة الصحراوية جنوب «عانة»، هو الذي قادها إلى اكتشاف الأخيضر. وقد كتبت عندما غادرت القاهرة رسالة أخرى إلى أمّها عن احترامها وصداقتها مع «موريتز»:

أمضيتُ يومين ساحرين في القاهرة، ساحرين ومفيدين بالنسبة لتحركاتي المستقبلية، ويرجع الفضل في ذلك بشكل رئيس إلى نُصح وحكمة «موريتز» الطيب [...] في الصباح التالي خرجتُ مبكرًا متجهة إلى أقدم وأعجب مسجد، حيثُ التقطت عددًا من الصور الفوتوغرافية التي لطالما تمنيت التقاطها منذُ زمن طويل، ومن هناك ذهبت إلى المكتبة الخديوية للقاء «موريتز»- إذْ يعمل مديرًا لها، وهو ألماني مُطّلع ضئيل الحجم تشاجر مع الجميع تقريبًا، لكنه لا يزال صديقًا عظيمًا لي[١٤].

بحلول مارس العام 1909، كانت «بيل» قد سلكت المسار المحاذي لنهر الفرات جنوبًا حتّى بلدة «عانة»، وهناك شرعت في التقصّي جديًّا عن منطقة الصحراء السورية غرب النهر، وعن الأنقاض القديمة التي يُمكن العثور عليها هُناك. وطبقًا لما روته في كتابها «من سلطان إلى سلطان»، فقد سمعت لأول مرّة عن الأخيضر؛ أو «خيضر» Keidi كما يشيع اسمه بين المحليين العرب، من قبليين ينتمون إلى عشيرة «الغراف» وجدتهم «بيل» ينصبون الخيام إلى جوار قطعانهم على الضفة اليسرى للنهر. آنئذ كانت تسأل هؤلاء الرجال عن ركن الإمبراطورية الساسانية الشمالي، حين باغتها عجوز- كانت تميّزه رصاصة لا تزال مغروزة في صدغه من أسفاره في وسط الجزيرة العربية- أنّه على دراية تامّة بتلك البلاد الصحراوية، وأنّه على استعداد؛ إن أعطته حصانًا، أن يصطحبها إلى كل تلك القلاع في ذلك المكان: «قصر خباز» و«قلعة أماج» و«شميل» و«خيضر»:

قلت: «وأين خيضر؟»؛ إذْ كنت لا أنا ولا «كيبرت» نعرف الاسم.

فأجاب شاب أشعث يتكئ على جانبه: «خلف شثاثة. فأنا أيضًا أعرفها، والله!»

سألته: «هل هي ضخمة؟».

أجاب بلهجة غامضة: «إنّها قلعة»، وتبرّع الرجال الآخرون من الغراف بوصف الطريق. بدا من أنّ إجمالي المعلومات التي قدموها لي أنّ الماء شحيح والغارات متكررة، لكن ما من ريب أنّ ثمة قلاع. بلى، في أرض «فهد البيك بن هذال»؛ شيخ قبيلة العمارات المهيب، كانت توجد خيضر. لقد سجّلت هذا الاسم في رأسي(١٥).

كان الطريق إلى الأخيضر يقتضي من «بيل» أن تغادر وادي الفرات حيث تتوافر المياه، وأن تلج الصحراء المحفوفة بالمخاطر، حيث تندر الآبار وتفرض عليها الغارات أن تجلب حارسًا مؤتمنًا، على دراية جيدة هو الآخر بالطريق إلى القلاع التي ترجع إلى العصور ما قبل الإسلامية التي كانت تبحث عنها. لكن «بيل» كانت قد اتخذت قرار القيام بهذه الرحلة الجريئة. وعثرت في جنوب «عانة» ببلدة «هيت» التي تشتهر بينابيع مياهها الساخنة على حارسها المرجو، وقررت أن ترسل قافلتها إلى كربلاء كي تنتظرها هناك، في حين تشق طريقها هي وفتوح وحمار صغير مُحمّل بالمؤن وخيمة خفيفة، إلى قلب الصحراء.

توقّفت «بيل» بعدد من الواحات في طريقها بعيدًا عن الفرات باتجاه الجنوب الغربي. كما قامت أيضًا بزيارة عدد من الحصون المحطّمة- مثل خباز وثميل وبردويل- ورسمت مخططًا لها، وصورتها وحددت تاريخ بناء كل منها سواء في العصر الساساني أو الإسلامي، بناءً على تصميماتها وعماراتها(١٦). عقب مغادرة «هيت» بستة أيام، وصلوا إلى «شثاثة»؛ وهي واحة تضم مائة وستين ألف شجرة نخيل وصفصاف ورمّان إلى جانب قنوات الري، حيث لا تفصلهم عن الأخيضر إلا بضع ساعات (انظر شكل ٣-١)(١٧). انطلقوا في اليوم التالي بعد أن أضافوا الآن إلى فريقهم المحدود مهندسًا إنجليزيًا شابًا يُدعى «ب. ت. واتس»B.T.Watts، كان يقوم بمسح للمنطقة

ويُخيِّم في «شثاثة»[١٨]. هَهُنا تصف «بيل» ما أصابها من حماس حين وقعت عيناها على الأخيضر لأول مرّة:

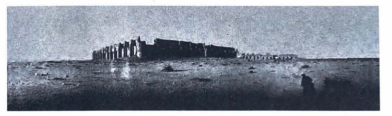
كُنّا قد سافرنا مُدة ثلاث ساعات باتجاه الجنوب الشرقي عبر أشد القفار تعنتًا، حين لمحنا بالوهج الممتد على مرمى البصر كُتلة ضخمة حسبتها لأول وهلة معلمًا طبيعيًا من معالم المشهد. لكن مع اقترابنا أكثر، أصبح شكلها أكثر وضوحًا، فسألت أحد ضبّاط الشرطة الأتراك عن ماهية هذا البناء وأجاب: «إنّها أخيضر». هَهُنا هتفت: «هيّا يا فتوح، أحضر البغال» وعدوت مسرعة إلى الأمام[١٩].



شكل (٣-١) تبعد واحة «شثاثة» مسافة أربع ساعات عن الأخيضر. تبدّت كأنّها فردوس في نظر «بيل» وجماعتها التي:«غادرت صحاري الفرات» (بيل، من سلطان، صفحة 139).

كان اندهاش «بيل» يزداد؛ كلما اقتربت أكثر من الأخيضر، من ضخامة هذا الصرح المُذهلة واحتفاظه بشكله على نحو ممتاز في قلب الصحراء (انظر شكل ٣-٢). وقد روت بلغة شاعرية انطباعاتها الأولى عن القلعة في كتابها «من سلطان إلى سلطان». لم يكن «كيبل كريزويل» الذي زار الأخيضر في العام 1930 وسجّل أنقاضها هو الآخر، أقل تأثرًا بمرآها أول مرّة في عزلتها الصحراوية، وهو يعترف بأنه لم يجد أفضل من تكرار كلمات «بيل» هذه في كتابه:

من بين سائر المغامرات العجيبة التي ساقتها الأقدار إلى طريقي، تظل النظرة الأولى على خيضر الأجدر بألا تنسى. إذْ انتصبت أسوارها العظيمة في قلب الرمال من دون أن يمسسها الزمن، تحطِّم سلاسل اليباب الطويلة بأبراجها الضخمة؛ راسخةً عملاقة كأنّها؛ كما تبادر إلى ذهني أول وهلة، من عمل الطبيعة لا الإنسان[٢١].



شكل (٣-٢) صورة التقطتها «بيل» لموقع الأخيضر من الشمال الشرقي. كان هذه المشهد من بين أول ما رأت «بيل» أثناء اقترابها من ناحية «شثاثة»، ويظهر ظلها في أسفل الجانب الأيمن من الصورة.

اكتشفت «بيل» عند دخول الأخيضر أنّ القلعة تسكنها جماعة من العرب الذين جاءوا من نجد، بعد أن أصابهم الاستياء من الأوضاع السياسية في تلك المنطقة، يرغبون في السعي إلى مزيد من التجارة المربحة، على ظهور الجمال والجياد داخل منطقة بلاد الرافدين التي تخضع للسيطرة العثمانية. وكانوا يستخدمون الأخيضر قاعدة لهم، حيثُ سكنت عائلاتهم داخل

كثير من غرف القلعة التي وجدوا داخل أسوارها ملجأ: «أكثر من كاف لاحتياجاتهم [بدلاً] من السباق على السيطرة»(٢٢). لم يزعج سكّان القصر «بيل»، بل أضفى وجودهم- بالنسبة لخيالها الاستشراقي- مزيدًا من الرومانسية على المكان، وبثّ الحياة في طابعه القديم. فتصف «بيل» عليًا شيخ الجوف بأنّه: «مخلوق رائع ذو شعر أسود تتهدل ضفائره على جانبي وجهه»، وأنّه هو وأشقاؤه: «كانوا يمرّون بطرقات القلعة كأنّهم أشباح، يجرجرون عباءتهم البيضاء أسفل الدَّرَج»(٢٣). وتبلغ أقصى غنائيتها حين تصف رجال القبائل العرب المتجمعين بالقرب من المدفأة في المساء، داخل القاعة الكُبرى في القصر:

حيثُ كان أجدادهم يزجون الساعات برواية الحكايات وترديد الأغاني بنفس لهجة نجد الدّارجة [...] طقطقت الأشواك، وأرسل فتيلا زيت كانا يستقران داخل فتحتين بأعلى العواميد التي صَممها لهم جنود قدامى مدججون بالأسلحة، شعاعَ ضوءٍ ضعيف في قلب العتمة(٢٤).

وأنشد واحدٌ منهم يعزف على ربابة بدوية ذات وتر وحيد، قِصّة:

أمير مهيب وقوي؛ راعٍ للشعراء، وقائدًا للغارات، وأخيرًا مدحورًا ومنحورًا في معركة، لكن سواء كانت الأغاني قديمة أم جديدة، فإنّها جميعًا صفحات من التاريخ نفسه؛ تاريخ البدو غير المؤرخ. تصاعدت الموسيقى الشجية الرقيقة إلى قلب ظلمة الأقبية، وعبر الفتحة الموجودة في نهاية القاعة، حيثُ سقط جزء من السور، خيّم الليل العميق الساكن وسحر النجوم المستقر(٢٥).

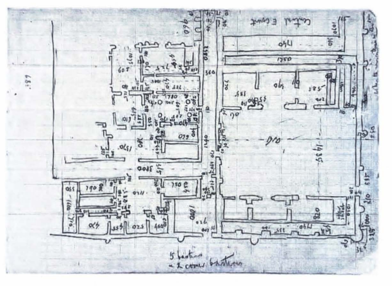
وقدّمت «بيل» المفتونة بالمشهد من حولها، لما كتبته من شعر للأخيضر، باقتباس من الشاعر «لبيد بن ربيعة العامري» كانت قد استخدمته أيضًا لتصدير كتابها «من سلطان إلى سلطان»:

«بَلِينا وَمَا تَبلى النُّجومُ الطَّوالِعُ   وَتَبقى الجِبالُ بَعدَنا وَالمَصانِعُ»

تكشف رسائل ويوميات «بيل» التي تسجّل انطباعاتها الأولى عن الأخيضر، أنّها اعتقدت في أول الأمر أنّ المناذرة هم من بنوا القصر بالقرن السادس الميلادي، بالتزامن مع البلدان اللخمية الأخرى المنتشرة في صحراء بلاد الرافدين غرب نهر الفرات. وبالنظر إلى هوية القصر المُفترضة واعتقاد «بيل» أنّ ما من أحد سبقها لرسم مُخطط للقصر، كان استكشاف صرح لم يُدرس أو يُنشر أي شيء عنه يُشكّل احتمالًا مُثيرًا. وهكذا شرعت في العمل على الفور، فجهدت في رسم تصميم المبنى ككل وتصوير عناصره الكثيرة بكل دقة؛ لا ريب من أجل إتمام وصف كامل وقابل للنشر عند عودتها إلى إنجلترا.

كانت رسومات «بيل» للأخيضر أولية وشاملة في نفس الآن. وكان رفيقها في السفر «ب. ت. واتس» يحمل أجهزته المساحية؛ ومن بينها مزواة ربّما، التي زودت «بيل» بقياسات أطوال قلعة الأخيضر وتحصيناتها الخارجية والداخلية المديدة[٢٧]. أمّا سائر القياسات الأخرى للأخيضر فقد قامت بها «بيل» باستخدام شريط قياس متري بسيط ومسطرة[٢٨]. سجّلت «بيل» قياساتها على نحوٍ وافٍ بعدد من صفحات دفترها الميداني، الذي رسمت فيه أيضًا مخططات لقطاعات المجمع المختلفة ومعالمها المعمارية (انظر شكل ٣-٣). وما من شكّ أنّ التحديات التي واجهتها لأثناء رسم مُخططات لمثل هذا الصرح الضخم والمُعقّد كانت هائلة، لكنّ «بيل» كانت عازمة على الحصول على سجل كامل ودقيق للقصر، ومن ثمّ أمضت يومين كاملين في قياس أسوار الأخيضر وأبراجه وبواباته، وذلك بمساعدة الرجال الذين يرافقونها لأثناء السفر (انظر شكل ٣-٤). حيثُ كانوا يتناوبون على حمل شريط القياس والكاميرا: «تعلّموا خلال يومٍ واحد ما أُريده بالضبط، فأصبحوا مصدر نفع لا نهائي بالنسبة لي؛ إذْ لم يكن عليّ إلا أن أسير خلفهم لأحمل دفتر الرسم وأدوّن الأرقام التي يقولها الشريط»[٢٩].

ما إن انتهت «بيل» من تسجيل القياسات، حتّى سارعت إلى رسم الطابق الأرضي بكلّ المجمع مستعينة بمقياس رسم، مستلقية فوق أرضية إحدى الغرف الظليلة الباردة بإسطبل القلعة، حيث غمرت الأتربة خيامها بصورة مفرطة خلال النهار بسبب هذا العمل الدقيق[٣٠]. كما قامت «بيل» أيضًا بقياس الطابقين العلويين بالقلعة باليوم الذي سبق رحيلها. وإجمالاً، أنهت «بيل» المهمة بالكامل وقد خالطها بعض الزهو؛ إذ لاحظت أنّ مُخططها لم يكن يختلف عن القياسات التي قام بها السيد «واتس» في أول يوم إلا في حدود 40 سنتيمترًا[٣١]. وهذا المُخطط هو الذي اُستنسخ في أول إصدارين أخرجتهما «بيل» لوصف النتائج التي توصّلت إليها بشأن الأخيضر، واللذان صدرا في العامين 1910 و1911 على الترتيب[٣٢].



شكل (٣-٣) صفحة من دفتر «جيرترود بيل» الميداني، تُظهر قياساتها المُخطط الذي رسمته للجانب الجنوبي الشرقي من قصر الأخيضر. ونرى «بيل» في الشكل (٣-٤) تحمل هذا الدفتر.

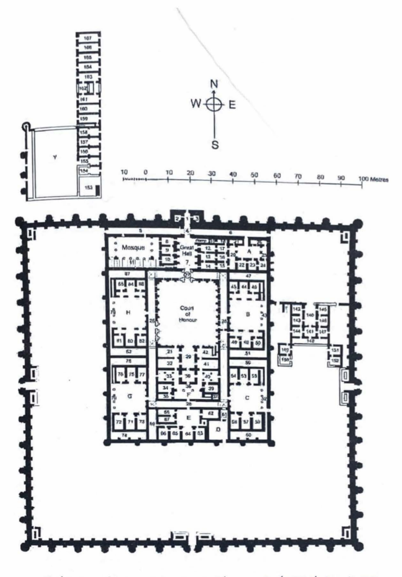
بالأشهر الأولى من العام 1911، وخلال رحلتها الثانية إلى بلاد الرافدين، توقّفت «بيل» لفترة قصيرة في الأخيضر، حيث مكثت ثلاثة أيام من أجل القيام بمزيد من القياسات والتقاط المزيد من الصور الفوتوغرافية. آنئذ، كان عرب الجوف قد غادروا وحل محلهم «الزقاريط» - وهم أحد فروع قبيلة «شمّر»- الذين ضربوا خيامهم بأحد الأماكن القريبة. وكان «الزقاريط» أثناء النهار؛ عندما كانت «بيل» تقوم بالقياس، يظهرون في أروقة القلعة ويُحيطون بخيام بعثتها داخل الفناء الداخلي، حيث يخيطون ثيابًا جديدة ويراقبونها أثناء العمل(٣٣). ويبدو أنّ «بيل» كانت تمتلك لوحة طبغرافية في هذه الرحلة؛ لأنّها تذكر استخدام هذه اللوحة في رسم مُخطط للقلعة ولمساعدتها على تحديد الارتفاعات، وهي مهمة استنفدت أغلب وقتها(٣٤). لكن حتّى مع هذه الجهود، ظلّت «بيل» مقتنعة بالمخطط الذي رسمته إبان رحلتها الأولى في العام 1909، الذي تصفه بأنّه: «دقيق بصورة مذهلة» ولا يحتوي إلا على خطأ واحد أو اثنين(٣٥). أما بالنسبة للصور الفوتوغرافية، فقد التقطت صورًا للمعالم المعمارية التي فاتتها في العام 1909، واستعملت العدسات المقربة من أجل الحصول على تفاصيل إضافية قريبة المدى(٣٦).



شكل (٣-٤)«بيل» تقوم بتسجيل أبعاد أحد أسوار الأخيضر في دفترها الميداني. يُمسك رفاقها في الرحلة شريط القياس ويعلقون بنادقهم على أكتافهم. كتبت «بيل»: «ما من شئ سيغريهم بترك بنادقهم داخل الخيام. إنّهم مزعجون لدرجة لا تُطاق. دائمًا ما يعلق شريط القياس بماسورة أو خزانة البندقية، ولا أستطيع إقناعهم أن ينحوا الأشياء اللعينة جانبًا ولو لبرهة قصيرة» (من رسالة «بيل» لأسرتها، 29 مارس 1909).

وصف الأخيضر

قدّمت «بيل» أوصافًا لموقع وتصميم وعمارة قصر ومسجد «الأخيضر» في عدد من المطبوعات، لكن تقريرها الأخير عن الموقع الذي نُشر في العام 1914 كان الأطوال والأكثر تفصيلا[٣٧]. ولأنّ القصر يتألف من الكثير من الغرف الداخلية والدهاليز والمساحات المفتوحة، كان من الضروري بالنسبة لها أن تبتكر نظامًا للتمييز بين المساحات الخاصّة، وبالتالي تيسير الملاءمة بين الأوصاف المكتوبة لتلك المساحات، وبين الصور والمخططات المتصلة بها. ويبدو أنّ «بيل» قد تخلّت عن تسميتها المبكرة للغرف بحروف أبجدية، لصالح المساحات المُرقّمة التي استخدمها «أوسكار رويتر» بعد زيارته للأخيضر ونشر تقريره الخاص عنها في العام 1912[٣٨]. وكان «كيبل كريزويل» قد تبنّى هو الآخر لاحقًا نظام الترقيم الذي اتّبعه «رويتر»[٣٩]، وهو النظام المتّبع هُنا في تحديد مكان ووصف الأماكن المختلفة داخل القصر (انظر شكل ٣-٥). ونظرًا إلى أنّ كلاً من «بيل» و«رويتر» و«كريزويل» قد قدّموا وصفًا موثوقًا وشاملًا لعمارة الأخيضر الفائقة، فإنّ الوصف الذي أقدّمه هُنا هو تقرير شديد الاختصار يقوم بشكل رئيس على وصف ومخططات «بيل». وأستهدف منه تقديم خطوط عريضة عن تعقيد القصر، والتشديد على إنجاز «بيل» المهم في تسجيل القلعة، بالدقة التي أنجزت بها الوصف خلال الأيام القليلة التي أمضتها بالموقع. ولا تُضيف رواية «كريزويل» عن الأخيضر؛ التي تستند إلى زياراته التي قام بها بعد واحد وعشرين عامًا أو أكثر من زيارة «بيل»، إلى ملاحظات وأوصاف «بيل» المعمارية إلا القليل، كما أنّ صوره الفوتوغرافية تكرر نفس التفاصيل والمعلومات التي اقتنصتها «بيل» من قبل؛ وأحيانًا بدرجة أقل. كذلك، ربّما يُساعد وصف تصميم المجمع الذي أقدّمه هُنا؛ إلى جانب المخطط المرافق (شكل ٣-٥)، في وضع تحليلات «بيل» المعمارية التي سأصفها جزئيًا في موضع لاحق بهذا الفصل، داخل سياق أكثر منطقية.



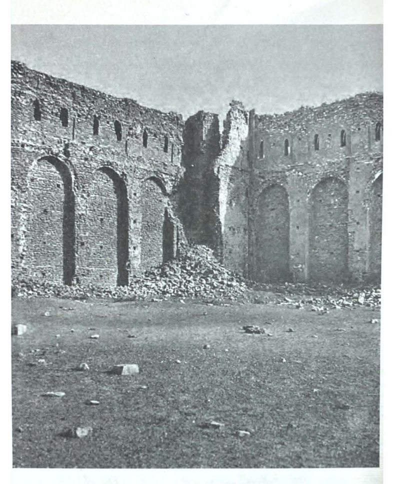
شكل (٣-٥) مُخطط الأخيضر، عن مُخطط «بيل» المنشور للقلعة. يستند المُخطط بالكامل إلى قياساتها والمخططات التي رسمتها أثناء زيارتيها للموقع في العامين 1909 و1911. مع ذلك، فإنّ الأرقام الموضوعة على المساحات الداخلية أخذتها «بيل» من نظام الترقيم الخاص بالأخيضر، والذي اتّبعه «أوسكار رويتر».

تقع قلعة الأخيضر على مسافة 45 كيلو مترًا جنوب غرب مدينة كربلاء، وسط صحراء مقفرة لحدّ كبير، رغم أنّ «وادي الأبيض» الذي يمتد بموازة الموقع ربّما كان يوفّر الماء العذب للقلعة في العصور القديمة(٤٠). وقد خمّنت «بيل»؛ ربّما بشكل صحيح، احتمال أن تكون ظروف بيئية أرطب وأصلح في أوقات سابقة قد دعمت وجود دجاج وخنازير وحيوانات برية أخرى مُختلفة، وأن يكون قد أُتيح لسكّان الأخيضر صيد الكثير من الفرائس(٤١).

تتكون الأخيضر نفسها بشكل رئيس من سور مُحيط مستطيل عال وضخم، مُشيّد بألواح حجرية رفيعة ومُحصّن بأبراج مستديرة، ويوجد داخل السور مبنى قصر وآخر فرعي (انظر شكل ٣-٦)(٤٢). وقد أدركت «بيل» الطابع الدفاعي للسور المُحيط من خلال معالم مثل شقوق النوافذ الضيقة؛ أو المزاغل،الموجودة في الأبراج والسور الممتد بينها، والتي يُمكن من خلالها إطلاق السهام والقذائف الأخرى(٤٣). كما لاحظت أيضًا وجود فتحات في الأرضية عند كل مزغل- سقاطات Machicolations- كانت عبارة عن وسائل أخرى يُمكن من خلالها إطلاق القذائف تجاه العدو الذي يقف أسفل السور(٤٤).

وتوفّر بوابة مقوّسة بالجانب الشمالي من السور الخارجي ممرًا مباشرًا إلى مدخل القصر الرئيس؛ حيثُ يمتد مباشرة تقريبًا من السور. كان القصر نفسه مزودًا بأسوار ذات أبراج ومُشيّدًا بنفس نوعية حجارة البناء مثل السور الخارجي، إلى جانب الآجر المُستخدم في بناء بعض الأقبية(٤٥). وعلى الرغم من وجود إشارات إلى أنّ المبنى يبدو اليوم فظًا وغير أنيق، إلا أنّه من الواجب أن نتخيّل أنّ أغلب أسطح السور الداخلية ربّما كانت مكسوة بطبقة من الجصّ الأملس، وأنّ التصميمات الجصيّة كانت تبرز منه في بعض الحالات، بما يُضفي مظهرًا مصقولاً وإن يكن متجهمًا بعض الشيء، وبذخًا على الجانب الداخلي من القصر(٤٦).

كانت النقطة المركزية في وسط قصر الأخيضر عبارة عن فناء مفتوح كان يُلقّب بـ«ساحة الشرف». وكان المرء يصل إلى هذا الفناء من خلال سلسلة من الساحات المقببة والمقنطرة[٤٧] القادمة من البوابة الشمالية، مرورًا بـ«القاعة الكُبرى» البديعة (انظر شكل ٣-٧). كانت هذه الساحة المهيبة المؤلفة من طابقين اثنين؛ أكبر قاعات القصر المسقوفة، تحمل قبوًا عظيمًا مدببًا بعض الشيء مُشيدًا من الطوب، دفع «بيل» وساعدها على تحديد تاريخ بناء وهوية القصر ككل بشكل موفّق (وهو ما سنتناوله بتفصيل أكبر لاحقًا)[٤٨]. وقد لاحظت «بيل» في «ساحة الشرف» الوسطى أنّ واجهتها الأنيقة كانت تتألف من زخارف على شكل أروقة تغطّي كل جوانبها (انظر شكل ٣-٨)[٤٩]. كانت جوانب السّاحة الشرقية والغربية والجنوبية يبلغ ارتفاعها طابقا واحدا، أمّا الجانب الشمالي الذي كان الزائر يدخله عبر البوابة الأمامية و«القاعة الكُبرى»، فكان يضم ثلاثة طوابق مهيبة كل طابق منها مزود بساحات معيشة مُختلفة، يُمكن الوصول إليها عبر درج أو منحدرات حجرية تبدأ من الطابق الأرضي إلى جوار «القاعة الكُبرى» (انظر شكل ٣-٩)[٥٠].

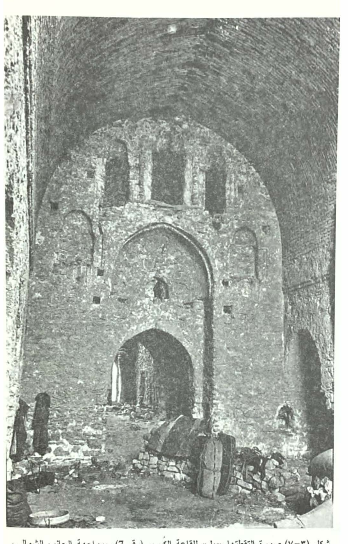


شكل (٣-٦) صورة التقطتها «بيل» للركن الجنوبي الشرقي بسور الأخيضر من الداخل، تكشف بقايا دَرَج كان يؤدّي إلى برج مستدير بارز في ركن السور. وعلى الجانبين عقود غير نافذة مدببة قليلًا بالجهة الداخلية. كانت النوافذ الضيقة العلوية التي كان يصل إليها الجنود من خلال ممشى مقنطر لم يعد موجودًا في هذا الركن، تقوم بدور المزاغل التي يُطلقون منها السهام والقذائف الأخرى. أمّا الفتحات المربعة التي نراها داخل البناء الحجري فتحدد الأماكن التي كانت توجد بها العوارض الخشبية.

كانت واجهة الجانب الجنوبي من «ساحة الشرف» تؤدّي إلى بعض غرف القصر الرئيسة. وفي المنتصف، يؤدّي مدخل مقوّس واسع وطويل- ربّما كان أحد النماذج المبكرة لما يُسمى بـ«*البشتاك*»- وهو مدخل مقنطر مؤطّر مُربع، كان شائعًا في العمارة الفارسية الحديثة، واُستخدم في تمييز المداخل الفخمة)[٥١]- إلى حجرة مستطيلة ذات قبو برميلي مبنية بالطوب، أطلقت عليها «بيل» اسم «إيوان»؛ أو قاعة الاستقبال الرئيسة (الغرفة رقم 29) (انظر شكل ٣-١٠). وكانت المداخل على الجانبين تفتح على الغرف المرافقة أرقام 31 و32 و41 و42 التي اصطفّت لتصنع زوايا قائمة مع الإيوان، في حين كان المدخل الموجود في الخلف يؤدّي إلى الغرفة رقم 30[٥٢].

لاحظت «بيل» أنّ الغرفتين 31 و32 بقبويهما الثريين بالزخارف الجصية، كانتا من بين أهم الساحات داخل القصر ككل. ويُمكننا أن نتصور أنّ هاتين الحجرتين كانتا تستخدمان كغرفتي معيشة رسميتين، حيثُ يُمكن للضيوف أن يجلسوا على الأرض فوق وسائد، مُسندين ظهورهم إلى الحائط، يتصدرهم الجالس في وسط الحائط الخلفي[٥٣]. وكانت الغرفة رقم 31 تتميز بنمط جصّي مموج وزخارف على هيئة وحدات مربعة غائرة منمقة تغطّي السقف، في حين تميّزت أطراف الغرفة بزخارف على هيئة أروقة[٥٤]. بل لقد كانت زخارف السقف وتقوس الغرفة 32 أشدّ سحرًا وأصالة (انظر شكل ٣-١١). فكما في الغرفة 31، كانت الأقبية برميلية الشكل الموجودة بين أقواس مستعرضة مزينة بأنماط من الجصّ، لكنّها كانت تضم هنا عددًا من تصميمات المربعات الغائرة والتمويجات الضافية. كانت بعض الأقبية تنتهي بأنصاف قباب، وقد استوعبت زوايا كل منها حنيات ركنية صغيرة أو دعامات أفقية على هيئة أهلة[٥٥]. وعلى الجدار بين الأقواس؛ فضلاً عن طرف كل غرفة، أزواج من زخارف الأروقة غير النافذة التي أسهمت في إضفاء الطابع المميز لهذه الغرفة (انظر شكل ٣-١٢)[٥٦].

وقد انتبهت «بيل» إلى أنّ مُجمل المساحات الوسطى- التي سبق وصفها- وأعني بها «ساحة الشرف» والإيوان الرئيس وغرف الاستقبال المرافقة؛ علاوة على الحجرات الإضافية المُحيطة بالغرفة رقم 30 بالخلف- كان يُحيط بها دهليز ضيق مسقوف (الدهليز رقم 28)[٥٧]. حيثُ استحدث الدهليز فاصلا ماديًا بين هذا الجزء الأوسط من القصر، الذي كان يُمثّل بوضوح قلبه الاحتفالي، وبين الأجزاء المتبقية. ومن بين هذه القطاعات، أربعة أجنحة تضم غرف معيشة- يُشار إليها باسم البيوت- تقع على جانبي القلب الاحتفالي الذي يشغل أغلب مساحة القصر الداخلية. وكان يتوسط هذه الوحدات أفنية (تحمل الحروف B وC وG وH)، وفي نهاية كل منها قاعات استقبال طويلة تُحيط بها حجرات معيشة، كانت «بيل» تُشير إليها باسم «مجموعات الإيوان»[٥٨]. وكان «كريزويل» يرى أنّ مجموعات الغرف المواجهة للناحية الجنوبية ربّما تشكّل المقر الشتوي، في حين تشكّل الغرف المواجهة للجانب الشمالي المقر الصيفي[٥٩]. وشمال وجنوب مجموعات الإيوان اكتملت البيوت بحضور حجرات مستطيلة ذات أقبية برميلية اخترقتها أنابيب مصنوعة من الفخار الأحمر، ومساحات مفتوحة في الوسط (الغرف أرقام 47 و51 و56 و60 و74 و78 و83 و87). وكانت هذه المساحات تُستعمل كمطابخ على الأرجح[٦٠].



شكل (٣-٧) صورة التقطتها «بيل» للقاعة الكُبرى (رقم 7)، بمواجهة الجانب الشمالي، بمدخلها المقوس المنحني في المنتصف والذي يؤدّي إلى البوابة الرئيسة. في الأعلى مباشرة شبه قبّة مُحاطة بمحرابين. وفي أعلاهما ثلاث نوافذ تزود الغرفة رقم 88 التي تقع بالطابق الثاني من القصر، بالضوء.

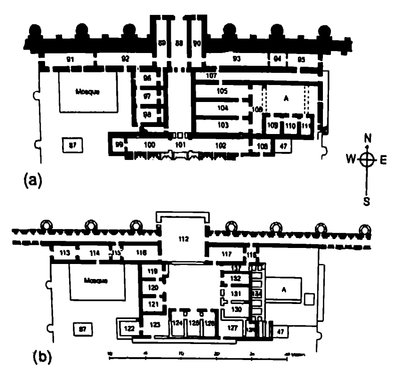


شكل (٣-٨) صورة التقطتها «بيل» للركن الداخلي الشمالي الغربي من ساحة الشرف المزخرفة بأروقة غير نافذة. ينتصب المدخل الشمالي متعدد الطوابق على اليمين ويصنع زاوية قائمة مع الجانب الغربي من القصر ذي الطابق الواحد. نرى في المقدّمة أفرادًا من قبيلة «الزقاريط» التي صادفتها «بيل» أثناء زيارتها للأخيضر في العام 1911، يتجمعون حول إحدى خيامها. ونرى فتوح خادم «بيل» يقف عند مدخل الخيمة.

جزمت «بيل» أنّ مجموعة الغرف في الركن الشمالي الغربي من القصر كانت تضم مبنى المسجد (الذي سنتكلّم عنه بتفصيل أكبر تاليًا). وكان يحتوي بشكل رئيس على فناء مستطيل مُحاط من ثلاثة جوانب بأروقة مسقوفة. كانت الأبواب الرئيسة المؤدية لفناء المسجد تقع في الجهة الشمالية (انظر شكل ٣-١٣). وكان السقف المعقود الذي يغطي الرواق الجنوبي مُزين بزخارف دقيقة من الجصّ، لا تختلف عن الزخارف الموجودة في الغرفتين 31 و32 بالقصر[٦١]. تتابع الأقواس المستعرضة بطول الجهة الجنوبية، وكل منها مُزيّن بوحدات غائرة على هيئة مُعينات مدرّجة، في داخل كل منها وحدات مبيتة دائرية أصغر[٦٢]. وكان السقف المعقود بالمسافات التي تفصل بين الأقواس، مُزخرف بالجصّ المحزز. وفي طرفي الرواق المعقود نصف قبتين مزينتين بزخارف على شكل قنوات، وقد نصّف كل منهما قوس مستعرض مزين بالجصّ، في حين أسفرت الحنايا المقرنصة

المحززة عند الأركان عن انحناء مداميك القبو (انظر شكل ٣-١٤)[١٣]. أمّا في منتصف جدار المسجد الجنوبي فنجد المحراب الذي يتألف من حنية مستطيلة تعلوها نصف قبة غير مزينة (انظر شكل ٣-٢٣)[١٤].

رصدت «بيل» ورسمت مخططات لأجزاء أخرى أيضًا في القصر، منها الفناء (A) بالركن الشمالي الشرقي المُحاط بغرف صغيرة (الغرف من 20 إلى 26)[١٥]، والفناء (E) بالطرف الجنوبي المؤدّي إلى مجموعة إيوانات أخرى (الغرف من 63 إلى 65) ومطبخ جهة الغرب (الغرفة رقم 69)[١٦]، وهناك الفناء (D) إلى الجنوب الشرقي الذي نصل إليه من الدهليز رقم 28 عبر ردهة قبو متعامد، أو عبر مدخل من باحة القصر في الخارج أيضًا[١٧]. ثمّة مبنى يُعرف باسم «الملحق الشرقي» أو «الملحق الداخلي» كان قائمًا في الباحة شرق القصر، داخل الساحة المسورة. ورغم أنّه من الجائز أن يكون هذا المبنى قد أُضيف لاحقًا، فإنّ هناك الكثير من القواسم المشتركة بينه وبين القصر، ومن ثمّ كان من المستبعد أن يكون بناؤه قد تمّ بعد وقت طويل من بناء القصر[١٨]. ويُمكننا أن نتصور بناءً على التشابه القوي بين ترتيب الغرف في داخل الملحق الشرقي، وبين جناح الغرف بالناحية الجنوبية في ساحة الشرف (الغرف من 140 إلى 147)، أنّ الملحق الشرقي قام بوظيفة مماثلة لوظيفة جناح القصر الاحتفالي، من حيث الاستعمال كحجرات لمعيشة واستقبال ضيف الشرف.



شكل (٣-٩) الطابقين الثاني (a) و(b) ببوابة قصر الأخيضر الشمالية، من المُخطط الذي نشرته«بيل» في العام 1914.

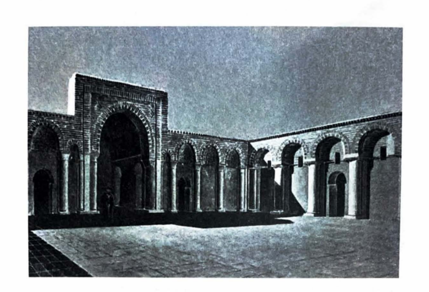
ثمّة منشآت أخرى كانت توجد خارج القصر وخارج السور المُحيط به. فالملحق الشمالي عبارة عن مجمع من الغرف يقع شمال ساحة القصر المسورة مباشرة، وأحد أسواره مُحصّنة بأبراج قوية مستديرة، إلى الشرق منها صحن واسع وخمس عشرة غرفة مقباة[٦٩]. كما عثرت «بيل» أيضًا على حمّام صغير مكون من غرفتين خارج الساحة المسورة، ويقع على مسافة معقولة شمال شرق القصر. ورغم أنه تحطّم تمامًا الآن، فإنّ الغرفة الرئيسة بالحمّام ربّما كانت مقبّاة. وقد ساعدت الأكتاف Buttresses فوق المبنى على التخفيف من ارتكاز القبو، وهو الظهور الوحيد لهذا المعلم في الأخيضر[٧٠].

ثمّة عدد من الأسوار الإضافية التي تُحيط بمجمع قصر الأخيضر، والتي يُمكن رؤيتها بوضوح أكبر ضمن فسيفساء جوية زودنا بها سلاح الجو الملكي بناءً على طلب «كيبل كريزويل». واليوم تبدو هذه الأسوار كأنّها

طوابير من الركام المنخفض فوق الأرض[٧١]. وقد انتبهت «بيل» إلى وجود أنقاض هذه الأسوار حين كانت تقف فوق سطح القصر، وربّما كانت ملاحظاتها حول هذه الآثار هي ما حفّز «كريزويل» على القيام بأبحاثه التالية[٧٢]. ونستطيع أن نتخيّل أنّ الساحة المسورة الثانية الخارجية كانت تسمح للجمال أن ترعى بالقرب من المجمع، من دون المخاطرة بهروبها أو تعرضها للسرقة[٧٣]. وقد بيّن العرض الجوي عددًا من الساحات المسورة المستطيلة بين السور الشمالي وبين حافة وادي الأبيض، ومن المُحتمل أنّها كانت أراض مزروعة أحاطت بها ضفاف خفيضة ساعدت على الاحتفاظ بمياه الري[٧٤].



شكل (٣-١٠) يكشف الرسم الّذي أعدّه «رويتر» للجزء الجنوبي من ساحة الشرف أنّه أعاد بناء «البشتاك»، وهو الإطار المستطيل العالي الموجود فوق المدخل المقوس المؤدي إلى الغرفة رقم 29، أو إيوان القصر الرئيس. إنّ ما يثير الدهشة هو أنّه ما من صورة من الصور التي التقطتها «بيل» قدّمت مشهدًا كاملاً للبناء الحجري الذي تتكون منه هذه الواجهة الجنوبية الهامة والتي لا تزال قائمة. في حين توفر هذه الصور تقارير «رويتر» و«كريزويل»».

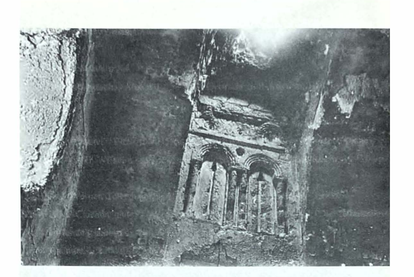


شكل (٣-١١) إعادة بناء التي قام بها «رويتر» للقبو الداخلي بالغرفة الاحتفالية رقم 32، وتكشف أنّ القبو كانت تقسمه أربعة أقواس مستعرضة، بينها ثلاثة أقواس برميلية جصيّة كل منها مزخرف بشكل مُختلف، وتنتهي عند جدار مُزخرف بأشباه قباب وحنايا مقرنصات وتجاويف غائرة وزخارف على شكل أروقة غير نافذة.

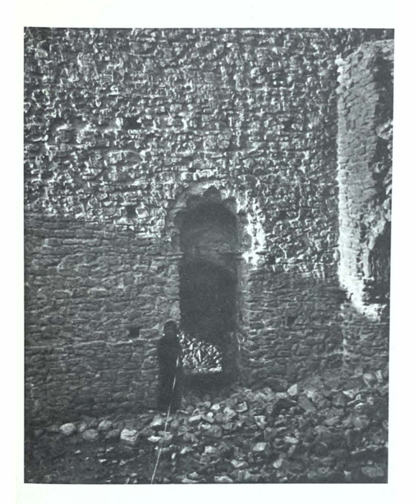
زائرون آخرون للأخيضر في أوائل القرن العشرين

أحسّت «بيل» بنشوة النصر حين غادرت الأخيضر بعد زيارتها الأولى له في أواخر مارس العام 1909، إذْ كانت قد رسمت مخططًا دقيقًا ووصفت وصورت القلعة المهيبة وسائر نواحيها. لا ريب أنّ رحالة أوروبيين آخرين قد سبقوها إلى زيارة القلعة، لكنها كانت تظنّ أنّها أول زائر يهتم بشكل جاد بتفاصيلها المعمارية الكثيرة، ويُنتج سجلا كاملا لها. وستظل مُبتهجة باكتشافها للأخيضر حتى نهاية رحلتها إلى الشرق الأدنى في يوليو العام 1909، وهو الوقت الذي شهد وصولها إلى «القسطنطينية» واستعدادها للعودة

إلى إنجلترا. وقد تحدثت «بيل» أثناء تناول الطعام مع مسئولين من سفارات أوروبية مُختلفة، مع دبلوماسي فرنسي كان يعرف شخصًا يُدعى «لويس ماسينون» Louis Massignon، سبق أن زار موقع الأخيضر قبلها بعام واحد، ونشر ما توصل إليه من نتائج في مقال قصير بالفرنسية[٧٥]. ورغم أنّ هذه الأنباء المؤسفة ربما تكون قد صدمت «بيل»؛ التي بدا أنّها كانت تستميت في أن تنسب شرف اكتشاف الأخيضر لنفسها، فإنّ رسائلها لا تكشف عن قلق كبير. إذْ لا تأتي يومياتها الخاصة بتلك الفترة في يوليو من قريب أو من بعيد على ذكر حقيقة أنّ ثمّة من سرق منها سبقها عمليًا. ولعلنا نفترض أنّها أقنعت نفسها بأنّها أنتجت تخطيطات دقيقة وكاملة لمجمع الأخيضر، وأنّها كانت تعتزم كتابة تقرير شامل لم يسع «ماسينون» إلى كتابته. ذلك أنّ الأخير لم يمكث بالأخيضر إلا ساعة واحدة في الحادي والثلاثين من شهر مارس العام 1908، لأنّ جماعته تعرضت لهجوم عدد من رجال القبائل. وقد نجح في العودة مرّة أخرى في الثالث من أبريل في صحبة موكب أكبر، لكنه لم يمكث سوى يوم واحد؛ ربما مخافة التعرض لمزيد من الهجمات، قام خلاله بعمل بعض القياسات للقصر وتصوير بقاياه. لهذا لا يُدهشنا أنّ تقارير «ماسينون» ومخططاته تضم العديد من الأخطاء والسهو، كما أنّ التاريخ الذي افترضه لبناء القصر خلال القرن السادس إبان الدولة الساسانية، تبيّن عدم صحته في نهاية الأمر[٧٦].



شكل (٣-١٢) صورة التقطتها «بيل» للجدار الجنوبي، بالطرف الشرقي من الغرفة 32. ونرى فيها زخارف على هيئة رواقين غير نافذين تؤطرهما عواميد متصلة، يزينهما قوالب من الجصّ على هيئة تعرجات أو زخارف شريطية بسيطة. في قلب كل رواق غير نافذ رسم مفرد يصور رمحًا قائمًا، وفي الأعلى زخارف إضافية على شكل زهيرات أو أنصاف دوائر غائرة.

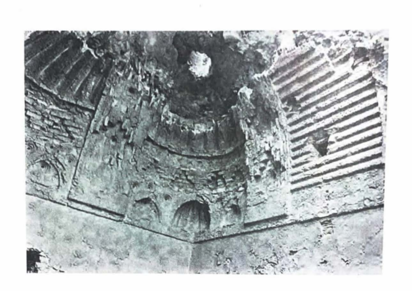


شكل (٣-١٣) أحد الأبواب الرئيسة المؤدية إلى فناء المسجد داخل القصر، من ناحية الشمال. يقع الباب داخل حنية، أمّا المدخل المقنطر في الأعلى فمزين بنمط ناتئ مميز من الجصّ.

لم يكن «ماسينون» أول من ينتقص من امتياز «بيل» الخاص باكتشاف القلعة الصحراوية. إذْ يبدو أنّه خلال فترة غيابها عن بلاد الرافدين؛ في

الفترة من 1909 إلى زيارتها الثانية للأخيضر في مارس 1911، كي تُكمل مخططاتها وصورها الفوتوغرافية، قام ألمان من «الجمعية الألمانية لدراسات الشرقية» Deutschen Orient-Gesellschaft بزيارة الأخيضر، وكانوا يعتزمون إصدار تقرير خاص عن القلعة ظهر بعدئذ بفترة قصيرة في العام 1912، وكان كاتبه الرئيس هو «أوسكار رويتر»Oskar Reuther بمساعدة «فريدريك فيتسل» Friedrich Wetzel و«كارل مولر»Karl Müller، وجميعهم أعضاء في فريق التنقيب عن بابل. وقد علمت «بيل» بزيارة الألمان في مارس العام 1911، حين التقت «رويتر» و«مولر» في «دار بعثة بابل»، عقب زيارتها الثانية إلى الأخيضر مباشرة[٧٧]. ولا تذكر رسائلها ويومياتها شيئًا عمّا لابد أنّه كان كشفًا مروعًا ومخيبًا للآمال. إضافة إلى ذلك؛ وعلى خلاف زيارة «ماسينون» القصيرة، مكث الألمان عدة أيام في الأخيضر، وأسفرت مهاراتهم المعمارية شديدة التطور عن رسم مخططات بالغة الدقة لكل بوصة في القلعة. ولا ريب أنّ تقريرًا كهذا يُزاحم؛ إن لم يكن يفوق في تفاصيله الدقيقة، السجلّ الذي أعدته «بيل» عن المجمّع. مع ذلك، ظلّت «بيل» حذرة بشكل مُدهش؛ على الأقل في كتاباتها. ففي يومياتها بالعاشر من مارس 1911، تكتفي بالإشارة إلى أنّ «رويتر» كشف لها عن المخططات التي رسمها للأخيضر، وتكتب في إحدى رسائلها أنّها وجدت كل أعضاء الفريق الألماني: «ممثون لأقصى درجة ممكنة»[٧٨]. وتذكّرت مشكورة في تقريرها الأخير عن الأخيضر الذي نُشر في العام 1914، أنّ الألمان عرضوا عليها رسوماتهم وناقشوا معها تفاصيل الأخيضر. وأنّها كانت شديدة الامتنان لسماحهم لها باستخدام بعض رسوماتهم التوضيحية في كُتبها وتقاريرها، وأنّها عبّرت عن إعجابها: «بإنتاجهم المُتقن»[٧٩].

يتبدّى مرّة أخرى أنّ «بيل» كانت تتمتع بضبط نفس لا يُصدق في مواجهة هذا السبق المذهل. ولعل ما جعل الأمور أسوأ هو إدراكها احتمال أن تكون هي نفسها من حثّ الألمان للقيام بهذا العمل في المقام الأول. ذلك أنّها في العام 1909؛ بعد يومين فحسب من مغادرتها الأخيضر (في الثلاثين من مارس)، قامت بأولى زياراتها إلى أعمال الحفر الألمانية في بابل. كان الانفعال الناجم عن اكتشاف القلعة لا يزال يغمرها، لذلك لم تتردد في الإعلان عن زيارتها للأخيضر، وكانت صريحة مع أعضاء الفريق الألماني الذي كان يضم «فريدريك فيتسل»، بشأن مخططاتها وملاحظاتها[٨٠]. وتوحي رسالتها بأنّ الألمان لم تكن لديهم فكرة عن المكان وبالتالي لم يروه من قبل قطعًا، ناهيك عن التخطيط لإرسال بعثة إلى هناك. ورغم ذلك أصابهم وصف القلعة بدهشة هائلة، وأجمعوا على أنّها- بكلمات «بيل»: «أهم مبنى في عصره يتم اكتشافه حتّى الآن»[٨١]. وكانت «بيل» شديدة الفخر باكتشافها درجة جعلتها تكتب آنذاك: «هذه أعظم ضربة حظّ أحظى بها. سأنشر ما توصلّت إليه في دراسة أخصصها للمبنى وحده، وستحرّك المياه الراكدة»[٨٢]. ويعكس هذا التصريح من دون ريب انطباعها بأنّها تنفرد وحدها بفضل اكتشاف الموقع.



شكل (٣-١٤) الركن الجنوبي الشرقي من رواق المسجد الجنوبي المسقوف (رقم 11) الذي كان يحظى بأحد أجمل الأقبية في القصر. ويضم ربع قبة شكّلتها أقواس مستعرضة كانت مزخرفة بنمط جصّي مُحزز وفتحات على شكل مُعينات ودوائر غائرة وحنية ركنية محززة وأشباه قباب جانبية قليلة العمق.

لا يسعنا إلا أن نستنتج أنّ الألمان عزموا على استكشاف المكان بأنفسهم، بعد أن سمعوا الآن من «بيل» عن أبّهة الأخيضر. إذْ كان الأخير؛ على كل حال، لا يفصله عن بابل إلا أقل من يومين اثنين، كما أنّ رحلة قصيرة كهذه في قلب الصحراء ربّما كانت استراحة ميسورة تمامًا؛ ما لم تكن موضع ترحيب، من أيام طويلة وشاقة شهدت أبحاثًا أركيولوجية في تلال بابل العامرة بالطوب اللبن. وربّما أحسّ «رويتر» وزملاؤه أنّهم يستطيعون إنتاج دراسة علمية أشمل من تلك التي أنتجتها «بيل»؛ نظرًا لمهاراتهم المعمارية المذهلة وتمرينهم الأركيولوجي، ومن ثمّ شرعوا في نشر تقريرهم الخاص بأسرع وقت ممكن. أمّا «بيل» من جانبها، فلم ترو شيئًا عمّا يُمكن تفسيره بأنه مكيدة سرية، ولا عبّرت قطّ طوال حياتها عن أي

إحساس بالمرارة جرّاء الحادث. ولا تأتي الإشارة الوحيدة إلى مشاعرها الحقيقية من كتاباتها، بل من خلال خطاب كتبته أختها غير الشقيقة «إلسا» (ليدي ريتشموند) عقب وفاة «بيل» مباشرة. وفي هذه المُحاضرة عن حياة «بيل» وإنجازاتها، والتي كان الهدف من إلقائها جمع أموال لمدرسة الآثار البريطانية في العراق، تروي «الليدي ريتشموند» قصة اكتشاف «جيرترود» للأخيضر وما تلاه من كتابات منشورة[٤٣]. وتستمر في القول: «لكن ما خذلها بشدة أنّ بعض علماء الآثار الألمان الذين زاروا الموقع بعدها، أصدروا كتابًا عنه أولًا قبل أن يصدر كتابها». ويبدو أنّ سطرًا قد أُسقط من هذه الفقرة، مما يُشير إلى أنّ «الليدي ريتشموند» قد اختارت ألا تتكلّم عن الأخرى في نهاية المطاف. ونحن نتساءل بدورنا، إن كانت قد تمسّكت بالحفاظ على لباقة «بيل» في مواجهة خيبة الأمل هذه.

لا يمكن إنكار أنّ كتاب «أوسكار رويتر» «الأخيضر Ocheïdir» الذي نشرته «الجمعية الألمانية لدراسات الشرق الأدنى»، هو تقرير بديع، لاسيما تركيزه على تفاصيل قصر الأخيضر المعمارية. ذلك أنّه وصف كل غرفة وفناء ومدخل وقوس وقبو بدقة شديدة، كما حدد أبعادها ورسمها ببراعة. واستهلك طاقة ضخمة في وصف وإظهار التقنيات المختلفة المستخدمة في البناء. أمّا أقوى نقاط القوة في التقرير، فهي عمليات إعادة البناء البديعة لمعالم الصرح الصحراوي المُختلفة، والتي نفخت الحياة في القصر ونقلت القارئ طابعه المهيب بحقّ حين كان مأهولًا. لكم هو صعب ألا ننبهر بروعة «صالة الشرف» كما تصورها «رويتر»، بفضائها المفتوح البديع الذي تؤطره الأروقة ذات الأسقف المعقودة، وجدران البوابات الشاهقة ذات الطوابق الثلاثة طوابق الموجودة بالجانب الخلفي، وبالطاووس المنقوش في

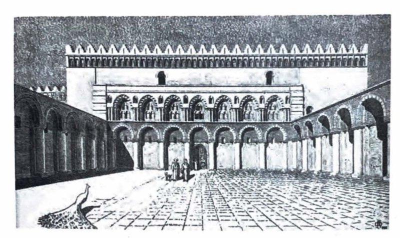
الواجهة كي يُعزز الطابع النبيل للفناء (انظر شكل ٣-١٥). كما تستحضر إعادة بناء أخرى عظمة رواق المسجد الجنوبي ذي السقف المعقود، بأقبيته المغطاة بالجصّ ورواقه ذي الأعمدة المشيدة بالطوب[٨١]. وهكذا يستطيع القارئ من خلال عمليات الإحياء البارعة هذه أن يستمتع بإحساس تجربة القصر بأسلوب تعجز الرسومات؛ بل حتّى الصور الفوتوغرافية للأنقاض الراهنة، عن مجاراته. ومن الواضح أنّ كلاً من «بيل» و«كريزويل»؛ وكان الأخير قد زار الأخيضر في العام 1930، تأثرا كثيراً بكتاب «رويتر»، وقد أدرجا عدداً من رسوماته التوضيحية في تقاريرهما، وبالتالي اعترفا بما في هذه الصور من وضوح وجودة تجريبية.

تختلف تقارير «بيل» حول الأخيضر عن كتاب «رويتر» Ocheidir في عدد من الجوانب المهمة. أولها أنّ «بيل» لم تكن مهندسة معمارية، ومن ثمّ صادفت صعوبة في مهمة رسم المعالم المعمارية ورسم مخططات لها، لذلك سعت إلى تعويض هذا الضعف من خلال إنتاج سجلات فوتوغرافية واسعة لمعالم الأخيضر الإنشائية الكثيرة. فالتقطت حوالي 164 صورة للقصر في العامين 1909 و1911، أدرجت منها حوالي 87 صورة في تقريرها النهائي عززت أوصافها المعمارية لحدّ بعيد، من خلال توضيح أسلوب وشكل بعض المعالم المعمارية وتقديم سجل لا يقبل الجدل لحالة تلك المعالم حين زارتها. تكتب «بيل»:

إنّ الاستنساخ الدقيق للتفاصيل ذو قيمة هائلة، وصورة فوتوغرافية جيدة واحدة لإحدى القباب تساوي ألف تخمين بعد سقوطها. من ثمّ يجب على هؤلاء الذين تسنح لهم الفرصة لزيارة معالم أثرية ألا يدخروا جهداً في عمل سجل دقيق للأساليب الإنشائية؛ ومن تجربتي الخاصة، ستمرّ عليهم دائماً

لحظات لاحقة يتمنون خلالها أن لو كانوا أكثر سخاءً، مهما كان سخاؤهم في التقاط الصور الفوتوغرافية(٨٥).

رغم ذلك، لم تكن «بيل» راضية عن مهمة إنتاج تقرير مفصل دقيق حول ما رأته وسجلته. إذْ كانت أكثر طموحًا من «رويتر»، حيثُ كانت تأمل في شرح الأخيضر. كانت ترغب في معرفة من سكن القصر وتاريخ بنائه، وحجم الإلهام المعماري سواء من الشرق أو من الغرب الذي أثّر على بنائه ومظهره النهائي. كما كانت مهتمة أخيرًا بموقع الأخيضر في تاريخ العمارة بالشرق الأدنى وعالم البحر المتوسط، وعلاقته بالتطورات الثقافية والدينية والسياسية في العصور القديمة المتأخرة والعصر الإسلامي. وقد أحسّت «بيل»؛ كي تحقق هذه الأهداف الطموحة، بضرورة إجراء بحث يتجاوز الأخيضر نفسه، لا يضم ما توصّلت إليه من معلومات فحسب – لحدّ كبير من خلال دراستها للعمارة الكنسية في العصور القديمة المتأخرة – بل أيضًا ما توصّلت إليه التقارير المعمارية والأركيولوجية الخاصة بالشرق الأدنى الصادرة حديثًا. كما التمست خبرة وآراء الباحثين العاملين على نفس القضايا والمنطقة الجغرافية، كي يمدوها بأحدث صور إعادة البناء وأصدقها.



شكل (٣-١٥) إعادة البناء التي قام بها «رويتر» لساحة الشرف من الناحية المقابلة للبوابة الشمالية. كانت الواجهة الشمالية؛ كما لاحظت أيضًا «بيل»، تشمل طابقًا ثانيًا يحتوي على محاريب مقوسة، يفصل بينها دعامات على شكل مجاميع أعمدة، أمّا الأقواس نفسها فكانت مزينة بزخارف جصية على هيئة أصداف، تُشبه الموجودة فوق أبواب المسجد. نرى داخل كل محراب مقوس مستويين اثنين من المشكاوات غير النافذة. أمّا الطابق العلوي فكان بسيطًا لا يحتوي إلا على فتحتين يعلوهما قوس تطلان على الأفنية الداخلية، ويحتوي الجزء العلوي على شريط من المحاريب المقوسة قليلة العمق.

تحليلات «بيل» المعمارية وتحديد تاريخ بناء الأخيضر

ركّزت أولى أبحاث«بيل»المعمارية عن الأخيضر؛ والتي أسفرت عن مقترحها الخاص بتاريخ بناء القصر، على عدد من المعالم المعمارية المميزة بشكل رئيس، التي كانت تضم نفس أقبيته وبناء وتوظيف المساحات المقببة، واستخدام الممرات الحجرية وتواجد مسجد داخل القصر. هذه المعالم تصدّت لها «بيل» في مقالها العلمي: «نظام الأقبية في الأخيضر»، الذي نشرته في «مجلّة الدراسات الهللينية» Journal of Hellenic Studies في العام 1910(٨٦). وقد شكّلت المعالم فيما بعد أساسًا لأبحاث إضافية عن الأخيضر أجرتها «بيل» بعد زيارتها الثانية في العام 1911، حيثُ أدمجتها وضمت إليها معالم

لغرى في تقريرها الأخير عن الأخيضر الذي ظهر في العام 1914. سأناقش هنا بإيجاز ملاحظات ونتائج «بيل» المتعلقة بتلك المعالم، مع التركيز بشكل خاص على مساهمات هذه الملاحظات والنتائج في تحديد تاريخ وهوية الأخيضر. كما سأصف بحث «بيل» الأخير - الذي سعت من خلاله إلى تعيين موضع الأخيضر زمنيًا داخل تقاليد بناء القصور الملكية الأوسع في الشرق الأدنى، واستدعت أمثلة قابلة للمقارنة من بلاد الرافدين وخارجها- في فصل لاحق بعد إلقاء الضوء على الأبحاث الإضافية التي أجرتها «بيل»؛ سواء في الميدان أم عند عودتها إلى الوطن.

الأقبية

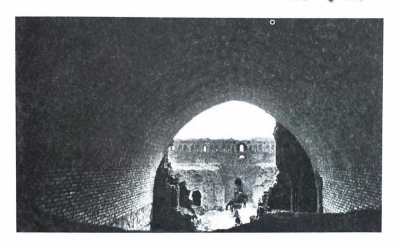
كان القبو «vault»، وهو ملمح معماري يزخر به الأخيضر، يُستخدم في تسقيف أغلب المساحات داخل القصر؛ من أصغر الصالات وأضيق الدهاليز إلى أوسع الأروقة، مثل القاعة الكبرى (رقم 7) ذات القبو الرائع السليم المشيد بالطوب الذي يبلغ عرضه سبعة أمتار (انظر شكل ٣-١٦)، والإيوان الرئيس (رقم 29) وهو مركز القصر الاحتفالي. وقد لفتت «بيل» إلى أنه في الوقت الذي شُيدت فيه أغلب أقبية الأخيضر بحجارة لم تُشكّل وُضعت فوق طبقة من الملاط، كانت بعض الأقبية الأجود؛ مثل قبو القاعة الكبرى، تُشيد بقوالب الطوب[٥٢].

ولما كانت المادة المستخدمة في البناء، فقد لاحظت أنّ بناء الأقبية كان يجري وفق تقنية عريقة ببلاد الرافدين كانت تُعرف بالقبو الجملوني «Pitched Vault». مثل هذا البناء كان ملائمًا لأنه كان مستقرًا تمامًا، ولم يكن يتطلب وضع العوارض الخشبية التي تحمل السقف أثناء عملية بناء القبو، وهي ميزة كانت محل تقدير كبير في بلاد الرافدين التي تعاني فقرًا في خشب البناء[٥٣]. وتصف «بيل» البناء؛ استنادًا إلى شروحات «أوجست شويسي» Auguste Choisy) وباحثين سابقين لتقنية القبو الجملوني، بأنه يتألف في الغالب (وليس دائمًا) من جدران تتقارب من الجانبين شيئًا فشيئًا لتقليل المساحة

المزمع تسقيفها بالقبو. وهكذا، ربّما كانت تُرصّ مداميك الطوب القليلة الأولى بالقبو طوليًا، بحيث يميل كل مدماك إلى الداخل قليلاً. وفوقها، كانت تُرص قوالب الطوب في مداميك متصلة متعددة المركز تُشكّل منحنى القبو. وكانت هذه القوالب تميل بزاوية على جدار القاعة الخلفي، ومن ثمّ يتماسك كل مدماك مع المدماك السابق باستخدام الملاط سريع الجفاف (انظر شكل ٣-١٧). وكان ميل قوالب البناء يضمن ألا ينزلق المدماك التالي قبل جفاف الملاط. وبهذه الطريقة يُمكن بناء القبو من دون استخدام العوارض الخشبية التي تحمل السقف مؤقتًا. وكانت النتيجة عبارة عن قبو على هيئة منحنى بيضوي أو إهليلجي[٨٩]. وقد أشارت «جيل» إلى إمكانية رؤية هذه التقنية في بناء الأقبية في مبانٍ يعود تاريخ بنائها إلى الدولة الساسانية الأولى، حيث لاحظت وجود هذه الأقبية القائمة على مداميك الطوب المائلة للخلف قليلا بالغرف الجانبية في «طاق كسرى» بمدينة «طيسفون»[٩٠]. وكان قبو «طاق كسرى» الأكبر نفسه الذي يمتد لأكثر من خمسة وعشرين مترًا، قد جرى بناؤه باستخدام التقنية نفسها، رغم أننا لا نرى في هذه الحالة مداميكا تميل للخلف لدعم القبو[٩١].

أرجعت «جيل» أصول تقنية بناء القبو إلى فترات تضرب في عمق تاريخ بلاد الرافدين، حيث كان يظهر بانتظام مُشيدًا بالطوب[٩٢]. وبإضافة إلى ظهوره بين المدافن الآشورية المبنية بالطوب في آشور، تشير «جيل» إلى وجود قبو برميلي بسمك أربعة أمتار يغطّي قصر «سرجون» الآشوري في «خورسآباد»، الذي يعود تاريخ بنائه إلى القرن الثامن قبل الميلاد[٩٣]. والواقع أننا نعلم الآن أنّ هذا النوع من البناء يرجع لفترات أسبق بكثير في بلاد الرافدين. إذ شوهدت الأقبية الجملونية؛ على سبيل المثال، في «تل الرماح» بشمال بلاد الرافدين، حيث يرجع تاريخ أقدم النماذج إلى حوالي العام 2000 قبل الميلاد[٩٤]. كما صادفها المنقبون فوق قبر الصرف المبنية بالطوب في «مصاحبة» وفي طبقات «إيسن- لارسا» في مدينة «نيبور» (نفر)[٩٥]. ولمّا كان التاريخ السابق الذي شهد ظهور القبو الجملوني المبني

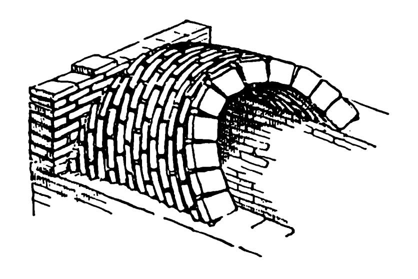
بالطوب لأول مرّة، فإنّ الأدلة الراهنة تُفيد بأنّه نشأ في بلاد الرافدين القديمة، ومن خلال التأكيد على هذه الحالات السابقة،ردّت«بيل» بشكل صحيح الأقبية الموجودة في الأخيضر – لا إلى تقليد معماري غربي ما، بل إلى أسلافهم المباشرين في العراق.



شكل (٣-١٦) صورة التقطتها «بيل» للقبو الجملوني المبني بالطوب الذي يغطّي القاعة الكُبرى في قصر الأخيضر، من الجهة المُطلة على الناحية الجنوبيّة حيثُ «ساحة الشرف»، التي نصبت فيها «بيل» خيامها أثناء زيارتها للموقع في العام 1911.

وقد تبيّنت «بيل»؛ بالإضافة إلى توظيف بناء أقبية الطوب الجملونية، وجود أسلوب آخر مميز لبناء الأقبية في الأخيضر التي تتخذ شكل قبو مُتصالب أو «متقاطع»Groin Vault. حيثُ رأت ثمانية نماذج في الأخيضر بأركان الدهليز رقم 28، حيثُ تصنع المساحات المسقوفة بأقبية برميلية زوايا قائمة. كما تظهر أيضًا في منتصف الذراعين الشرقي والغربي من الدهليز 28، حيثُ يقع كل منها بين قوسين مستعرضين، وفي المدخل المسقوف رقم 61 بالدهليز حين يدخل جناح الغرف المُحيطة بالفناءين (D) و(E)[٩٦].

وأخيرًا، لاحظت وجود قبو متقاطع بالغرفة المربعة رقم 141 بالملحق الشرقي(٩٧). وقد شُيدت هذه الأقبية المتقاطعة باستخدام ألواح حجرية تمّ تقطيعها لتشبه قوالب الطوب، ما عدا في المدخل المسقوف رقم 61، المبني بالطوب فعلًا(٩٨). كانت كل الأقبية بصرف النظر عن مواد البناء، تتميز بالمداميك القائمة التي تميل إلى الخلف قليلا على الجدار الخلفي أو قوس مُستعرض، وتنطلق من خاصرتين أفقيتين مائلتين في ركني المساحة المقرر تسقيفها بالقبو (انظر شكل ٣-١٨)(٩٩). لم تكن الأقبية المتقاطعة تتطلب وجود حوامل خشبية مؤقتة؛ أو لا تتطلب إلا القليل منها، وكانت تُغطّى بالجصّ فور بنائها (انظر شكل ٣-١٩)(١٠٠).



شكل (٣-١٧) رسم لقبو جملوني مبني بالطوب من موقع «خورسباد» الذي ينتمي للدولة الآشورية الحديثة، يكشف كيف كان كل مدماك طوب يميل بزاوية على جدار القاعة الخلفي، بما يوفر دعمًا ضروريًا للمدماك التالي. وقد استخدم نفس التقليد العريق في بناء الأقبية في بلاد الرافدين داخل قصر الأخيضر، كما لاحظت «بيل».

كانت «بيل» ترى أنّ القبو المتقاطع نشأ في الغرب- في أسيا الصغرى لو لاً (الأناضول) بالقرن الثاني قبل الميلاد- لكنّه تطور بعد ذلك في روما بوتيرة أسرع[١٠١].وثمّة ما يُثبت بشكل قاطع انتشار الأقبية المتقاطعة الغزير في القسطنطينية إبّان الدولة البيزنطية بالقرن السادس الميلادي[١٠٢]. ومع ذلك، يبدو أنّها كانت مجهولة في العمارة الساسانية شرقاً[١٠٣]. وهذا العامل أصاب «بيل» بشك متزايد في نسب بناء الأخيضر للساسانيين، رغم أنّ الكثير من مُعاصريها ومن بينهم الباحث الفرنسي «مارسيل ديولافوي» Marcel Dieulafoy كان يميل إلى هذه الفترة المبكرة. وقد حاجج «ديولافوي»؛ وهو خبير بارز في الفن والعمارة الساسانيين قام بأعمال تنقيب وسجّل عدداً ضخماً من الصروح الساسانية في فارس، في رسالة لـ«بيل» قائلاً إنّ القبو المتقاطع كان نتاج الكثير من البعثات التي كان الحكام الساسانيون يرسلونها إلى سواحل البحر المتوسط الشرقية حتّى بداية القرن السابع، علاوة على احتكاكهم بالتقاليد الثقافية لليونان وروما[١٠٤]. مع ذلك، كانت «بيل» تفضّل الدليل المادّي على هذا النوع من التخمين، ولهذا السبب وضعت ثقتها في أعمال «أوجست شيسي»، الذي كان يرى أنّ أول ظهور للقبو المتقاطع في سوريا كان أثناء الدولة الأموية، وذلك بناءً على دراسة مسحية قام بها عن آثارها المعروفة التي تنتمي لتلك الفترة[١٠٥]. ثمّة بيانات أخرى تدعم فكرة ظهور القبو المتقاطع لأول مرّة إبان العصر الإسلامي المبكر؛ حسبما ذكرت «بيل»، تضمّ ظهورها في مأوى الصيد بقصر «عمرة» بالجانب الغربي في الصحراء السورية (اليوم في الأردن)، الذي كان قد خضع للفحص بالفترة الأخيرة في زمن «بيل»، وأُرجع تاريخ بنائه إلى خلفاء الدولة الأموية بالنصف الأول من القرن الثامن[١٠٦]. لكن اللافت للنظر هو أنّه لا يزال لا يوجد حتّى الآن ما يُبرر وجود القبو المتقاطع في العمارة الساسانية، بما يؤكّد دقة بعض قناعات «بيل» المبكرة التي تتعلق بانتشار وتاريخ بناء هذا الملمح المعماري المميز في الشرق، وتأكيدها النهائي على أنّ ظهوره في الأخيضر يُشير إلى بناء المجمع إبان العصر الإسلامي[١٠٧].

المساحات المُقبّبة

تتمتع مُعالجة «عبيل» عن المساحات المقببة؛ إذا وضعنا في اعتبارنا توقيت كتابة هذه المُعالجة، بعمق ودقة شديدين، كما أنّ ما أسهمت به في فهم التأثيرات المعمارية للأخيضر ليس بالقليل. كانت المساحات المقببة تستخدم بشكل مُقتصد في الأخيضر. فتغطّي إحدى القباب؛ تزينها زخارف على هيئة قنوات من الداخل وربّما كان بها فتحة عند الرأس، الحجرة الصغيرة (الغرفة رقم4) بين البوابة الشمالية والقاعة الكبرى (انظر شكل ٣-٢٠)[١٠٨]. ورغم سقوطها، فإنه من المرجح أن تكون الساحة رقم 27 بين القاعة الكبرى وساحة الشرف كانت تغطيها قبة[١٠٩]. وأخيرًا، لاحظت «عبيل» أنّ حجرات البرج بممشى السور الخارجي؛ التي انهارت كلّها، كانت مغطاة بقباب بيضوية[١١٠]. كما أدركت أنّ أغلب المساحات الأخرى داخل القلعة كان من الممكن تسقيفها بقباب، لكن المهندس المعماري غطّى هذه المساحات بأقبية برميلية أو متقاطعة[١١١]. إضافة إلى ذلك، لا نجد بين كل المساحات المقببة مساحات واسعة- فمثلاً، لا يزيد اتساع أي منها عن 3.1 مترًا[١١٢]. وتطرح هاتان الحقيقتان فكرة أنّ بُناة الأخيضر لم تكن لديهم الخبرة ولا الثقة الكافيتين فيما لديهم من مهارات لبناء القباب، بما يجعل القبة عنصرًا واسع الانتشار بعمارة القلعة.

تسبر مُعالجة «عبيل» استخدام المساحات المقببة في تاريخ، بخاصة من منظور الشرق الأدنى وتطور تقانة بناء القبة عبر الزمن في هذا الجزء من العالم. وتشير إلى نماذج القباب الأولى في بلاد الرافدين، بما فيها صورة نحت أشوري ناتئ من تل «كوينجق» في نينوى، تُظهر مبان مقببة يرجع تاريخ بنائها إلى القرن السابع قبل الميلاد[١١٣]. وربّما أصابت «عبيل» حين قارنت بعض تلك النماذج الأشورية مع «منازل خلية النحل»(*) المبنية بالطوب اللبن، التي جاءت إلينا من أجزاء بشمال سوريا وشمال بلاد الرافدين، حيث كانت السقوف تُبنى بحيث يبرز كل مدماك عن المدماك

(*) منازل خلية النحل Beehive Houses هي مبان مستديرة تغطيها قباب تُشبه خلايا النحل المصنوعة من القش. [المترجم].

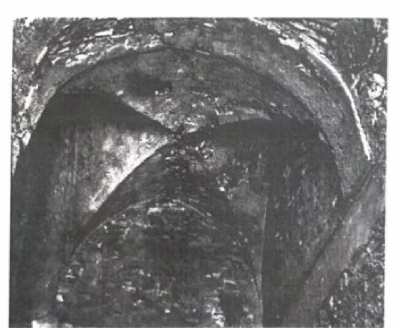
السابق، أو ما يُعرف بالتطنيف Corbelling(*)، وليس بقباب حقيقية(١١٤). ولعل من الممكن أن نضيف إلى القائمة التي أعدّتها «بيل» عن القباب في بلاد الرافدين، العديد من الأمثلة المبكرة الأخرى التي جرى العثور عليها أثناء عمليات التنقيب في أرجاء بلاد الرافدين على مدار المائة عام السابقة، والتي يرجع البعض منها إلى ما قبل التاريخ، لكن لا تزال تنتظر إثبات أنّها كانت مُغطاة بمثل هذا الملمح المعماري(١١٥). وبخلاف الأقبية، لا يبدو أنّ القباب- كأن توجد بالقصور والمعابد الضخمة على سبيل المثال- كانت حاضرة ببلاد الرافدين القديمة.



شكل (٣-١٨) صورة التقطتها «بيل» لبقايا قبو متقاطع يوجد في الركن الشمالي الغربي بالغرفة 141 في الملحق الشرقي. لا تزال الخاصرتين المائلتين كما هما، رغم انهيار باقي القبو المتقاطع.

(*) نظام تسقيف معماري توضع فيه ألواح حجرية مسطحة لتقطع السطح وتتداخل بشكل أفقي. [المُترجم].

تعول مُعالجة «بيل» عن القباب بالشرق الأدنى على بعض ملاحظاتها المبكرة عن هذه المعالم، وهي نتاج أبحاثها حول العمارة الكنسية في الأناضول التي ظهر أغلبها في كتابها الصادر في العام 1909 بعنوان «ألف كنيسة وكنيسة»(١١٦). وفيها تقدّم الدليل من الجزء الغربي بالشرق الأدنى؛ سواحل الأناضول في أغلب الأحيان، حيثُ شرع المعماريون في التفكير بجدية أكبر في حلول لوضع سقف كروي فوق مبنى مُربّع بصورة أنيقة. وقد توصلوا لهذا الأمر من خلال تقديم معلقات كروية Pendentives؛ وهي تتكون بشكل رئيس من مثلثات منحنية تُبنى بالطوب أو الحجارة، وترتفع من زوايا مبنى مُربّع بحيث تحوّل زوايا هذا المبنى إلى دائرة يُمكن تثبيت القبة فوقها. وتخمِّن «بيل» أنّ أولى نماذج القباب ذات المعلقات الكروية تعود إلى ما قبل عصر «قسطنطين» (أي قبل القرن الثالث الميلادي)، لكنّها شاعت في غرب الأناضول وسوريا إبّان العصر البيزنطي بالقرن السادس، ووجدت أصدق وأبهى تعبير لها في شكل القبة الضخمة التي تغطّي «آيا صوفيا» التي شيدها «جستينيان الأول» في القسطنطينية(١١٧). كما تُشير «بيل» إلى قبة تكثر الإشارة إليها توجد في «جرش» (في الأردن اليوم)، على اعتبار أنّها ساحة مُغطّاة بقباب معلّقة على مثلثات كروية شديدة القدم من سوريا، رغم أنّها تتردد في نسبها إلى عصر ما قبل المسيحية، وتعتقد بدلًا من ذلك أنّها ربّما كانت مُعاصرة لنماذج «جستينيان الأول» في القسطنطينية(١١٨).



شكل (٣-١٩) صورة التقطتها «بيل» لقبو متقاطع بركن الدهليز 28 الشمالي الشرقي، حيثُ لا يزال الجصّ سليمًا. هذه الأمثلة من الأقبية المتقاطعة نادرة في الأخيضر، ولا تظهر إلا في ثمانية نماذج بالقصر والملحق الشرقي المُجاور.

وتصف «بيل»؛ على خلاف القباب المبنية فوق معلقات كروية، ما تميل إلى الإشارة إليه باعتباره أكثر أشكال بناء القبة بدائية، وهو منتشر بمباني مناطق الأناضول الداخلية التي زارتها، ويرجع تاريخ بنائها إلى القرنين الرابع والخامس الميلادي[١١٩]. وفيها كان يجري تحويل القاعدة المستطيلة للمساحة الموجودة في الأسفل إلى شكل ثماني، من خلال وضع دعامات أفقية (أرفف حجرية) عبر الأركان، ومن ثمّ يُمكن بناء قبة مستديرة[١٢٠]. وقد ظلّ هذا الأسلوب في بناء القباب معمولاً به في المناطق الداخلية من الأناضول، وبأماكن أخرى في الأجزاء الداخلية من الشرق الأدنى على مدار عدة قرون[١٢١].

وقد سعت «بيل»؛ بالإضافة إلى استعراضها لتطور بناء القباب في الغرب، إلى تتبع تاريخ القباب في الشرق. ففي بلاد فارس، توصّل الساسانيون إلى حلِّهم الخاص بشأن بناء قبة فوق قاعدة مستطيلة، وكان هذا الحلّ ينطوي على استخدام الحنايا الركنية Squinches، وهيّ عبارة عن حنايا مقوسة تُبنى فوق أركان إحدى الغرف، فتحول الزوايا إلى منحنيات ومن ثمّ تسمح بوضع قبة فوقها(١٢٢). ومكّنت الحنايا الركنية البنائين الساسانيين من وضع قباب تمتد إلى أكثر من ستة عشر مترًا، وهي تقنية يُمكن ملاحظتها في موقع «فيروز آباد»؛ وهو أقدم القصور الساسانية، وفي «سروستان» التي كانت تعدّ في عصر «بيل» مثالًا جيدًا على المباني الساسانية في القرن الخامس الميلادي(١٢٣). كما خمّنت «بيل» أنّ العديد من المساحات داخل قصري قضاء «قصر شيرين» الصغير والكبير، اللذين يُفترض أنّهما يرجعان للعصر الساساني (قصر «كسرى» و«تشاهار قابو»)- ورغم أنّه لم يتبق منهما سوى أنقاض- كانت مغطاة بقباب شُيدت باستخدام الحنايا الركنية وكان عرضها يصل إلى ستة عشر مترًا(١٢٤).



شكل (٣-٢٠) صورة التقطتها «بيل» للركن الجنوبي الغربي بالقبة المحززة في الغرفة رقم 4. ربّما كانت القبة مزودة في الأساس بفتحة في قمتها. يُمكننا أن نرى الطريقة البدائية التي أُقيمت بها القبة فوق دعامات في أركان الحجرة المربعة، بدلًا من الحنايا الركنية أو المعلقات الركنية التي كانت تحول زوايا الغرفة إلى منحنيات القبة بشكل أكثر أناقة.

فطنت «بيل» حين تأملت شاهد الأخيضر الخاص بالقباب في ضوء هذه البيانات المتراكمة، إلى صعوبة مقارنته بالقباب الموجودة في الشرق. إذ ما من شكّ في حقيقة أنّ معماريي الأخيضر كانوا على دراية بالحنايا الركنية، لكنّهم رغم ذلك لم يستخدموها قطّ في بناء قباب علوية حقيقيّة. بل كانوا يوظفون الحنايا الركنية للتغلب على الزوايا بين الأقبية البرميلية أو الأركان[١٢٥]. ونستطيع أن نلاحظ مثل هذا الاستعمال؛ على سبيل المثال، في أحد أركان الرواق الموجود في الطابق الثاني (رقم 134) المُطل على الساحة (A) بالطرف الشمالي من القلعة (انظر شكل ٣-٢١)[١٢٦]. كما توجد أمثلة أخرى للحنايا الركنية في الرواق الجنوبي ذي السقف المعقود بمسجد الأخيضر (رقم 11)، حيث تظهر في أركان أشباه القباب الموجودة بين أضلاع مستعرضة. ولا تزال إحدى هذه الحنايا الموجودة في رواق المسجد معقود السقف تحتفظ بحالتها الأولى تقريبًا، وهي مزخرفة بنمط مُحزز من الجصّ تُحيطه محاريب مدببة قليلة العمق (قلنسوات)، وفي أعلاها وريدات متدرجة متحدة المركز ومزاغل مبنية بالطوب[١٢٧]. وبالتالي ما من شكّ في أنّهم كانوا على دراية جيدة باستعمال الحنايا الركنية، التي ربما يكون معماريو الأخيضر استعاروا فكرتها من تقاليد الشرق المعمارية، لكن يبدو أنّه لم تتوافر لديهم الثقة الكافية في مهاراتهم لاستخدام الحنايا الركنية في بناء قباب حقيقية- وبالأخصّ القباب العريضة مثل الموجودة بالقصور الشرقية المهيبة[١٢٨].

لا نرى بقباب الأخيضر ما يُظهر استعمال التقنية الآتية من الغرب؛ التي سبق أن شرحناها، التي تصعد فيها المعلقات الكروية من أركان الساحات قائمة الزاوية، لتفسح المجال لوضع قبة كروية فوقها. بل قامت قبة الأخيضر المحززة بدلاً من ذلك على ألواح أفقية مائلة بين أركان الغرف المربعة، وهي التقنية الأخرى التي شهدناها تخرج من الجزء الغربي بالشرق الأدنى، لكن يُنظر إليها باعتبارها أسلوبا أكثر بدائية لتثبيت القباب، وتنتشر بكثرة بالكنائس الأولى التي شُيدت في داخل الأناضول بالقرنين الرابع

والخامس[١٢٩]. قد يغرينا هذا الملمح بافتراض أنّ قباب الأخيضر شُيدت في تاريخ مبكّرٍ هي الأخرى، إضافة إلى أنّ قرب المسافة الجغرافية تجعل هذا التفسير ممكنًا: فربّما لم تكن التقنيات الغربية قد وصلت بعد إلى معماريي العراق[١٣٠]. في النهاية، لم يساعد وجود القباب والحنايا الركنية «بيل» على تحديد تاريخ أكثر دقة جرى فيه بناء الأخيضر، لكن في معرض نقاش هذه المعالم وأصولها وظهورها المعلوم داخل القصر، جذبت «بيل» الأنظار إلى المجمع، وطبيعة الإلهام والتأثيرات متعددة الاتجاهات التي ألقت بظلالها على القصر. إنّ إدراك الشخصية التعددية للأخيضر أمرٌ بالغ الأهمية، وكثيرًا ما يُشدد الباحثون ممن عاصروا «بيل» أو جاءوا بعدها على هذا التنوع في فن وعمارة العصر الإسلامي المبكّر[١٣١].

الأنابيب الحجرية

ثمّة نقطة أخرى ترتبط بملاحظات «بيل» حول بناء الأقبية في الأخيضر، تتعلق بمعالم فريدة بعض الشيء لكنها عملية وتكرر ظهورها عدد من المرات، وتُطلق عليها «بيل» اسم «أنابيب حجرية» Masonry Tubes. وهي عبارة عن ممرات مجوفة مقبّاة تمتد بين الغرف المتجاورة التي تضم أقبية برميلية بنفس الارتفاع، وبين الأقبية والجدران المستقيمة[١٣٢]. وتقع فتحات هذه الأنابيب في عُرى العقود بين المساحات المقباة، ويُمكن رؤية أطرافها في واجهات الأفنية المفتوحة، مثل مجموعات الإيوان داخل «البيوت» بالطابق الرئيس في القصر (انظر شكل ٣-٢٢)، وفي واجهات مجموعات الإيوان المواجهة للصحن المفتوح بالطابق الثالث عند مدخل الأخيضر[١٣٣]. وربّما كانت وظيفة هذه الأنابيب المجوفة هي تخفيف حمل الأقبية الحجرية الهائل، رغم أنّ «بيل» تطرح احتمال أنّها كانت تعمل على تبريد الغرف من خلال توفير طوق من الهواء غير الساخن حول الأقبية[١٣٤]. وتذكر «بيل» وجود هذه الأنابيب المبكر في موقع «الحضر» Hatra الفرثي، حيث تظهر في بعض المدافن[١٣٥]. ومن ناحية أخرى، رأت «بيل» أنابيب

حجرية في «خان خيرنينا» Khan Khernina شمال تكريت الذي ينتمي للقرن الثالث عشر، ولاحظت أنّ هذا التقليد المعماري لابد أنّه كان مُتّبعًا لبعض الوقت بين المعماريين المسلمين(١٣٦). وتطرح «بيل» أيضًا فكرة أن تكون هذه الفتحات قد شكّلت جزءًا أساسيًّا من واجهة البناء الإسلامية التي تتحول؛ على سبيل المثال، إلى نوافذ ومشكاوات على جانبي الأقواس في واجهات مسجد «بن طولون» في القاهرة، وجامع «أبو دلف» في سامراء(١٣٧). وإجمالًا، ربط وجود «الأنابيب الحجرية» الأخيضر بأجداد ساسانيين مزعومين أكثر قدمًا، لكنّها بالنسبة لـ«بيل» كانت تؤكد على وجودها المطرد بالعمارة الإسلامية المبكرة في بلاد الرافدين، وهي فترة كان اهتمام«بيل» بها يتزايد شيئًا فشيئًا أثناء تفكيرها في معالم الأخيضر المعمارية ككل، وانتبهت إلى وجود عدد هائل من أوجه التشابه بينها وبين السمات الإنشائية التي كانت موجودة آنذاك.



شكل (٣-٢١) حنية ركنية في أحد أركان الرواق 134 في الطابق الثاني ببوابة القصر الشمالية.

مسجد الأخيضر

كان الركن الشمالي الغربي من قصر الأخيضر – بنظامه الفريد الذي يضمّ فناءً مفتوحًا وأروقة بأسقف معقودة مزخرفة بالجصّ، وأبواب تؤطرها زخارف ناتئة دقيقة – يُضفي على هذا القطاع تميّزًا وخصوصيّة. ولا تطرح يوميات ورسائل «بيل» في العام 1909؛ أثناء زيارتها الأولى للأخيضر، تخمينًا يتعلّق بطبيعة هذه المنطقة، لكن «بيل» تطرح في أول تقاريرها العلمية عن الأخيضر الذي نُشر في أوائل العام 1910، احتمال أن تكون مسجدًا[١٣٨]. واللافت للنظر هو أنّ طرح «بيل» فاجأ الباحث الألماني «إرنست هرتسفلد» تمامًا، لكنه أعاد التأكيد على هذه الهوية في مقال له نُشر لاحقًا في العام 1910 عن تاريخ إنشاء قصر «المشتى» في صحراء سوريا الغربية. إذ قاده وجود قاعة تقع بمكان مماثل في قصر «المشتى» إلى تخمين كونها مسجدًا هي الأخرى، بما يطرح فكرة أن يكون القصران الصحراويان قد شُيدا إبان العصر الإسلامي[١٣٩]. كان الاختلاف الوحيد هو وجود «محراب» في الجدار الجنوبي بقاعة «المشتى»، عزز هويتها كمسجد، في حين لم تُذكر هذه التفصيلة بالنسبة للأخيضر[١٤٠]. وقد عادت «بيل» في كتابها «من سلطان إلى سلطان» إلى مسألة هوية القطاع الشمالي الغربي بالأخيضر، وطرحت فكرة أن هذا القطاع ربما كان مسجدًا، واستشهدت بالنتائج التي توصل إليها «هرتسفلد»؛ إضافة إلى قبوله بهذه الفكرة[١٤١]. لكن يبدو أنّها لم تكن قد حسمت رأيها بعد في هذه المسألة؛ ذلك أنّها إلى جانب اقتراحها الخاص بأن يكون الأخيضر قد أُنشئ بالعصر الإسلامي المبكر، اقترحت أيضًا أن يكون قد أُنشئ في تاريخ أسبق إبان الدولة الساسانية[١٤٢].

ظلّت «بيل» على هذا الحال من التردد حتّى حسمت أمرها بشكل نهائي في تقريرها الأخير عن الأخيضر الذي صدر في العام 1914. والسبب أنّها في ربيع العام 1910 طلبت من مهندس معماري فرنسي يُدعى «هنري فيوليت» Henry Viollet؛ كان على وشك البدء في رحلة إلى بلاد الرافدين، زيارة الأخيضر وأن يُزيح الأنقاض الموجودة فوق منتصف الجدار الجنوبي بالقاعة المعزولة؛ لكي يرى ما إذا كان ثمة محراب أم لا(١٤٣). ونحنُ نعرف من إحدى رسائل «بيل» إلى أمّها؛ في الخامس من يناير العام 1911، أنّ الرّجل الفرنسي أطلعها على نتائج زيارته إلى الأخيضر أثناء تناولها الطعام معه ومع زوجته في باريس بعد عودته من بلاد الرافدين. وكان قد عثر بالفعل على محراب مقعر في المكان الذي طلبت منه أن يبحث فيه (انظر شكل ٣-٢٣)! ومن ثمّ أصبح الآن اقتراح «بيل» أنّ القطاع كان عبارة عن مسجد، وأنّ الأخيضر يرجع للعصر الإسلامي حقيقة واقعة (١٤٤). المثير أنّ هذه لم تكن المرة الأولى التي تنجح فيها «بيل» في تحديد هوية أحد المساجد؛ ذلك أنّه أثناء البحث الذى قامت به «بيل» مع «وليام رامزي» بإحدى الكنائس الأثرية في «بنبركيليسي» بالأناضول العام 1907، أدركت «بيل» أنّ منصة متدرجة في الكنيسة- كان يُنظر إليها في السابق باعتبارها منبرًا للوعظ- كانت في الحقيقة منبرًا إسلاميًا، وبعدئذ أزالت الأنقاض الموجودة على الجدار المجاور لتكشف عن وجود المحراب. وقد أوضحت هذه المعالم أنّ الكنيسة تحولت إلى مسجد في توقيتٍ ما. ويُقال أنّ «رامزي» والعمّال المحليين المسلمين كانوا شديدي التأثّر والبهجة بهذا الكشف(١٤٥).



شكل (٣-٢٢) الناحية الجنوبية بالفناء الأوسط (B) بأحد البيوت الموجودة بالجانب الشرقي من القصر، ونرى فيها الممرات الحجرية إلى جوار المدخل المقوس الأوسط المؤدي إلى إحدى غرف الإيوان (رقم 48). ربّما كانت أغلب هذه الممرات الحجرية مغطاة بالجصّ.

تاريخ بناء الأخيضر وبانيه المقترحان

اقترح عدد من الباحثين عدّة تواريخ لبناء الأخيضر عقب نشر التفاصيل المتعلقة به، لكن «بيل» كانت من بين أوائل من قدّموا الموعد الأجدر بالتصديق في ضوء ما قامت به من استقصاء وبحث دقيقين. ويعرض «كريزويل» في تقريره الأخير تفاصيل النقاشات المختلفة بشأن موعد بناء الأخيضر[١٤٦]. ولسنا في حاجة إلى تكرار هذه البيانات هُنا، عدا

ملاحظة أنّ كثيراً من الباحثين ومن بينهم «لويس ماسينون» و«مارسيل ديولافوي»، استمرّ خلافهم القوي حتّى العشرينيات حول وجود أصل ساساني للأخيضر يعود إلى القرن السادس أو أوائل القرن السابع. أمّا «بيل» فكانت تشدد في هذه الأثناء في العام 1914 على أصوله الإسلامية وأنّه يرجع إلى تاريخ يلي الهجرة النبوية (أي العام 622 ميلاديًا)، استنادًا إلى أن أحد قطاعات القصر كان مسجدًا. كما دلّ العثور على محراب مقعر على أنّ البناء جرى بعد العام 709 ميلاديًا، عندما ظهر أول محراب من هذا النوع في المسجد النبوي في المدينة(١٤٧).

تبقّى أمام «بيل» أن تحدد بالضبط الفترة الإسلامية التي شهدت بناء وعمارة الأخيضر. وقد قدّم نقش عربي نسخته وترجمته، بعد أن عثرت عليه بالدهليز الواصل بين الغرفتين 44 و45 بالقصر، بعض القرائن. فأكّدت «بيل» بمساعدة مستعربين ألمانيين هما «برنهارد موريتز» Bernhard Moritz و«إينو ليتمان» Enno Littmann، أنّ النقش كُتب بالفترة بين العامين 1369 و1378 ميلاديًا. ويُشير إلى استخدام بئر الماء الموجود في الأخيضر، لكنه لا يُشير بأي شكل إلى تاريخ بناء القلعة أو بانيها الأصلي(١٤٩).

وفي نهاية المطاف، يبدو أنّ «بيل» دعمت تاريخًا مبكّرًا يعود للدولة العباسية، في حوالي منتصف القرن الثامن الميلادي. ويرجع السبب في عدم نسب المجمع لفترة لاحقة، إلى طبيعة الأقواس التي كان أغلبها مدببًا قليلاً، مع وجود أمثلة قليلة مدوّرة تستحضر إلى الأذهان تقليدًا ساسانيًا مبكّرًا. وهي تختلف عن الأقواس في سامرّاء التي نسبها «هرتسفلد» وآخرون بثقة كبيرة إلى عهد الخليفة العباسي «أبي جعفر المنصور» في أواخر القرن الثامن، وكلّها تنويع على الأقواس المدببة. وبالتالي ما دام أنّ معماريي الأخيضر لم يكونوا قد تبنوا بعد تقاليد بناء الأقواس المدببة واسع الانتشار، فلابد أنّ تصميم أقواس الأخيضر كان في تاريخ أقدم قليلاً(١٥٠).

أمّا بالنسبة لهوية الشخص الذي بنى الأخيضر، فقد تفحّصت «بيل» كتابات المؤرخ «ياقوت الحموي»، الذي يذكر أنّ عيسى بن علي بن عبد الله؛ عمّ الخليفة المنصور، كان مسئولاً عن هدم مبنى في الصحراء كان يُعرف باسم «قصر مُقاتل»، ثمّ أعاد بناءه مرّة أخرى[١٥١]. ومن ثمّ اقترحت «بيل» أن يكون «قصر مُقاتل» الّذي أعيد بناؤه مرّة أخرى هو الأخيضر، وأنّ بناءه ربّما كان في حوالي منتصف القرن الثامن الميلادي (تقريبًا العام 750 ميلاديًا)[١٥٢].

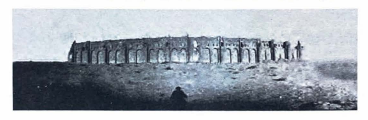
كانت لدى «كريزويل» فكرة مُختلفة عن صاحب القلعة وعن تاريخ تشييده؛ إذْ لاحظ مثل «بيل»، أنّ بعض المعالم المعمارية مثل المحراب المقعر جرى بناؤها بعد العام 709 ميلاديًا. واتفق مع «بيل» على أنّ القوس المدبب لم يكن قد ترسّخ بعد بشكل كامل في الأخيضر، في حين كان موجودًا في سامراء حوالي العام 849 ميلاديًا. وبالتالي لابد أنّ الأخيضر يعود لتاريخ أقدم. ويُشير «كريزويل» إلى حقيقة تاريخية مفادها أن حياة الخلفاء العباسيين كانت تختلف عن حياة سابقيهم الأمويين شبه البدوية، الذين بنوا مساكن لأنفسهم على الجانب السوري من الصحراء. بل على العكس، كان العباسيون سكّان مدن وقد سكنوا؛ على الأقل بعد العام 764، في بغداد. رغم ذلك، لم يكن هنالك ما يمنع من التفكير في أشخاص آخرين من هذه الفترة الزمنية العامّة، وفي ضوء ذلك يطرح «كريزويل» فكرة أنّ يكون عيسى بن موسى (ابن علي بن عبد الله بن عبّاس)؛ ابن أخي أبي العباس السفّاح والمنصور، هو باني الأخيضر[١٥٣]. كان عيسى هو ولي العهد للخليفة المنصور الذي منحه تعويضًا ماليًا سخيًا كي يتنازل [لصالح المهدي محمد بن المنصور- المُترجم] عن المطالبة بالعرش، ويعتزل الحياة العامّة حوالي العام 775. ويُقال إنّ عيسى تقاعد في ممتلكاته حيثُ عاش في عزلة كاملة حيثُ: «يذهب إلى الكوفة مرّة واحدة كل أسبوع، خلال شهرين من العام، لحضور صلاة الجمعة»[١٥٤]. ويدلل «كريزويل»على أنّ الأخيضر يناسب عيسى على نحو

مثالي، بقوله أنّ القصر لا يُمكن أن يبنيه إلا رجل بمثل ثروة عيسى، وأنّ عيسى هو الأمير العباسي الوحيد الذي عُرف عنه أنّه عاش في عزلة[١٥٥]. علاوة على ذلك، لا تتجاوز المسافة بين الأخيضر والكوفة ثمانين كيلومترًا يُمكن قطعها على مرحلتين، لا سيما إذا وضعنا في الاعتبار استعمال «خان عطشان» كنقطة استراحة، حيثُ يقع في منتصف المسافة تقريبًا بين الأخيضر والكوفة[١٥٦].

إلى الآن لم تُحسم هوية باني الأخيضر بصورة دقيقة، رغم استمرار كثير من الباحثين في اتباع رؤية وتاريخ «كريزويل» الأقرب للتصديق[١٥٧]. لكن اللافت للنظر هو إعادة تشكيل للمشهد قدّمتها «باربارا فنستر» Barbara Finster و«يورجن شميت» Jürgen Schmidt. حيثُ قاما في السبعينيات بعمل مسح في الصحراء شرق كربلاء، وسبرا بشكل خاص أنقاض «تلول الأخيضر»، وهو موقع يبعد حوالي كيلو مترين ونصف الكيلو متر شمال الأخيضر[١٥٨]. يتفق الباحثان مع رؤية «ورنر كاسكل» Werner Caskel التي تقول بأنّ «تلول الأخيضر» هو «قصر بني مقاتل»، الذي شُيد أول مرّة في منتصف القرن السادس الميلادي[١٦٠]. ذلك أنّه إبّان العصر العباسي الثاني؛ في حوالي العام 762 ميلاديًا، هدم عيسى بن علي عمّ السفاح القلعة، وأعاد بناء قصر مقاتل الجديد في الأخيضر[١٦١]. ونستطيع أن نرى أنّ هذا الطرح يتفق بشكل جيد مع طرح «بيل» الذي ينسب الأخيضر لعيسى بن علي، واقتراحها القائل بأنّ الأخيضر هو قصر مقاتل الذي أُعيد بناؤه، حتّى وإن كانت تجهل كل ما يتعلّق ببقايا تلول الأخيضر الأقدم القريبة. وكما أشرنا سابقًا، لم يُتفق إلى الآن على تاريخ بناء وهوية الأخيضر بشكل دقيق، لكن الجدير بالملاحظة هو أنّ فرضيات «بيل» حول هذه القضايا المهمة تتفق بدرجة كبيرة مع فرضيات الباحثين الأحدث.



شكل (٣-٢٣) صورة التقطتها «بيل» للجانب الجنوبي بالمسجد. انهارت العقود تمامًا تقريبًا باستثناء الركنين الجنوبي الغربي والجنوبي الشرقي. نرى في منتصف الجدار الجنوبي بالأسفل جزءًا من محراب المسجد يُطل من أعلى كومة من الأنقاض.



شكل (٣-٢٤) واجهة سور الأخيضر الخارجي الشرقية، ونرى فيها الأقواس غير النافذة بين أبراج مستديرة وشبه مستديرة. كما نرى بوضوح ظلال «بيل» في مقدمة الصورة بالمنتصف.

تقييم دراسة «بيل» المعمارية للأخيضر، وملاحظات ختامية

سنتناول بمزيد من التفصيل الاستقبال العام لما توصلت إليه «بيل» بشأن قصر ومسجد الأخيضر، حين نتعرّض لنقاشاتها حول هذا المجمع فضلا عن اهتمامها بأصول وتطور القصور الإسلامية الأولى ككل في

الفصل الخامس. أمّا الآن فيكفي القول أنّ تحليلها لمعالم الأخيضر مثل الأقبية والقباب، وتعيينها الدقيق لهوية مسجد المجمع، حظي عمومًا باستحسان أغلب نظرائها من المتخصصين. وقد أقرّ «رويتر»؛ رغم أنّ له إنتاجه الخاص حول الأخيضر، بما في أبحاث «بيل» عن الموقع من فائدة، ومنها تحديدها الصحيح لهوية المسجد(١٦٢)، كما فعل «هرتسفلد»، الذي أدرج طرحها الخاص بالمسجد في مقاله الأريب عن تطور الفن والعمارة في العصر الإسلامي المبكر، وتعيين تاريخ إنشاء قصر المشتى(١٦٣). بعدئذ بفترة قصيرة، سيقوم «كريزويل» بنفسه بزيارة القلعة الصحراوية أربع مرات بين العامين 1930 و1936، ويُعدّ قياساته الخاصّة وتخطيطاته وصوره الفوتوغرافية، وكلّها نُشر ضمن وصفه وتحليله الكاملين بالمجلد الثاني من كتابه المفصّل «العمارة الإسلامية المبكرة» Early Muslim Architecture(١٦٤).
كذلك سيُنشر وصف «كريزويل» بشكل مُختصر في كتابه «سرد موجز العمارة الإسلامية المبكرة»A Short Account of Early Islamic Architecture(١٦٥).
وكلاهما سيغدوان مرجعين أساسيين عن الأخيضر، وسيبقيان إلى يومنا هذا مصدرًا لا ينِي الباحثون والطلاب المهتمون بالقلعة الصحراوية وموقعها في تطور عمارة العصر الإسلامي المبكر يستشهدون بهما. لكن رغم الشهرة التي حظي بها «كريزويل»، فإن التفاصيل التي يقدّمها عن الأخيضر لا تتجاوز المعالجة المصطنعة لما سبق أن قدّمه «رويتر» و«بيل». ذلك أنّه يتصرّف بأريحية مع رسومات ورؤى «رويتر»، ويروي أبرز ما كتبه عن الأشكال المعمارية المختلفة وطرق بنائها(١٦٦). وينقل من جهود «بيل» نقاشهاعن المساحات المقببة والأقبية المتقاطعة داخل القصر(١٦٧)، وتعيينها لهوية الممرات الحجرية ووظيفتها المقترحة(١٦٨)، وتعيينها لهوية مسجد القصر(١٦٩)، والمقارنة التي أجرتها بين تصميم ومعالم الأخيضر المعمارية، وبين نظراتهم في «طار تامز جرد» بكركوك وفيروز آباد وطيسفون وقصر شيرين وسروستان(١٧٠). كما تتكرر ملاحظات «بيل» واسعة المعرفة عن

الأقبية الجملونية المبنية بالطوب، والقباب والمعلقات الكروية، في مواضع كثيرة بكتاب «كريزويل»[171]. وإجمالاً من حيث المضمون والتنظيم، تدين مُعالجة «كريزويل» عن العمارة الإسلامية المبكرة بدين هائل لمن سبقوه، بخاصة «بيل».

بمعايير اليوم، ينبغي الاعتراف أنّ وصف «بيل» وتحليلها المعماري للأخيضر لا يرقى لما هو متوقَّع من تقرير أركيولوجي شامل، بخاصة تركيزها الشديد على تصميم القلعة وأشكالها المعمارية، على حساب القطع الأثرية الأخرى القابلة للاسترداد مثل الفخار والعملات والأشياء المعدنية الأخرى، وعظام الحيوانات والبقايا النباتية والعينات الميكرولوجيّة. لا شكّ أنّ هذه الأدلة كان بإمكانها أن تتيح مزيدًا من المعلومات الثمينة عن الحياة داخل مجمع الأخيضر، وأن تسلط الضوء بشكل خاص على الأنشطة الخاصة التي كانت تُمارس داخل وبالقرب من القصر. ونحنُ نعلم أنّ «بيل»؛ خلال الوقت القصير الذي أمضته فعلا داخل الأخيضر، لم يكن لديها الوقت الكافي ولا الرغبة في التنقيب أو جمع مثل هذه القطع الأثرية، بل كان تركيزها منصبًا بقوّة على ما يُمكن تمييزه من بقايا المجمع القائمة- وأقصد بها عمارته.

لكن ما يبدو غائبًا بشكل خاص عن وصف «بيل» للأخيضر (وعن رواية «رويتر» و«كريزويل» أيضًا فيما يتعلّق بهذا الجانب) هو العنصر البشري. إذْ يتبدّى كأنّ «بيل» والآخرين؛ في ظلّ هذا التشديد على البناء الحجري والقباب والأقواس والأقبية، نسوا التطرق بالتفصيل للبشر الحقيقيين الذين سكنوا هذا المجمع الصحراوي. ما من شكّ أنّ «بيل»استغرقت في التفكير؛ برومانسية لحدّ ما، في الأمير القديم الذي سكن هذا المكان، لكنها لا تقدّم أي أفكار جادة عمّا كان يفعله هذا الشخص وبلاطه وحاشيته داخل هذه الأماكن، وطريقة إدراكهم لها. وكيف تأثّر سلوكهم بالأسلوب الذي جُهّز به

الأخيضر وأُثث وزُخرف؟ إلى جانب ذلك، كيف أثّرت ووجهت هذه الأشياء تفاعلاتهم مع بعضهم البعض؟ ربّما يتبدّى تشديد الماضي القريب الخاص على المساحات الطبيعية والمبنية، وعلى تجارب البشر مع مثل هذه المساحات- التي تيسرها في أغلب الأحيان التقانات الرقمية مثل الأداءات ثلاثية الأبعاد والرسوم الحاسوبية المتحركة والواقع الافتراضي- وسيلة فعّالة بشكل خاص للوصول إلى تلك الاعتبارات، ولإعادة سكّان الأخيضر إلى داخل فضائهم المبني الشهير(١٧٢).

لكن في ذات الوقت، ربّما يكون من الخطأ أن نفرط في الاستخفاف بدراسة «بيل»، بخاصة حين نضع في اعتبارنا السياق والفترة الزمنية التي أجرت خلالها دراستها، وهي تستحق أن نقارنها بالدراسات الأركيولوجية الأخرى التي كانت تُنشر في الوقت نفسه تقريبًا. وكما سبق أن أشرنا، كانت دراسة «بيل» عن الأخيضر؛ باهتمامها بالتفاصيل المعمارية التي قامت «بيل» بوصفها وقياسها ورسمها وتصويرها بدقة، تباري أو تفوق في بعض الأحيان التقارير الأركيولوجية التي كان معاصروها ينشرونها. إضافة إلى ذلك، لا ريب أنّ ملاحظات «بيل» واستنتاجاتها المفصّلة حول أصول وتطور القبو الجملوني المشيد بالطوب الذي شاع استخدامه في الأخيضر، إلى جانب الأقبية المتقاطعة والحنايا الركنية والقباب والممرات الحجرية، ساعدتها وساعدت آخرين على صياغة تاريخ معقول لبناء الأخيضر، كما أتاحت تبصّرًا بالاتجاهات التي خرجت منها التقاليد المعمارية وتطورت في بلاد الرافدين إبان العصرين القديم المتأخر والإسلامي المبكر. وقد أسهم في تعزيز جهد «بيل»، إثباتها البارع لوجود مسجد داخل القصر؛ إلى جانب معرفتها التاريخية بالفترتين الساسانية والإسلامية المبكرة، التي ساعدتها في طرح شخص يُحتمل أن يكون قد قام ببناء القصر وتحديد هويته الحقيقيّة. وإجمالاً، كانت دراسة «بيل» عن الأخيضر إنجازًا مهمًا في وقتها، وهي

تُسلط الضوء بشكل جيد على البراعة التي تمكّنت من خلالها أن تستعرض وتقدّم بنجاح مسألة أركيولوجية صعبة ومُعقّدة.

لم تعد «بيل» إلى الأخيضر إلا مرّة واحدة خلال سنواتها اللاحقة، رغم أنّها كانت قد أصبحت من سكّان بغداد وعلى دراية جيدة بريف جنوب العراق. من ناحية أخرى، كان قد صار متاحًا لها الآن رفاهية القيام برحلة قصيرة بالسيارة إلى الأخيضر، إذا ما قورنت بالأيام الطويلة المُتربة التي أمضتها فوق ظهور الجياد والجمال أثناء بعثاتها الأولى إلى القصر الصحراوي. فقامت «بيل» بزيارتها الأخيرة إلى الأخيضر في أبريل العام 1925، بصحبة رفاق من بغداد منهم صديقها المقرب والحميم «كيناهان كورنواليس» Kinahan Cornwallis، لكن رغم الحماس الذي غمرها عند رؤية الأخيضر، فإن الرحلة كانت تجربة مُقبضة: إذْ كانت أجزاء إضافية من القصر قد انهارت منذ زيارتها الأخيرة قبل أربعة عشر عامًا، وغمرها الوجود في المكان مرّة أخرى بإحساس أنّها محض شبح؛ بسبب الأوقات الصعبة التي مرّت بها خلال تلك الفترة[١٧٣]. وتعبر «بيل» عن موقف حزين مماثل في رسالة سابقة كتبتها في العام 1921، حين مرّت بمدينة «هيت» التي شهدت انطلاقتها الأولى في قلب الصحراء الغربية باتجاه الأخيضر في العام 1909. وفيها تتذكر بأسى مغامراتها السابقة:

بالنسبة لي يمتلئ المكان بذكريات مرحة لا حدّ لها عن الأشباح التي كُنتها ذات يوم وأنا أمتطي الجمال، قبل أن يتحطّم العالم الذي كان عالمي وينهار. لا أظنّ أنّي سأذهب إلى هناك مرّة أخرى، ولا أحبّ مظهر هذه الأشباح – فهي سعيدة وواثقة بصورة مفرطة. أنا من يشعر كأنّي شبح إلى جوارهم[١٧٤].

تبدّى أنّ لاكتشاف «بيل» للأخيضر وتحرياتها أودعت في ذكرياتها عذوبة عميقة ورجاءً متهللاً وساذجًا، تعارضا بشدّة مع حياتها اللاحقة

وإنجازاتها المهنية المطبوعة في الأذهان، إلى جانب انتكاساتها وحسراتها الشخصية القوية. ولكم هو مُشجِّع بعد النبرة التي اختلطت بها الحلاوة بالمرارة في تلك الذكريات الأخيرة، أن نعود إلى السطور الختامية في الاستهلال الذي بدأت به دراستها عن الأخيضر في العام 1914، التي تعكس بشكل جيد افتتان «بيل» المبكر بالقصر الصحراوي:

من المستبعد أن نشهد قصرًا بالغ السحر والإلهام كقصر الأخيضر، يكشف عن وجوده أكثر من مرّة واحدة طوال العمر. وأنا إذْ أُنهي هذه الصفحة أستحضر الدهشة التي أصابتني حين وقعت عيناي أول مرّة على أسواره الهائلة، والمشاعر التي غمرتني أثناء إقامتي الأولى داخله، ومتعة العودة إليه التي لم ينتقص منها الاعتياد شيئًا؛ والحسرة التي ألقيت بها تحيتي الأخيرة على حضوره الناتئ عبر السهل الذي غمرته الشمس. مُحال أن يكون الأمير المجهول الذي انتصبت شاهقة بأمره أبّهة القصر الفريدة في قلب الصحراء، أو الأمراء المجهولون الذين سكنوا أفنيته، قد افتخروا أو ابتهجوا بما صنعت أيديهم وإرثهم حين كان في أوجه، أكثر منّي أنا التي لم تره إلا بعد أن تدهور. وها أنا أفترق عنه الآن وفي قرارة نفسي إحساس بالإرغام، يُماثل ما أحسست به حين كنت أبتعد شيئًا فشيئًا عن كنفه الحقيقي(١٧٥).

هوامش الفصل الثالث

(1) William M. Ramsay and Gertrude L. Bell, Thousand and One Churches (London, 1909). Reprint, with a new foreword by Robert G. Ousterhout and Mark P.C. Jackson (Philadelphia, 2008), pp. 309–11, 437, 440–1.

(2) Bruno Schulz and Josef Strzygowski, 'Mschatta', Jahrbuch der königlichen Preussischen Kunstsammlungen 25 (1904), pp. 205 – 373.

(3) Gertrude L. Bell, Review of B. Schulz and J. Strzygowski, 'Mschatta', in Revue archéologiques 5 (1905), pp. 431–2.

(4) نُقلت واجهة قصر المشتى إلى برلين في العام 1903، كهبة من السلطان العثماني عبد الحميد الثاني للإمبراطور الألماني فيلهلم الثاني. واليوم، تمثّل واجهة قصر المشتى جزءًا من مجموعة متحف الفن الإسلامي، وهي محفوظة ضمن مقتنيات متحف «بيرجامون» ببرلين. للاطلاع على نقاشات علمية حديثة حول واجهة قصر المشتى والقصر نفسه، انظر:

Hillenbrand, 'Islamic art at the crossroads: East versus West at Mshatta', in A. Daneshvari (ed.), Essays on Islamic Art and Architecture: In Honor of Katharina Otto-Dorn (Malibu, 1981), pp. 63–86; Oleg Grabar, 'The date and meaning of Mshatta', Dumbarton Oaks Papers 41 (1987), pp. 243–7.

(5) Schulz and Stryzgowski, 'Mschatta', pp. 367–70; Bell, Review of 'Mschatta', p. 432; I. Shahid, Byzantium and the Arabs in the Sixth Century. Vol. 1, Part 1: Political and Military History. (Washington, 1995), pp. 32–6.

(6) C. Edmund Bosworth, 'Lakhmids', Encyclopaedia Iranica (online edition, 2012), available at www.iranicaonline.org/articles/lakhmids (accessed 29 July 2015).

(7) Ernst Herzfeld, 'Die Genesis der islamischen Kunst und das Mschatta-Problem', Der Islam 1 (1910), pp. 106–8.

(8) عاد «سوربيتر» بعدئذ إلى برلين حيثُ عُين مديرًا لمكتبة منتدى اللغات الشرقية، وهو المنصب الذي تولاه حتى العام 1924. انظر:

G.J. Bosch, J. Carswell and G. Petherbridge (eds), Islamic Bindings and Bookmaking: A Catalogue of an Exhibition in the Oriental Institute Museum, University of Chicago, May 18–August 18, 1981 (Chicago, 1981), p. ix.

(9) المرجع السابق.

(10) تذكر «بيل» أنّه أثناء وجودها في القاهرة قيل لها إنّ «موريتز» هو من ألّف كل كتاب «أوبنهايم». يوميات «جيرترود بيل»، 17 يناير 1905، أرشيف «جيرترود بيل».

(11) رسالة «جيرترود بيل» إلى أمّها، 8 يناير 1907، أرشيف «جيرترود بيل».

(12) يوميات «جيرترود بيل»، 27 يناير 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(13) يوميات «جيرترود بيل»، 28 يناير 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(14) رسالة «جيرترود بيل» إلى أمّها، 29 يناير 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(15) Gertrude L. Bell, Amurath to Amurath (London, 1911), p. 86.

(16) المرجع السابق، ص 119– 137.

(17) المرجع السابق، ص 139.

(18) رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 24 مارس 1909، أرشيف «جيرترود بيل». كان «واتس» موظفًا لدى السير «وليم ويلكوكس» الذي كان آنذاك في منتصف التحضير لبناء «سدة الهندية» على نهر الفرات؛ وهي نظام هيدروليكي مسؤول عن جلب الماء إلى المنطقة المحيطة بمدينة الحلة، واستعادة أنظمة الري بها. انظر:

R.I. Money, 'The Hindiya Barrage, Mesopotamia', The Geographical Journal 50/3 (1917), pp. 217–22.

(19) Bell, Amurath, p. 140.

(20) K.A.C. Creswell, Early Muslim Architecture. Vol. 2: Early 'Abba¯sids, Umayyads of Cordova, Aghlabids, Tu¯lu¯nids, and Sama¯nids, A.D. 751–905 (Oxford, 1940), reprint (New York, 1979), p. 52.

(21) Bell, Amurath, p. 140.

(22) المرجع السابق، ص 144.

(23) رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 26 مارس 1909، أرشيف «جيرترود بيل». وانظر:

Bell, Amurath, p. 144.

(24) Bell, Amurath, p. 145.

(25) المرجع السابق.

(26) المرجع السابق.

(27) يوميات «جيرترود بيل»، 25 مارس 1909. ورسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 26 مارس 1909، أرشيف «جيرترود بيل». إضافة إلى ذلك، ثمّة مُخطط مزود بتلك القياسات ويحمل اسم «ب. ت. واتس»، مُسجّل بإحدى صفحات دفتر «بيل» الميداني:

GLB 11 (1909), London, Royal Geographic Society.

(28) رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 26 مارس 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(29) المرجع السابق.

(30) يوميات «جيرترود بيل»، 27– 28 مارس 1909. ورسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 29 مارس 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(31) المرجع السابق.

(32) Gertrude L. Bell, 'The vaulting system of Ukhaidir', Journal of Hellenic Studies 30 (1910), pl. X; Bell, Amurath, fig. 79.

(33) رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 3 مارس 1911، أرشيف «جيرترود بيل».

(34) يوميات «جيرترود بيل»، 2 مارس 1911. ورسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 3 مارس 1911، أرشيف «جيرترود بيل».

(35) المرجع السابق.

(36) يوميات «جيرترود بيل»، 1– 3 مارس 1911، أرشيف «جيرترود بيل».

(37) Gertrude L. Bell, Palace and Mosque at Ukhaidir: A Study in Early Mohammadan Architecture (Oxford, 1914).

(38) Ibid., pls 1–3; Oskar Reuther, Ocheidir. Nach Aufnahmen von Mitgliedern der Babylon Expedition der Deutschen Orient-Gesellschaft (Leipzig, 1912), pls. III–IV.

(39) Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2, fig. 64.

(40) بئر يقع بمنطقة قريبة لكنه لا يزال بعيدًا عن القلعة، ولم يجر العثور على ماء صالح للشرب داخل القصر أو بالمنطقة المُحيطة. انظر:

Bell, Palace and Mosque, p. 1.

(41) المرجع السابق، ص 3.

(42) وفقًا لحسابات «بيل»، فإنّ السور الخارجي تبلغ أبعاده 175.8 متر في 163.3 متر. المرجع السابق، ص 4. أمّا قياسات «كريزويل» فهي 175 متر في 169 متر. انظر:

Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2, p. 52.

ويبلغ ارتفاع السور الخارجي حوالي 17 مترًا. انظر:

Bell, Palace and Mosque, p. 6; Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2, p. 54.

(43) Bell, Palace and Mosque, pp. 6–7.

(44) Ibid., p. 7; Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2, p. 55.

(45) طبقًا لحسابات «بيل»، فإنّ القصر يمتد حوالي 111.4 مترًا من الشمال إلى الجنوب، و68.5 مترًا من الشرق إلى الغرب. انظر:

Bell, Palace and Mosque, p. 5.

أمّا قياسات «كريزويل» فتختلف عن قياسات «بيل» بشكل كبير، لاسيما ما يتعلق بالمسافة الممتدة من الشرق إلى الغرب، إذ تبلغ 112.85 مترًا من الشمال للجنوب، و81.83 من الشرق للغرب. انظر:

Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2, p. 52.

(46) H. Kennedy, The Court of the Caliphs: The Rise and Fall of Islam's Greatest Dynasty (London, 2004), p. 138.

(47) تقع بين البوابة الشمالية و«القاعة الكُبرى» قاعة مربعة مغطاة بقبة محززة (رقم 4). وعلى اليمين واليسار دهليزان طويلان يغطيهما قبوان (رقما 5 و 6). انظر:

Bell, Palace and Mosque, pp. 9–10; pl. 13.

(48) يبلغ عرض «القاعة الكُبرى» سبعة أمتار، أمّا طولها فيزيد على 15 مترًا. المرجع السابق، ص 12– 13.

(49) المرجع السابق، ص 24. وانظر أيضًا:

Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2, p. 63.

(50) Bell, Palace and Mosque, pp. 19–23. See also Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2, pp. 77–80.

(51) Bell, Palace and Mosque, p. 26, following Reuther's reconstruction. See Reuther, Ocheıdir, Taf. 24: lower image.

وقد استعار «كريزويل» صورة «رويتر» في كتابه. انظر:

Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2, fig. 45.

(52) Bell, Palace and Mosque, p. 26; Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2, p. 67.

(53) Bell, Palace and Mosque, p. 22; Reuther, Ocheıdir, p. 29; Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2, p. 69.

(54) Bell, Palace and Mosque, pp. 26–7; pl. 30, Figs 1–2; Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2, p. 67 and fig. 48 (originally from Reuther, Ocheıdir, Taf. X, bottom image).

(55) Bell, Palace and Mosque, p. 27; Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2, p. 68.

(56) Bell, Palace and Mosque, pp. 27–8; Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2, p. 69.

(57) Bell, Palace and Mosque, p. 29; Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2, p. 70.

(58) Bell, Palace and Mosque, pp. 30–3.

(59) Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2, p. 71.

(60) Bell, Palace and Mosque, p. 32.

(61) أفضل إعادة بناء لهذا الرواق الجنوبي المغطى بسقف معقود رسمه «رويتر». انظر:

Reuther, Ocheidir, Taf. XXVI.

(62) Bell, Palace and Mosque, p. 17; Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2, p. 74.

(63) Bell, Palace and Mosque, p. 18; Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2, pp. 75–6.

(64) Bell, Palace and Mosque, p. 18; Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2, p. 76.

(65) Bell, Palace and Mosque, p. 15–6; Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2, pp. 76–7.

(66) Bell, Palace and Mosque, p. 33; Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2, p. 73.

(67) Bell, Palace and Mosque, p. 33; Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2, p. 74.

(68) Bell, Palace and Mosque, p. 34.

(69) المرجع السابق، ص 36– 37. ويُظهر الشكلان 1 و2 الملحق الشمالي من الشمال إلى الجنوب.

(70) المرجع السابق، ص 37. وانظر:

Creswell, Early Muslim Architecture, p. 85, and fig. 69 for plan.

(71) المرجع السابق، وشكل 68 وpl.5a.

(72) Bell, Palace and Mosque, p. 4, Map 2.

(73) Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2, p. 85.

(74) المرجع السابق، ص 84.

(75) رسالة «جيرترود بيل» إلى أبيها، 10 يوليو 1909، أرشيف «جيرترود بيل». كتب المقال «لويس ماسينون» وكان بعنوان:

Louis Massignon, 'Les chateaux des princes de Hirah', Gazette des beaux-arts (April 1909), pp. 297–306.

وانظر أيضًا:

'Note sur le chateau d'Al Okhaider', Comptesrendus des seances de l'Academie des Inscriptions et Belles-Lettres 53 (1909), pp. 202– 12.

وقد أتبع «ماسينون» هاتين المقالتين بالجزء الأول من كتابه «مهمة في بلاد الرافدين» Mission en Mesopotamie (القاهرة، 1910)، والذي كان يدور بشكل رئيس حول الأخيضر.

(76) Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2, pp. 51–2.

(77) وصلت «بيل» إلى بابل في التاسع من مارس ومكثت حتى الحادي عشر من نفس الشهر.

(78) رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 11 مارس 1911، أرشيف «جيرترود بيل».

(79) Bell, Palace and Mosque, p. xi.

(80) رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 2 أبريل 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(81) المرجع السابق.

(82) المرجع السابق.

(83) Lady Elsa Richmond, 'Memories of Gertrude', Miscellaneous Item #4, Gertrude Bell Archive, University Library, Newcastle University.

ألقت «الليدي ريتشموند» محاضراتها في القاعة الأبولية بلندن، وفي «رونتون» و«هاليفاكس» و«هدرسفيلد». وقد جمعت ستًا وستين جنيهًا إسترلينيًا وعشر شلنات وستة بنسات لتمويل المدرسة البريطانية لدراسة علم الآثار في العراق (في ذكرى «جيرترود بيل»)، كما هو مُشار إليه في:

Report and Accounts of the BSAI, 11 November 1931.

(84) Reuther, Ocheidir, Taf. XXVI.

(85) Bell, 'Vaulting system', p. 81.

(86) المرجع السابق، ص 69– 81.

(87) المرجع السابق، ص 71. كان الطوب يُستخدم كذلك في بناء الأقبية التي تغطي الحجرتين 29 و30، والغرفتين المعمدتين 40 و33. انظر:

Bell, Amurath, p. 153.

وقد قارنت «بيل» هذا المعلم بالتقاليد الساسانية المبكرة المرتبطة ببناء القبو بالطوب، ولاحظت وجوده في «سروستان» على سبيل المثال، بموقع كان يُعد في زمن «بيل» من الآثار الساسانية. انظر:

Bell, 'Vaulting system,' p. 72.

كما لاحظت أنّه في الحالات التي كان البناءون الساسانيون يستعملون فيها الحجارة بدلًا من الطوب، كانوا يقطعون الحجارة إلى ألواح رقيقة كي تُشبه قوالب الطوب، كما هو الحال في الأقبية الأصغر الموجودة في الأخيضر. المرجع السابق، ص 73، وشكل 6، الذي يُبين ممرًا مقبّى مُشيد بالحجارة، لا الطوب.

(88) Trudy Kawami, 'Parthian brick vaults in Mesopotamia, their antecedents and descendants', Journal of the Ancient Near Eastern Society 14 (1982), p. 61.

(89) Bell, 'Vaulting system', p. 72, citing F.A. Choisy, L'Art de batir chez les Byzantins (Paris, 1883), p. 31.

للاطلاع على نقاش حديث حول هذا الأسلوب في بناء القبو الذي استخدمه الرومان أيضًا، انظر:

Lynne Lancaster, 'Roman engineering and construction', in John Oleson (ed.), The Oxford Handbook of Engineering and Technology in the Classical World (Oxford, 2008), p. 274.

(90) Bell, Amurath, p. 153 and fig. 109.

وقد أشارت «بيل» هُنا أيضًا (ص 153) إلى أنّ الدكتور «هرتسفلد» قد أعلن بشكل خاطئ في كتاب سابق:

Herzfeld, 'Genesis', p. 111.

أنّ هذا المعلم لم يكن له وجود في المباني الساسانية.

(91) Bell, 'Vaulting system', p. 72.

(92) المرجع السابق.

(93) Bell, Palace and Mosque, p. 68, citing V. Place, Ninive et l'Assyrie, vol. 1 (Paris, 1867), pp. 176, 255.

(94) Kawami, 'Parthian brick', p. 63, citing David Oates, 'The excavations at Tell alRimah, 1964', Iraq 27 (1965), p. 77 and pl. XXB; and David Oates, 'The excavations at Tell al-Rimah, 1968', Iraq 32 (1970), pp. 20–3 and pls. V–VIII.

(95) Kawami, 'Parthian brick', p. 63, citing E. McCowan and R.C. Haines, Nippur I: Temple of Enlil, Scribal Quarter, and Soundings (Chicago, 1967), pp. 61, 77, and pls. 48A–B. See also G. Michell (ed.), Architecture of the Islamic World: Its History and Social Meaning (London, 1978), fig. 140 c, which illustrates a pitched brick vault over a pit from the site of Khafajeh.

(96) Bell, 'Vaulting system', p. 74; Amurath, p. 153; Palace and Mosque, p. 29.

(97) Bell, 'Vaulting system', p. 74; Palace and Mosque, p. 35.

(98) Bell, Palace and Mosque, pp. 29–30.

(99) Bell, 'Vaulting system', pp. 75–6; Palace and Mosque, pp. 29–30.

(100) Bell, 'Vaulting system', p. 76; Palace and Mosque, p. 30.

(101) Bell, 'Vaulting system', p. 75.

(102) المرجع السابق.

(103) Ibid., pp. 75–6; Amurath, p. 156; Palace and Mosque, pp. 73, 166.

(104) رسالة إلى «جيرترود بيل» من «مارسيل ديولافوي» في 21 مايو 1910، باريس.

Robinson Library Special Collections, Newcastle University, Gertrude Bell Archive, Miscellaneous, Item 13 (one of two unpublished letters from Dieulafoy to Gertrude Bell).

وانظر أيضًا رأي «ديولافوي» بشأن التاريخ الساساني لبناء الأخيضر، بعد أن علم باكتشاف «ماسينون» للقلعة:

Marcel Dieulafoy, 'Découverte par M. Massignon d'un palais fortifié près de Kerbela en Mésopotamie', Comptes-rendus des séance de l'Academie des Inscriptions et Belles-Lettres 52 (1908), pp. 451–2.

وقد تبنّى «ماسينون» رأي «ديولافوي» الذي يزعم بناء الأخيضر إبان الدولة الساسانية.

(105) Bell, 'Vaulting system', p. 76.

(106) Ibid., p. 76; Palace and Mosque, pp. 111–12.

(107) لم يقبل «أوسكار رويتر» Oskar Reuther؛ الذي وثّق بدقة وجود القبو المتقاطع في الأخيضر، كليًّا بحجج «بيل» التي ترمي إلى إثبات بناء الأخيضر في العصر ما بعد الساساني على أساس هذا المعلم المعماري المميز. انظر:

Reuther, Ocheıdir, p. 7.

ويبدو أنّ رأيه تأثر بدرجة كبيرة باعتقاده الخاص بوجود القبو المتقاطع في القلعة الموجودة بعمان، التي كان يُعتقد وقتئذ أنّها تنتمي للعصر الساساني. انظر:

Schulz and Strzygowski, 'Mschatta', pp. 351–2; Reuther, Ocheıdir, p. 7.

وقد ألقى «كريزويل» بثقله لاحقًا في هذا النقاش المُثير، حيثُ فطن إلى وجود الأقبية البرميلية وحدها في مبنى عمان، وبالتالي رفض لادّعاء «رويتر» السابق. انظر:

Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2, p. 95, n. 4.

وينسب الباحثون اليوم مبنى عمّان؛ الذي تختلف أسماؤه بين «مبنى عمان الاحتفالي» أو «القاعة ذات المدخل المُقبب»، إلى الدولة الأموية. انظر:

Alistair Northedge and C-M. Bennett, Studies on Roman and Islamic 'Amman: History, Site and Architecture (Oxford, 1992); Robert Hillenbrand, Islamic Architecture (New York, 1994), pp. 379–81.

(108) Bell, 'Vaulting system', p. 77; Palace and Mosque, pp. 9–10.

(109) Reuther, Ocheıdir, pp. 29–30; Bell, Palace and Mosque, p. 13.

(110) Reuther, Ocheıdir, Taf. VI illustrates a reconstructed domed corner tower. See also Bell, Palace and Mosque, p. 73; Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2, p. 55.

(111) Bell, Palace and Mosque, p. 73.

(112) المرجع السابق.

(113) Ibid., p. 75; see also K.A.C. Creswell, Early Muslim Architecture. Vol. 1: Umayyads, A.D. 622–750 (Oxford, 1969), reprint (New York, 1979), p. 451, fig. 490.

(114) Bell, Palace and Mosque, p. 75.

(115) Gwendolyn Leick, 'Dome', A Dictionary of Ancient Near Eastern Architecture (London, 1988), p. 64.

(116) Ramsay and Bell, Thousand and One Churches, pp. 438–46; Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 1, p. 470.

ويصف المرجع الأخير المُلخّص الذي كتبته «بيل» عن القباب المُعلقة فوق مثلثات كروية Pendentives في هذا المبنى بـــ: «الموجز والبارع في آن واحد».

(117) Bell, 'Vaulting system', p. 79; Palace and Mosque, p. 73; Ramsay and Bell, Thousand and One Churches, pp. 438, 441, 443; Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 1, pp. 467–70.

تُفرّق «بيل» في سياق نقاشها المفصّل، بين ما تُشير إليه باعتباره قُبّة Dome مُعلقة فوق مثلثات كروية؛ مثل الكرة الكاملة، وبين قبة لا تقوم على مثلثات كروية بل ترتفع فوقها بأنصاف أقطار أصغر. وتُعدّ قبة «آيا صوفيا» مثالًا على النموذج الأخير. انظر:

Ramsay and Bell, Thousand and One Churches, pp. 439, 443.

وانظر أيضًا اعتراض «كريزويل» على استخدام هذه المصطلحات، واستعراضه الكامل للقباب المُعلقة فوق مثلثات كروية والقباب في كتابه:

Early Muslim Architecture, vol. 1, pp. 450–71.

(118) Bell, 'Vaulting system', p. 79.

ينتهي نقاش «كريزويل» حول هذا النموذج من جرش؛ الموجود داخل الحمامات، بالإثبات الراهن الذي مفاده أنّ هذه المباني لا تتعدى في الواقع النصف الأول من القرن الثالث الميلادي، وأنّها من بين النماذج الأولى للقباب المُعلقة المُشيدة فوق قاعدة مُربعة في الشرق الأدنى بالكامل. انظر:

Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 1, p. 46 and fig. 520.

(119) Bell, 'Vaulting system', p. 79.

(120) المرجع السابق.

(121) Ramsay and Bell, Thousand and One Churches, pp. 438, 442; Bell, 'Vaulting system', p. 79.

تُسلط صور «بيل» الفوتوغرافية لكنائس الأناضول في بنبركيليسي (كنيسة رقم 9) و Mahaletch الضوء بشكل خاص على إقامة القبة بهذا الأسلوب. انظر:

Ramsay and Bell, Thousand and One Churches, Figs 42 and 205.

(122) Bell, 'Vaulting system', p. 79. See Michell, Architecture, p. 141.

وذلك للحصول على شرح مفيد للحنايا الركنية المستعملة في العمارة الساسانية.

(123) Bell, Palace and Mosque, p. 73.

اتبعت «بيل» الاعتقاد الشائع إبان أوائل القرن العشرين، أنّ القصر الموجود في سروستان يعود للقرن الخامس الميلادي. لكن «ل. بير» تحدّى هذا الطرح في ثمانينيات القرن العشرين، واقترح بدلًا من ذلك أن يكون قد شُيد في القرن الثامن أو التاسع الميلادي إبان العصر الإسلامي المبكر. انظر:

L. Bier, Sarvistan: A Study in Early Iranian Architecture (London, 1986), pp. 1–2 (for history of the research of the site) and pp. 23–52 (for his proposed date of the site).

(124) Bell, Palace and Mosque, pp. 50–3, 73.

(125) Bell, 'Vaulting system', p. 79.

(126) Bell, Amurath, fig. 99; Bell, Palace and Mosque, pl. 25, fig. 2; Reuther, Ocheidir, Abb. 27 shows the same feature.

(127) These are Creswell's circular coffers, Early Muslim Architecture, vol. 2, p. 76; Bell, Palace and Mosque, p. 18; Reuther, Ocheidir, Taf. XV, left side.

(128) Bell, Palace and Mosque, p. 73.

(129) Bell, 'Vaulting system', pp. 77, 79; Palace and Mosque, p. 73.

(130) يُرجع اكتشاف وجود قبة حقيقية مُعلقة فوق مثلثات كروية في مأوى الصيد الأموي بقصر عمرة في الأردن؛ وهو مبنى يُنظر إليه اليوم عمومًا باعتباره سابقًا للأخيضر، العامل الثاني- وهو بُعد الأخيضر عن التطور المعماري للقباب المُعلقة- الذي أدّى إلى الأساليب البدائية في إنشاء القباب.

(131) Herzfeld, 'Genesis', pp. 32, 34, 51, 59, 63, 121–2, 130–1; Hillenbrand, 'Islamic art', p. 64.

(132) Bell, 'Vaulting system', p. 73 and fig. 7.

(133) Bell, Palace and Mosque, pp. 22–3; 30–1.

لكن:

Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2, p. 62.

يُلاحظ أثناء الإشارة إلى مجموعتين من الصالات الشبيهة بالأنابيب على جانبي القاعة الكُبرى (رقم 7)، أنّه كان من المُفترض أن تكون مسدودة ولا يُمكن الوصول إليها.

(134) Bell, 'Vaulting system', pp. 73–4.

(135) W. Andrae, Hatra. Teil 2: nach aufnahmen von mitgliedern der Assur-expedition der Deutschen Orient-Gesellschaft (Leipzig, 1912), fig. 37, sections e–f and fig. 152.

يُشير «كريزويل» إلى مدافن الحضر ذاتها في نقاشه حول أنابيب الأخيضر الحجرية. انظر:

Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2, fn. 5 on p. 89, and fig. 77 on p. 90.

والشكل الأخير نسخة من رسم «أندري» (شكل 152) الذي كانت «بيل» أول من أشار إليه. ويُكرر «كريزويل» أيضًا إشارة «بيل» إلى أنبوب حجري واضح عُثر عليه في موقع «فيروز آباد» الساساني، بين الأقبية البرميلية بالغرف الجانبية في الإيوان الموجود عند المدخل وبين الحجرة المقببة. انظر:

Bell, Palace and Mosque, p. 143.

وفيه تنقل عن:

Marcel Dieulafoy, L'Art antique de la Perse. Partie 4: Les monuments voûte ́s de l'époque achéménide [Paris, 1885], pl. 9.

رغم ارتياب الأخير في هذا النموذج؛ لأنّ الأنبوب الظاهر يبدو أعلى تاج القبو وربّما كان جزءًا من منحدر مقبّى. انظر:

Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2, pp. 89–90.

(136) Bell, 'Vaulting system', p. 74; Amurath, fig. 133; Palace and Mosque, p. 143 and n. 7.

(137) Bell, Palace and Mosque, pp. 143–4; pl. 89, Figs 1–2.

(138) Bell, 'Vaulting system', p. 77.

(139) Herzfeld, 'Genesis', p. 126.

(140) المرجع السابق، ص 126.

(141) Bell, Amurath, p. 152.

(142) المرجع السابق، ص 156– 158.

(143) Bell, Palace and Mosque, p. 16, n. 2.

كان «فيوليت» في طريقه إلى بلاد الرافدين لاستكمال تحرياته في موقع سامراء، والتي كان قد بدأها في العام 1908. وقد تركّزت أغلب أعمال التنقيب التي قام بها «فيوليت» في صيف العام 1910؛ والتي أجراها جنبًا إلى جنب عالم الآثار «أندريه جودار»André Godard، على منطقة دار الخلافة في سامراء. وقد انتقد «هرتسفلد»؛ الذي سيعمل في سامراء بالعام التالي، لقايا «فيوليت» في سامراء وحقيقة أنّه أجرى أعمال التنقيب من دون الحصول على موافقة رسمية من الحكومة العثمانية في القسطنطينية. انظر:

Thomas Leisten, Excavation of Samarra. Volume I: Architecture. Final Report of the First Campaign 1910-1912 (Mainz am Rhein, 2003), pp. 4, 10-11, 24.

ولا يبدو أنّ قدرات «فيوليت» الأركيولوجية قد أثارت إعجاب «بيل» هي الأخرى؛ إذْ كتبت في واحدة من يومياتها: «قال [فيوليت] إنه رسم مخططات لكل هذه الأديرة المُثيرة للاهتمام في طور عبدين، في حين أنه لم يسمع من قبل قطّ عن «خاخ»Khakh!» (يوميات «جيرترود بيل»، 4 يناير 1911، أرشيف «جيرترود بيل»).

(144) رسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، 5 يناير 1911، أرشيف «جيرترود بيل». لم تعرف «بيل» بما اكتشفه «فيوليت» إلا في يناير 1911. وكانت قد دفعت وقتئذ بكتابها «من سلطان إلى سلطان»- الذي يُعبر عن تناقضها المستمر بشأن تاريخ بناء الأخيضر- إلى الناشر. وهذا يُفسِّر سبب عدم ظهور اكتشاف المحراب في هذا الكتاب.

(145) Ramsay and Bell, Thousand and One Churches, p. 540, n. 1.

(146) Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2, pp. 94-8.

(147) Bell, Palace and Mosque, p. 168; Michell, Architecture, p. 33.

(148) Bell, Palace and Mosque, p. 161 and fig. 35.

(149) المرجع السابق، ص 161. كانت «بيل» تعرف «إينو ليتمان»؛ وهو باحث ألماني بارز متخصص في لغات الشرق الأدنى وفقه اللغات السامية، منذ زمن طويل وقد قابلته لأول مرة في القدس في العام 1900. (انظر يوميات «جيرترود بيل»، 1 فبراير 1900، أرشيف «جيرترود بيل»). ثم قابلته مرة أخرى أثناء رحلاتها عبر سوريا، عندما كان يعمل مع بعثة جامعة برنستون إلى سوريا (رسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، 3 مارس 1905، أرشيف «جيرترود بيل»). وكان يعمل أستاذًا للغة العربية في «ستراسبوج» ويعيش ويُلقي مُحاضرات (بجامعة القاهرة) في القاهرة شتاء العام 1911، حين زارته «بيل» في الطريق إلى رحلتها الثانية إلى بلاد الرافدين، كما كان صديقًا وزميلًا لــ«برنهارد موريتز» (رسالة «جيرترود بيل» إلى أبيها، 13 يناير 1911، أرشيف «جيرترود بيل»).

(150) Bell, Palace and Mosque, p. 165; E. Herzfeld, Erster vorlaufiger Bericht uber die Ausgrabungen von Samarra (Berlin, 1912), fig. 6.

(151) المرجع السابق، ص 162 و168.

(152) المرجع السابق، ص 168.

(153) Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2, p. 97.

(154) المرجع السابق، ص 98.

(155) المرجع السابق.

(156) المرجع السابق.

(157) Hillenbrand, Islamic Architecture, p. 144; Kennedy, Court, p. 137.

(158) B. Finster and J. Schmidt, 'Sasanidische und fruhislamische Ruinen im Iraq, Tulul al Uhaidir, Erster vorlaufiger Grabungsbericht', Baghdader Mitteilungen 8 (1976), pp. 7–168.

(159) W. Caskel, 'Al-Uhaidir', Der Islam 39 (1964), pp. 28–37.

(160) B. Finster and J. Schmidt, 'The origin of "desert castles": Qasr Bani Muqatil, near Karbala, Iraq', Antiquity 79 (2005), p. 347.

(161) Caskel, 'Al-Uhaidir,' p. 37; Finster and Schmidt, 'Sasanidische', pp. 149–50; Finster and Schmidt, 'Origin', p. 347.

(162) في تقديمه للكتاب (الأخيضر، ص 1-2)، يقبل «رويتر» بدراسة «بيل» عن الأخيضر، ويوجه لها الشكر على صورها الفوتوغرافية لمحراب المسجد التي تظهر في كتابه. كما يُقر تحديدها لهوية القطاع الشمالي الغربي من القصر باعتباره مسجدًا.

(163) Herzfeld, 'Genesis', pp. 125–6.

(164) نُشر العمل لأول مرة في العام 1940 (أوكسفورد)، ثم خضع للتنقيح وصدر في طبعة ثانية في العام 1969، ثم أعيدت طباعته في العام 1979. ويظهر تناول «كريزويل» للأخيضر في الصفحات من 50 إلى 100 من طبعة 1979.

(165) مُعالجة «كريزويل» للأخيضر موجودة في الفصل العاشر من الكتاب (هارموندزورث، 1958). وقد نقّح «جيمس و. ألن» الكتاب وأضاف إليه بعض الملاحق في العام 1989 (دار ألدرشوت).

(166) انظر بشكل خاص ما أدرجه «كريزويل» من رسومات «رويتر» في كتابه:

Early Muslim Architecture, vol. 2, Figs 36 and 60.

ولوحات «رويتر» البديعة لمدخل الأخيضر الرئيس (شكل 39)، وساحة الشرف (شكل 44)، والإيوان الرئيس جنوب ساحة الشرف (شكل 45)، ورواق المسجد الجنوبي المعمد (شكل 58). كما كرر بصورة وضيعة نقاشات «رويتر» التفصيلية بشأن بناء الأقواس، ص 61- 63.

(167) المرجع السابق، ص 59 و96.

(168) المرجع السابق، ص 62 و73 و89.

(169) المرجع السابق، ص 74- 76، 94- 95.

(170) المرجع السابق، ص 88- 89، 96.

(171) انظر على سبيل المثال نقاشات «كريزويل» حول القباب المعلقة على مثلثات كروية، مرجع سابق، المجلد الأول، الفصل الرابع عشر.

(172) للاطلاع على دراسات حديثة حول المساحة المعمارية، والتي يستعين العديد منها بالتحليلات الحاسوبية لفهم مسائل تتعلق بالخبرة والتفاعلات الإنسانية داخل مساحة مُجهزة، وآثار النفاذ والرؤية والإثارة، انظر:

David L.C. Clark, 'Viewing the liturgy: a space syntax study of changing visibility and accessibility in the development of the Byzantine church in Jordan', World Archaeology 39 (2007), pp. 84–104; Kevin Fisher, 'Placing social interaction: An integrative approach to analyzing past built environments', Journal of Anthropological Archaeology 28 (2009), pp. 439–57; C. Papadopoulos and G.P. Earle, 'Formal three-dimensional computational analysis of archaeological spaces', in E. Paliou, U. Lieberwirth and S. Polla (eds), Spatial Analysis and Social Spaces: Interdisciplinary Approaches to the Interpretation of Historic and Prehistoric Built Environments (Berlin, 2014), pp. 135–65.

(173) رسالة «جيرترود بيل» إلى أبيها، 15 أبريل 1925، أرشيف «جيرترود بيل».

(174) رسالة «جيرترود بيل» إلى أبيها، 3 يناير 1921، أرشيف «جيرترود بيل».

(175) Bell, Palace and Mosque, p. xii.

الفصل الرّابع

لقاءات في قلب بلاد الرّافدين

شرعت الآن «جيرترود بيل»؛ بعد أن ملأتها إثارة اكتشافها العلمي للأخيضر بالنشاط، في المرحلة المهمة التالية من رحلة العام 1909. كان من المقرر أن يأخذها المسار المرسوم إلى قلب سهول دجلة والفرات الرسوبية جنوب بلاد الرافدين، حيثُ تواجه جمهرة من تلال الأنقاض والآثار التي تشهد على الحضارات التي كانت مجيدة ذات يوم، والتي كانت موجودة هنا في الماضي البعيد. كانت هذه المنطقة قد أنجبت بعض أقدم المدن ونظم الكتابة في العالم قبل أربعة آلاف عام. ورأت صعود وانهيار ممالك وإمبراطوريات. وشهدت مآثر حكام وغزاة تمتعوا بالكاريزما. وألهمت أجيالاً من الكتّاب والشعراء والفنانين إحياء ذكرى صنائع زعماء بلادهم؛ العظيم منها والمؤلم، من خلال أعمال فنية بارزة، ومؤثرة في بعض الأحيان.

إنّ رحلة «بيل» عبر جنوب بلاد الرافدين ستجعلها ترى كل هذه الأمور؛ إذْ زارت المواقع التي كانت ذات يوم عواصم البابليين والآشوريين والساسانيين والعباسيين. وحالفها الحظّ في أغلب الأحيان بالاحتكاك بشكل مباشر بالجهود التي يبذلها علماء الآثار في سبيل استعادة فن وعمارة تلك المدن. وقد طوّرت خلال زياراتها وأحاديثها المتبادلة مع باحثين آخرين شاركوها افتتانها بالماضي، فهمًا رفيعًا لتقدم التاريخ البشري عبر العصور، وتقديرًا لأفضل المناهج في استعادة وتأريخ ماضيها الثري. ما من ريب أنّ تجربة «بيل» في بلاد الرافدين سيظل لها أثر دائم على حياتها وعملها، وستساعدها بشكل خاص في صقل مفاهيمها المتعلقة بتطور الفن والعمارة إبان العصر الإسلامي المبكر، وبتطور الأخيضر خلال هذه الفترة من الاستمرارية والتحول. كما أنّها وسّعت صلاتها داخل المجتمع العلمي

المتخصص بدراسات الشرق الأدنى ككل. وغرست فيها شعورًا بأهمية الحفاظ على الماضي من خلال برنامج أركيولوجي دقيق لاستعادة وتوثيق وحماية الأنقاض القديمة لصالح أجيال المستقبل. كل هذه الخبرات سيظهر أثرها في حياة «بيل» فيما بعد؛ سواء في إنجازاتها العلمية أم نشاطاتها المستقبلية داخل بلاد العراق الجديدة.

بابــل

في الأول من أبريل العام 1909، غادرت «بيل» الصحراء واتّجهت إلى نهر الفرات بعد أن أنهت سجلاتها الخاصّة بالأخيضر. أصبحت وجهتها الآن مجموعة من التلال الأثرية التي تتألف منها مدينة بابل القديمة، وكانت معرفتها بتاريخ المدينة الثري تجعلها متلهفة على زيارة الموقع. كانت بابل واحدة من أشهر المدن وأكثرها ظهورًا في روايات التاريخ القديم، ارتبط اسمها عند بعض المؤلفين الكلاسيكيين بالحدائق المعلقة العجيبة، وفي الكتاب المقدّس ببرج بابل وقصر الملك المستبد «نبوخذ نصر». لكن ما أثار فضول «بيل» كان عاملاً مختلفاً تمامًا: ذلك أنّها كانت تعرف أنّ أحدث مستكشفي المدينة العتيقة؛ وهم فريق من علماء الآثار الألمان، كانوا ينقبون هناك منذ العام 1899. وبحلول العام 1909 كانوا قد أعادوا الحياة إلى الكثير من جوانب المدينة العظيمة المهمة، وكانت تأمل أن يتمكّنوا من اصطحابها في جولة شخصية بين تلك الاكتشافات.

وصلت «بيل» إلى مقر البعثة الألمانية الذي كان يقع داخل بستان نخيل على ضفاف الفرات. وأحبطها أن تعرف أنّ مدير البعثة؛ «روبرت كولدفاي»، لن يتمكّن من لقائها. ويبدو أنّ «كولدفاي» كان مريضًا بسبب ما كان يبذله من جهد لا يعرف الكلل داخل الموقع– وبخاصة جهوده خلال شهور الصيف الماضي شديدة الحرارة[1]. مع ذلك، حظيت باستقبال عذب من مساعدي «كولدفاي»؛ وهما السيد «بودنسيج» والسيد «فتسل»، اللذان وفّرا لها حجرة رائعة داخل المقرّ؛ حيثُ خيّم خدمها بسهولة أسفل نوافذ الغرفة تحت أشجار النخيل (انظر شكل ٤–١)[٢]. كانت هذه أولى زيارات

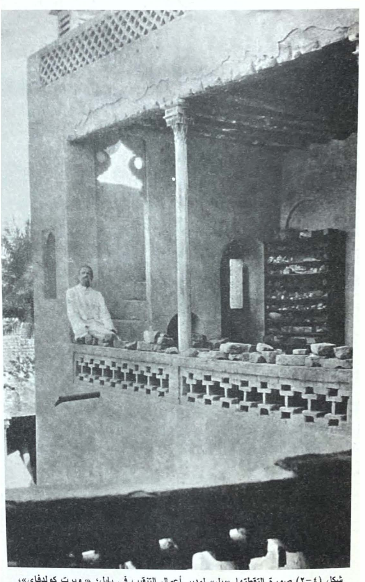
«بيل» إلى مقر بعثة التنقيب في بابل، وإلى أعضائها من علماء الآثار الألمان. ففي مارس العام 1911، عادت «بيل» إلى بابل عقب زيارتها الثانية إلى الأخيضر، لكنها حظيت هذه المرة باستقبال دافئ قام به «كولدفاي» بعد تعافيه من المرض. لاحقًا في ربيع العام 1914، جاءت لزيارة «كولدفاي»بعد أن أنهت زيارتها إلى الجزيرة العربية بوقت قصير[٣]. بالنسبة لـ«بيل»، كانت زياراتها إلى بابل ممتعة دائمًا لحد بعيد. وتكشف يومياتها ورسائلها عن ابتهاجها بأسباب الراحة والنظافة والهدوء في مقرّ البعثة، ومجالسة مضيفيها الألمان المفضالين التي تحفّز على التفكير[٤]. فيما بعد أثناء الحرب العالمية الأولى، حين توفرت لـ«بيل» القدرة على القيام بزيارات متكررة لبابل من بغداد، ستتذكر عذوبة الوقت الذي أمضته مع الألمان: «كانوا جميعًا شديدي الدماثة؛ المنقبون الألمان، وما من حرب يُمكنها أن تضع نهاية لما أحمله ل «من إكبار وودّ»[٥].

وتكشف سائر كتابات «بيل»أنّها كانت تحمل إعجابًا خاصًا لـ«كولدفاي» الذي كانت تراه شخصًا جذّابًا، كما أنّ مساعيه التي لا تهدأ لفهم آثار هذا الموقع الضخم؛ حيث أخفقت جهود أغلب من سبقوه، أثّرت بها بشكل هائل (انظر شكل ٤-٢). كان «كولدفاي» بلا ريب عالم آثار أريبا ومتمرسا، تمرّن في ميداني العمارة والأركيولوجيا، واكتسب أثناء عمله في بابل خبرة ضخمة بمناطق البحر المتوسط والشرق الأدنى. ساهم في أعمال التنقيب الألمانية في عدد من المواقع باليونان وصقلية والأناضول[٨]. كما قام بالتنقيب لفترة قصيرة في تلين أثريين ضخمين ينتميان للحضارة السومرية جنوب بلاد الرافدين (هما «تل زرغل» و«تل الهبا» في العام 1887)، حيثُ اكتسب خبرة لا تُقدر بثمن في الكشف والتتبع الدقيق لأنقاض الطوب اللبن الذي يُجفف في الشمس[٩]. وقد أثبتت براعته فيما يتعلّق بالطوب اللبن أنّها ذات أهمية بالغة للتنقيب بشكل ناجح في تلال بابل الأثرية؛ ذلك أنّ أغلب العمارة القديمة في الموقع كانت مُشيدة بالطوب اللبن غير المحروق. وغالبًا ما كانت هذه المادة تراوغ المنقبين السابقين بسبب شبهها الشديد بلون ونسيج الطمي الذي كان يُغطيها[١٠]. كما كان «كولدفاي» حريصًا على حصول

عمّاله في بابل على تمرين دقيق في فن تتبع الطوب اللبن، فتمكنوا بفضل إتقانهم لهذا الأسلوب في التنقيب من أن يحددوا بدقة مباني الطوب اللبن التي كانت تشكل أغلب منشآت بابل القديمة.

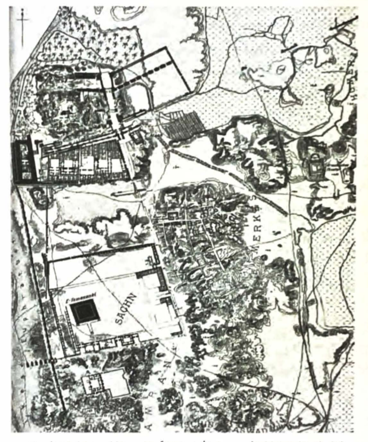


شكل (٤-١) «جيرترود بيل» تقف خارج إحدى خيامها في بابل بشهر أبريل العام 1909.



شكل (٤-٢) صورة التقطتها «بيل» لمدير أعمال التنقيب في بابل؛ «روبرت كولدفاي»، يجلس أعلى شرفة مقر بعثة التنقيب الألمانية خلال زيارتها في أبريل 1914.

لا ريب أنّ مشروع «كولدفاي» كان شديد الطموح. إذْ كان يهدف إلى العثور على مباني بابل المطمورة في التراب بأعماق تصل في الغالب إلى 21 مترًا، لذلك وظّف ما بين مائتين ومائتين وخمسين عاملا مستعدين للعمل في أي وقت، وكانت أعمال التنقيب تجري خلال عدّة أشهر في العام. وقد استمر العمل بين العامين 1899 و1917(١١). ولم يكن اهتمامه ينصب على استعادة المنشآت التي تنتمي لفترة زمنية بعينها فحسب، بل العثور على شواهد التقدّم عبر الزمن مثل إنشاء أساسات أعلى وبلاط أرضيات جديد، والتغييرات التي تطرأ على أبعاد قوالب الطوب والنقوش المطبوعة عليها(١٢). وقد اعتنى بتدوين كل هذه الملاحظات المرحلية المهمة، لكن الأهمّ هو توجهه إلى إنتاج مخططات معمارية شديدة التفصيل للمباني المكتشفة في بابل؛ مستوى تلو الآخر، وهو ما تطلّب ساعات طويلة أمضاها هو ومساعدوه الألمان في الرسم الدقيق(١٣). وبفضل تلك المساعي الهائلة، تمكّن «كولدفاي» من استعادة عدد كبير من بوابات بابل ودفاعاتها ومعابدها وقصورها وشوارعها وبيوتها، واستيعاب التغييرات التي أصابت هذه المعالم بمرور الزمن. كل هذه اللقايا سجّلها وصورها فوتوغرافيًا، ولا تزال النظرة للمخططات التي أنتجها الفريق الألماني تحمل إعجابًا كبيرًا بتفاصيلها وشمولها (انظر شكل ٤-٣)(١٤). وفي النهاية، أشار مشروع «كولدفاي» في بابل إلى تحوّل جذري في أهداف وغايات أركيولوجيا الشرق الأدنى؛ إذْ أصبح التنقيب الآن أقل اهتمامًا باكتشاف الكنوز والألواح، بل باكتشاف كل ما يتعلّق بأي مدينة قديمة وكتابة تاريخها وتوثيق حيوات سكانها القدامى بعناية؛ وهو هدف لا يزال علماء الآثار يسعون إلى تحقيقه اليوم.



شكل (٤-٣) المخطط الذي رسمه الألمان لمدينة بابل، ويكشف عمارة المناطق التي خضعت للتنقيب. نرى في الأعلى يسار المخطط قصر «نبوخذ نصر» وبالقرب منه بوابة «عشتار»، أمّا على الشمال في الأسفل فنرى مربّعًا أسود يُعين مكان «زقورة(*) مردوخ» (E-Temenanki)، ومعبد المدينة الرئيس (E-sagila).

(*) الزقورة Ziggurat كلمة أكدية معناها المكان المرتفع، وهي بناء هرمي مدرّج، شُيِّد في مدن بلاد الرافدين القديمة منذ الألف الثالثة قبل الميلاد. وتتكون الزقورة من ثلاث طبقات وثلاثة سلالم كل منها يتألف من مائة درجة تعلوها «حجرة الأقداس» وهي هيكل مخصص لآلهة المدينة. وتعد الزقورة معبدًا تصاعديًّا. [المُترجم]

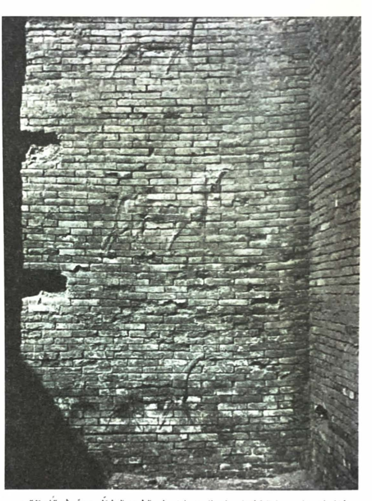
كان «كولدفاي» وفريقه قد اكتشفوا أغلب معالم الموقع الرئيسة عند زيارة «بيل» لبابل في العام 1909. حيثُ أماطوا اللثام عن العديد من المنشآت التي ترجع لعصر «نبوخذ نصر»؛ الذي حكم المدينة والإمبراطورية البابلية من العام 605 وحتّى العام 562 قبل الميلاد، وكان مسؤولاً عن توسعة وتعميق المدينة بدرجة كبيرة. وقد شاهدت «بيل» كثيرًا من تلك اللقايا المكتشفة؛ حيثُ رأت على سبيل المثال ما يُعرف باسم «فيا ساكرا» Via Sacra أو ما يُشار إليه باسم «شارع الموكب»؛ وهو شارع طويل كان يخترق مدينة بابل الداخلية من الناحية الشمالية، ويمرّ بوسطها باتجاه فناء معبد إله المدينة الرئيس المعروف باسم «مردوخ»[١٥]. كان يحدّ«شارع الموكب» من الجانبين عند اقترابه من المدينة الداخلية، سور عال مبني بالطوب الأحمر تغطيه زخارف من النحت البارز على هيئة مواكب أسود عليها طبقة من الزجاج الملون[١٦]. أمّا البوابة الموجودة عند طرف المدينة الداخلية الشمالي فكانت مُدهشة هي الأخرى لكن ربّما أكثر مدعاة للإعجاب؛ إذْ كان يمرّ من خلال هذه الجادّة المهيبة«عشتار»، إلهة الحب البابلية وراعية الجيش التي سُميت البوابة باسمها. وقد وصفت «بيل» بوابة عشتار بأنّها: «أروع قطعة بقيت من بين كل منشآت نبوخذ نصر»، وكانت شديدة الإعجاب ببرجي البوابة اللذين كانا: «يرتفعان عاليًا ببنائهما المتين» (انظر شكل ٤-٤)[١٧]. وقد انتبهت فوق ذلك إلى الزخارف التي تغطّي البوابات، وكانت عبارة عن صفوف تتناوب بين الثيران والتنانين على هيئة نحت بارز فوق الطوب المشكّل (انظر شكل ٤-٥)[١٨]. كذلك عرض مضيفو «بيل» عليها أنقاض الطوب الضخمة التي تضم قصر «نبوخذ نصر» (الذي كان يُعرف أيضًا باسم «القصر الجنوبي»)، الذي يقع غرب «شارع الموكب» و«بوابة عشتار» شمالي المدينة الداخلية. وقد تأمّلت «بيل» القصر من الداخل الذي: «كان عبارة عن متاهة مُحيرة من الأفنية والممرات»[١٩]، وانتبهت بوجه خاص إلى قاعة عرش الملك المستطيلة الهائلة التي يُفترض أنّها شهدت قصة «وليمة

بيلشاصر» التوراتية. رأت «بيل» أيضًا مبان أقدم أسفل قصر «نبوخذ نصر»، من بينها القصر الأصغر لأبيه «نبوبولاسر» (626– 605 ق.م.)[٢٠]، وأبراجًا حصينة مُشيدة بالطوب حملت اسم ملك الدولة الآشورية الحديثة «سرجون الثاني» (721– 705 ق.م.)[٢١]. إلى جانبتشديدالملاحظات التي أبدتها «بيل» على الجهود الهائلة التي كان يبذلها عمّال التنقيب الألمان للكشف عن تلك المعالم– التي كانوا يجدونها في الغالب على أعماق كبيرة داخل التربة، وأكّدت أيضًا على إدراكهم القوي لطبقات الأرض المعمارية، ومساعيهم الدءوبة لكشف وتسجيل تاريخ مباني بابل بكل تفاصيلها اللافتة للنظر.

لكن «بيل» لم تذكر معلمًا بارزًا آخر من معالم قصر «نبوخذ نصر»؛ وهو مجمع يضم حجرات مقبّاة بالركن الشمالي الغربي، إلا بعد زيارتها إلى بابل في العام 1914. إذ يبدو أنّ «كولدفاي» كان جاهزًا آنذاك لاصطحابها في جولة شخصية بالمجمع[٢٢]، وكان يرى أنّه موضع الحدائق المعلّقة التي نعرف من المصادر القديمة أنّها كانت المكان الذي شيد فيه «نبوخذ نصر» حديقة متدرجة مترفة؛ كي تستمتع بها زوجته «الميدونية»، التي كانت تفتقد المناظر الطبيعية الجبلية المغطاة بالأشجار في بلادها (انظر شكل ٤–٦)[٢٣]. كان الاعتقاد السائد عن مجمع الغرف المقباة؛ الذي عُثر داخله على بئر، أنّها تقوم بمهمة الأساسات تحت سطح الأرض لنظام هيدروليكي مُتقن، يعمل على رفع المياه إلى مستوى الحديقة المزروعة من خلال دوران دلاء مُثبتة في سواق[٢٤]. ورغم أنّ إعادة البناء هذه شديدة الإغراء، إلا أنّ أغلب الباحثين يرفضون هذا الموقع المُقترح للحدائق المعلقة، ويفضلون جعلها داخل مساكن الملك الخاصة الأكثر هدوءًا بالقطاع الغربي من القصر، أو داخل المبنى الأوسع المعروف باسم «المعقل الغربي» Western Outwork على نهر الفرات[٢٥]. بل إنّ باحثين رأوا أنّ الحدائق لم تكن في بابل على الإطلاق، إنّما في مدينة نينوى الآشورية؛ حيثُ يوجد عدد وافر من النصوص والأدلة المادية على وجود أنظمة هيدروليكية قديمة لري الحدائق الملكية الواسعة[٢٦].



شكل (٤-٤) صورة التقطتها «بيل» في العام 1909 لبوابة عشتار من الجهة الشمالية (نراها في منتصف الصورة)، والمباني المُحيطة المبنية بالطوب. يُفسِّر ارتفاع البوابة المُكتشفة العمق الهائل الذي وصلت إليه أعمال التنقيب الألمانية في هذا القطاع من المدينة.

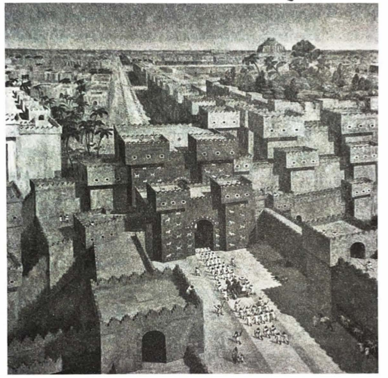


شكل (٤-٥) صورة التقطتها «بيل» لنحت بارز على الطوب المشكّل يصوّر ثيرانًا وتنانين فوق بوابة عشتار. كانت هذه القوالب غير مزججة، وهي تنتمي لمراحل مبكرة صارت فيما بعد أساسات تحت سطح الأرض - يصل ارتفاعها إلى 18 مترًا - للإنشاءات اللاحقة بالبوابة مع تعليتها بمرور الوقت. عند آخر ظهور لبوابة القلعة التي تنتصب الآن بعد إعادة بنائها داخل متحف «فورديرازياتيش» في برلين، كانت مغطاة بقوالب الطوب المزججة باللونين الأصفر والأحمر البني على خلفية زرقاء زاهية.

وفي قلب المدينة القديمة، قام مضيفو «بيل» بإرشادها إلى خندق عمودي ضخم، حيث استطاعت أن تتفحّص بقايا معبد «إيساكيلا» أو:«المنزل الذي ترتفع قمّته عاليًا»، على مسافة تبلغ 21 مترًا[٢٧]. هَهُنا كان مجمع معبد راعي بابل الرئيس الإله «مردوخ»، وعلى الجانب المقابل«إيتيمينانكي» أو «مستقر السماء والأرض»- زقورة مردوخ، وهي تُعادل برج بابل الذي جاء وصفه في سفر التكوين بالكتاب المقدس[٢٨]. لم تصف «بيل» معبد «إيتيمينانكي» إلا عند زيارتها في العام 1914، حين اصطحبها «كولدفاي» إلى هناك[٢٩]. وقد خضعت الزقورة للبحث في فترة أسبق، لكن في العام 1913 أشرف «فيتسل» مساعد «كولدفاي» على عمليات الكشف الرئيسة بالمنطقة وتمكّن من تمييز بعض معالمها الأساسية[٣٠]. ربّما تكون زقورة «مردوخ»؛ من بين كل المباني الرئيسة في بابل القديمة، قد واجهت أعنف عملية تدمير على مرّ القرون. وبحسب النقوش القديمة، ربّما يكون قد أُعيد بناؤها على هيئة برج عملاق مؤلف من عدّة طوابق؛ كأنّه هرم مدرج، يعلوه معبد مكرس للإله «مردوخ»، تغطيه طبقة من الطوب المزجج الملون بالأزرق الداكن[٣١]. مع ذلك، لم يتبق إلا قاعدة نواة البرج المشيدة بالطوب، بعد أن تمّ اقتلاع الآجر المحيط كليًا على مدار قرون منذ العصر القديم. اليوم، يقف الصرح الّذي كان عظيمًا ذات يوم، والذي ربّما كان شديد التألق والتفرد في عهد «نبوخذ نصر» بسبب حجمه وارتفاعه، على هيئة كومة خفيضة من الأنقاض في منتصف بركة ماء مُربعة[٣٢].

أصاب البحث المتأني الدقيق الذي قام به «كولدفاي» في بابل، إلى جانب التزامه بتسجيل كل ما يتعلق بالموقع وتخطيطاته المعمارية المفصلة، «بيل» بالإعجاب. فاعتبرت مشروع «كولدفاي» الأركيولوجي واحدًا من أدق وأحدث المشاريع في الشرق الأدنى، ولم يكن يضاهيه إلا التنقيبات الألمانية في آشور- وهو موقع آخر زارته «بيل» لأول مرّة في العام 1909- حيث شهدت نفس الحرص أثناء استعادة وتوثيق بقايا المدينة القديمة بدقة شديدة، لاسيما عمارتها. ويبدو أنّ ممارسات التنقيب المنهجية التي استعانت بها تلك

الفرق الألمانية استمر صداها يتردد أثناء أداء دورها اللاحق كمديرة لدار الآثار في العراق، وأثناء وضعها لأول تشريع خاص بالآثار في البلاد. إذْ اعتبرت فرق التنقيب الألمانية في بابل وآشور نموذجًا للممارسة العلمية السليمة، واشترطت في تشريعاتها أن تكون كل المهام الأركيولوجية: (1) مجهزة لعمل سجل فوتوغرافي،(2) تضم رسّامًا متمرّسًا مسؤولًا عن تسجيل كل ما يضمه الموقع من عمارة أثرية[٣٣].



شكل (٤-٦) رؤية فنية لمدينة بابل كما قد تبدو في عهد«نبوخذ نصر». تقوم الرؤية على معلومات أركيولوجية وفّرها المنقبون الألمان. نرى في المنتصف موكبًا يمرّ عبر بوابة عشتار. إلى اليمين في الأعلى نرى الحدائق المعلقة فوق قصر «نبوخذ نصر»، وبعده بمسافة بعيدة معبد وزقورة «مردوخ».

ربّما يكون تقدير «بيل» لـ«كولدفاي» وفريقه في بابل، قد ألقى بظلاله أيضًا على تصرفاتها اللاحقة، وذلك فيما يتعلّق باللقايا المستخرجة من ذلك الموقع التي تبقّى قدر كبير منها داخل البلاد عند اندلاع الحرب العالمية الأولى. وتضم عددًا كبيرًا من الصناديق التي تحتوي على طوب مُزجج من «شارع الموكب» و«بوابة عشتار»، وكلها سقط في أيدي القوات البريطانية المنتصرة، وكانت تُعرض آنذاك ضمن ممتلكات الحكومة العراقية الجديدة. وفي النهاية، سمحت «بيل» بتسليم أغلب الصناديق إلى ألمانيا بشرط واحد هو تسليم أحد الأسود المزججة المُعاد بناؤها إلى «متحف العراق» الجديد، إلى جانب مجموعة مُختارة من الآجر ونماذج من إعادة البناء[٣٤].

إجمالاً، ستلقي زيارات «بيل» إلى بابل ولقاءاتها مع العاملين في الحفر من الألمان؛ بخاصة «كولدفاي»، بظلالها العميقة على فهمها وتقديرها لماضي بلاد الرافدين القديم، وستجعلها تعي أهمية المناهج الصحيحة في استكشاف وتوثيق بقاياه الثمينة. أمّا على المستوى الشخصي، فيبدو أنّ «بيل» تملكتها عاطفة حقيقيّة تجاه مضيفها الألماني، وأنّها استمتعت بصحبته المفعمة بالحيوية في بابل. وربّما يكون الحزن الذي أصابها حين مزّقت الحرب العالمية الأولى علاقاتها مع «كولدفاي» وفريقه الألماني، قد تجلّى بأوضح صورة في رسالة كتبتها عند عودتها إلى بابل في يناير العام 1918، واكتشاف أنّ مقر البعثة الألمانية صار مهجورًا:

توقفت عند بابل في طريق رجوعي إلى المنزل بالأمس (جئت على متن سيارتي)، بعد أن طلب مني «السير بيرسي» النصح بشأنٍ ما يجب عمله لحفظ الآثار. الماضي شديد الوطأة هناك- لا لأنّي كنت أفكر في «نبوخذ نصر» أو «الإسكندر»؛ بل في الترحيب الدافئ الذي كنت ألقاه، والرفقة الطيبة، والأيام العذبة التي كنت أمضيها مع العزيز «كولدفاي»- أشدّ ما يُصيبني بالكرب أن أحاول التفكير فيه باعتباره عدوًا غريبًا، وقد شعرت بغصة في قلبي حين وقفت داخل الغرفة الصغيرة المتربة الفارغة، حيث اعتاد فتوح أن يضع أثاثي الخفيف فيما أتبادل أنا والألمان حديثًا حماسيًا عن

تخطيطات بابل أو الأخيضر- يا له من عالم مُريع من الصداقات المعطّلة هذا الذي اختلقناه بيننا[٣٥].

طيسفون

بعد رحلتها المجزية إلى بابل، لملمت«بيل» قافلتها واتجهت شمالاً صوب بغداد. لكن قبل التحرّك إلى تلك المدينة، عبرت نهر دجلة داخل «قُفّة»- سلّة من الخيزران مبطنة بالقار- مسافة 35 كيلومترا تقريبًا جنوب بغداد لترى الآثار الموجودة في «طيسفون». كانت «بيل» تطلق هذا الاسم في رواياتها على ما كان في واقع الأمر عدة مدن قديمة بالضفة الشرقية لنهر دجلة، قبالة مدينة «سلوقية» التي كانت لا تزال غير مُكتشفة في عصر «بيل». كان الفرثيون قد أسسوا وجودهم العسكري في «طيسفون» التي صارت أخيرًا عاصمة الإمبراطورية الفرثية، التي كانت تمتد في وقتٍ ما من بلاد الرافدين إلى حدود الهند، بل هددت سلطة روما السياسيّة وتوسعها في الشرق[٣٦]. وقد أسفر العداء بين الفرثيين وروما عن غزو الرمانيين «طيسفون» ثلاث مرات خلال القرن الثاني الميلادي (على يد «تراجان» و«كاسيوس» و«سيبتيموس سيفيروس»)، قبل أن تخضع لحكم ملك الساسانيين الفرس «أردشير الأول» (٢٢٤-٢٤١ ميلاديًا)[٣٧]. أقام الملوك الساسانيون قصرهم الملكي الشتوي وعاصمة إمبراطوريتهم في المنطقة التي تقع جنوب «طيسفون» الفرثية، في مكان يُدعى «أسبانبار». هَهُنا نجد أجمل وأكمل الصروح الساسانية وهو «طاق كسرى»؛ القصر الهائل الذي كان يضمّ قاعة العرش المقباة الأسطورية الخاصة بملك ملوك الساسانيين[٣٨]. تعاقب على حكم «طيسفون» ملوك أقوياء منهم «شابور الأول» (٢٤١-٢٧٢ ميلاديًا)، و«كسرى الأول» (٥٣١-٥٧٩ ميلاديًا)، تمتّعت في ظلّهم بازدهار سياسي واقتصادي، واشتهرت المدينة في كل أرجاء الشرق الأدنى بثرائها وفخامتها. لكن خلال فترة حكم «كسرى الثاني» (٥٩١-٦٢٨ ميلاديًا)

واجهت «طيسفون» هزيمتها النهائية في صورة غزو جيوش المسلمين. ذلك أنّ الجيوش الإسلامية تحت قيادة سعد بن أبي وقّاص اقتحمت المدينة في العام 637 ميلاديًا ونهبت القصر، وتركت الملك وحاشيته يفرون[٣٩]. بعدئذ تراجعت أهمية المكان وأصبح مهجورًا في نهاية المطاف.

لا ريب أنّ ما اجتذب «بيل» إلى «طيسفون» هو معرفتها بتاريخها الثري الحافل بالأحداث، وشأن أغلب الرحالة من قبلها، كانت تتوق إلى رؤية «طاق كسرى» بسبب ما تبقّى من عمارته المهيبة. إذْ يتفوق القبو المقوس الكبير الموجود في قاعة العرش بالقصر- الإيوان- بأنّه أوسع مبنى بالطوب في العالم ما قبل الحديث (انظر شكل ٤-٧)[٤٠]. ويرتفع القبو الذي يتّخذ شكل قطع مكافئ يستدق طرفه عند الرأس؛ والمبني من طبقات مائلة من الطوب المرصوص دون استعمال هيكل مؤقّت، مسافة خمسة وثلاثين مترًا فوق الأرض إلى «الكورنيش»، ويشغل مساحة يصل طولها إلى 42 مترًا وعرضها 25 مترًا[٤١]. يتباهى القصر أيضًا بواجهة بديعة تتميز بأربعة طوابق من الأقواس غير النافذة والعواميد المتصلة والطابانات[٤٢]. كانت هذه الأجزاء من الصرح مدمرة كما تشهد صور «بيل» الفوتوغرافية التي التقطتها في العام 1909، والتي تكشف إحداها عن وجود ميل إلى الأمام بالواجهة الجنوبية (انظر شكل ٤-٨). وقد كان هناك حرص كاف على ألا يسقط هذا الجدار، حيثُ أضافت «دائرة الأشغال العمومية» العراقية في العام 1922 قاعدة خرسانية بطول الواجهة من أجل تعزيزها[٤٣]. وفي العام 1942 جرى تثبيت دعامة طويلة بأحد أطراف الواجهة. وخلال السبعينيات حاولت وزارة الآثار العراقية ترميم أجزاء من «طاق كسرى»، لكن هذا المشروع لم يتمّ قطّ، بل لوحظ ظهور شقوق جديدة في المبنى[٤٤]. وآخر المستجدات هي تعرض الموقع لإهمال كبير وأضرار نتيجة غزو العراق في العام 2003، وفي العام 2012: «انهار لوح حجري يبلغ طوله حوالي مترين» بسبب

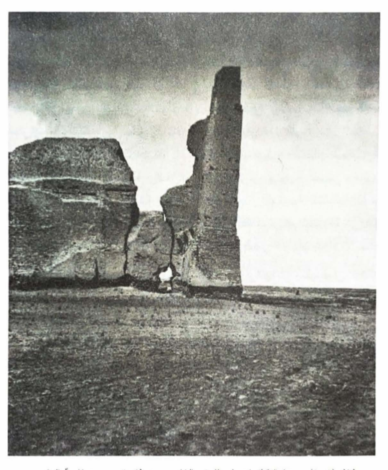
الرطوبة الناجمة عن الأمطار الشديدة. وقد أطلقت الحكومة العراقية مبادرة جديدة لترميم الموقع(٤٥).



شكل (٤-٧) صورة التقطتها «بيل» لطاق كسرى في طيسفون خلال زيارتها للموقع في العام 1909، من جهة الشرق. انهار الجانب الشمالي من الواجهة في العام 1888، وانهار معه القطاع الأمامي من القوس الأوسط أيام «بيل»، ولم يتبق منه إلا القبو الأوسط والواجهة الجنوبية.

نعود إلى العام 1909 حيث نحّت ملكات خيال «بيل» جانبًا، كل الحقائق المتعلقة بانهيار وتحلل «طاق كسرى» المستمر، فراحت تتخيل مشهد القصر في أوج عظمته إبان القرن السادس. وتستند لحدّ كبير الصورة الموحية التي رسمتها إلى«الطبري»؛ وهو مؤرخ فارسي ينتمي لأواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الميلادي:

في هذه القاعة كان الأكاسرة يعقدون مجالسهم. لابد أنّها كانت مكشوفة للشمس المشرقة، أو ربّما كان المدخل مغطّى بستارة تتدلى من أعلى القبو حتّى الأرضية. يروي لنا المؤرخ العربي؛ الطبري، عن سجادة يبلغ طولها سبعين ذراعًا وعرضها ستين ذراعًا، كانت جزءًا من غنيمة حصل عليها المسلمون حين نهبوا المدينة. كانت منسوجة على هيئة حديقة؛ الأرضية بخيوط ذهبية والدروب بخيوط فضية، أمّا الحدائق فكانت من الزمرد والجداول من اللؤلؤ، والأشجار والزهور والثمار من الماس وغيره من الأحجار الثمينة. ربّما تمّ صُنع هذا النسيج على هذا النحو لتمييز موضع الملك العظيم داخل القاعة التي تضمّ جمهوره؛ حيثُ تتألق أضواء ألف قنديل مُعلق بالسقف فوق تاجه المرصع بالجواهر وسيفه وحزامه، وتضيء النفائس المعلقة فوق الجدارن والثياب وبهارج جيوش الخدم الذين اصطفوا حول العرش[٤٦].



شكل (٤-٨) صورة التقطتها «بيل» للجزء الخارجي من طاق كسرى من ناحية الجنوب، وتكشف الميل إلى الأمام الذي أصاب الواجهة الجنوبية، ومداميك الطوب المتآكلة في الأساس. ورغم المساعي المختلفة لإصلاح وترميم الصرح المستمرة إلى يومنا هذا، واصل الطاق التدهور بمعدلٍ مُخيف.

كان اهتمام «بيل» بطاق كسرى يرجع لحدّ كبير إلى كونه مثالا جيدًا على العمارة الساسانية البلاطية التي وصلت إلينا، وقد استطاعت أن ترى الكثير من نقاط التشابه المعمارية بينه وبين الأخيضر؛ القصر الصحراوي الذي درسته قبل أسابيع قليلة في ربيع العام 1909. فكما وصفنا في الفصل السابق على سبيل المثال، كانجزء من سقف مقبّى يخرج من أحد جدران الحجرات الجانبية في «طاق كسرى»، وقد رأينا هذا النوع من البناء في الأخيضر أيضًا (انظر شكل 9.4)[٤٧]. كذلك أولت «بيل» اهتمامها للمشكاوات المعقودة والعواميد المتصلة والطابانات التي تُزين واجهة المبنى بأسلوبها الكلاسيكي، ثمّ عقدت مقارنة تفصيلية بينها وبين الواجهة الشمالية لساحة الشرف في قصر الأخيضر من الداخل، التي تتقاسم رغم تشييدها في فترة لاحقة، بعض معالم المبنى الأول وربّما استمدت بعض الإلهام منه[٤٨].

استمرت «بيل» بعد الحرب في تكرار زياراتها لـــ«طيسفون»؛ نظرًا لقربها من بغداد (حيث كانت تقيم بوصفها موظفة سياسية)، إلى جانب مظهرها المهيب الذي لم يفشل قطّ في ترك انطباع قوي لدى زائريه. كذلك حفّز اهتمامها بأركيولوجيا العراق الجديد ودورها فيها، التزامها المستمر بالحفاظ على «طاق كسرى»، كما بيّنت إحدى رسائلها التي ترجع للعام 1921، والتي تناقش فيه مع أحد المهندسين المعماريين (هو المهندس «جيمس مولسونولســون» J.M.Wilson مدير دائرة الأشغال العمومية)، إمكانية وضع «حشوة ضخمة من الخرسانة بالأساسات [...] لن تكون جميلة المظهر لكنها ضرورية لتأمين الجدار قدر المستطاع»[٤٩].

كانت «بيل» تعي أيضًا أنّ أهمية «طيسفون» ترجع إلى فخامتها المعمارية، علاوة على تاريخها وإمكانية أن يُعزز هذا التاريخ هوية العراق ويُمكِّن ملكه الجديد. ومن ثمّ بعد أن وضعت هذا في اعتبارها، اصطحبت «بيل» الملك فيصل إلى «طيسفون» في العام 1921؛ عقب تتويجه بفترة

قصيرة، وروت على مسامعه القصة الكاملة لماضي الموقع البارز الذي انتهى بغزوه على يدّ الجيوش الإسلامية في العام 637 ميلاديًا(٥٠). كانت هذه محاولة متعمّدة من «بيل» للتأثير على روابط الملك العربي بالعراق ومملكته القانونية التي صار حاميها الآن؛ ذلك أنّ «بيل» لم تكن بعيدة بأي حال- أثناء ممارسة دورها السياسي الحاسم داخل العراق بعد الحرب- عن الدفع بأي موقع أثري للعمل في خدمة الحاضر واستعماله لغايات سياسيّة، وهو ما سنناقشه بمزيد من التفصيل في الفصل الأخير من هذا الكتاب.

بغـداد

بعد «طيسفون»، اتجهت أنظار «بيل» إلى بغداد. كانت تعتزم أن تستريح هناك بضعة أيام تزور خلالها القنصل العام البريطاني، الذي كان يحظى بمقر فخم داخل المدينة. لذلك بعد أن عبرت نهر دجلة على متن جسر عائم من القوارب، شقّت «بيل» طريقها إلى المقرّ البريطاني حيثُ حظيت بغرف مفروشة مريحة وفسيحة، واستمتعت برفقة القنصل العام وزوجته الودودة (انظر شكل 10.4)(٥١).



شكل (٤-٩) صورة التقطتها «بيل» للمدخل الداخلي وبقايا قبو مُشيد بطريقة «التطنيف» في الركن الشمالي الشرقي من الجناح الجنوبي بطاق كسرى في طيسفون. كان الباحث «إرنست هرتسفلد» يعتقد أنّ هذا الشكل لم يكن موجودًا قبل العصر الإسلامي، لكن تصريح «بيل» في كتابها «من سلطان إلى سلطان» (ص153) بأنّ رأي «هرتسفلد» جانبه الصواب فاقم من حرارة التنافس بينهما.

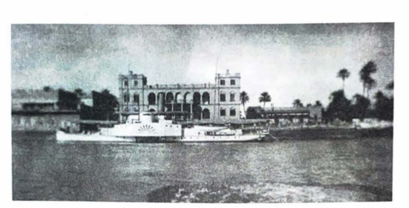
كانت هذه أولى زيارات «بيل» العديدة إلى بغداد؛ في العام 1909 أولاً، ثمّ خلال العامين 1911 و1914. ولاحقًا، بعد تحرك القوات البريطانية إلى بغداد في العام 1917، وبعد أن صارت موظفة سياسيّة بالحكومة البريطانية في بلاد الرافدين، استقرّت «بيل» في بغداد بشكل رئيس وعاشت هناك حتّى وفاتها في العام 1926.

ستحتل بغداد دائمًا مكانة مميزة في حياة «بيل»، لا بسبب ما بها من آثار فحسب، بل بسبب موقعها المركزي في شؤون بلاد الرافدين الراهنة. فمنذُ زيارتها الأولى في العام 1909، أثارت التقارير التي تُرسل إلى القنصلية البريطانية انتباه «بيل»، وجعلتها تتوق إلى تقديم يدّ المساعدة نظرًا إلى المعرفة المباشرة التي اكتسبتها عن الأراضي التي زارتها. وقد كانت «بيل» في أغلب الأحوال أكثر نفعًا من آخرين في السلك الدبلوماسي؛ بسبب إتقانها للغة العربية وحقيقة أنّ أغلب رحلاتها كانت تتطلب إجراء حوارات طويلة مع محليين، ونقاشات عن أحوالهم، سواء عادية أو متعمقة. ومن ثمّ حتّى وقت أن كانت اهتماماتها جغرافية وأركيولوجية بالدرجة الأولى، نستطيع أن نرى البصيص الأول من عملها السياسي المستقبلي.

كانت «بيل» على دراية ما بتاريخ بغداد، وبخاصة وقت أن كانت عاصمة الخلفاء العباسيين، وهو: «عصر شهدت خلاله تألقًا كبيرًا وخرابًا سادرًا كسائر المدن الأخرى بصفحات التاريخ»[٥٢]. وقد أتاحت الروايات التاريخية أوصافًا تفصيلية لهذه المدينة القديمة التي أسسها الخليفة «أبو جعفر المنصور» في العام 762 ميلاديًّا، إذْ كانت بغداد مصممة على هيئة دائرة كاملة بناءً على تصوّر أنّها تمثّل سُرّة الكون[٥٣]، وكانت تُحيط بها أسوار عالية وأربع بوابات، وفي منتصف المدينة المستديرة يقع قصر الخليفة والمسجد الجامع، أمّا الأحياء العسكرية والتجارية والسكنية، فكانت معزولة عن بعضها البعض وتقع خارج السور الدائري[٥٤].

لكن لسوء الحظّ لم يتبق شيء عمليًا من المدينة الأولى عند أوائل القرن العشرين. رغم ذلك، اجتذبت آثار العصر الإسلامي الحديث انتباه «بيل»، فراحت تطوف بينها كسائحة متحمّسة تحمل الكاميرا الخاصّة بها. فزارت على سبيل المثال، «باب الطلسم» الذي بناه الخليفة الناصر في العام 1221 ميلاديًا (انظر شكل ٤-١١)، و«مرقد السيدة زبيدة» وهو ضريح فاخر شُيِّد في القرن الثاني عشر وزُيِّن بقبة مقرنصة تضم تسع طبقات، لا يختلف عن ضريح «إمام الدور» الذي ستزوره لاحقًا عند الطرف الشمالي لمدينة سامراء(٥٥). واهتمّت بالمئذنة أنيقة الزخارف في «سوق الغازي»، وتجولّت في مدرسة المستنصرية القديمة(٥٦). لكنها تعرّضت للمنع من دخول «قصر الخلفاء» الذي ينتمي للقرن الثالث عشر في العام 1909؛ لأنّه آنذاك كان مستودعًا عسكريًا، لكن في العام 1911 سنحت لها الفرصة للتجول بين دهاليزه المقبلة، وتصوير جدرانه وأسقفه بارعة الزخارف وألواحه المصنوعة من الفخّار الأحمر(٥٧).

وإجمالا، استمال ماضٍ وحاضر بغداد «بيل»، وبثّت زيارتها إلى هذه المدينة فيها الروح وقوّت عزيمتها لمعرفة وتوثيق بلاد الرافدين، كما فعل عدد قليل من الرحّالة الغربيين قبلها. رغم ذلك، حين نسترجع زيارتها الطموحة الأولى التي جرت في العام 1909، سوف نجد أنّه من المستحيل أن نتنبأ بالدرجة الهائلة التي استحوذت بها شؤون بغداد وبلادها على تفكير «بيل» لاحقًا في حياتها؛ إذْ ستشهد بغداد أعظم إنجازات «بيل» وأسوأ أحزانها. كما ستشهد موتها في نهاية المطاف ومثواها الأخير.



شكل (٤-١٠) صورة التقطتها «بيل» للمقر البريطاني في بغداد في العام 1911، ونرى أمامه باخرة دولابية، على الضفة الأخرى لنهر دجلة. نزلت «بيل» هُنا مع القنصل البريطاني وزوجته بالعامين 1909 و1911، حيث وجدت سكنًا مترفًا ومريحًا.

سامراء

غادرت «بيل» بغداد في الثاني عشر من أبريل العام 1909، حيثُ لحقت بخدمها وقافلتها لتخرج من طرف المدينة الشمالي بمحاذاة نهر دجلة. كان الريف الطبيعي شمال بغداد مستويًا ويخلو من الأشجار، ودفعت رياح عاصفة «بيل» للحنين إلى وسائل الراحة في المقر البريطاني الذي جاءت منه. لكن استرعى انتباهها كثير من التلال الأثرية التي ميزت بلدات وقرى قديمة في طريقها. وقد جعلها المران الذي تلقته بالتاريخ القديم، تعي بعض الأحداث الجسام التي كان يُعتقد أنّها وقعت في تلك الأماكن بالعصرين الكلاسيكي القديم وما قبل الكلاسيكي. ومنها معركة «أوبيس» التي وضعت نهاية للإمبراطورية البابلية الحديثة في العام 529 قبل الميلاد، وانسحاب جيش الإمبراطور الروماني «جوليان» قبيل وفاته بفترة قصيرة، في العام 363 ميلاديًّا(٥٨).

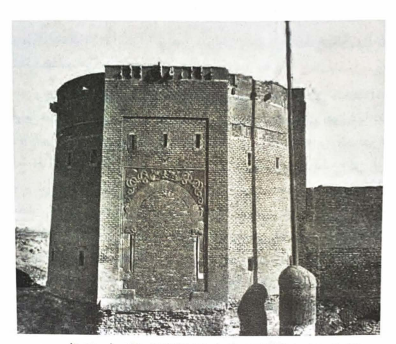
لكن عصرًا أحدث آخر من العصور القديمة كان على وشك الاستحواذ على انتباه «بيل»، وكانت آثاره تبدأ بالفعل في الكشف عن نفسها في صورة شظايا فخار إسلامية مزخرفة، انتشرت بكثافة فوق سطح التلال الشرقية.

ذلك أنّ «بيل» بعد أن عبرت إلى الضفة الأخرى لنهر دجلة على متن «كلك»(*) عند مدينة «بلد» في الرابع عشر من أبريل(٥٩)، عبرت «نهر القائم» القديم الجاف لتجد نفسها مُحاطة بحقول أنقاض مدينة سامراء العظيمة الواسعة، التي كانت ذات يوم العاصمة المتلألئة للسلالة العباسية الإسلامية خلال القرن التاسع الميلادي، حيثُ كانت: «البازارات والقصور تمتد دون أن يعيقها شيء بمحاذاة الضفة الشرقية لنهر دجلة، طوال مسافة واحد وعشرين ميلا»(٦٠). بناءً على تاريخ سامراء- الذي وصل أغلبه إلينا عبر مؤرخين مسلمين ينتمون للقرن التاسع الميلادي- فإنّ المدينة لم تحظ إلا بفترة قصيرة من الأبهة، بدأت مع الخليفة المعتصم (833- 842) الذي أسس مدينة جديدة كي تُصبح مقرًّا للبلاط العباسي، إضافة إلى جنود الجيش التركي الذين كان يتزايد عددهم ونفوذهم(٦١). وقد واصل أربعة من خلفاء المعتصم الإقامة في سامراء، وراح كل منهم يُضيف: «سوقًا إلى سوق، وقصرًا إلى قصر، وأرض ترفيه إلى أرض ترفيه»(٦٢). وفي النهاية في العام 892، عاد الخليفة «المعتضد بالله» إلى بغداد، لتتدهور المدينة سريعًا من بعدها:

تقوّضت أسوار سامراء لتعود إلى الصحراء التي ارتفعت منها، ومثل الطين الذي تفوح منه رائحة المسك في حكاية «سعدي»(**) حين تلاشى العبير، عاد الطين إلى تراب كما كان في حالته الأولى. مجد بالغ الروعة تبعه تدهور شديد المباغتة بالكاد نجد له مثيلًا بأي صفحة من صفحات التاريخ(٦٣).

(*) زورق تقليدي يستخدم للنقل مع التيار في نهر دجلة. يُصنع من القصب أو الخشب وقد تصل حمولته إلى ٣٥ طنًا، وهو مفيد جدًا في الأماكن الضحلة أو المنحدرات. [المترجم].

(**) هو الشاعر والمتصوف الفارسي سعدي الشيرازي المولود في شيراز أوائل القرن السابع الهجري؛ يُعدّ أحد أبرز الشعراء القروسطيين، والحكاية المُشار إليها جاءت في مقطوعة شعرية يُدير فيها الشاعر حوارًا بين خادم حمّام وحفنة طين تنبعث منها رائحة زكية تأخذ القلب، عثر عليها في بهو الحمّام، فيسأل الخادم الطين عمّ يكون، وهل هو مسك أو عبير، لكن الطين ينفي ما وصفه به الخادم ويُجيب في تواضع أنّه كان طينًا ذليلًا لكنه حظي بصحبة الورد ومجالسته مدة من الزمن. [المترجم].



شكل (٤-١١) صورة التقطتها «بيل» في العام 1909 لباب الطلسم في بغداد الذي يرجع للقرن الثالث عشر. التقطت «بيل» صورًا إضافية بعدسات مقربة لهذه البوابة حين عادت في العام 1911، بان فيها بوضوح التفاصيل الموجودة أعلى المدخل- زوجان من التنانين المجنحة يجلس بينهما آدمي عاقدًا ساقيه. إنّ سجل «بيل» الفوتوغرافي للبوابة ذو قيمة هائلة؛ إذْ انهار باب الطلسم بالكامل على يد الجيش العثماني عند انسحابه من بغداد في العام 1917.

كانت مدينة سامرّاء مدينة ضخمة وقتذاك؛ إذْ تشهد أكوام الأنقاض الهائلة التي غطّت حوالي سبعة وخمسين كيلومترًا مربّعًا- ربّما أوسع حقل أنقاض في العالم- على عظمة وترف الخلافة(٦٤). يتبدّى الحقل من فوق الأرض على هيئة أكوام بلا معالم من التراب والطوب المحطّم، أمّا من السماء فيستطيع المرء أن يُميّز بوضوح حدود معسكرات رحبة كانت مُخصصة لفيالق الجيوش الضخمة، وشوارع وطرق عريضة ومضامير لسباق الخيول وملاعب «بولو» ومساجد فسيحة؛ وفوق كل ذلك، قصور

مُحاطة بساحات ذات أسوار شاهقة وبوابات عديدة وأفنية سكنية وقاعات فخمة مُخصصة للجمهور.

ربّما كانت «بيل» نفسها على دراية بوجود سامراء على ضفاف دجلة قبل أن تشرع في رحلتها إلى بلاد الرافدين، وربّما كانت على يقين أنّها على اطّلاع عام بكل ما يتعلّق بالموقع وقتئذ. ذلك أنّ ما قامت به من تحضيرات أتاح لها التعرف على كُتّاب مسلمين مثل «اليعقوبي» و«الطبري»؛ الذي روى تاريخ سامراء، كما جعلتها دراستها الأحدث لمدينة الرقة التي تعود للعصر الإسلامي المبكّر واكتشافها للأخيضر- الذي تجمعه بمدينة سامراء أوجه تشابه كثيرة- منسجمة بشكل خاص مع تفاصيل البناء المميزة في الموقع.

من بين التحريات الأركيولوجية الحديثة في سامراء، يبدو أنّ «بيل» كانت مُطّلعة على التحريات التي أجراها جنرال فرنسي يُدعى «لوسيان دوبيلي» Lucien de Beylié؛ الذي زار سامراء في العام 1907 ونشر ما توصّل إليه من نتائج في العام نفسه[٦٥]. كانت «بيل» تحمل معها أيضًا نسخة من كُتيّب صغير عن تاريخ وعمارة سامراء، أصدره حديثًا باحث ألماني شاب اسمه «إرنست هرتسفلد»[٦٦]. وسيستمر «هرتسفلد» في تحقيق الشهرة بسبب إنجازاته المذهلة؛ لاسيما في حقول الأركيولوجيا الإيرانية والتاريخ والدين. لكن في العام 1909 كان «هرتسفلد» لا يزال مستشرقًا شابًا مجهولا بعض الشيء يبلغ من العمر ثلاثين عامًا؛ ذا مستقبل أكاديمي واعد. وسيكون هذا عامًا مهمًا بالنسبة له؛ حيثُ أنهى عمله المُتقن عن قصر «المشتى» الصحراوي الذي يقع جنوب عمّان اليوم في الأردن[٦٧]. إذْ طرح في هذا المقال رأيه الدقيق والمثير للجدل في الآن ذاته، الذي مفاده أنّ قصر المشتى مبنى إسلامي أموي يرجع للقرن الثامن الميلادي، وبالتالي فهو يُسقط الحُجج السابقة التي جزم بصحتها «سترزيجوفسكي» وآخرون، والتي تقول إن القصر ينتمي للساسانيين أو الغساسنة أو اللخميين[٦٨]. وحتّى اليوم، يُعد مقال

«هرتسفلد» عن قصر المشتى الذي نشره في العام 1910، عملاً غير مسبوق بين دراسات الفن الأموي بسبب منهجيته الواضحة وحجته المُقنعة وإطاره المرجعي الواسع[٦٩].

أحسّت «بيل»؛ بما لديها من ثقة وخبرة أركيولوجية، أنّ من حقّها نقد جهود «هرتسفلد» في سامراء. فكتبت التالي في رسالة إلى أبيها، عند وصولها إلى هناك وبعد تفقّد المسجد الكبير:

> سامراء الآن هي المكان الأهم في العالم فيما يتعلّق بالمباني الإسلامية. وقد عمل هُنا شخصان؛ فرنسي وألماني. نشر الفرنسي العجوز الطيب (وهو جنرال مهتم بعلم الآثار) بحثًا قصيرًا عقب زيارة لقصر، قدّم فيه بعض المعلومات المشوقة. لكن المخططات التي رسمها لم تكن دقيقة؛ إذْ اعترف بفقدان دفاتره قبل رسم المخططات - يا له من اعتراف ساذج![٧٠] أمّا الألماني فنشر دراسة مليئة بالصخب كان سعيدًا بها بوجه خاص؛ حيثُ قال فيها إنّ أبحاثه أثبتت خطأ ما ذهب إليه «سترزيجوفسكي»[٧١]. لقد توقّعت بكل ثقة أن أجد كل ما توصّل إليه غير قابل للتحسين؛ ذلك أنّي لم أر إلا شيئًا واحدًا منها حتّى الآن (أحد المعالم الأصلية) لأجد أنّ مُخطط «هرتسفلد»؛ باستثناء الخطوط العامة، وليد مُخيلته. ومن ثمّ أنا مضطرة لرسم هذا المُخطط مرّة أخرى، وأخشى أن ينطبق الأمر نفسه على باقي أعماله. إنّه مُهندس معماري، لكن كيف لمهندس معماري أن يمكث ساعة داخل ذلك المسجد من دون أن ينتبه لتفاصيل البناء المُثيرة للاهتمام بشكل استثنائي التي أفلتت منه، لا يُمكنني أن أتخيّل هذا. أحيانًا حين تسنح لي فرصة التطرق إلى أعمال علماء آثار مُحترفين، أعتقد أنّي عالمة آثار بصورة ما- لكن هذا من شطحات الخيال! أيًا ما كان سيظل المرء يحمل دائمًا ما يكفي من الاحترام لما يدرسه كي يستخرج عنها صورة طبق الأصل. وهذه نصف المعركة[٧٢].

وفي رسالة أخرى بعد الأولى ببضعة أيام، كتبت «بيل»:

كما كنت أخشى، كان لابد من إعادة كل رسم المخُططات التي رسمها «هرتسفلد»، وقد أمضيت في ذلك ثلاثة أيام ونصف من العمل المُضني. لكنّي أنهيت العمل الآن ولا يساورني أي ندم؛ لأنّ المرء يتعرّف على المباني بدرجة أكبر حين يتفقدها عن قرب حجرًا بحجر، وبين يديه شريط القياس. كذلك (لكن هذا الاعتبار لا يستحق النّظر!) ستتاح لي فرصة قضاء وقت ممتع في عرض ما توصلت إليه على «هرتسفلد»؛ فهو يستحق على أي حال[٧٣].

تُظهر الرسائل أنّ «بيل» وجدت أنّ الدراسات الحديثة عن عمارة سامراء؛ لاسيما جهود «هرتسفلد»، افتقرت إلى التفصيل والدقة، ومن ثمّ فقد أحسّت أنّها مُضطرة إلى القيام بدراستها الخاصة؛ دراسة معمارية مُحكمة تتوافر فيها الصور الفوتوغرافية والأوصاف والمخططات المرسومة بعناية. وكما تبيّن، لم يكن المسجد الكبير في سامراء هو هدفها الوحيد؛ إذْ كانت «بيل» شديدة الطموح وبدا أنّها كانت تستهدف عمل سجل للعديد من الآثار التي تنتمي للعصر الإسلامي خلال أيام زيارتها في العام 1909. ومن ثمّ في الفترة بين 15 و18 أبريل، شرعت في رسم مخططات وكتابة أوصاف والتقاط صور فوتوغرافية لموقع القادسية (انظر شكل ٤-١٢)، وأنقاض «دار الخلافة» الشهيرة أو «قصر الخليفة»؛ وهو مقر ومكان حكومة الخليفة الرئيس في سامراء (انظر الشكلين ٤-١٣ و ٤-١٤)[٧٤]. وعلى الجانب الآخر؛ الضفة الغربية لنهر دجلة حيث كانت توجد أنقاض إضافية لسامراء، رسمت «بيل» مخططات والتقطت صورًا للقبة الصليبية- وهي مبنى مثمّن لا تزال وظيفته محل جدل- واتّجهت إلى الشمال حيثُ «قصر العاشق» وهو قصر مُشيد بالطابوق والجبس وصل إلينا سليمًا، ربّما يكون الخليفة «المعتمد بالله» قد بناه في فترة ما بين العامين 877 و882 ميلاديًا (انظر شكل ٤-١٥)[٧٥].

يبدو أنّ «بيل»؛ رغم ذلك، أمضت أغلب وقتها في تسجيل البقايا الهائلة لمسجد «المتوكل على الله» الكبير، الذي يرتفع خلف أسوار مدينة سامراء الحديثة(٧٦). لم يكن الهدف من هذا المسجد الذي شيده الخليفة العباسي «المتوكل على الله» بين العامين 848 و852 خدمة العدد المتزايد من المصلين الذين كانوا يتجمعون في قلب المدينة فحسب، بل توفير منصة فخمة لدخول الخليفة أثناء أداء صلوات الجمع والعطلات الرئيسة(٧٧). يتميّز المسجد بوجود صفوف من دعامات السقف المبنية بالطوب والرخام (أُزيلت منذُ زمن)، ويُحيط به مستطيل واسع من الأسوار المحصنة المبنية بالطابوق، ليتمخض عن أضخم مسجد في العالم(٧٨). وربّما يكون أحد أشهر المساجد في العراق؛ لا بسبب حجمه الهائل فحسب، بل بسبب مئذنته الحلزونية المميزة المعروفة باسم «الملوية» التي تنتصب شمال المسجد. ويتميّز برج الملوية الأسطواني بوجود مصطبة منتظمة الانحدار تدور حول البرج حتّى قمته التي ترتفع خمسين مترًا عن القاعدة، لتُوفّر بذلك رؤية تشمل المسجد الكبير ومدينة سامراء القروسطية من ورائه(٧٩).

وجدت «بيل» مخطط «هرتسفلد» المنشور للمسجد الكبير: «بالغ السوء»؛ من ثمّ شرعت في رسم مُخططها الخاص. ويُضيف المخطط الجديد (انظر شكل ٤-١٦) (نُشر في كتابها «من سلطان إلى سلطان») تحسينات على جهود «هرتسفلد» في العام 1907 التي كانت تحتوي على العديد من الأخطاء الملحوظة. كما اهتمّت «بيل» بالتقاط صور فوتوغرافية واضحة، أتاحت تفاصيل مهمة ومثيرة للمعالم المعمارية التي لاحظتها في المسجد والمئذنة الملحقة (انظر شكل ٤-١٧).

صادفت «بيل» في طريقها شمال مدينة سامراء بمحاذاة الضفة الشرقية لنهر دجلة في التاسع عشر من أبريل، قدرًا كبيرًا من الأنقاض التي تنتمي للعصر الإسلامي، ومرّت بأنقاض ما كان يُعرف في العصر العباسي باسم

القطاع الجنوبي من «المتوكلية»؛ وهي المدينة التي شرع الخليفة «المتوكل على الله» في بنائها شمال سامراء في حوالي العام 859. كان الهدف من بناء المدينة الجديدة أن تحلّ محلّ سامراء كعاصمة للخلافة العباسية، وربّما كانت إضافة إلى ذلك؛ تُشبع بعض كبرياء «المتوكل» الملكي وشهيته الشرهة للبناء[٨٠]. لكن لسوء الحظّ، لم يستمتع الخليفة المتوكل بالمجد إلا تسعة أشهر، قبل أن يغتاله قادته الأتراك خلال مباراة ليلية لشرب الخمر داخل القصر الذي بناه لنفسه على الطرف الشمالي من المدينة. وقد تعرضت «المتوكلية» بعد وفاة الخليفة إلى التخريب والهدم، ولم يسكنها أحد بعدئذ قطّ[٨١].

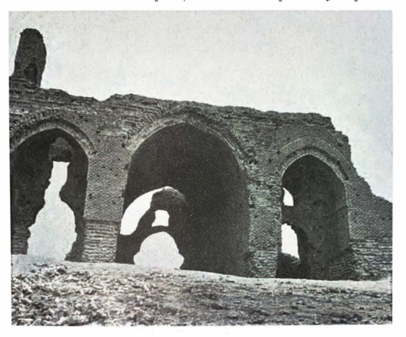
كانت «بيل» أثناء مرورها ببقايا أغلب مباني المدينة التي تضم شوارع عريضة وبيوتًا ومعسكرات للجنود وأسوقًا ومصليات (وهي ساحات مفتوحة لأداء الصلاة خلال الأعياد)، شديدة الاهتمام بالوصول إلى جامع «أبو دلف»، الذي أمضت خمس ساعات كاملة في قياس أبعاده وتصويره. ومرّة أخرى، لم تكن «بيل» راضية عن التقارير التي كتبها الزائرون السابقون؛ بخاصة تقارير الجنرال «دوبيلي»، فاضطرت إلى كتابة تقريرها الكامل والمفصّل[٨٢]. ومثل المسجد السابق الذي شيده «المتوكل على الله» في سامراء، كان «أبو دلف» مسجدًا جامعًا بنفس التصميم والمئذنة الحلزونية (انظر شكل ٤-١٨). لكن بدلًا من الدعامات الداخلية المشيدة بالطوب اللبن في المسجد الكبير؛ التي إمّا تحطّمت في وقت سابق أو أُزيلت بالكامل، وصل إلينا الجزء الداخلي من جامع «أبو الدلف» سليمًا؛ حيثُ كانت الصفوف الداخلية من الدعامات المستطيلة والمربعة مبنية بالكامل من الطابوق. وعلى العكس، كان السور الخارجي مبنيًا من الطوب اللبن، وقد أدّى تدهوره اللاحق على مدار قرون إلى صعوبة تسجيل التفاصيل المتعلقة به بدقة[٨٣]. ورغم ذلك، قامت «بيل» بمحاولة شجاعة لتسجيل تفاصيل المسجد، وتحظى الصور التي التقطتها والأوصاف التي كتبتها والمخططات التي رسمتها بالثناء، بسبب دقتها وتفاصيلها الثرية[٨٤].



شكل (٤-١٢) صورة التقطتها «بيل» في العام 1909 لساحة القادسية الثمانية الواسعة المسورة من الجهة الجنوبية الشرقية في سامراء، ونرى في الصورة بقايا معاقلها المستديرة. ربّما يكون الموقع؛ الذي يبدو أنّه لم يُسكن قطّ، هو مكان مدينة لم يكتمل بناؤها شرع في تشييدها الخليفة «هارون الرشيد» في القرن الثامن.

وصلت «بيل» بعد أن تجاوزت الحدود الشمالية لمدينة المتوكلية إلى بلدة «الدور»، حيثُ توقّفت لزيارة وتسجيل تفاصيل ضريح اشتهر باسم مرقد «إمام الدور»؛ وهو مُخصص لأحد أئمة الشيعة وقد بناه أمير موصلي خلال حكم سلالة «بني عُقيل» بالقرن الحادي عشر(٨٥). كان الضريح مُدهش التصميم والزخارف تعلوه قبة مقرنصة تتألف من خمس حنايا ركنية ثمانية الأضلاع تتراص فوق بعضها البعض، يزداد ارتفاعها كلما ارتفعنا إلى القمة (انظر شكل ٤-١٩). أمّا الجزء الداخلي من المدفن فيتميز بزخارف ضافية

من الجصّ على هيئة خلايا نحل، تجسّد خصائص أسلوب «الروكوكو» السامرائي الذي ظهر في العراق أثناء حُكم «بني عُقيل»(٨٦).



شكل (٤-١٣) صورة التقطتها «بيل» في العام 1909 لباب العامّة ذي الثلاثة أقبية، بقصر دار الخلافة في سامراء التي شُيدت حوالي العام 836 ميلاديًا. تقع البوابة على المحور الرئيس للقصر الجنوبي المعروف بدار العامّة، الذي يمتد من الغرب إلى الشرق. كانت هذه هي البوابة الرسمية التي يمرّ من خلالها الزائرون القادمون من النهر إلى القصر. وطبقًا للمصادر المكتوبة، فإنّ باب العامّة كان أيضًا مكان تنفيذ العقوبات والإعدامات على الملأ.

تروي «بيل» أنّها عندما وصلت إلى «إمام الدور»، لاحظت وجود كتابات عربية منقوشة فوق لوح رخامي عند مدخل المزار، قرأت فيها تاريخ 871 هجرية (1466 ميلاديّة)، بعد أن كشط أحد القرويين بعض الدهان الذي كان يُغطيها في الأسفل. سيُصبح هذا التاريخ مصدر بعض الخلاف بين

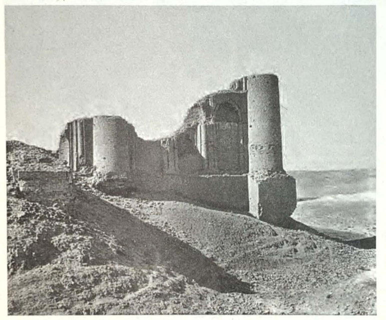
«بيل» و«هرتسفلد»؛ ذلك أنّ الأخير كان قد تفقّد الكتابة المنقوشة في العام 1908 لكنه لم ير التاريخ. وتضم المراسلات التالية بين «بيل» و«هرتسفلد» بين العامين 1909 و1911 كثير من النقاشات حول هذه الكتابة في «إمام الدور»؛ وهي النقاشات التي ألقى بثقله فيها أيضًا الفقيه اللغوي البارز المتخصص في النقوش العربية «ماكس فان برشم»Max Van Berchem(٨٧).



شكل (٤-١٤) صورة التقطتها «بيل» في العام 1909 لشظايا زخارف جصية يُفترض أنّها جاءت من دار الخلافة في سامراء، تمّ جمعها ووضعها خارج خيمة «بيل». الزخارف الجصية التي نراها هُنا تنتمي للأسلوب المعروف باسم «أسلوب سامراء رقم C»(*)، الذي تطور أثناء القرن التاسع الميلادي. توجد نسخة من هذه الصورة الفوتوغرافية بين أوراق «هرتسفلد»، المحفوظة ضمن مقتنيات معرضي «فرير» و«ساكلير» التابعين لمعهد «سميثسونيان» في واشنطن العاصمة. وربّما أرفقتها «بيل» مع إحدى رسائلها إلى «هرتسفلد» في العام 1910.

(*) هي زخارف جصية ظهرت في سامراء تميل إلى التجريد، وهي عبارة عن أنماط مصبوبة شديدة التجريد تتألف من موتيفات نباتية وهندسية. [المُترجم]

مع ذلك، يبدو هذا الخلاف بين «بيل» وزملائها في أوائل القرن العشرين تافهًا إذا قارنّاه بالتقارير الحديثة، التي تقول إنّ تنظيم الدولة الإسلامية نسف ودمّر ضريح «إمام الدور» بالكامل، ربّما في أكتوبر العام 2014. وكان هذا التصرف جزءًا من الإبادة العدوانية التي قام بها التنظيم للصروح ومظاهر الثقافة الشيعية(٨٨). وهكذا اختفى من الوجود الضريح الجميل ذي القبة الرائعة- الأولى من نوعها في العراق- الذي حظي باحترام ورعاية المسلمين السنة والشيعة على السواء على مدار ألف عام تقريبًا.

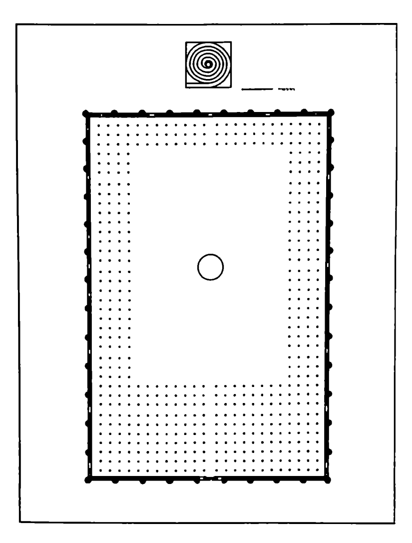


شكل (٤-١٥) صورة التقطتها «بيل» في العام 1909 لجزء مبني بالطوب على الجانب الغربي من الواجهة الشمالية لقصر العاشق في سامراء، الذي يُعتقد أنّ الخليفة العباسي «المعتمد على الله» هو الذي بناه في الفترة بين 877 و882 تقريبًا. كان ثمّة مشكاوات غير نافذة وأقواس تتألف أطرافها من دوائر متعددة Polylobed بين ركائز شبه مستديرة. تمّ سدّ المشكاوات جزئيًا بالطوب في تاريخ لاحق؛ إذ كانت جدارنها الخلفية رفيعة جدًا وتعرّضت للانهيار.

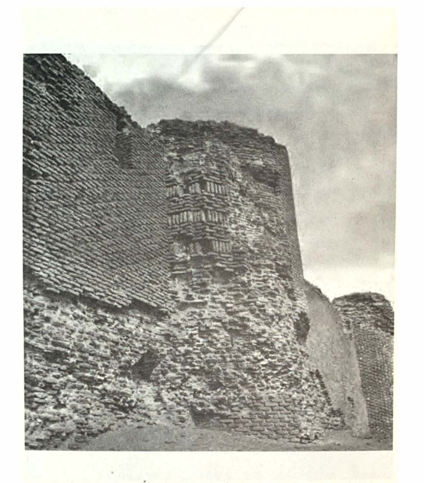
لا ريب أنّ «بيل» أرادت الاستفادة من ملاحظاتها ومخططاتها وصورها الغزيرة التي أسفرت عنها زيارتها إلى سامراء، وأنّها كانت تطمح إلى نشر ما توصّلت إليه هُنا إلى جانب الرقة والأخيضر. وقد عبّرت عن هذا الطموحات في رسالة كتبتها في أبريل العام 1909:

أخطط الآن لتأليف كتاب سأسميه «الأخيضر، سامراء، الرقة: دراسة في عمارة بلاد الرافدين». ما رأيك في ذلك؟ وسأذكر فيه أيضًا كل الشظايا الفخارية وأعمال الجصّ وأواني الرقة. لابد أنّ تأليفه سيكون أمرًا بالغ التشويق، لكنه سيستغرق وقتًا طويلًا. رغم ذلك يتملكني حماس شديد حيال هذا الأمر. العائق الوحيد أنّه لن يدر عائدًا! لكن إياك أن تذكر ذلك لـ«هينمان»- ولا للمصرفيين الذين أتعامل معهم(٨٩).

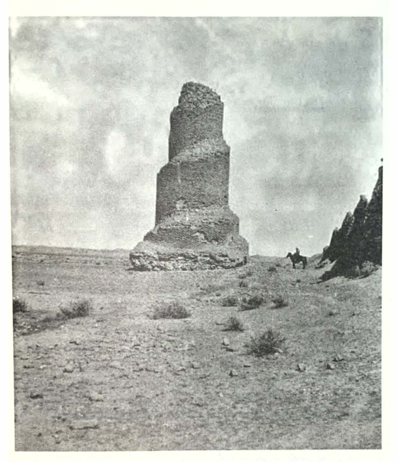
ويبدو أنّ طموحها لنشر ما توصّلت إليه في سامراء في كتاب ضخم، استمر حتّى عقب عودتها إلى إنجلترا في وقت لاحق من العام؛ ذلك أنّها واصلت البحث عن كل ما يتعلّق بالموقع، وجمع معلومات إضافية عن كل مبنى زارته. وقد علمت خلال هذا البحث أنّ باحثًا فرنسيًا يُدعى «هنري فيوليت» زار سامراء في العام 1908، وسجّل ما توصّل إليه عن بقايا دار الخلافة والمسجد الكبير وقصر العاشق في كتاب نشره في العام 1909(٩٠). ويبدو أنّ «فيوليت» كانت لديه أيضًا خطط للعودة إلى سامراء خلال العام التالي للقيام بأعمال تنقيب، ستكون نتيجتها النهائية تقريره الإضافي عن بعض تفاصيل دار الخلافة(٩١).



شكل (٤-١٦) مُخطط رسمته «بيل» في العام 1909 للمسجد الكبير في سامراء (847 - 861 ميلاديًا تقريبًا)، ومئذنته الحلزونية (الملوية)، وقد ورد في دراستها «من سلطان إلى سلطان». كانت «بيل» تهدف من وراء هذا الجهد تحسين مُخطط سابق للمسجد نشره «إرنست هرتسفلد»، وسينشر «هرتسفلد» نفسه مخططًا أدق للمسجد في ذات العام.



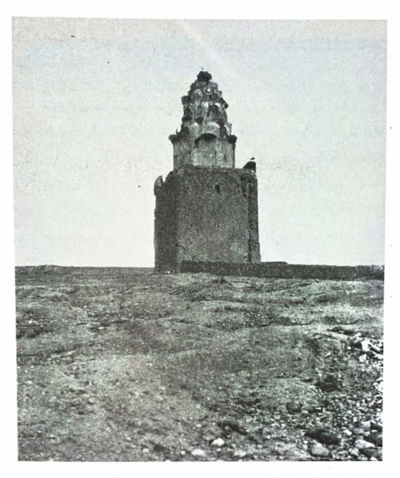
شكل (٤-١٧) صورة التقطتها «بيل» في العام 1909 لما تبقّى من المدخل المؤدّي إلى «دار الإمارة» المتاخمة للجهة الجنوبية من جدار القبلة بالمسجد الكبير في سامراء، بالقرب من برج خارجي نصف دائري. تنسجم الصورة بدرجة كبيرة مع الوصف الذي قدّمه «هرتسفلد»، الذي كتب عن وجود إطار من الطوب شكّل جانبًا من المدخل المؤدّي إلى «دار الإمارة» بالناحية الغربية. لكنه أُزيل أثناء ترميم المسجد بعد الحرب وتثبيت جدار القبلة. ولا تزال الصورة الفوتوغرافية التي التقطتها «بيل» لنمط البناء بالطوب الذي يضم خمسة مداميك أفقية تتناوب مع مدماك رأسي من الطوب، أفضل سجل مرئي لهذا المعلم الذي اختفى الآن.



شكل (٤-١٨) صورة التقطتها «بيل» لمئذنة مسجد أبو الدلف الحلزونية شمال سامراء، التي بناها الخليفة المتوكل (847- 861 ميلاديًا تقريبًا). يُشبه تصميم المئذنة تصميم الملوية بالمسجد الكبير في سامراء، وإن كان ارتفاعها لا يصل إلى نصف ارتفاع مئذنة المسجد الكبير.

في إنجلترا، قررت «بيل» أيضًا أن تكتب لـــ«هرتسفلد» (انظر شكل 20.4)، الذي كانت تسترشد أثناء وجودها في الميدان بالتقرير الذي وضعه عن سامراء في العام 1907. وكان أحد استفساراتها الأساسيّة يتعلّق بمخطط

«هرتسفلد» 'بالغ السوء' للمسجد الكبير في سامراء. وربّما كتبت له على أمل الحصول على مزيد من التوضيح عن تفاصيل المبنى المعمارية، أو ربّما أرادت تقديم نسختها المنقحة كي يضعها في اعتباره. وعمومًا، فقد سبق أن كتبت أنّها بمخططها المُحسن الجديد للمسجد الكبير: «قد تقضي وقتًا ممتعًا فيعرض ما توصّلت إليه على «هرتسفلد». وإيًّا كان دافعها للكتابة، فقد تلقّت من «هرتسفلد» قدرًا كبيرًا من المعلومات عن سامراء وآثارها. بل علمت أنّ «هرتسفلد» عاد إلى سامراء بصحبة «فريدريك ساري» في العام 1909، وأنّ تقريرًا أشمل عن الموقع كان على وشك الصدور، من شأنه تصحيح ما ورد من أخطاء في التقرير السابق عن سامراء- الذي كُتب في عجالة بعض الشيء. كذلك علمت أنّ «ساري» و«هرتسفلد» كانا في طريقهما إلى سامراء، وأنّهما يخططان لاستكشاف الموقع وآثاره بالكامل لصالح «متحف القيصر فريدريك» في برلين.



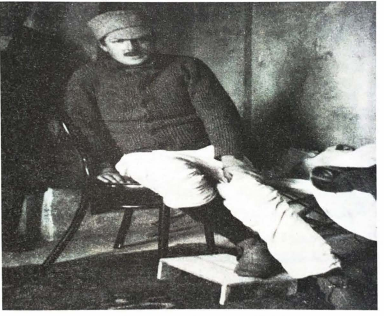
شكل (٤-١٩) صورة التقطتها «بيل» لضريح إمام الدور شمال حقول الأقاض بسامراء، يعود تاريخ بنائه إلى القرن الحادي عشر. في وقت التقاط الصورة في أبريل العام 1909، كانت القبة المفصصة المميزة بسقف البناء تعلوها عدة أعشاش لطائر اللقلق. للأسف، لم يعد هذا المبنى الجميل الخاص بالشيعة موجودًا، بعد أن دمّره تنظيم الدولة الإسلامية في أكتوبر العام 2014.

في ضوء هذه المعلومات والتحريات التي أجراها بالفعل كلًّا من «فيوليت» و«ساري» و«هرتسفلد»، ورغم بعض الاعتراضات التي كانت لديها على أعمالهم، يبدو أنّ «بيل» تخلّت عن خطتها لنشر كتاب ضخم عن

فن وعمارة سامراء. وفي النهاية؛ فإنّ الملاحق المُوجزة عن الموقع التي ألحقتها بكتاب «من سلطان إلى سلطان»- مصحوبة ببعض صور ومخططات مبان كالمسجد الكبير وقصر العاشق وقبة الصليبية وجامع أبو الدلف- تضم إجمالي ما نشرته عن المكان. ولعل «بيل»؛ بعد أن رأت ما أنجزه الباحثون الآخرون المختصون بسامراء، وبعد أن علمت بقرب إجراء مزيد من التحريات الموسعة، أدركت أنّ هذا الموقع المدهش وبقاياه النفيسة أصبح الآن في أيدي باحثين يستطيعون تخصيص مزيد من الوقت والجهد أكثر مما تستطيع هي. وفي النهاية، يبدو أنّ «بيل» كانت راضية عن وقف نفسها على الأخيضر، يملؤها عزم على ترك بصمتها العلمية الدائمة على ذلك الموقع.

استمرّت المراسلات بين «بيل» و«هرتسفلد» زهاء ثلاث سنوات (1909-1912)، وهي تكشف عن حديث وثاب تبادله اثنان يتقاسمان الاهتمام ذاته بفن وعمارة سامراء، إلى جانب موضوعات أخرى تتعلق بأركيولوجيا الشرق الأدنى[٩٢]. وقد تمّ التوصل إلى الرسائل التي كتبها «هرتسفلد» إلى «بيل» ودراستها، وهي رسائل فريدة لما تحتوي عليه من ثروة من التفاصيل الأركيولوجية، التي تسلط الضوء بشكل الخاص على ثقافة «هرتسفلد» المذهلة، والاهتمام القوي الذي أولاه تقريبًا لكل موقع وصرح أثري زاره ودرسه. وتضم رسائل «هرتسفلد» فيما يتعلّق بسامراء على تعليقات موسعة عن تصميم وتشييد ومواد بناء المسجد الكبير ومسجد «أبو الدلف»؛ إلى جانب مُخططات مُرفقة لتلك المنشآت، ونقاش عن زخارف الجصّ بدار الخلافة، وتعيين الذراع السامرائي Samarra cubit، واكتشافه قصر المتوكل في «بلكوارا» (المنقور) وملاحظات عن تصميمه وعمارته، إضافة إلى الفصل في مسألة المسجد المُلحق بالمقارنة مع المساجد المُكتشفة في المشتى والأخيضر، وعمله في ضريح إمام الدور إلى جانب تعليقات عن عمارته وزخرفته ومحتوى ودراسة نقوشه. كما تشير رسائل «هرتسفلد» علاوة على سامراء، إلى الفن القبطي والعمارة المسيحية في سوريا والأناضول، والعمارة

والفخار الساسانيين، وتطور بناء الأقواس والأقبية – مع الإشارة إلى طيسفون وسروستان وقصر شيرين والأخيضر والمشتى والرقة– إلى جانب آرائه (التي كانت تختلف عن آراء «بيل») بشأن الموضع الصحيح لكل من الموقعين الأثريين «ثابساكوس» و«أوبيس». ويتضح مدى الاتساع الهائل لاهتمامات «هرتسفلد» من هذه القائمة من الموضوعات التي كانت تملأ الصفحة تلو الأخرى من رسائله. لم تفوِّت «بيل» هذه المعلومات الموجزة، بل طرحت تساؤلات حول أغلب الموضوعات التي علّق عليها «هرتسفلد». ما من شكّ أنّ «بيل» كانت متلقيًا حريصًا على المعرفة التي احتوت عليها رسائل «هرتسفلد»، ولا ينبغي الاستخفاف بتأثيره العلمي عليها.



شكل (٤–٢٠) صورة لــ«إرنست هرتسفلد» في شبابه. عقب زيارة «بيل» لسامراء في العام 1909، تبادلت هي و«هرتسفلد» رسائل مفعمة بالحيوية. كانت «بيل» شديدة التأثر بجهود «هرتسفلد»؛ رغم كل الاعتراضات المبدئية التي ربّما كانت لديها على آرائه، وقد تبنّت بشكل خاص أغلب أفكاره المتعلقة بتطور الفن والعمارة الإسلاميين في العصر المبكر.

تتميّز رسائل «هرتسفلد» إلى «بيل» إلى جانب طابعها المثقف بدرجة مذهلة، بأنّها تسترعي الانتباه لما توفره من نظرة خاطفة على بيئة الدراسات الشرقية التي كانت عاصفة آنذاك، والطعن في الظهر والغيرة والخلافات المحتدمة التي كانت تنشب في أغلب الأحيان بين الأكاديميين الأوروبيين. ولم يكن «هرتسفلد» أو «بيل» بعيدين أو بريئين تمامًا من هذه البيئة القاسية؛ حسبما كشفت الرسائل، وكان أغلب الصراع يدور حول الشخصية المثير للجدل «سترزيجوفسكي». فعلى خلاف تقدير «بيل» الإيجابي طويل الأمد لجهود هذا الباحث، كان «هرتسفلد» يختلف في أحيان كثيرة مع «سترزيجوفسكي»، مُثيرًا الشك في الطرائق التي كان يتتبع بها التطورات الفنية عبر الزمان والمكان، وإلحاحه العنيد على الأصول الشرقية لكل التطورات المعمارية والفنية المهمة خلال العصر الإسلامي المبكر. فعلى العكس من ذلك، كان «هرتسفلد» يُشدد على تعدد الاتجاهات التي كان يُستلهم منها الفن والعمارة بالعصر الإسلامي المبكر، وعلى حقيقة أنّ الأشكال الأقدم الأصلية من البناء بالنسبة لمنطقة بعينها كانت تُحاكى ويُبنى فوقها. وعلى العكس من «سترزيجوفسكي»، اعترف «هرتسفلد» بالأسلوب المعقد المتشابك الذي كانت تُستخدم به المؤثرات وتمتزج في أشكال غير مألوفة لخلق فن إسلامي جديد.

رغم اختلاف وجهتي نظر كلٌ من «بيل» و«هرتسفلد» حول «سترزيجوفسكي»، إلا أنّهما كانا متفقين على تبجيل باحث شهير آخر هو «ماكس فان برشم» (انظر شكل 21.4). على العكس من «سترزيجوفسكي» الذي كان سلوكه الفظّ يستعدي الباحثين الآخرين، كانت لـــ«فان برشم» شخصية ظريفة ويحظى باحترام جميع من كان على تواصل معهم[٩٣]. ولد «فان برشم» في «جنيف» ودرس في «شتوتجارت» و«لايبزيج» مطلع القرن العشرين. اكتسب سمعته كباحث أوروبي رائد في علم الكتابات العربية القديمة والفن والأركيولوجيا الإسلاميين. وفي العام 1893، انطلق أحد أبرز

مشاريعه الذي حمل اسم «مدونة النقوش العربية» « Corpus Inscriptionum Arabicarum»، وكان يتضمن تعاونًا دوليًا بين الباحثين لجمع ونشر النقوش العربية المُكتشفة بالآثار الإسلامية في كل أرجاء الشرق الأوسط. وقد أسهم «فان برشم» نفسه في هذا المشروع الطموح بكتابات قديمة عثر عليها في مصر والقدس وسوريا والأناضول، ونُشرت في عدد من مجلدات كتابه «مواد لمدونة نقوش عربية»« Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum» بين العام 1894 وحتّى وفاته في العام 1921.

اتّصل «إرنست هرتسفلد» عدّة مرات بـ«فان برشم» خلال اشتراكه في مشروع «مدونة النقوش العربية»، حيثُ كان يرسل لـ«فان برشم» بشكل متكرر نسخًا من عبارات منقوشة وصورًا فوتوغرافية وملاحظات أنتجها خلال زياراته الموسعة عبر سوريا وبلاد الرافدين والأناضول[٩٤]. وفي المقابل، كتب «فان برشم» الجزء المُخصص لعلم الكتابة القديمة في عمل «ساري» و«هرتسفلد» ذي الأربعة أجزاء: «رحلة أركيولوجية في منطقة الفرات ودجلة» «Archäologische Reise im Euphrat-und Tigris-Gebiet»؛ الذي قام بدراسة ورسم خارطة للآثار الإسلامية في بلاد الرافدين[٩٥].

ما يسترعي الانتباه هو أنّ «بيل» هي الأخرى طوّرت علاقة شخصية وثيقة مع «ماكس فان برشم»، ربما بسبب اهتمامهما المُشترك بآثار العصر الإسلامي، وحقيقة أنّ «بيل» زارت أو كانت تُخطط للسفر إلى أغلب الأماكن التي كان «فان برشم» يسعى للحصول على نقوش منها. وهكذا بدآ في تبادل الرسائل حوالي العام 1909؛ العام الذي شهد أولى رحلات «بيل» إلى بلاد الرافدين، ويبدو أنّها التقته شخصيًا في مناسبتين على الأقل[٩٦]. اللافت للنظر هو أنّ «بيل» و«فان برشم» جمعتهما صداقة حميمة مع «سترزيجوفسكي» المثير للجدل دائمًا، أسفرت عن مساهماتهما العلمية في كتابه الذي حمل اسم «أميدا: مواد من النقوش الإسلامية القديمة وتاريخ ديار بكر»؛ وهو دراسة عن العمارة والفن والكتابة القديمة القروسطية في منطقتي ديار بكر

والجزيرة[٩٧]. ومثل «هرتسفلد»، أرسلت «بيل» إلى «فان برشم» مواد جمعتها أثناء رحلاتها؛ أي مخططات معمارية وصورًا فوتوغرافية من المواقع التي زارتها ونقوشا رأتها، وكلها قابلها «فان برشم» بامتنان، وامتدح العناية والدقة اللتين رافقتا بحثها[٩٨]. ولابد أنّ «فان برشم» كان شخصًا ترحب «بيل» بتبادل الرسائل معه؛ ذلك أنّه لم يكن لديها سوى عدد قليل من الزملاء ممن يُمكن أن يشاركونها اهتماماتها العلمية بشكل كامل وبلا تحفّظ. علاوة على ذلك، كانت معرفة «فان برشم» الفريدة بالتاريخ والثقافة العربيين؛ التي لم يبخل بها قطّ، تتفق مع اكتراثه وحدبه؛ فكان يُعبّر عن اهتمامه الشديد برحلات وأبحاث «بيل» ويجاملها ويمتدح إنجازاتها. ونورد هُنا نماذج من رسائلهما المتبادلة:

(من «فان برشم» إلى «بيل»، الثامن عشر من أكتوبر العام 1911، باللغة الفرنسية): لقد تمكّنت لحدّ كبير بفضلك وبفضل مخططاتك وصورك الفوتوغرافية البديعة من أن أوجه إليه تعليمات دقيقة؛ لأنّ وثائقك أفضل بكثير من الوثائق التي قدّمها لي باحثون آخرون (باستثناء السيد «ساري»). يبدو لي أن أغلب الباحثين شديدو التسرع، وأنّهم يتطلعون إلى تحقيق الكثير خلال فترة زمنية شديدة القصر، وأنّهم يستخدمون كاميراتهم دون اكتراث ويسجلون ملاحظات سريعة. لكن بعدئذ، عندما ترغبين في الاستفادة مما أنتجوه من وثائق، تكتشفين أنّك مضطرة إلى العودة إلى الموقع لاستكمال تلك الوثائق بنفسك.

أمّا صورك الفوتوغرافية فهي شديدة الجمال درجة تجعلني أنفر من الاستعانة بأي صور التقطها شخص آخر بأي حال، ومخططاتك بقدر ما تسعني الكلمات تُشبه مخططات «ريفويرا» في دقتها. وبالمناسبة، أودّ أن أطلب منك أن تأذن لي بالاحتفاظ بهذه الصور الرائعة؛ إذْ أعتبرها نفيسة جدًا درجة أعجز عن تصور حالي من دونها، وهي تؤسس حاليًا أغلب الأساس الركين الذي ستقوم عليه مستقبلًا «مدونة النقوش العربية» فيما يتعلّق ببلاد الرافدين[٩٩].

(ردّ «بيل» في رسالة كتبتها في أكتوبر 1911، باللغة الإنجليزية):
تستطيع بالطبع الاحتفاظ بالصور، كما سأرسل إليك صورًا أخرى تظهر فيها تفاصيل معمارية... لكن أرجو أن تضع في اعتبارك أن إرسالي صورًا إليك يسرني ويشرفني، ولا تتردد أبدًا في أن تطلب كل ما تريده مِنّي(١٠٠).



شكل (٤-٢١) «ماكس فان برشم» الباحث السويسري البارز المتخصص في الفن والأركيولوجيا الإسلاميين وعلم الكتابة العربية القديمة، والذي أقامت معه «بيل» صديقة وثيقة بسبب اهتماماتهما العلمية المشتركة. نرى في الصورة التي التقطت في القاهرة في العام 1913 «فان برشم» جالسًا، ويُعتقد أنّ الشخص الذي يقف على يمينه هو علي بهجت؛ وهو باحث مصري متخصص في الأركيولوجيا الإسلامية كان «فان برشم» يعمل معه بصورة منتظمة.

(رسالة «فان برشم» التالية إلى «بيل»، بتاريخ 28 أكتوبر 1911، باللغة الفرنسية): لا أستطيع أن أفي حقك من الشكر على رسالتك شديدة العذوبة، وعرضك السخي كي أحتفظ بالصور الفوتوغرافية التي أرسلتيها. وأعتقد؛ إجمالًا، أنّي مضطر لقبولها؛ لأنّه كما قال شاعر فرنسي يومًا: «رضى الله في تحقيق ما ترغبه المرأة»[١٠١].

كان «فان برشم» يعلم بوضوح كيف يُبحر بحكمة ولطف بين أصدقائه وزملائه، والواقع أنّ الصداقة الطويلة التي ربطت بينه وبين «سترزيجوفسكي» – صاحب العبقرية المُطلقة في صناعة الأعداء- تكشف كثير عن الخصائص الشخصية لهذا الباحث السويسري[١٠٢]. ذلك لأنّه كان يُجيد الحكم على الشخصيات، وبارع في التصالح مع اختلافات الآخرين، كما بيّنت رسالة يسعى فيها إلى التخفيف من ولاء «بيل» الرهيب لـ«سترزيجوفسكي» ولانتقادها الحاد لـ«هرتسفلد»:

لم أقرأ بعد حقًا مقال «هرتسفلد» عن كتاب «أميدا». ألقيت نظرة سريعة عليه، لكن هذه الجدالات التي لا تنتهي بين الألمان تُصيبني بالنفور جدًا، درجة جعلتنى لا أقوى على قراءة الكتاب بالتفصيل. لقد سبق أن أفصحت لك عن رأيي في «سترزيجوفسكي»، وأخشى أنّه يضع العراقيل أمامه ليس إلا بنهجه المتصلب. إذ ينبغي على من يرغب في تبنّي موقف متعجرف مع الناس، أن يتأكّد أولا من سلامة موقفه. مع ذلك، في تاريخ الفنّ Kunstgeschichte، لا يُمكنك قطّ أنّ تكوني على يقين تام من سلامة موقفك، ولسوء الحظّ رغم كل مزايا صديقنا المشرقة، إلا أنّه قطعًا لديه ضعف أمام النظريات المجنونة التي لا يُمكن إثبات صحتها علميًا. وأنا إن كنت أحمل إعجابًا لـ«هرتسفلد»، فمرد ذلك ليس نظرياته عن تاريخ الفنّ (إذ أفصحت له أنّها لا تسترعي الاهتمام كثيرًا)، بل بسبب براعته في جمع المادة العلمية؛

ربّما بشكل مفرط السرعة قليلًا- هذا حقيقي، لكنها رغم ذلك سرعة مصحوبة بفيض من التفاصيل! إذْ يُرسل لي شيئًا يسترعي الاهتمام كل أسبوع تقريبًا. وقد كتب لي منذ فترة طويلة أنّ المبنى الغامض في قلعة ديار بكر لم يكن ذا قيمة كبيرة، ويتملكني الفضول لمعرفة رأيه بهذا المبنى تحديدًا.

أمّا بالنسبة لنظرياتك فلا تزال تسترعي اهتمامي لأنّك بارعة لكن حذرة، وتُجيدين توثيق الأشياء![١٠٣].

لم يستمر التوتر بين «بيل» و«هرتسفلد» طويلا؛ ذلك أنّها أخذت تصورات «فان برشم» بجدية، أو ربّما تأثرت بسعة معرفة «هرتسفلد» التي لا تقبل الجدل. وأيما كان السبب، فقد بدا أنّ الاثنين توصلا في العام 1912 إلى اتفاق ودّي قائم على الاحترام، تُوّج بزيارة مثمرة وممتعة قامت بها «بيل» إلى برلين كي ترى «هرتسفلد» شخصيًّا، وتناقش معه اهتماماتهما المشتركة. فتأملا سويًّا صورهما ومخططاتهما لسامراء والأخيضر، بل لقد حظيت «بيل» بلقاء بعض أفراد أسرة «هرتسفلد»، ممَن اعتبرتهم «بيل»: «أشخاصًا لطفاء»[١٠٤]. وفي ضوء هذه العلاقات الوديّة الجديدة، لن نندهش حين نرى تأثير «هرتسفلد» على ما كتبته «بيل» عن موقع الأخيضر في العام 1914. وقد نجحت «بيل» في وقت لاحق أثناء الاضطرابات الناجمة عن الحرب في العام 1915، أن تنقل رسالة إلى «هرتسفلد» من خلال «فان برشم»، تطمئن فيها على صحته وصحة أصدقائها الآخرين مثل «كولدفاي» و«فالتر أندري»، وتذكّره بأنّ: «الصداقة أقوى من الحرب»[١٠٥].

لم تضع الحرب العالمية الأولى وتبعاتها نهاية لعلاقة «بيل» بـــ«إرنست هرتسفلد» وموقع سامراء، رغم أنّ الظروف ألقت بظلالها لا ريب على هذه العلاقات. فالآن إلى جانب معرفتها الأركيولوجية ببلاد الرافدين، أصبحت «بيل» أيضًا ضابطًا بريطانيًا استعماريًّا في تلك البلاد، وكان جزء من المسئولية المرتبطة بهذه الصفة الجديدة هو إدارة البلاد

وممتلكاتها الثقافية. وقد برزت مسألة سامراء في العام 1917، بعد عثور القوة الاستطلاعية البريطانية في بلاد الرافدين في ذلك الموقع على كثير من صناديق الآثار، التي تركها فريق «هرتسفلد» الأركيولوجي الألماني من قبل اندلاع الحرب(١٠٦). وكان ثمّة جدل كبير بين «مكتب الحرب» و«مكتب الهند» في لندن، بشأن من يحق له في النهاية أن يستحوذ على تلك الآثار والجهة التي ينبغي أن تذهب إليها(١٠٧). وهل تُعدّ آثار سامراء من غنائم الحرب ضد ألمانيا، ومن ثمّ تسافر إلى بريطانيا لتملأ متاحفها القومية؟ أو ينبغي؛ بخاصة في ضوء مشاعر ما بعد الحرب المتعلقة ببناء الدولة وحقّ كل أمّة في امتلاك ثقافتها وهويتها، أن تبقى الآثار في مكانها الطبيعي على أن تُوضع بأحد متاحف العراق في المستقبل؟ لقد فحصت «بيل» الآثار بنفسها داخل مكتبها في بغداد، وأوصت وهي ترتدي قبعة الابنة المُخلصة للإمبراطورية البريطانية، وربّما بتأثير مما تعرفه عن سامراء وقيمتها في فهم الفن الإسلامي المبكّر، بشحن صناديق آثار سامراء التي كانت تحتوي على نماذج من الجص والفريسكو والزجاج والفخار، إلى بريطانيا حيث قد تدعم المجموعة الإسلامية في «متحف فيكتوريا وألبرت»(١٠٨). أثار هذا الاقتراح الكثير من الخلاف؛ إذ كانت هناك معارضة شديدة لنقل الآثار من بلادها الأمّ، لكن في نهاية المطاف انتهى أمر أغلب الصناديق بالوقوع في يدّ السلطات البريطانية في لندن(١٠٩). وتقرر في العام 1921– بمشورة «توماس إدوارد لورنس»، و«إرنست هرتسفلد» بشكل يسترعي الانتباه– أن يجري تقسيم الآثار على المتاحف في أوروبا وأمريكا الشمالية والشرق الأوسط، على أن يحصل المتحف البريطاني ومتحف برلين على أفضل القطع الأثرية(١١٠). وكان جزء من الاتفاق هو ضرورة إعادة مجموعة ممثلة مُختارة من الآثار إلى الحكومة العراقية مجّانًا، ما أن تُصبح مستعدة لتلقيها(١١١). لكن للأسف لم تعد بعض آثار سامراء إلى بلدها الأم إلا بحلول العام 1936، ووقتئذ كانت الحصة قد: «تلفت ولم تعد تمثّل المجموعة بالكامل»(١١٢).

وبالنظر إلى ما آلت إليه الأمور، يصعب ألا ننتقد «بيل» ودورها في قضية سامراء هذه؛ ذلك أنّها في الوقت الذي أصبحت فيه بطلة العراق الجديد وراعية غيورة على ممتلكاته الأثرية؛ بخاصة كمديرة لدار الآثار العراقية، كان ثمّة أوقات أخرى كهذا الوقت، بدت فيه تصرفاتها تتناقض مع مثلها العُليا. وسوف أتعرّض لهذا التناقض الاستثنائي في سلوك «بيل» مرّة أخرى بمزيد من التفصيل بالفصل الأخير من هذا الكتاب.

أمّا بالنسبة لـــ«إرنست هرتسفلد»، فلم يقم بأي أعمال حفر في سامراء مرّة أخرى حتّى العام 1930؛ إذ انصب اهتمامه الرئيس بعد الحرب على بلاد فارس، فوجّه أغلب طاقته إلى أركيولوجيا المواقع المهمة في تلك البلاد مثل «باسارجاد» و«برسبوليس»[١١٣]. ومع ذلك في العام 1923، زار «هرتسفلد» العراق في طريقه إلى إيران وحظي بترحيب دافئ من «بيل»، التي كانت قد صارت الآن مديرة لدار الآثار في العراق[١١٤]. وتصف «بيل» رحلة قامت بها بصحبة «هرتسفلد» على متن سيارة إلى مدينة «الحلة» و«بابل» و«كيش»، وكانت الأخيرة هي موقع أحدث أعمال الحفر. وتصف «بيل» في رسائل إلى والديها «هرتسفلد» بأنّه: «صديق أركيولوجي»، وتذكر حقيقة أنّها أحبّت أن تكون: «بصحبة ألماني مثقف مرة أخرى»[١١٥]. ويبدو أنّ خلافاتها القديمة مع «هرتسفلد» قد ابتلعها النسيان منذ أمد بعيد.

نعود مرّة أخرى إلى العام 1909، وإلى زيارة «بيل» إلى سامراء التي امتدت أربعة أيام. لكم يصعب التنبؤ بالأهمية التي سيحظى بها المكان في حياتها وإنجازاتها؛ ذلك أنّ سامراء فتحت عالمًا جديدًا أمام «بيل»، وأضافت لها قدرًا كبيرًا من المعرفة حول العصر الإسلامي المبكر، وصقلت اهتمامها بفن وعمارة وتاريخ تلك الفترة. وأسهمت في تقديرها لتاريخ بناء الأخيضر والسياق المعماري. لكن الأهم هو أنّ سامراء دفعت «بيل» إلى عالم البحث العلمي الأوروبي الأوسع، وسهّلت اتصالها بباحثين مهمين آخرين انخرطوا

في دراسة الفن والأركيولوجيا الإسلاميين التي لا تزال وليدة. ومن خلال علاقاتها مع باحثين من أمثال «فان برشم» و«فيوليت» و«هرتسفلد»؛ وتبادل البيانات الثمينة معهم، اكتسبت «بيل» مكانتها بين هذه الجماعة المثقفة والارتقاء بحقل دراسة العصور القديمة المتأخرة في بلاد الرافدين. وسوف تظل الخبرة التي اكتسبتها «بيل» من الوقوف على سامراء وآثارها، عاملًا أساسيًا في حياتها السياسية اللاحقة يلقي بظلاله على تصرفاتها، سواء كموظفة بريطانية أو كمسؤولة عن آثار العراق.

آشـــور

بعد سامراء، تبين أن مقصد «بيل» التالي في بلاد الرافدين سيُصبح المقصد الأسعد في رحلة العام 1909 بالكامل. كان هدفها هو تل أنقاض قلعة «شرقاط»؛ موضع مدينة آشور القديمة، الذي كانت تعلم أنّ فريقًا آخر من الأركيولوجيين الألمان عمل بكل قوته من أجل الكشف عن مبانيه الأثرية. تقع المدينة بالضفة الغربية لنهر دجلة فوق نتوء صخري يرتفع حوالي أربعين مترًا فوق السهل الفيضي. لذا ربّما كانت آشور من موقعها الإستراتيجي المُطل على نهر دجلة، تتحكم في حركة القوارب التجارية المبحرة بالاتجاهين. كما أنّها تقع على طريق حيوي يربط بين موارد مرتفعات إيران في الشرق، وبين أسواق الفرات وساحل المتوسط في الغرب[١١٦].

غمر «بيل» إعجاب شديد بمظهر المدينة المدهش عند اقترابها من آشور؛ لاسيما البقايا الشاهقة العالية من معبدها المدرج القديم أو من برج معبدها:

> تستولي على عينيك أثناء السير فوق سلسلة التلال القاحلة التي تُحاذي نهر دجلة جنوب قلعة شرقاط، كومة هائلة بلا شكل تنتصب فوق أرض مرتفعة على حافّة النهر. إنّها الهرم؛ أو الزقورة إذا أردنا تسميتها بشكل صحيح، التي تميّز معبد آشور؛ إله بلاد آشور

الحارس. قليلة هي الآلهة التي حظيت بمقام أفضل؛ فمن قمة الزقورة يستطيع الإله أن يتفحّص مهد العرق الذي كان يحميه، في حين يغسل دجلة سفح معبده العالي، وترتفع بعيدًا جهة الشمال الجبال الكردية المغطاة بالثلوج التي تتدفق منها مياه النهر، وهي الجبال التي كانت في الماضي حاجزًا طبيعيًا عجز عن التصدي لبسالة الجيوش الآشورية، وعلى الجانب الآخر من النهر تمتد السهول في تموجات طويلة حتى مدينة أربيل التي تقع خلف تلال خفيضة. الحقّ أنّه من الصعب أن نغالي بشأن جمال الموقع الآسر[١١٧].

انتقلت «بيل» فور وصولها إلى الموقع، إلى مقر البعثة بالقرب من حافة النهر، حيث حظيت باستقبال دافئ أعده لها أربعة ألمان يعملون بالتنقيب[١١٨]. وقد نالت هذه المجموعة من الأركيولوجيين إعجاب «بيل» على الفور، فوصفتهم بأنّهم: «شديدو الحماس كأنّهم خردل»، لكنها انجذبت بشكل خاص لمدير البعثة «الضخم الخجول الصموت»، وهو الدكتور «أندري» الذي اصطحبها في جولة على أعمال التنقيب، وكان بالغ الصراحة فيما يتعلّق بما توصل إليه من نتائج واستنتاجات (انظر شكل ٤-٢٢)[١١٩].

لم يكن إكبار «بيل» لــ«أندري» مستغربًا؛ إذ كان «فالتر أندري» رجلًا ذا قدرات استثنائية ينظر إليه كل من عرفوه وعملوا معه تقريبًا بإعجاب واحترام[١٢٠]، وكان قد أصبح أثناء زيارة «بيل» في العام 1909 عالم آثار من الطراز الأول. تمرن «أندري» في ألمانيا كمهندس معماري، وخاض تجربته الأولى في مجال الأركيولوجيا مع «روبرت كولدفاي»، خلال السنوات الأولى من أعمال التنقيب في بابل بين العامين 1899 و1903. وسرعان ما أتقن «أندري» بتوجيهات «كولدفاي» الخبيرة، المهارات الحيوية في الكشف عن مبان الطوب اللبن وتعيين حدودها، وفي نقل تلك الآثار إلى مخططات معمارية شديدة التفصيل والدقة. مع ذلك، لم يكن «أندري» منقّبًا

ورسّامًا رائعًا فحسب، بل كان فنانًا موهوبًا استمتع بالتقاط خصائص الضوء والظل واللون والنسيج بمناظر بلاد الرافدين الطبيعية وآثارها القديمة في لوحات مدهشة بالألوان المائية والباستيل(١٢١). كما سعى؛ من خلال أعماله الفنية، إلى إعادة بناء المنشآت القديمة أو مناظر المدينة كما كانت تبدو في أوجها إبان العصور القديمة. رغم ذلك لم يصنف «أندري» إنتاجه الفني قط أكثر من كونه «هواية» أو تزجية صحية للوقت، أمّا بالنسبة لنا اليوم، فإنّ لوحاته ورسوماته التخطيطية تقدّم سجلا ثمينًا لأنقاض المواقع الأثرية والريف المحيط بها وأساليب معيشة سكّانها(١٢٢). فبعد مرور ما يزيد على المائة عام اختفى الآن أغلب هذا المُحيط بجنوب بلاد الرافدين. إضافة إلى ذلك، أعادت لوحات «أندري» للحياة عظمة ومهابة المدن القديمة ومبانيها الضخمة، وهي المدن التي تتبدى اليوم في أغلب الأحيان على هيئة تلال عادية بلا شكل مُحدد من التراب والأنقاض(١٢٣). والواقع أنّ اللوحات التي رسمها «أندري» لآشور ومكوناتها المعمارية الكثيرة في ريعانها خلال العصرين الآشوري الأوسط والحديث كثيرة على نحو خاص وجديرة بالاهتمام، وتبث الحياة في أغلب تقاريره المنشورة (انظر شكل ٤-٢٣)(١٢٤).

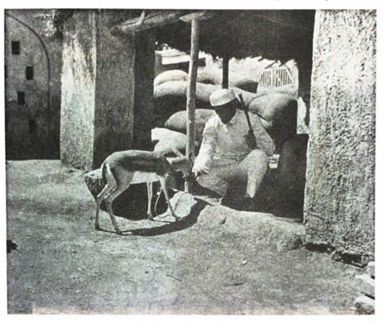
كان«كولدفاي» مطمئنًا لقدرات ربيبه «أندري»، فأوكل إليه مهمة إدارة أعمال التنقيب في آشور، التي تولاها لصالح الجمعية الألمانية لدراسات الشرق الأدنى في العام 1903(١٢٥). وقد شرع «أندري» بمجرد تولي المنصب في الكشف عن تاريخ المدينة القديمة الثري، وهي مهمة أخذها على عاتقه كل عام تقريبًا حتّى العام 1914 من دون أن يرجع إلى ألمانيا خلال تلك المُدّة إلا مرتين اثنتين(١٢٦). وكما تبيّن، كان الموقع استثنائيًا بسبب تاريخه البعيد واستمراره مأهولًا بالسكان حوالي ألفي عام تقريبًا. كانت أقدم الآثار التي جرى التعرّف عليها بالموقع يعود تاريخها إلى منتصف الألفية الثالثة قبل الميلاد، حين كانت للمستوطنة علاقات كما يبدو بمدن سومر في جنوب بلاد الرافدين. لكنها بلغت ذروة قوتها وثروتها إبان الجزء الأخير من الألفية

الثانية قبل الميلاد، التي يُشار إليها في الغالب باسم العصر الآشوري الأوسط. إذْ تمّ استكمال مشاريع البناء داخل آشور؛ على نطاق ضخم في الغالب، بالتوازي مع رغبة حكامها في تسليط الضوء على روعة إنجازاتهم ومكانتهم الكوزموبوليتانية وتفانيهم الراسخ في خدمة إلههم الراعي آشور. وبعد فاصل قصير من الضعف والتشظي السياسيين خلال القرن العاشر قبل الميلاد، برزت المملكة الآشورية على الساحة مرّة أخرى وتحوّلت إلى إمبراطورية قوية بالشرق الأدنى (883– 612 ق.م.). لكن رغم فقدان آشور لمكانتها كعاصمة إدراية لهذه المملكة الآشورية الجديدة؛ إذْ حل محلها مدن إمبراطورية أخرى في الشمال، فإنها ظلّت مركزًا شعائريًا ودينيًا مهمًا للإله آشور حتّى زوالها في العام 614 قبل الميلاد، حين تعرّضت للنهب والتدمير على يدّ قوات الميديين الغازية. وختامًا، ازدهرت آشور في الفترة من القرن الأول قبل الميلاد إلى حوالي العام 230؛ حيثُ أصبحت خلال الفترة الأخيرة مقرًا لمسؤولي الإدارة الفرثيين المحليين، وتميّزت ببناء مساكن خاصة ومعبد وقصر ملكي للوالي (المرزبان) الفرثي(١٢٧). لكن بعد انهيار المدينة الفرثية في القرن الثالث الميلادي لم يُسكن الموقع قطّ(١٢٨).

تضمّنت العمارة التي استخرجها «أندري» وفريقه من هذا الموقع المدهش، عددًا ضخمًا من المباني والمباني المُعاد بناؤها والترميمات والإضافات، أدّى إلى وجود عدة مستويات من الحجارة والطوب يزداد ارتفاعها فوق الهضبة العالية بالأساس التي تأسست عليها المستوطنة أول الأمر. وكان الفريق يعثر في أغلب الأحيان إلى جانب كل تلك المباني على ألواح طينية محفورة ومواد منقوشة أخرى، قدّمت مفاتيح يُمكن من خلالها التعرف على الفترة والأحداث التي وقعت داخل المدينة.

انتقل كل تاريخ آشور الثري والطويل إلى «بيل» من خلال «أندري»، الذي كانت معرفته عن الموقع وبقاياه المعمارية التي لا تُحصى وقطعه الأثرية ونصوصه لا نظير لها، والذي كان التزامه فريدًا بتسليط الضوء على سائر جوانب هذه المدينة؛ بصرف النظر عن تواضع هذا الجانب أو ضآلة

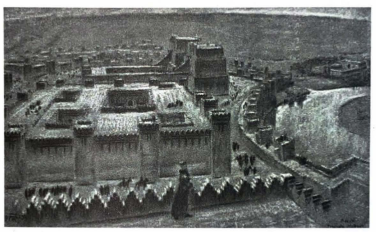
شأنه ظاهريًا. كانت «بيل» واعية بشكل واضح لتفاني «أندري» في الموقع ومنهجه المفصّل؛ إذْ تكتب: «لا مكان للتخمين أو التكاسل هُنا، بل الملاحظة الدقيقة التي لا يُفلت منها شيء، والاحترام الحقيقي للصروح والفن القديمين اللذين لا يفي حقّها أي جهد»(١٢٩).



شكل (٤-٢٢) صورة التقطتها «بيل» لمدير التنقيب في آشور؛ «فالتر أندري»، يُطعم غزالة. كانت «بيل» تحمل ولعًا بهذا الرجل: «الضخم الخجول الصموت»، كما كانت تحترم جدًا مناهجه وإنجازاته الأركيولوجية في آشور.

كان العمل الأركيولوجي في آشور جديرًا بالثناء، وينظر أغلب الباحثين اليوم إلى إنجازات «أندري» في هذا الموقع - إلى جانب إنجازاته في بابل- باعتبارها تشكّل أساسًا للاستكشاف الأركيولوجي العلمي الحديث لبلاد الرافدين. وكما فعل أثناء عمله مع «كولدفاي» في بابل، فإنّ تركيز

«أندري» للحصول على سجل معماري سليم كان حيويًا، وقد سعى إلى أن يسجل بالتفصيل وبدقة كل المباني القديمة المُكتشفة، وصولاً إلى تسجيل كل طوبة وحجر فيها. ويتضح قدر هذا الإنجاز في التخطيط المعماري حين نأخذ في اعتبارنا الاتساع الهائل للمناطق التي كانت متوفرة للتنقيب – التي يجري حفرها بمساعدة فرق تضم مئات من العمال المحليين– والعدد الناجم من المنشآت داخل مدينة آشور التي كان يجري التنقيب عنها بالفعل بالفترة بين العامين 1903 و1914.



شكل (٤-٢٣) رسم لـ«أندري» بالفحم والطباشير لمشهد من مدينة آشور القديمة، من أعلى زقورة آشور وحتّى القصر القديم ومعبد «آنو-أدد» من خلفه ذي الزقورتين التوأمين. نرى خارج أسوار المدينة على يمين اللوحة «دار الأعياد» تنتصب داخل حديقة مزروعة ومروية خصيصًا. كانت هذه الدار تُسمّى «بيت أكيتو»؛ وهي مبنى مقدّس كانت تؤدّى داخله الشعائر الدينية التي تحتفي بتجديد حكم الملك ورعاية الإله آشور، خلال الاحتفال السنوي بالسنة الجديدة.

حاول «أندري» أيضًا بمحاولة جماعية لفهم المراحل الزمنية المختلفة في تاريخ آشور الطويل، من خلال أعمال تنقيب منهجية بناءً على طبقات الصخور. وقد جرى تنفيذ هذا التتبع في منطقة معبد عشتار شمال غرب المدينة، حيثُ يُمكن العثور على متوالية متصلة من مباني العبادة التي تنتمي

للفترة من منتصف الألفية الثالثة إلى منتصف الألفية الأولى قبل الميلاد- وهي فترة تصل إلى حوالي ألفي عام[١٣٠]. وفي النهاية، من خلال سيرورة كان يجري فيها تحديد عمارة كل مرحلة من مراحل المعبد، وتسجيلها ومن ثمّ هدمها جزئيًا من أجل الوصول إلى المرحلة التالية في الأسفل، كشف «أندري» وفريقه من المنقبين عمّا لا يقل عن ثمان مراحل أساسية بمعبد عشتار (المراحل من A إلى H). كل مرحلة كانت تمثّل إمّا منشآت جديدة تمامًا بالمعبد أو مبانٍ قائمة بالفعل خضعت للتجديد وإعادة الزخرفة. وقد كانت هذه المحاولة لتأريخ الحياة المتشابكة لهذا المجمع المقدس، ممارسة أركيولوجية في أفضل حالاتها بأوائل القرن العشرين، وتشهد التقارير المنشورة الناتجة التي تقع في عدة مجلدات على الحرص والشمول اللذين لازما تنفيذ هذا المشروع[١٣١].

كانت أعمال التنقيب التي شهدتها «بيل» في آشور في العام 1909 تجري على قدم وساق، وتعكس يومياتها عزمها على فهم وتسجيل كل ما كان «أندري» وزملاؤه يعرضونه عليها أثناء اصطحابهم لها بالموقع. ولابد أنّها كانت زائرة شديدة الحماس والتوق للمعرفة ولا تكلّ من الأسئلة. إذْ يكتب «أندري» في مذكراته التي أصدرها في وقت لاحق من حياته: «أرادت أن تعرف كل شيء تمامًا وتسللت معي بلا كلل داخل كل حفرة وركن في أعمال التنقيب»[١٣٢]. وتكتب «بيل» نفسها عن الأيام التي أمضتها في آشور:

أمضيتُ اليوم ونصف اليوم الأولين في استعراض كل بوصة من أعمال التنقيب التي يقوم بها الدكتور «أندري». كنتُ هناك طوال الوقت، وخلال الفترة التي لا نتفحّص فيها الأنقاض في الواقع كُنّا نقلّب في الصور الفوتوغرافية والمخططات غير المنشورة، وعلى العشاء مساءً كنت أنا والدكتور «أندري» والسيد «يوردان» نتناقش بلهفة حول ما توصلوا إليه من نتائج[١٣٣].

ومن بين الآثار التي زارتها «بيل» في آشور كانت الزقورة الكبرى- وهي برج ضخم يحمل فوقه معبدًا- التي تقع بالقرب من الحافة الشمالية للمدينة، وتشغل مساحة هائلة على هيئة بناء مدرج وصل إلينا سليمًا حتى ارتفاع ثلاثين مترًا[١٣٤]. كما زارت المعبد المزدوج وزقورتي «آنو» و«أدد»؛ وهما إلهين من آلهة بلاد الرافدين للسماء والعاصفة. وتروي «بيل» أنّها رأت عددًا من الخنادق التجريبية التي حفرها «أندري» عبر مساحات واسعة بالموقع؛ في مسعى للكشف عن كل ما يتعلق بمستوطنة آشور، وليست العمارة الضخمة فحسب التي كانت مخصصة للنخبة الملكية والأنشطة الدينية. وكانت الخنادق تصل في بعض الأحيان لأعماق بعيدة، لتكشف سائر المنازل والشوارع الأثرية التي أطلّ جزء منها[١٣٥]. وتكتب «بيل» مستحضرة أثر إمعان النظر في أحد هذه الخنادق:

> **البيوت في حالة مثالية بشكل غير عادي؛ وتُحيط الجدران التي يصل ارتفاعها لبضعة أقدام في كثير من الأحيان بأفنية صغيرة مغطّاة بالحصى، فيما تمرّ بينها الشوارع الضيقة المغطّاة بالحصى أيضًا. إنّ هذه الطرقات القديمة البالية التي تُطل علينا من أسفل الجانبين المنحدرين لأحد الخنادق قبل أن تعاود الاختفاء في قلب الأرض، تُصيب المشاهد بإحساس من يرى تاريخًا مجسّدًا، كأنّ آلاف السنوات التي تفصل بينه وبين الحياة دائبة الحركة في العالم القديم قد تبخّرت[١٣٦].**

وأخيرًا، زارت «بيل» آثار آشور الفرثية التي عُثر عليها في أجزاء كثيرة بالموقع، والتي أمضى الألمان وقتًا طويلًا في رسم مخططات لها وفهمها[١٣٧]. وتصف «بيل» الآثار الفرثية بحماس كبير في يومياتها وفي رسالة إلى والديها، كما التقطت كثيرا من الصور الفوتوغرافية التي تكشف تفاصيل مُختلفة تتعلق بالعصر الفرثي، مثل الأعمدة والتيجان وصفوف

العواميد والزخارف المنحوتة[١٣٨]. وبحسب ما أشارت إليه «بيل»، فإنّ أغلب المباني التي تنتمي للعصرين الساساني والإسلامي المبكر التي استحوذت على تفكيرها؛ بخاصة الأخيضر، استمدت إلهامها من الأشكال الفرثية الأولى. وسيتضح اهتمام «بيل» بمثل هذه التطورات في كتابها عن قصر الأخيضر الصادر في العام 1914، الذي تتبعت خلاله أغلب معالم الأخيضر؛ لا سيما الإيوان مفتوح الجوانب، وصولاً للعصر الفرثي[١٣٩].

التقطت «بيل» عددًا هائلاً من الصور الفوتوغرافية لآشور تسجل العديد من المناحي المتعلقة بالموقع وأهله. إذْ تمكّنت «بيل» من تقييم آشور من منظور أوسع؛ علاوة على ميلها لتسجيل التفاصيل الفنية والمعمارية الخاصة بالبقايا الأثرية، الذي عكسته في أغلب الأحيان الصور الفوتوغرافية الأخرى التي التقطتها أثناء رحلتها في بلاد الرافدين. ويجد هذا التقييم تعبيرًا عنه في صورها البانورامية التي يسلط العديد منها الضوء على البيئة المدهشة للمدينة بموقعها المرتفع فوق نهر دجلة[١٤٠]. كما تشدد هذه الصور البانورامية على الاكتشافات الواسعة بدرجة مذهلة التي توصلت إليها أعمال التنقيب، التي تُظهر أساسات وبقايا جدران مجمعات معمارية كاملة مثل ما يُطلق عليه اسم «دار الأعياد» خارج أسوار المدينة[١٤١]، أو تحصينات المدينة الضخمة عند بوابة «تابيرا» الغربية[١٤٢]. وفي بعض الحالات سعت «بيل» إلى تصوير المستوى العمودي بأعمال التنقيب، كما هو الحال في صورتها التي تُظهر زقورة آشور من جهة الشرق، والتي التقطتها من أعلى الزقورة، إضافة إلى الأنقاض الهائلة من الطوب التي تنحدر حتّى السهل الفيضي لنهر دجلة في الأسفل (انظر شكل ٤-٢٤)[١٤٣]. وفي صورة أخرى التقطتها من مستوى السهل الفيضي، لا نرى التحصينات الشاهقة بالمدينة الأثرية فحسب، بل طبقات الركام الماثلة التي خلّفها المنقبون الألمان أثناء عمليات الحفر الواسعة[١٤٤].

إلى جانب مشاهد المنشآت المكتشفة شديدة الوضوح، تنبض الصور التي التقطتها «بيل» لأعمال التنقيب في آشور بالحياة؛ بسبب ظهور العمال المحليين المسئولين عن رفع الأتربة عن تلك المباني الأثرية. فنراهم يقفون في قلب عمليات الحفر أو يستريحون على أحد الجوانب، في حين يتلقون توجيهات أحد المشرفين الألمان (انظر شكل ٤-٢٥)[١٤٥]. هذا إلى جانب صور فوتوغرافية أخرى يظهر بها مقر البعثة في آشور، حيث يتلقى عمال أجورهم فوق طاولة وُضعت في منتصف الفناء[١٤٦]. ويلقي التباين بين علماء الآثار الألمان الذين يجلسون معتدلي القامة بحلاتهم الأنيقة- بيضاء تارة، وتبدو كحلة عسكرية تارة أخرى- وبين مجموعة العمال المتناثرين مختلفي الثياب، الضوء على العلاقة الملموسة غير المتكافئة بين الفريقين (انظر شكل ٤-٢٦). شدّ ما يُسترعي الانتباه أن اختارت «بيل» تسجيل هذه المشاهد بخاصة. فمن جانب، يُمكن القول أنها كانت تصنع ببساطة سجلًا للمشروع الأركيولوجي الذي أعجبها بشدة بكل ما فيه من تنظيم ومثابرة وكفاءة. ومن جانب أخرى، تعكس صورها موقفها الاستعماري المبطن وإيمانها بالتفوق الفكري للفريق الأجنبي من علماء الآثار، في مقابل العمّال المحليين المجهولين غير المتعلمين في آشور[١٤٧].

كانت «بيل» مفتونة بكل ما رأته تقريبًا في آشور، ولم تثمّن معرفة «أندري» العميقة بتاريخ الموقع وعمارته فحسب، بل شخصيته كذلك. ذلك أنها تأثرت بسلوكه الودود تجاهها وبسخائه. وحتى حين عادت إلى آشور في العام 1911، كان «أندري» لا يزال في نظرها المضيف والزميل المثالي:

> حظيت هذا العام؛ كما حظيت منذ عامين، بفائدة كبيرة من النقاشات الكثيرة التي خضتها مع «أندري». إنّ ما يعرفه عن مشكلات بلاد الرافدين هائل جدًا، وآراؤه برّاقة وشديدة العمق [...] لقد وضع كل شيء تحت تصرفي؛ صور فوتوغرافية ومخططات غير منشورة إضافة إلى آرائه التي لم ينشرها بعد. لا أظنّ أنّ ثمّة كثيرين بمثل هذا السخاء[١٤٨].

تعكس صور «بيل» تقديرًا إضافيًّا لـ«أندري»، الذي يظهر في العديد من لقطاتها داخل الموقع، بصحبة زملائه من علماء الآثار، وفي صورتين ساحرتين نراه منحنيًا كي يُطعم غزالة (انظر شكل ٤-٢٢)(١٤٩). وأخيرًا، نراها تبتسم مع زملائها الألمان أثناء تناول العشاء في مقر البعثة بآشور- بإحدى الصور النادرة التي تظهر فيها «بيل» آنذاك - مرتدية ثوبًا رائعًا وتميل قليلاً على «أندري» الذي يجلس إلى يسارها مباشرة (انظر شكل ٤-٢٧)(١٥٠).



شكل (٤-٢٤) صورة مركبة التقطتها «بيل» لآشور من جهة الشرق، نرى فيها الزقورة والمباني المكتشفة التي تمتد حتّى وادي النهر جنوبًا.

وعمومًا، يبدو أنّ «بيل» قد استمالتها قدرات «أندري» على بثّ الحياة في الماضي من خلال لوحاته الزاهية، التي عثرت من خلالها فيه على الروح الطيبة. ورغم أنّها لا تأتي على ذكر لوحاته أو أعماله الفنية، فإنها تتذكر قدرته على وصف الماضي بأسلوب زاه حاكى ولعها الخاص بتخيل الماضي بكل إشراقه وتألقه الثريين. ويتبدّى خيالها؛ الذي استلهمته من «أندري»، بأفضل صوره في هذه الفقرة من كتابها «من سلطان إلى سلطان»:

يقودني الدكتور «أندري» عبر المدينة، مستعرضًا أمامي تاريخها الطويل بمهارة لا حدود لها؛ الجدران والخنادق والنقوش المسمارية، فيمرق الماضي الباذخ من فوقنا. كان عشرات الآلاف من جنود الملك العظيم؛ بعد أن نقلهم من المنحوتات البارزة بالمتحف البريطاني، يزحفون عبر بوابات آشور، في حين ملأ الأسرى المكبلون الشوارع، وانحنى الأمراء المغلوبون أمام الملك الظافر، وكوّم الرعايا جزاهم في أفنيته [...] أمّا الضحايا من البشر فقد علت صرخاتهم جرّاء تعذيب رهيب؛ لقد احتدم مدّ المعركة داخل الأسوار، وبلغت دماء المذبحة عتبات القصور. هاهي العظمة والشقاء؛ الانتصار واليأس، تُطل برأسها من بين التراب.

جلست أنا ومضيفيّ ذات ليلة حارّة فوق سقف دارهم. وكان نهر دجلة الذي يشهد فيضانًا غير مسبوق يصنع دوامات بمحاذاة التل؛ وتتبدد مياه غاضبة. ارتفعت فوقنا زقورة الإله آشور التي شهدت على مدار أربعة آلاف عام ذوبان الثلوج الكردية وزمن الفيضان والحصاد الذي تلاه. عملاقة قبيحة غامضة لدرجة لا تُطاق، هيمنت علينا نحنُ أبناء ساعة من الزمن.

سألت، وقد أصابني مشهد قديم قِدم الحياة المدونة بلسعة وعي حادة بالمجهول: «علام كانوا ينظرون من قمتها؟».

فأجابني الدكتور «أندري»: «كانوا يراقبون القمر، كما نفعل الآن. ومن يدري؟ لعلهم كانوا يبحثون عن الله».

قليلة هي الأماكن التي غادرتها مكرهة كحالي حين رحلت عن قلعة شرقاط[١٥١].



عُمّالاً وعالم آثار ألماني في مقدمة الصورة (ربّما كان «كونراد بروسير»).



شكل (٤-٢٦) صورة التقطتها «بيل» في العام 1911 نرى فيها العمّال في آشور يتلقون أجورهم عبر طاولة وضعت في منتصف فناء مقر البعثة الألمانية للتنقيب عن الآثار. الجالسان هما عضوان بالفريق الألماني؛ «بول ماريش» (بواجه الكاميرا) وربّما «كونراد بروسير».

تضم كُتب «بيل» التي صدرت فيما بعد عن الأخيضر إحالات كثيرة إلى النتائج التي تمّ التوصل إليها في آشور والحضر؛ وهو موقع آخر أشرف «أندري» على أعمال التنقيب به (انظر الفصل الخامس). كذلك تستشهد «بيل» بتوسع بآراء «أندري» المتعلقة بالتطورات المعمارية الرئيسة في الشرق الأدنى عبر الزمن، مما يعكس مرّة أخرى إعجابها بقدرات الرجل

الفكرية. لكن الشيء الأهم والكاشف أكثر مما سواه هو أنّه من بين كل من كانوا في حياة «بيل» ممَن كانت تستطيع أن تهديهم كتابها عن الأخيضر؛ تقريرها الأركيولوجي العلمي الأنضج، اختارت «أندري»:

إلى صديقي الدكتور «فالتر أندري». لذكرى ملؤها الامتنان لأيام سعيدة ومفيدة أمضيناها في العاصمة الأولى للإمبراطورية الآشورية التي اكتشفها عمّاله وأعادها علمه إلى الحياة(١٥٢).

وكما سبق أن استعرضنا في سياق عمل «كولدفاي» في بابل، فإنّ التشريعات التي وضعتها «بيل» بشأن الآثار خلال قيامها بدورها اللاحق كمديرة جديدة لدار الآثار العراقية، والتي دعت فيها لمزيد من الإجراءات العلمية في المجال، تكاد تكون انعكاسًا لما شهدته في كل من بابل وآشور. وفي ذات الوقت، خضعت علاقة «بيل» الودية مع «أندري» للاختبار أثناء السنوات التي أعقبت الحرب. ففي أوائل العام 1920، اتّخذت «بيل» موقفًا مُعارضًا من «بيل» فيما يتعلّق بــ«مجموعة لشبونة» الإشكالية؛ وكانت تضم 448 صندوقًا من آثار آشور وقعت في أيدي السلطات في لشبونة عند اندلاع الحرب، وصارت الآن من غنائم الحرب. ورغم مناشدات «أندري» لتسليمها بشكل آمن إلى برلين، زعمت «بيل» أنّ الآثار من حقّ «دولة بلاد الرافدين المستقبلية» ومتحفها الجديد في بغداد(١٥٣). ولحسن حظّ الألمان، انتهى أمر أغلب هذه المجموعة بالوصول إلى أيديهم. وإضافة إلى ذلك كما سبق أن ناقشنا، حصلت أغلب آثار بابل التي تركها الألمان في العراق خلال الحرب على الإذن هي الأخرى بالسفر إلى ألمانيا خلال نفس التوقيت تقريبًا، وهذا التصرف الأخير يعكس بوضوح موقف «بيل» بالغ النعومة تجاه أصدقائها القدامى من الأركيولوجيين الألمان وآثارهم النفيسة(١٥٤).



شكل (٤-٢٧) عشاء في مقر البعثة الألمانية عشية رحيل «بيل» عن آشور في السادس من أبريل العام 1911. الجالسون من اليسار إلى اليمين: «فالتر باخمان» و«بول ماريش» و«جيرترود بيل» و«كونراد بروسير». أمّا «يوليوس يوردان» عضو الفريق الألماني الآخر، فغائب من المجموعة وربّما يكون من التقط الصورة.

وقد كشف «أندري»؛ إذْ يتذكّر في أواخر حياته علاقته بـــ«بيل»، عن تقديره لاهتمامها المتقد بعلم الآثار وجدارتها كباحثة، لكنه لم ينس قطّ الدور المحوري الذي لعبته في الشؤون السياسية لبلاد الرافدين[١٥٥]. وعبّر عن شكّه أنّها كانت في «مهمة دبلوماسية» (بمعنى أنّها كانت جاسوسة على سبيل المثال) حتى أثناء زياراتها الأولى إلى بلاد الرافدين[١٥٦].

لكن حين نعود مرّة أخرى إلى كتابات «بيل» بالفترة من 1909 إلى 1911، نجد أنّه من المستحيل أن نعثر على أي دوافع بخلاف شغفها الشديد بالسفر وعلم الآثار، ويتضح هذا على نحو خاص خلال زياراتها إلى آشور. وتذكرنا كلماتها التي تمتلئ بأسماء التفضيل، بالتأثير الذي تركه هذا الموقع ومكتشفوه عليها:

أمضيتُ في آشور أسعد أيام رحلتي [...] بلى، كانت أيامًا مدهشة. وقد تملّكني أسف شديد جدًا جدًا عند رحيلي وحاولوا الضغط عليّ كي أبقى، لكنّي فكرت أنّي إن بقيت يومًا آخر، فلن أرحل أبدًا على الإطلاق(١٥٧).

كانت قلعة شرقاط في أبهى صورها، وقد غطّاها العشب والزهور. أحبّها أكثر من أي مكان أثري آخر في العالم، لكن مردّ ذلك بشكل رئيس هو الامتنان والألفة اللذان أشعر بهما تجاه مضيفيّ هناك(١٥٨).

نمرود

سلكت «بيل» الطريق المُحاذي لنهر دجلة باتجاه الشمال، ودنت من موقع أثري آخر يضم بقايا مُذهلة تنتمي للفترة نفسها مثل آشور. رغم ذلك، ترك هذا المكان انطباعًا شديد الاختلاف في «بيل»؛ بسبب ما تعرّض له من تجاهل. كان الموقع هو مدينة «نمرود» التي تقع تلالها الأثرية الكثيرة مكان مدينة «كالح»، التي اشتهرت في الكتاب المُقدس وبالكثير من المصادر القديمة بأنّها واحدة من كبريات عواصم الإمبراطورية الآشورية الحديثة. أسس المدينة التي تقع عند التقاء نهري دجلة والزاب الكبير الملك «آشور ناصربال الثاني» في العام 878 قبل الميلاد، الذي شيد أثناء فترة حكمه قصرًا باذخًا ومعابد وزقورة فوق التلّ الكبير المحاذي للنهر. وأضاف ملوك لاحقون إلى المدينة مزيدًا من القصور والمعابد وترسانة ضخمة؛ وهي المكان الذي يُخزن فيه الملك المعدات العسكرية والغنائم. ورغم انهيار جدران تلك الصروح المبنية بالطوب اللبن، فإن باحثين عثروا على ما كانت تضمه من مواد- تضم عددًا هائلا من الألواح الطينية المنقوشة وتماثيل حجرية ولوحات جدارية منحوتة رائعة- سليمًا في أغلب الأحيان، وهي تعكس بشكل جيد الازدهار الذي كانت تنعم به آشور، والنفوذ الإمبراطوري الهائل الذي كان يمارسه ملوكها القدامى(١٥٩).

كان لدى «بيل» خلفية عن مدينة «نمرود»؛ بسبب أعمال التنقيب ذائعة الصيت التي أجراها هُناك عالم الآثار الإنجليزي المُغامر «أوستن هنري لايارد» Austen Henry Layard خلال القرن الماضي(١٦٠). وقد كشفت أعمال الحفر التي قام بها «لايارد» في تل مدينة «نمرود» العالي عن كنوز قصر «آشور ناصربال» (المعروف الآن باسم القصر الشمالي الغربي)، كما أشرف على شحن أغلب منحوتاته الجميلة إلى لندن، حيث تبوأت مكانها داخل صالات عرض المتحف البريطاني، وسط ضجة كبيرة(١٦١). وقد واصل «لايارد» التنقيب أيضًا في موقع «نينوى» الآشوري؛ الذي يقع بالجهة المقابلة لمدينة الموصل شمالًا، وعثر هناك على العديد من القصور والألواح والمنحوتات النفيسة. واليوم، تُشكّل القطع الفنية الآشورية في المتحف البريطاني، التي أسفرت عنها بنسبة كبيرة أعمال الحفر الاستثنائية التي قام بها «لايارد» ومن جاءوا بعده في بلاد الرافدين في منتصف القرن التاسع عشر، إحدى المجموعات الأساسية بتلك المؤسسة(١٦٢).

لكن على خلاف المكانة الموقرة التي حظيت بها آثار «نمرود» داخل المتحف البريطاني، اكتشفت «بيل» أنّ الآثار القديمة في الموقع نفسه تعرّضت لإهمال كبير. إذْ كانت الحفر والثقوب الناجمة عن أعمال التنقيب القديمة التي قام بها «لايارد»: «تمتلئ لآخرها بالعشب والزهور»، وكان من المستحيل عمليًا تتبع مسارات المباني الآشورية القديمة الموجودة هُنا(١٦٣). كذلك أحزن «بيل» اكتشاف أنّ العديد من المنحوتات الحجرية المكتشفة؛ التي لم يجر نقلها في السابق، ترقد شبه مكشوفة فوق الأرض عُرضة للتخريب وعوامل التعرية. كان المتحف البريطاني لا يزال يملك التصريح بإجراء أعمال التنقيب في الموقع، لكنه لم يتّخذ خطوات للحفاظ ولحماية هذه الآثار التي تبقت فوق الأرض. وتُشير «بيل» بشكل خاص إلى تمثال ضخم لإله آشوري، كان نصفه العلوي مكشوفًا فوق الأرض وتعرّض أنفه وأذناه للكثير من التشويه(١٦٤). كذلك التقطت «بيل» صورًا لأسدين مُجنحين برأسين

بشريين منحوتين على الحجر (لاموسو Lamassu) يميلان على المدخل القديم الذي كانا يحرسانه فيما مضى (انظر شكل ٤-٢٨)[١٦٥].

كان الإهمال الذي تتعرض له مدينة «نمرود» شديد الوضوح بالنسبة لـ«بيل»؛ خاصة بعد زيارتها لخنادق التنقيب المتقنة التي حفرها الألمان في آشور، وبعد أن شهدت الحرص الذي كانت تُستخرج به الآثار وتوثق وتُنقل. وجاءت استجابة «بيل» في هيئة نشر ما رأته، وإجراء مقارنة دقيقة بين أعمال التنقيب المسئولة التي أجراها الألمان في آشور، وبين الموقف المهمل الذي شهدته في «نمرود»، وناشدت المتحف البريطاني أن يقوم بتوفير النفقات إمّا لنقل الآثار المُكتشفة أو إعادة دفنها حتّى لا تتعرض للتخريب[١٦٦].

لكن رغم تقاريرها المنشورة لا يبدو أن شيئًا حدث على الفور بالنسبة للقطع الأثرية المُكتشفة في «نمرود»، ورغم ذلك في العام 1926؛ ربما بتحريض من «بيل» التي أصبحت مديرة لدار الآثار في العراق، انتقلت بعض المنحوتات إلى متحف العراق[١٦٧]. أمّا التمثال المجسّم للإله الآشوري المعروف الآن بأنه ينتمي لمعبد «نابو»، ويعود لفترة حكم الملك الآشوري «أداد نيراري الثالث»، فيقف داخل صالة العرض الآشورية بذلك المتحف[١٦٨]. والأسدان القنطوران المُجنحان اللذان يحملان رأسي إنسان ويمسكان عنزة، اللذان صورتهما «بيل»، فقد تحطّم رأساهما في وقتٍ ما في العام 1909 لكنهما أُعيدا إلى وضعيتهما الرأسية في العام 1955. واستمرّا يحرسان بابًا رئيسًا من الأبواب المؤدية إلى قاعة العرش في قصر «آشور ناصربال الثاني» الشمالي الغربي في مدينة «نمرود»، حتى اندلاع الأحداث المأساوية الأخيرة التي ارتكبتها ميليشيات تنظيم الدولة الإسلامية؛ حيثُ يُظهر شريط فيديو صدر في الحادي عشر من أبريل العام 2015 أنّ أغلب محتويات القصر الشمالي الغربي تعرّضت للتخريب والتدمير، بعد أن استعملت الميليشيات قنابل برميلية لتدمير أجزاء كبيرة من القصر[١٦٩]. لقد انطمس أغلب القصر المهيب ذائع الشهرة الذي بناه الحاكم الآشوري: «ملك

أرباع العالم الأربعة»، والذي أولته «بيل» الكثير من الاهتمام قبل قرن من الزمن، ولم يبق في الموقع من المكان الذي كان أبيًّا في يوم من الأيام، إلا حقل أنقاض عملاق.



شكل (٤-٢٨) صورة فوتوغرافية التقطتها «بيل» لخادمها فتوح؛ إلى اليمين، ورجل آخر، يقفان إلى جوار أسدين قنطورين مجنحين برأسي إنسان مطروحين فوق الأرض. هذان الأسدان كانا يقفان رأسيًا ذات يوم ويحرسان أحد مداخل قاعة عرش «آشور ناصربال الثاني» في نمرود، في الفترة من 883 إلى 859 ق.م. اكتشفهما «أوستنهنريلايارد» وأعاد دفنهما في خمسينيات القرن التاسع عشر، وإبّان زيارة «بيل» للموقع في العام 1909 كانا قد أصبحا معرضين جزئيًا لعوامل التعرية والتخريب. وقد قارنت «بيل» بين حالة الإهمال التي تتعرض لها نمرود، وبين «الحرص الشديد الذي كان المنقبون الألمان يستكشفون به آثار آشور». تعرّض قصر «آشور ناصربال الثاني» للتدمير بالكامل على يدَ تنظيم الدولة الإسلامية في أبريل العام 2015؛ ومن ثمّ يُفترض أنّ هذين التمثالين الحجريين لم يعد لهما وجود.

الموصل وما بعدها

تصل روايتنا ونقاشاتنا عمّا قامت به «بيل» من دراسات أركيولوجية تتعلق برحلتها الأولى إلى بلاد الرافدين إلى نهايتها، مع وصولها إلى مدينة الموصل على نهر دجلة في أواخر أبريل العام 1909. ويقينًا، ستواصل «بيل» الاهتمام بالكثير من المواقع والصروح الأثرية بتلك الأرض التي مرّت بها حتّى نهاية رحلتها في يونيو حين وصلت إلى مدينة القسطنطينية، لكننا نشهد في الموصل تحولاً في اهتماماتها الرئيسة؛ إذْ تتراجع المواقع والصروح ما قبل الكلاسيكية والفرثية والساسانية والإسلامية، التي هيمنت على المشهد وعلى اهتمام «بيل» منذ ولجت إلى وادي دجلة والفرات جنوب بلاد الرافدين في أوائل شهر مارس، ليتصدّر اهتمامها حشد الآثار المسيحية المبكرة التي ميزت التلال المتعرجة والمناطق الجبلية شمال بلاد الرافدين والأناضول. وقد حرصت «بيل»؛ بدءًا من الكنائس والأديرة الأثرية داخل وبالقرب من الموصل، وحتّى شرق الأناضول، على تسجيل والتقاط صور فوتوغرافية غزيرة للفن والعمارة الكنسيين المبكرين اللذين كانت تمر بهما. وسيُتوّج اهتمامها بالكنائس خلال زيارتها إلى «طور عبدين»؛ وهي منطقة وعرة بعيدة جنوب شرق الأناضول تقع بين ديار بكر ونصيبين، حيث يعود تاريخ وجود المجتمعات المسيحية هناك إلى القرن الثالث الميلادي، واستمرّت في الازدهار على العقيدة نفسها ما لا يقل عن الألف عام[١٧٠]. وكما أوضحنا، فقد ظهر افتتان «بيل» بتلك الكنائس فضلًا عن الكنائس الموجودة بالمناطق المُحيطة في شمال بلاد الرافدين، فيما نُشر عنها- لا في كتاب رحلاتها الذي أصدرته في العام 1909؛ «من سلطان إلى سلطان»، بل في أحد فصول الدراسة التي كتبها «م. فان برشم» و«ج. سترزيجوفسكي»[١٧١]. وأخيرًا، بعد رحلة أخرى إلى بلاد الرافدين وزيارة إلى «طور عبدين» في العام 1911، أجرت خلالهما تحريات إضافية ودوّنت

مزيدًا من الملاحظات، نشرت «بيل» تقريرًا مهمًا في صورة مقال صحافي[١٧٢].

وقد أنجز باحثون آخرون عملًا رائعًا حين جمعوا أبحاث وتحليلات «بيل» عن العمارة الكنسية إبان العصر القديم المتأخر، وبيّنوا أهمية مساعيها داخل إطار البحث المعاصر الأشمل في مجال الثقافة المادية المسيحية إبان العصر القديم المتأخر[١٧٣]. كما لفتت دراسات علمية أحدث الانتباه إلى أنّ أغلب مباني «طور عبدين» التي وثّقتها «بيل»، لم يعد لها وجود بسبب التخريب وإعادة البناء، ما يجعل من ملاحظات «بيل» وصورها الفوتوغرافية مصدرًا لا يُقدّر بثمن للمعلومات عن هذه المنطقة الفريدة[١٧٤].

لقد شُيدت أغلب الكنائس التي فحصتها «بيل» بنفس الفترة التي شيدت فيها تقريبًا المباني الساسانية والإسلامية المبكرة، وقد ساعدتها في تتبع بعض الاتجاهات المعمارية والفنية بالشرق الأدنى عبر الزمن، بخاصة المباني التي بناها حرفيون فارسيون ومسلمون. وإجمالًا، تؤكد أعمالها عن تلك الكنائس على اتّساع معارفها الهائل وطموح أبحاثها.

هوامش الفصل الرابع

(1) Gertrude L. Bell, Amurath to Amurath (London, 1911), p. 172.

(2) رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 2 أبريل 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(3) زارت «بيل» بابل في الفترة من 9 إلى 11 مارس 1911، ومن 30 مارس إلى 2 أبريل 1914، أرشيف «جيرترود بيل».

(4) رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 2 أبريل 1909، أرشيف «جيرترود بيل»، وانظر:
Bell, Amurath, p. 172.

(5) رسالة «جيرترود بيل» إلى أبيها، 5 مايو 1917، أرشيف «جيرترود بيل».

(6) رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 11 مارس 1911.

(7) Irving L. Finkel and Michael J. Seymour (eds), Babylon: Myth and Reality (London, 2008), p. 39.

(8) Joachim Marzahn, 'Robert Koldewey – Ein Lebensbild', in Ralf-B. Wartke (ed.), Auf dem Weg nach Babylon. Robert Koldewey – Ein Archaologenleben (Mainz, 2008), pp. 13–16.

(9) Brian Fagan, Return to Babylon: Travelers, Archaeologists, and Monuments in Mesopotamia, revised edition (Boulder, 2007), p. 245; Finkel and Seymour, Babylon, p. 42.

(10) Fagan, Return to Babylon, p. 247.

(11) Joachim Marzahn, The Ishtar Gate (Berlin, 1995), p. 7.

(12) فيما يتعلّق بتحديد تاريخ عمارة مُعينة بناءً على نقوش الطوب، انظر على سبيل المثال:

Robert Koldewey, The Excavations at Babylon (London, 1914), pp. 75–82.

(13) Fagan, Return to Babylon, pp. 247–9; Finkel and Seymour, Babylon, p. 42; Gernot Wilhelm, '1898–1917: Babylon – Stadt des Marduk und Zentrum des Kosmos', in Wilhem (ed.), Zwischen Tigris und Nil. 100 Jahre Ausgrabungen der Deutschen Orient-Gesellschaft in Vorderasien und A¨gypten (Mainz, 1998), p. 23.

(14) Seton Lloyd, Foundations in the Dust: The Story of Mesopotamian Exploration, revised and enlarged edition (London, 1980), pp. 175–6.

(15) Bell, Amurath, p. 171.

(16) Koldewey, Excavations, pp. 25–30.

(17) Bell, Amurath, p. 171.

(18) لا تشير «بيل» إلى وجود شظايا من الطوب المزجج فوق بوابة عشتار في العام 1909(بل تكتفي بالإشارة إلى زخارف شارع الموكب)، انظر:

Bell, Amurath, p. 171 and GB diary 2 April 1909, Gertrude Bell Archive.

وكانت الكثير من القطع الأثرية قد تم جمعها وشحنها إلى أوروبا آنذاك. انظر:

Beate Salje, 'Robert Koldewey und das Vorderasiatische Museum Berlin', in Wartke, Auf dem Weg nach Babylon, pp. 129–30.

يُذكر أن عملية إعادة بناء الطوب الخاص بشارع الموكب وبوابة عشتار بدأت سريعًا عقب الكشف عنها، لكن اندلاع الحرب العالمية الأولى أجّل وصول أغلب قطع الطوب إلى برلين حتّى العام 1930، وذلك حين جرى الكشف عن هذين الصرحين الهائلين للجمهور عقب إعادة بنائهما. انظر:

Finkel and Seymour, Babylon, p. 57.

وللاطلاع على وصف كامل لعمليات إزالة الملوحة وإعادة بناء الطوب، انظر:

Marzahn, Ishtar Gate, pp. 14–16.

(19) Bell, Amurath, p. 168.

(20) يوميات «جيرترود بيل»، 2 أبريل 1909، أرشيف «جيرترود بيل». وانظر:

Koldewey, Excavations, p. 68.

(21) يوميات «جيرترود بيل»، 2 أبريل 1909، أرشيف «جيرترود بيل». وانظر:

Koldewey, Excavations, pp. 137–8.

(22) يوميات «جيرترود بيل»، 31 مارس 1914، أرشيف «جيرترود بيل».

(23) Koldewey, Excavations, pp. 95–100; Finkel and Seymour, Babylon, pp. 108–9.

(24) Koldewey, Excavations, p. 91.

(25) Wilhelm, 'Stadt des Marduk,' p. 26; Finkel and Seymour, Babylon, p. 112.

(26) Finkel and Seymour, Babylon, p. 109; Stephanie Dalley, 'Nineveh, Babylon and the Hanging Gardens: Cuneiform and Classical sources reconciled', Iraq 56 (1994), pp. 45–58.

(27) Finkel and Seymour, Babylon, p. 54.

(28) المرجع السابق، ص 55.

(29) يوميات «جيرترود بيل»، 31 مارس 1914، أرشيف «جيرترود بيل».

(30) Finkel and Seymour, Babylon, p. 129.

(31) المرجع السابق، ص 55.

(32) المرجع السابق، ص 128. أكّدت تحريات «فيتسل» في العام 1913 أنّ البرج الموجود عند قاعدة الزقورة كان يبلغ 91 مترًا على الجانبين، وكان له درج عظيم يؤدي إلى أعلى البرج من جهة الجنوب، إلى جانب درجين جانبيين. انظر:

Koldewey, Excavations, pp. 183–4; Wilhelm, 'Stadt des Marduk,' p. 27; Finkel and Seymour, Babylon, p. 129.

وكان عدد طوابق الزقورة موضع نقاش ضخم، لكن بناءً على دراسة النقوش الأثرية المكتوبة، يُعتقد أنّها كانت تضم سبعة مستويات (والمستوى السابع هو المعبد) يبلغ ارتفاعها سبعين مترًا. انظر:

Finkel and Seymour, Babylon, p. 126.

(33) Article 19 i, Antiquities Law, 1924 (Baghdad, 1924).

(34) Finkel and Seymour, Babylon, p. 43; Magnus T. Bernhardsson, Reclaiming a Plundered Past: Archaeology and Nation Building in Modern Iraq (Austin, 2005), p. 138; E. Walter Andrae and R.M. Boehmer, Bilder eines Ausgrabers. Die Orientbilder von Walter Andrae 1898–1919/Sketches by an Excavator, second enlarged edition, English translation by Jane Moon (Berlin, 1992), pp. 141–3 and notes 65–8.

وقد كانت «بيل» على حقّ في رأيها أنّ لقايا بابل لن تلقى مُعالجة صحيحة وتُحفظ بشكل سليم إلا إذا نُقلت إلى برلين. انظر أيضًا:

Julia M. AsherGreve, 'Gertrude L. Bell (1868–1926)', in Getzel M. Cohen and Martha Sharp Joukowsky (eds), Breaking Ground: Pioneering Women Archaeologists (Ann Arbor, 2004), p. 176.

(35) رسالة «جيرترود بيل» إلى أبيها، 18 يناير 1918، أرشيف «جيرترود بيل».

(36) .J. Keall, 'Parthians', in E.M. Meyers (ed.), The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East (New York, 1997), p. 249; Edward Da̧browa, 'The Arsacid Empire', in Touraj Daryaee (ed.), The Oxford Handbook of Iranian History (Oxford, 2012), p. 164.

(37) EJens Kröger, 'Ctesiphon', Encyclopaedia Iranica VI/4 (1993), pp. 446–8; an updated version is available online at http://www.iranicaonline.org/arti cles/ctesiphon (accessed 29 July 2015).

(38) E.J. Keall, 'Ayvan-e Kesra', Encyclopaedia Iranica III/2 (1987), pp. 155–9; an updated version is available online at www.iranicaonline.org/articles/ayvan-ekesra-palace-of-kosrow-at-ctesiphon (accessed 29 July 2015).

(39) Kröger, 'Ctesiphon.'

(40) Robert Hillenbrand, Islamic Architecture (New York, 1994), p. 391.

(41) Keall, 'Ayvan.'

(42) المرجع السابق.

(43) Oscar Reuther, 'The German excavations at Ctesiphon', Antiquity 3 (1929), p. 441; 'Activities of the Institute of Archaeological Sciences and of the Centre for the Restoration of Monuments in Baghdad: Ctesiphon', Centro Ricerche Archeologiche e Scavi di Torino Projects (Torino, 2006), available at www.centros cavitorino.it/en/progetti/iraq/istituti-ctesifonte.html (accessed 29 July 2015).

(44) Ibid.; see also T. Madhloom, 'Mada'in (Ctesiphon), 1970–71', Sumer 27 (1971), pp. 129–46, in Arabic; T. Madhloom, 'Al-Mada'in', Sumer 31 (1975), pp. 165– 70, in Arabic; T. Madhloom, 'Restorations in al-Mada'in, 1975–1977', Sumer 34 (1978), pp. 119–29, in Arabic.

(45) Agence France-Presse, 'Iraq to restore ancient Arch of Ctesiphon to woo back tourists', The Raw Story (30 May 2013), available at www.rawstory.com/rs/ 2013/05/30/iraq-to-restore-ancient-arch-of-ctesiphon-to-woo-back-tourists (accessed 29 July 2015).

(46) Bell, Amurath, p. 180.

(47) المرجع السابق، ص 153، وشكل 109 الذي يُظهر القبو الموجود في طيسفون. أصبحت هذه التفصيلة المعمارية غير المهمة بالنسبة لكثيرين، مصدر البغضاء بين «بيل» وبين الباحث الألماني «إرنست هرتسفلد»، الذي حاول من قبل إثبات أنّ إنشاء الأقبية باستخدام التطنيف لم يكن معروفًا قبل العصر الإسلامي. لكن مُشاهدة «بيل» بطيسفون؛ التي أكّدتها إحدى صورها الفوتوغرافية، أظهرت بوضوح أنّ هذا الملمح المعماري ربما كان معروفًا في العصر الساساني المبكر. للاطلاع على نقاش تفصيلي، انظر:

Lisa Cooper, 'Archaeology and acrimony: Gertrude Bell, Ernst Herzfeld and the study of pre-modern Mesopotamia', Iraq 75 (2013), pp. 157–62.

(48) انظر:

Bell, Palace and Mosque, pp. 130–6.

تفترض «بيل» أنّ هذه المعالم المعمارية كانت ببساطة تأويلًا شرقيًّا للأسلوب الهلنستي الذي كان شائعًا آنذاك في الشرق الأدنى قبل العصر البيزنطي بفترة طويلة، كما لوحظ وجوده أيضًا في العمارة الفرثية التي ترجع للقرن الثاني الميلادي بمواقع بلاد الرافدين مثل موقع الحضر. (المرجع السابق، ص 130، 136– 137). وسيطرح

«هرتسفلد» نفسه هذه الحجة في مراجعة نقدية سيكتبها لاحقًا عن «رويتر»، وهي الحجة التي لا تزال تلقى بعض القبول بين الباحثين اليوم. انظر:

E. Herzfeld, 'Damascus: Studies in architecture: II', Ars Islamica 10 (1943), pp. 60–1. See also Keall, 'Ayvan'.

ويستخدم «كيل» هذه الحجة لتأييد فكرة بناء طاق كسرى خلال القرن الثالث الميلادي، بدلًا من التاريخ اللاحق إبان القرن السادس الميلادي الذي يلقى قبولًا لدى «رويتر» وآخرين. وأيًا كان الحال، فإنّ هذا المثال يُظهر أنّ مُشاهدات «بيل» كانت تتفق مع مشاهدات الباحثين الآخرين، في الماضي والحاضر.

(49) رسالة «جيرترود بيل» إلى أبيها، 22 مايو 1921، أرشيف «جيرترود بيل».

(50) رسالة «جيرترود بيل» إلى أبيها، 6 أغسطس 1921، أرشيف «جيرترود بيل».

(51) مكثت «بيل» في بغداد من 6 إلى 12 أبريل 1909، كما بيّنت يومياتها ورسائلها.

(52) Bell, Amurath, p. 187.

(53) R. Ettinghausen and O. Grabar, Islamic Art and Architecture, 650–1250 (New Haven, 2001), p. 51.

(54) G. Michell, Architecture of the Islamic World (London, 1978), p. 247.

(55) يوميات «جيرترود بيل»، 8 و9 أبريل 1909، أرشيف «جيرترود بيل». وانظر أيضًا:

Ettinghausen and Grabar, Islamic Art, pp. 216–17.

(56) Bell, Amurath, p. 191.

(57) رسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، 14 أبريل 1909. ويوميات «جيرترود بيل»، 15 مارس 1911، أرشيف «جيرترود بيل». ويسود الاعتقاد اليوم أنّ هذا القصر العباسي كان مدرسة شُيدت خلال القرن الثالث عشر الميلادي. انظر:

Hillenbrand, Islamic Architecture, pp. 223–4.

(58) رسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، 14 أبريل 1909. ويوميات«جيرترود بيل»، 14 أبريل 1909، أرشيف «جيرترود بيل». وانظر:

Bell, Amurath, pp. 200, 204.

(59) يوميات«جيرترود بيل»، 14 أبريل 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(60) Bell, Amurath, p. 208.

(61) Alistair Northedge, The Historical Topography of Samarra (London, 2007), p. 473.

(62) Bell, Amurath, p. 208.

(63) المرجع السابق. تستحضر «بيل» هُنا فقرة من كتاب «الكُلستان» (روضة الورد)، ألفها الشاعر الفارسي القروسطي سعدي الشيرازي. وقد شهد سعدي نهب بغداد على يد المغول في العام 1258، وهو نفس العام الذي ألف فيه كتاب الكُلستان.

(64) Chase Robinson (ed.), A Medieval Islamic City Reconsidered: An Interdisciplinary Approach to Samarra (Oxford, 2001), p. 9; Hugh Kennedy, The Court of the Caliphs: The Rise and Fall of Islam's Greatest Dynasty (London, 2004), p. 149.

(65) Lucien de Beylié, Prome et Samarra (Paris, 1907), and 'L'architecture des Abbassides au IXe siècle. Voyage archéologiques à Samarra dans le basin du Tigre', Revue archéologiques 10 (1907), pp. 1–18.

تذكر «بيل» أنّها سجّلت بعض الملاحظات مما نشره «دوبيلي»، أثناء وجودها مع بعثة التنقيب الألمانية في بابل، لذا يُمكن تصور أنّها أصبحت على دراية بأعماله من خلال تلك الأعمال المنشورة. انظر يوميات «جيرترود بيل»، 3 أبريل 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(66) Ernst Herzfeld, Samarra. Aufhahmen und Untersuchungen zur islamischen Archaeologie (Berlin, 1907).

(67) Ernst Herzfeld, 'Die Genesis der islamischen Kunst und das Mschatta-Problem', Der Islam 1 (1910), pp. 27–63, 104–44.

(68) Suzanne Marchand, 'The rhetoric of artifacts and the decline of classical humanism: The case of Josef Strzygowski', History and Theory 33 (1994), pp. 124–5.

(69) Robert Hillenbrand, 'Creswell and contemporary Central European scholarship', Muqarnas 8 (1991), p. 26.

(70) ربما يكون البحث القصير المُشار إليه هُنا هو مقال «دوبيلي» في Revue archéologiques، الذي استشهدنا به سابقًا.

(71) تُشير «بيل» هُنا إلى دراسة «هرتسفلد» عن سامراء التي سبق أن أشرنا إليها.

(72) رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 15 أبريل 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(73) رسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، 18 أبريل 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(74) Kennedy, Court, p. 145; Northedge, Historical Topography, pp. 135, 140.

(75) عبرت «بيل» إلى الضفة الغربية على متن «كلك» مرتين اثنتين. انظر يوميات «جيرترود بيل»، 16 و18 أبريل 1909، أرشيف «جيرترود بيل». أمّا فيما يتعلق بقصر العاشق، فقد قبل الباحثون هوية هذه القلعة باعتبارها قصر المعشوق الذي

ذكره المؤرخ الإسلامي؛ اليعقوبي، ولّه القصر الذي بناه الخليفة المعتمد في الفترة بين 877 و882 ميلاديًا. انظر:

Northedge, Historical Topography, p. 235.

(76) Bell, Amurath, p. 209.

وانظر يوميات «جيرترود بيل»، 15 أبريل 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(77) Leisten, Excavation, p. 35.

(78) K.A.C. Creswell, Early Muslim Architecture. Vol. 2: Early 'Abbasids, Umayyads of Cordova, Aghlabids, Tulunids, and Samanids, A.D. 751–905 (Oxford, 1940), reprint (New York, 1979), p. 254.

(79) المرجع السابق، ص 259.

(80) Northedge, Historical Topography, p. 211.

(81) Kennedy, Court, p. 149; Leisten, Excavation, p. 58.

(82) رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 21 أبريل 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(83) Leisten, Excavation, p. 60.

(84) Bell, Amurath, pp. 243–6, Figs 123–4, 164–6.

(85) هو الإمام محمد الدري، الابن السابع لموسى الكاظم، أمّا الذي بنى الضريح فهو شرف الدولة مسلم بن قريش، 1061– 1086 ميلاديّة.

(86) Michell, Architecture, p. 251; Hillenbrand, Islamic Architecture, p. 325, Figs 238 and 239.

(87) حسبما أشار «هرتسفلد» في رسائله إلى «بيل»، وكما أشارت «بيل» التي تُحيل إلى النتائج التي توصل إليها «فان برشم» في كتابها «من سلطان إلى سلطان» (ص 214– 215). لمزيد من الاطلاع على إسهام «فان برشم»، انظر:

Sarre and Herzfeld's Archaologische Reise im Euphrat- und Tigris-Gebiet, 4 vols (Berlin, 1911–20).

(88) للاطلاع على تقرير حول هدم ضريح إمام الدور، انظر:

Michael D. Danti, Jesse Casana, T. Paulette, K. Franklin and C. Ali, 'ASOR Cultural Heritage Initiatives (CHI): Planning for safeguarding heritage sites in Syria and Iraq, weekly report 25 – January 26, 2015', available at www.asor-syrianheritage. org/wp-content/uploads/2015/03/ASOR_CHI_Weekly_Report_25r.pdf (accessed on 30 July 2015).

(89) رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 21 أبريل 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(90) H. Viollet, 'Le palais de'al-Moutasim fils d'Haroun al-Rachid a` Samara et quelques monuments arabes peu connus de la Mesopotamie', Comptes rendus de l'Acade'mie des Inscriptions et des Belles-Lettres (1909), pp. 370–5; and 'Description du palais d'al-Moutasim fils d'Haroun-al-Rachid a` Samara et quelques monuments arabes peu connus de la Mesopotamie', Memoires presentes a l'Acade'mie des Inscriptions et des Belles-Lettres 12 (1909), pp. 567–94.

مسألة رجوع «بيل» لتقارير «فيوليت»، أشارت إليها «بيل» في إحالتها إلى تقاريره بروايتها عن سامراء في كتابها:

Amurath, pp. 209, n. 1; 210, n. 1; 235, n. 1; 237, n. 1; 238, n. 1; 240–1; 243, n. 1; 245, n. 1.

(91) بالتحديد، نشر «فيوليت» كتاب: «سرداب صغير بدار الخلافة»، انظر:

H. Viollet, 'Fouilles a Samara en Mesopotamie: Ruines du palais d' Al Moutasim', Comptes rendus de l'Academie des Inscriptions et des Belles-Lettres (1911), pp. 275–86; and 'Fouilles a Samara en Mesopotamie: Un palais musulman du IX^{e} sie`cle', Memoires presentes a l'Academie des Inscriptions et des Belles-Lettres 12 (1911), pp. 685–717.

(92) سبع رسائل كتبها «هرتسفلد» إلى «بيل» محفوظة ضمن أرشيف «جيرترود بيل» في مكتبة جامعة نيوكاسل. الرسائل مؤرخة في: 1 و22 نوفمبر 1909، و27 أغسطس و1 سبتمبر 1910، و17 سبتمبر و29 نوفمبر 1911، و12 سبتمبر 1912. لمزيد من النقاش حول الرسائل المتبادلة بين «بيل» و«هرتسفلد»، انظر:

Cooper, 'Archaeology and acrimony'.

(93) Hillenbrand, 'Creswell,' p. 26.

(94) يُشير «هرتسفلد» في رسالتين إلى «بيل» (27 أغسطس 1910 و29 نوفمبر 1911)، إلى مُشاركته في «مدونة النقوش العربية»، إلى جانب جمعه للعبارات المنقوشة من أجل «فان برشم». وفي رسالة بعثها «فان برشم» إلى «بيل» (28 أكتوبر 1911)، يذكر جهود «هرتسفلد» الجبارة في جمع المعلومات. كل هذه الرسائل ضمن أرشيف «جيرترود بيل» بمكتبة جامعة نيوكاسل.

(95) أُثير تاريخ بناء ضريح إمام الدور في Archäologische Reise، فضلًا عن طابع النقش المثير للتساؤل الذي تزعم «بيل» أنّها رأته هناك، ويطرح «فان برشم» رأيه بشأن هذا الصرح وما به من نقوش، بما في ذلك التاريخ الذي رصدته «بيل» بحاشية في صفحة 34، رغم شكوكه في وجود هذا التاريخ. أمّا من جانبها، فقد رضخت «بيل» عندما رفعت العبارة المنقوشة بضريح إمام الدور في كتابها «من سلطان» (ص

214– 215)، لفان برشم الذي قرر أنّ شكل الحروف كان يُشير إلى أنّها كُتبت إبان القرن التاسع الميلادي. وربّما كان التاريخ الذي رآته يُشير إلى زمن إصلاح المزار. كان هذا هو اقتراح «هرتسفلد» الذي طرحه عليها في عدد من رسائله قبل أن تنشر كتابها «من سلطان إلى سلطان»، وإن لم تذكر ذلك (انظر رسائل «هرتسفلد» في 1 و22 نوفبر 1909، و27 أغسطس و1 سبتمبر 1910، أرشيف «جيرترود بيل» في مكتبة جامعة نيوكاسل). .

(96) للاطلاع على معلومات عن الرسائل المتبادلة بين «بيل» و«برشم»، انظر:

Asher-Greve, 'Gertrude L. Bell,' pp, 168–9 and notes 195–7.

(97)M. van Berchem and J. Strzygowski, Amida. Materiaux pour l'epigraphie et l'histoire musulmanes du Diyar-bekr, par Max van Berchem. Beitrage zur Kunstgeschichte des Mittelalters von Nordmesopotamien, Hellas und dem Abendlande, von Josef Strzygowski (Heidelberg, 1910).

وقد شاركت «بيل» بفصل عن كنائس وأديرة طور عبدين (ص 224– 262).

(98) من اللافت للنظر أنّ «مؤسسة فان برشم» في جنيف، تضم ما لا يقل عن 117 صورة فوتوغرافية التقطتها «بيل»، وهناك إشادة بمجموعة صور «بيل» للنقوش العربية من 1910 إلى 1911 في المجلد الأول من كتاب «فان برشم» Opera Minora (جنيف 1978). انظر:

Asher-Greve, 'Gertrude L. Bell,' p. 194, n. 206.

(99) رسالة «فان برشم» إلى «جيرترود بيل» في 18 أكتوبر 1911، في أرشيف «جيرترود بيل» بمكتبة جامعة نيوكاسل. ترجمها من الفرنسية إلى الإنجليزية كلّ من Emmanuelle and Henry Riston.

(100) Asher-Greve, 'Gertrude L. Bell,' p. 170 and n. 206. Letter from feuillets 145–8 in the Max van Berchem Archive, Geneva.

(101) رسالة «فان برشم» إلى «جيرترود بيل» في 28 أكتوبر 1911، في أرشيف «جيرترود بيل» بمكتبة جامعة نيوكاسل. ترجمها من الفرنسية إلى الإنجليزية كلّ من Emmanuelle and Henry Riston.

(102) Hillenbrand, 'Creswell,' p. 32, n. 40.

(103) رسالة «فان برشم» إلى «جيرترود بيل» في 18 أكتوبر 1911، في أرشيف «جيرترود بيل» بمكتبة جامعة نيوكاسل. ترجمها من الفرنسية إلى الإنجليزية كلّ من Emmanuelle and Henry Riston.

(104) رسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، 28 سبتمبر 1912، أرشيف «جيرترود بيل».

(105) رسالة غير منشورة من «جيرترود بيل» إلى البرفيسور «هرتسفلد»، أرشيف «جيرترود بيل» بمكتبة جامعة نيوكاسل، أرسلها إلى جامعة نيوكاسل السيد E.F.Bradford من مدينة «ويتبي» الذي انتقلت الرسالة إلى حوزته من خلال شقيقة البرفيسور «هرتسفلد» المتوفاة.

(106) Bernhardsson, Reclaiming, p. 75.

(107) المرجع السابق، ص 75– 78.

(108) المرجع السابق، ص 78، من مذكرة كتبتها «بيل» بعنوان: «حماية الآثار في العراق»:

BLIO, L/P&S/10/689, Memorandum #85, 22 October 1918.

(109) المرجع السابق، ص 82.

(110) المرجع السابق، ص 82– 83.

(111) المرجع السابق، ص 83. عن:

PRO, Kew FO 371/2883/E2883, letter from CO to FO, 14 March 1922.

(112) المرجع السابق، ص 84.

(113) David Stronach, 'Ernst Herzfeld and Pasargadae', in A.C. Gunter and S.R. Hauser (eds), Ernst Herzfeld and the Development of Near Eastern Studies, 1900–1950 (Leiden, 2005), pp. 103–36, and Elspeth R.M. Dusinberre, 'Herzfeld in Persepolis', in Gunter and Hauser, Ernst Herzfeld, pp. 137–80.

(114) A.C. Gunter and S.R. Hauser, 'Ernst Herzfeld and Near Eastern studies, 1900– 1950', in Gunter and Hauser, Ernst Herzfeld, p. 20.

(115) رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 28 مارس 1923، أرشيف «جيرترود بيل».

(116) P.O. Harper, E. Klengel-Brandt, Joan Aruz and K. Benzel (eds), Assyrian Origins: Discoveries at Ashur on the Tigris: Antiquities in the Vorderasiatisches Museum, Berlin (New York, 1995), p. 15.

(117) Gertrude L. Bell, 'The first capital of Assyria', The Times, 23 August 1910.

(118) يوميات «جيرترود بيل» يوم 23 أبريل 1909، رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 26 أبريل 1909، أرشيف «جيرترود بيل». وانظر:

Bell, Amurath, p. 221.

(119) رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 26 أبريل 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(120) انظر بشكل خاص امتنان «هاينريش» العميق لـ«أندري» في:

Andrae and Boehmer, Bilder eines Ausgrabers, pp. 149–54.

(121) المرجع السابق، ص 111– 122.

(122) المرجع السابق، ص 118، وانظر:

Finkel and Seymour, Babylon, p. 42.

(123) Andrae and Boehmer, Bilder eubes Ausgrabera, p. 108.

(124) انظر بشكل خاص رسم «أندري» في:

W. Andrae, Das wiedererstandene Assur, revised edition with additional notes by B. Hrouda (Munich, 1977).

(125) S.M. Maul, '1903–1914: Assur – Das Herz eines Weltreiches', in Wilhelm, Zwischen Tigris, p. 49.

(126) J. Bär, 'Walter Andrae – Ein Wegbereiter der modernen Archäologie', in J. Marzahn and B. Salje (eds), Wiedererstehendes Assur. 100 Jahre deutsche Ausgrabungen in Assyrien (Mainz am Rhein, 2003), p. 47.

لم يعد «أندري» للوطن إلا مرتين؛ لإنهاء خدمته العسكرية وللزواج.

(127) S.R. Hauser, 'The Arsacid (Parthian) Empire', in D.T. Potts (ed.), A Companion to the Archaeology of the Ancient Near East (Chichester, 2012), p. 1011.

(128) R.W. Lamprichs, 'Assur', in Meyers, Oxford Encyclopaedia, p. 228.

(129) رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 26 أبريل 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(130) J. Bär, 'Sumerians, Gutians and Hurrians at Ashur? A re-examination of Ishtar temples G and F', Iraq 65 (2003), p. 146; Ba¨r, 'Walter Andrae', p. 144.

(131) للاطلاع على التقارير الخاصة بأعمال التنقيب في منطقة معبد عشتار، انظر بشكل خاص:

W. Andrae, Die archaischen Ischtar-Tempel in Assur (Leipzig, 1922); W. Andrae, Die jungeren Ischtar-Tempel in Assur (Leipzig, 1935).

أمّا التحديثات التي تضم تنقيحًا لما جرى بالمراحل الأولى، فانظر:

J. Bär, Die alteren Istar-Tempel in Assur. Stratigraphie, Architektur und Funde eines altorientalischen Heiligtums von der zweiten Ha¨lfte des 3. Jahrtausends bis zur Mittes des 2. Jahrtausends v. Chr.(Saarbrucken, 2003), and Bär, 'Sumerians', pp. 143–60.

(132) Andrae and Boehmer, Bilder eines Ausgrabers, p. 139.

(133) رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 26 أبريل 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(134) Maul, '1903–1914: Assur', p. 47.

(135) يوميات «جيرترود بيل»، 25 أبريل 1909، أرشيف «جيرترود بيل»: «أمّا الخنادق الطويلة فهي الأكثر إثارة للإعجاب لاسيما خندق منها شديد العمق، حيث نستطيع أن نرى البيوت والشوارع الأشورية القديمة بوضوح كامل. وحيث تقف تلك البيوت الآشورية القديمة بحالتها كما هي». للاطلاع على نقاش كامل حول بيوت آشور، راجع:

C. Preusser, Die Wohnhauser in Assur (Berlin, 1954), and more recent discussions, namely P. Miglus, Das Wohngebiet von Assur. Stratigraphie und Architektur (Berlin, 1996).

(136) Bell, Amurath, p. 225.

ربّما كانت «بيل» تتحدث هُنا عن المنزل الآشوري القديم الذي وصفه «أندري» في:

Das wiedererstandene, pp. 180–1, and by Preusser, Die Wohnhauser, pp. 7–8.

بالمنطقة التي تقع جنوب شرق الزقورة (بالقرب من صفٍ الأعمدة الفرثية).

(137) للاطلاع على تقرير كامل حول الآثار الفرثية في آشور، راجع:

W. Andrae and H. Lenzen, Die Partherstadt Assur (Leipzig, 1933).

(138) يوميات «جيرترود بيل»، 23– 25 أبريل 1909، 5 أبريل 1911 (ظهور الإيوان)، ورسالة «جيرترود بيل» إلى والديها، 26 أبريل 1901، وصور «جيرترود بيل» الفوتوغرافية:

Album L_166, L_174, L_178, L_179, L_186 and Album Q_222, Gertrude Bell Archive.

(139) Bell, Palace and Mosque, pp. 65–8.

(140) GB photographs, Album L_167, L_168, L_169, L_170 and L171, Gertrude Bell Archive.

(141) GB photographs, Album L_184 and L_185, Gertrude Bell Archive.

(142) GB photograph, Album L_180, Gertrude Bell Archive.

(143) GB photograph, Album L_172, Gertrude Bell Archive.

(144) GB photograph, Album L_173, Gertrude Bell Archive.

(145) GB photographs, Album Q_220 and Q_221, Gertrude Bell Archive.

(146) GB photographs, Album Q_223 and Q_224, Gertrude Bell Archive.

(147) للاطلاع على دراسات حديثة حول طريقة التي تسجل بها أعمال التنقيب؛ ولاسيما الصور الفوتوغرافية الأركيولوجية، وتسلط الضوء على علاقات القوة الضمنية بين

علماء الآثار الأجانب والعمال الأنفار أثناء التحريات العلمية الحميدة في ظاهرها بالمواقع الأثرية في الشرق الأدنى وآسيا، انظر:

M. Rowlands, 'The archaeology of colonialism', in K. Kristiansen and M. Rowlands (eds), Social Transformations in Archaeology: Global and Local Perspectives (London, 1998), pp. 327–33; Ashish Chadha, 'Visions of discipline: Sir Mortimer Wheeler and the archaeological method in India', Journal of Social Archaeology 2 (2003), pp. 378– 401; Jennifer A. Baird, 'Photographing Dura-Europos, 1928–1937: An archaeology of the archive', American Journal of Archaeology 115 (2011), pp. 427–46; E. Cobb, T. Van Loan and V. Fleck, 'Representing vestiges of the past: Evaluating John Henry Haynes' contribution to nascent archaeological photography in the nineteenth century Ottoman Empire', paper presented at the Annual Meeting of the American Schools of Oriental Research, Atlanta, 2010.

(148) رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 14 أبريل 1911، أرشيف «جيرترود بيل».

(149) GB photographs, Album L_174, L_187, L_188, L_189 and L_190, Gertrude Bell Archive.

(150) GB photograph, Album Q_225, Gertrude Bell Archive.

(151) Bell, Amurath p. 226.

(152) Bell, Palace and Mosque, p. vi.

(153) Bernhardsson, Reclaiming, pp. 85–6.

(154) Andrae and Boehmer, Bilder eines Ausgrabers, pp. 140–1.

يكتب «أندري» في مذكراته أنّ: «المعارض البابلية بمتحف برلين يعود جزء من فضل إقامتها للآنسة بيل».

(155) المرجع السابق، ص 139– 140.

(156) المرجع السابق، ص 140.

(157) رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 26 أبريل 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(158) رسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، 14 أبريل 1911، أرشيف «جيرترود بيل».

(159) للاطلاع على وصف تفصيلي لنمرود، انظر:

M.E.L. Mallowan, Nimrud and Its Remains (London, 1966) and Joan Oates and David Oates, Nimrud: An Assyrian Imperial City Revealed (London, 2001).

(160) حققت روايات «لايارد» عن اكتشافاته في بلاد الرافدين أعلى مبيعات وقتئذ. انظر:

Austen Henry Layard, Nineveh and Its Remains, 2 vols (London, 1849) and Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon (London, 1953).

(161) Fagan, Return to Babylon, p. 127.

(162) للاطلاع على استعراض لا بأس به للمقتنيات الآشورية في المتحف البريطاني، انظر:

J.E. Curtis and J.E. Reade (eds), Art and Empire: Treasures from Assyria in the British Museum (New York, 1995).

(163) يوميات «جيرترود بيل»، 27 أبريل 1909، و رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 27 أبريل 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(164) رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 27 أبريل 1909، أرشيف «جيرترود بيل». هذا هو نفس التمثال الذي رآه A.T. Olmstead خلال زيارته إلى الموقع حوالي العام 1907– 1908، ونشر في كتابه «تاريخ آشور» (نيويورك، 1923) (شكل 81). وهو أحد تمثالين ضخمين كشفت عنهما أعمال التنقيب التي أجراها H. Rassam في العام 1854، ورسمها W. Boucher عندما كانت سليمة بالكامل. انظر:

C.J. Gadd, The Stones of Assyria (London, 1936), pl. 7, opposite p. 30, and p. 229.

ولمزيد من الملاحظات الإضافية حول هوية ومنشأ التمثال، انظر:

Mallowan, Nimrud, pp. 231–2.

(165) كتب عنهما وصورهما Olmstead أيضًا. انظر:

History of Assyria, Fig. 60, opposite p. 106.

وقد رأى العديد من الزوار أوائل القرن العشرين هذين التمثالين مكشوفين على الدوام. انظر:

Julian Reade, 'The early exploration of Assyria', in Ada Cohen and Steven E. Kangas (eds), Assyrian Reliefs from the Palace of Ashurnasirpal II: A Cultural Biography (Hanover, 2010), pp. 104–5.

وكانت أعمال التنقيب التي أجراها «لايارد» أول من كشف عن التمثالين، كما رسمهما بالألوان المائية كل منهما يميل نحو الآخر. انظر:

Austen Henry Layard, Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon (London, 1853), p. 337.

(166) Bell, Amurath, p. 228; Bell, 'First capital'.

(167) Gadd, Stones, p. 229.

(168) Faraj Basmachi, Treasures of the Iraq Museum (Baghdad, 1975–6), p. 239, Item 17, and pl. 142.

(169) Reade, 'Early exploration', pp. 103–5.

تضم التقارير حول التخريب المتعمد الذي أصاب القصر الشمال غربي في نمرود:

Michael D. Danti, C. Ali, T. Paulette, A. Cuneo, K. Franklin, L-A Barnes Gordon and D. Elitzer, 'ASOR Cultural Heritage Initiatives (CHI): Planning for safeguarding heritage sites in Syria and Iraq, weekly report 36 – April 13, 2015', available at www.asorsyrianheritage.org/wp-content/uploads/2015/04/ASOR_CHI_Weekly_Report_36r.pdf (accessed on 30 July 2015), and Michael Danti, Scott Branting, T. Paulette and A. Cuneo, 'ASOR Cultural Heritage Initiatives: Report on the destruction of the Northwest Palace at Nimrud', available at www.asor-syrianheritage. org/wp-content/uploads/2015/05/ASOR_CHI_Nimrud_Report.pdf (accessed on 30 July 2015).

(170) Asher-Greve, 'Gertrude L. Bell', p. 168 and n. 192.

(171) Gertrude L. Bell, 'The churches and monasteries of the Tur Abdin', in van Berchem and Strzygowski, Amida, pp. 224–62.

(172) Gertrude L. Bell, 'Churches and monasteries of the Tur 'Abdin and neighbouring districts,' Zeitschrift fur Geschichte der Architektur 9 (1913), pp. 61–112.

(173) هناك دراسة باللغة الأهمية تضم منشورات «بيل» الأكاديمية حول طور عبدين، مزودة بمقدمة وملاحظات وتقرير حول الحالة الراهنة للمواقع الأثرية في المنطقة كتبها المتخصص بالدراسات البيزنطية M. Mundell Mango. انظر:

Gertrude L. Bell and M. Mundell Mango, The Churches and Monasteries of the Tur 'Abdin (London, 1982).

(174) انظر على سبيل المثال، تقرير «مانجو» عن كنيسة «مار كوزماس» ودير «مار تامزجرد» و«البازيليكا» في ميافارقين، التي لم يعد لها وجود تمامًا:

Bell and Mango, Churches and Monasteries, pp. 106–7 and 121–4.

الفصل الخامس

مزيد من الرحلات والبحث الأركيولوجي

1910- 1914

برزت «بيل» بعد أن عادت من الشرق الأدنى في العام 1909، كباحثة أركيولوجية كفؤة وشديدة الالتزام. فاندفعت على مدار السنوات الأربع التالية في البحث الأركيولوجي، وانهمكت في دراسة الفن والعمارة الكلاسيكيين وفي الشرق الأدنى، وارتحلت بمفردها في أغلب الأحيان لأهداف أركيولوجية بالأساس. وقد استمرّ أغلب اهتمامها ينصبّ على الكنائس البيزنطية، لكنها كانت تولي اهتمامًا أيضًا بدراسة العصرين الساساني والإسلامي المبكر؛ وهو الحقل الذي دخل حيز اهتمامها من خلال رحلاتها الأخيرة واكتشافها الخاص للأخيضر. وكانت ذروة اشتغالها بالبحث في هذه الفترات الزمنية كتاب «قصر ومسجد في الأخيضر» الذي صدر في العام 1914[1]. حيثُ مزجت الدراسة أغلب ملاحظاتها التي سجّلتها أثناء رحلاتها في الشرق الأدنى، واستعرضت تناولها الأنضج والأوسع من بين كل نقاشاتها الأركيولوجية. أمّا من حيث منهجية الدراسة ونتائجها، فقد وضعت في اعتبارها علوم زملائها مثل «جوزيف سترزيجوفسكي» و«إرنست هرتسفلد» و«فالتر أندري». كما عكست الدراسة أيضًا ما تعلّمته «بيل» من زملائها المختصين بعلم الآثار الكلاسيكي، وما اكتسبته من تجاربها في إيطاليا والساحل الدلماسي، التي ألقت بتأثيرها بشكل خاص على تفكيرها بشأن التأثيرات الكلاسيكية على العمارة الإسلامية المبكرة. وإجمالاً، كانت السنوات من 1910 إلى 1914 مثمرة بدرجة كبيرة بالنسبة لـ«بيل»، وأسفرت عن أهم أعمالها في حقل الأركيولوجيا وأجدرها بالثناء.

الإصدارات الأولى بعد رحلة «بيل» إلى الشرق الأدنى في العام 1909

كانت أولى أهداف «بيل» عندما عادت إلى إنجلترا هي نشر سرد لرحلتها، تمامًا كما فعلت مع رحلاتها الأسبق عبر بلاد الشرق في كتابها «الصحراء والزرع» The Desert and the Sown(1907). وكان قد أصبح لديها الآن دفاتر ميدانية ويوميات ورسائل وصور فوتوغرافية لكي تؤلف منها هذا الكتاب، وبعد بعض الجهد، قدّمته إلى دور النشر في نهاية العام 1910. ولهذا الكتاب- الذي يحمل عنوانًا غامضًا بعض الشيء هو «*من سلطان إلى سلطان*»[٢]- طابع علمي أكثر تميّزًا من كتاب «الصحراء والزرع». إذ يحتوي الكتاب على مداولات مسهبة حول تواريخ وقوع أحداث قديمة، وتعيين أسماء الأماكن وأوصاف معمارية مفصلة للمواقع الأثرية، وإحالات إلى مؤرخين قدامى وباحثين محدثين قاموا بالتعليق على الأماكن التي زارتها[٣].

يضم كتاب «من سلطان إلى سلطان» أيضًا، نقاشات حول سكّان المنطقة المحدثين والمناخ السياسي الراهن في الشرق. وكانت هذه الموضوعات تستحوذ على فضول «بيل» بنفس القوة التي أولت بها الاهتمام لآثار المنطقة. كما يستحق الإهداء الذي كتبته لصديقها «اللورد كرومر»[٤] الانتباه بشكل خاص بسبب مضمونه السياسي، الذي يصف الانقلاب الإصلاحي الذي قامت به حركة «تركيا الفتاة»، التي نجحت في خلع سلطان الإمبراطورية العثمانية المستبد في أبريل العام 1909، وقدّمت مجموعة طموحة من الإصلاحات الليبرالية الجديدة المصممة للدفع بالإمبراطورية وحكومتها إلى القرن العشرين[٥]. كانت «بيل» مُحاطة خلال رحلاتها في الشرق في العام 1909 بأخبار ما تفعله حركة «تركيا الفتاة»، وأولت اهتمامًا خاصًا بردود الأفعال على ترويج أفكارهم التقدمية بين عرب بلاد الرافدين، خاصة مفهوم 'الحرية' الذي لم يحظ إلا بالقليل من الفهم[٦]. وقد شجّعت هذه

التطورات «بيل» لتناقش مع «كرومر» سُبل مساعدتها في إثارة التعاطف داخل بريطانيا مع حركة «تركيا الفتاة»[٧].

لكن رغم كل نوايا «بيل» الطيبة لإنتاج كتاب مشوق مزج بين الشئون الراهنة وعلم الآثار، إلا أنّ «من سلطان إلى سلطان» لم يحظَ قطّ باستقبال طيب عند نشره في العام 1911؛ ذلك أنّه لم يكن ينسجم بدرجة كبيرة مع أدب الرحلات بسبب تناوله المفصل للمواقع الأثرية، كما أنّ نظرته العامة على الأحداث الراهنة كانت بالغة التشتت ومحض انطباعات، درجة لا يُمكن معها أن تُعدّ تعقيبًا سياسيًّا حقيقيًّا. باع الكتاب عند صدوره بشكل جيد لحدٍّ ما، ربّما بسبب نجاح كتاب «الصحراء والزرع»، وافتتان الناس المتواصل بــ«بيل» كرحّالة جسورة، لكنه لم يتلق نفس الاستحسان النقدي والضجة العامة مثل الكتاب السابق. واشتكى أحد مُراجعي الكتاب من: «الأوصافُ التفصيلية للأنقاض»، التي كانت:«عُرضة لتجاهل حتّى المراجع يقظ الضمير»[٨]. وكتب صديقها «ديفيد هوجارث» أنّ الكتاب احتوى «بمادته العلمية الأنضج» على قدر أقل من «النشوة غير المبالية» التي كانت في كتاب رحلاتها السابق[٩]. لكن رغم تفاوت الاستقبال، أظهر كتاب «من سلطان إلى سلطان» قدرات «بيل» كمراقبة لا نظير لها لكل ما هو حديث وأثري في الشرق الأدنى، وقدرتها على تسجيلها بكل ما فيها من ثراء وتنوع.

أصدرت «بيل» إلى جانب «من سلطان إلى سلطان»، عددًا من الكتابات العلمية خلال تلك السنوات. فكتبت مقالًا في «الدورية الجغرافية» Geographical Journal، وصفت فيه رحلتها في جنوب ضفة نهر الفرات الشرقية[١٠]، وأسهمت بفصل مهم عن كنائس «طور عبدين» في الأناضول ضمن كتاب حمل عنوان «أميدا»، كان ناصحها وصديقها «سترزيجوفسكي» يقوم بإعداده مع صديقها الباحث «ماكس فان برشم»[١١]. مع ذلك كان أكثر ما يحظى بأهمية كبيرة لدى «بيل» هو قلعة الأخيضر والجهود التي بذلتها

للتحقق من تاريخ بنائها والمؤثرات التي ألقت بظلالها عليها، لاسيما بناءً على بعض المعالم المعمارية التي اُكتشفت داخلها مثل الأقبية. وكانت نتيجة بحثها مقال نشرته في «دورية الدراسات الهلنستية» Journal of Hellenic Studies صدر في العام 1910[١٢]، تعرّضنا لأغلب ما جاء به وقيمناه في الفصل الثالث.

أثار المقال الذي نشرته «بيل» عن الأخيضر في «دورية الدراسات الهلنستية» شهيتها، بدلاً من أن يضع خاتمة لجهودها المتعلقة بهذا القصر الصحراوي. إذْ كان الأخيضر يحمل عددًا هائلاً من الأسئلة التي بقيت دون جواب، وكانت «بيل» ترغب في أن تكون الشخص الذي يُجيب عن هذه الأسئلة. ولا ريب أنّها أحسّت بأنّها الشخص الأنسب للقيام بهذا المشروع؛ مع المزيج المعقد من الإلهامات التي استوحاها الأخيضر من اليونان وروما والشرق الأدنى، نظرًا لمعرفتها الكبيرة بكل هذه المناطق. لكن أيًّا كان الأمر، فقد كان من الواضح أنّ هناك ضرورة لمزيد من البحث الميداني، ومن ثمّ قبل انتهاء العام 1909 كانت «بيل» تخطط للقيام بمزيد من المغامرات خارج بريطانيا. ولم تستلزم رحلتا العامين 1910 و1911 رحلة ثانية إلى بلاد الرافدين فحسب– شملت رحلة قصيرة ومثيرة في الآن ذاته إلى الحدود الفارسية؛ بل اشتملت على السفر لفحص بقايا أثرية في إيطاليا والساحل الدلماسي. وعقب عودتها من هذه الرحلات، مكثت «بيل» وقتًا طويلاً تراسل وتتشاور فيه مع باحثين آخرين حول البقايا الأثرية التي رأتها، إضافة إلى صياغة وكتابة ما توصّلت إليه من نتائج.

إيطاليا والسّاحل الدلماسي، 1910

«أمّي العزيزة. لقد بدأت حياتي طالبة [إن كنت قد نسيتني] وكنتُ أعمل طيلة النهار بأحد القصور؛ تارة في المعهد الألماني وتارة أخرى في هضبة «بالاتين». ولكم كان عملاً مبهجًا حدًّا يتجاوز قدرة الكلمات على

الوصف»[١٣]. تلك كانت مشاعر «بيل» عندما كانت تكتب إلى بلادها من روما في فبراير العام 1910. لم تكتف «بيل» قطّ بالسفر لأجل متعة خالصة بلا هدف، حتّى في مكان كان يوفّر كثيرا من المباهج الثقافية المختلفة مثل روما، فكانت تُكرّس نفسها لتتعلّم قدر ما يُمكنها عن الآثار المعمارية الرومانية، وأن تفهم قدر المستطاع صفوة الباحثين الكلاسيكيين المُقيمين هُناك.

لا تُشير أي من رسائل «بيل» الموجودة إلى أسباب بعينها دفعتها للسفر إلى إيطاليا، لكن لابد أنّ اهتماماتها الأركيولوجية آنذاك- التي كانت تتعلق أساسًا بقصر الأخيضر في بلاد الرافدين، وعناصره المعمارية المستلهمة من التقاليد اليونانية الرومانية- هي ما شكّلت حافزها الرئيس. وكانت «بيل» وقتئذ قد أنهت للتو مقالها حول الأقبية في الأخيضر، الذي تقدّمت به إلى «دورية الدراسات الهلنستية»[١٤]، وكانت لا تزال مشغولة في المقام الأول بالعلاقة المُحتملة التي تربط الأقواس بروما والغرب، وهو الأمر الذي لم تكن قد درسته بتأن حتّى اللحظة.

من الواضح أنّ «بيل» أثناء وجودها في روما كانت ترغب في قضاء مزيد من الوقت مع أركيولوجيين، لا مع أصدقاء أو معارف آخرين. ذلك أنّ للفئة الأولى كان يأتي ذكرها كثيرًا في رسائلها قبل وبعد رحيل أبيها؛ الذي رافقها أثناء السفر إلى روما عشرة أيام على الأقل في فبراير[١٥]. ويبدو أنّ «بيل» حين بقيت بمفردها في روما طيلة ما تبقى من فبراير وحتّى مارس، تعمّقت ثقافتها حول الزخرفة والعمارة الرومانية، خاصة بعد أن ألقت محاضرة ربما كانت بالمدرسة البريطانية في روما. وتذكر «بيل» أنّ المحاضرة حضرها: «جمهور مميز جدًا من الأساتذة»[١٦]. ومن المرجح أن تكون المحاضرة التي ألقتها «بيل» في هذه المناسبة كانت حول ما توصّلت إليه في الأخيضر، وأن تكون قد حظيت بردود أفعال حماسية ومفيدة من الحاضرين.

حضرت «أوجيني سترونج» Eugénie Strong؛ صديقة «بيل» منذ زمن طويل والمدير المساعد آنذاك للمدرسة البريطانية في روما وربّما الشّخص الذي رتّب هذا اللقاء، هذه المحاضرة (انظر شكل ٥-١). وقد ظلّت «سترونج» تحمل هذه الصفة حتّى العام 1925؛ فساعدت على تحويل المعهد إلى مركز ثقافي وعلمي رائد[١٧]. وكانت تربط «سترونج» علاقات جيدة مع أفراد في بريطانيا؛ إذْ كانت قد انتقلت إلى مجتمع لندن الراقي أثناء شبابها، ثمّ استفادت من زواجها من «سانفورد أرثر سترونج»Sanford Arthur Strong؛ وهو باحث متخصص في اللغات والأدب الشرقيين ومؤرخ فنّي، عمل مديرًا لمكتبة دوق «ديفونشير» في «شاتسورث هاوس» بمقاطعة «ديربيشاير»[١٨]. وقد ظلّت «أوجيني» نفسها تتولّى هذا المنصب طوال أربعة أعوام بُعيد وفاة زوجها في العام 1904. كما كانت باحثة ماهرة جيدة التمرين في حقل الفن والأركيولوجيا الكلاسيكيين. تلقت تعليمها في كامبريدج والمدرسة البريطانية في أثينا وميونخ، حيث تلقت العلم على يدّ عالم الآثار الكلاسيكية «أدولف فورتفانجلر»Adolf Furtwängler والعالم اللغوي «لودفيج تراوب» Ludwig Traube[١٩]. لكن اهتماماتها شهدت تحولًا تدريجيًا من الفن اليوناني إلى الروماني، ونشرت خلال الفترة التي أمضتها في روما حيث عاشت حتى وفاتها في العام 1943، كثير من الكتابات حول الفن - لاسيما النحت- والدين الرومانيين[٢٠].

كانت «بيل» إبّان رحلتها إلى روما في العام 1910 تعرف «أوجيني» منذ فترة. ذلك لأنّهما كانتا تتنقلان داخل نفس دوائر المجتمع البريطاني، وكانت تربط عائلتيهما علاقة تعارف[٢١]. كانت «بيل» تعرف «سانفورد أرثر سترونج» الذي عرض عليها أن يعلمها اللغة الفارسية في العام 1892 قبل رحيلها إلى بلاد فارس[٢٢]. ولاحقًا في العام 1896، تعلّمت على يديه اللغة العربية في لندن حيث عُين أستاذًا للغة العربية في «كلية لندن الجامعية»، وقرأ على مسامعها ترجمات لقصائد الشاعر الفارسي «حافظ الشيرازي»[٢٣]. وقد استمرّت علاقة «بيل» مع «أوجيني» و«أرثر» بعد

زواجهما في العام 1897، ثمّ مع «أوجيني» بمفردها عقب وفاة «أرثر»[٢٤]. ترددت «بيل» أثناء وجودها في روما كثيرًا على «أوجيني»، بخاصة بعد سفر والد الأولى. ويسّرت علاقات «سترونج» بالمجتمع العلمي في روما لـ«بيل» التحرّك داخل هذا المجتمع، ولقاء زملاء «سترونج» بالمدرسة البريطانية في روما، وسماع المحاضرات- من بينها محاضرة ألقتها «سترونج»- والتجول بصحبتها في «هضبة بالاتين» ومنتدى وحمامات «كاراكلا».



شكل (٥-١) صورة «أوجيني سترونج» إحدى صديقات «جيرترود بيل» أثناء عملها مديرة مكتبة «شاتسورث هاوس» (1904- 1909)، قبل أن تتولى بفترة قصيرة منصبها مديرًا مساعدًا للمدرسة البريطانية في روما. كانت تربطها علاقات طيبة بالمجتمع العلمي في روما ما أتاح لها تقديم «بيل» لخبراء مختصين في العصور الكلاسيكية القديمة مثل «توماس آشبي» و«إستر فان ديمان» و«ريتشارد ديلبروك».

تعرّفت «بيل» كذلك على مدير المدرسة البريطانية في روما- وأقرب زميل عمل لــ«سترونج»- «توماس آشبي» Thomas Ashby. أمضى «آشبي» الذي عُين بالمدرسة البريطانية في العام 1906 أغلب شبابه في روما، ليُصبح باحثًا بارزًا في طوبوغرافيا وآثار المدينة وسهول «كامباجنا» المُحيطة[٢٥]. سار على قدميه وامتطى دراجات دون كلل ليطوف بأرجاء ريف روما، يتحرّى ويُسجّل جميع النقوش الموجودة والآثار الرومانية، ويحاول وضع هذه اللقايا داخل سياقها التاريخي المناسب[٢٦]. وهكذا حظيت المدرسة البريطانية في روما بوجود «توماس آشبي» مُديرًا لها، و«أوجيني سترونج» مساعدة للمدير، وبفريق متوازن وقوي أكاديميًا ستصل المدرسة من خلاله إلى ذروة نجاحها ومجدها. كان «آشبي» خبيرًا في طوبوغرافيا روما والمناطق المُحيطة بها، في حين تخصصت «سترونج» بالفن الروماني الموجود في صالات العرض[٢٧]. إضافة إلى ذلك، كان «آشبي» خجولًا بشكل مؤلم وتنقصه الكياسة الاجتماعية، أمّا «سترونج» فكانت متحققة اجتماعيًا وأثرت منصبها بشبكة متطورة من الصلات؛ إذ لم تدعم المدرسة البريطانية بباحثين إيطاليين وأوروبيين مهمين آخرين فحسب، بل ساعدت في توفير التمويل الضروري[٢٨]. لم تذكر «بيل» شيئًا عن حياء «آشبي» في رسائلها، بل اكتفت بالإشارة إلى أنّه كان يقضي أغلب وقته: «مهرولاً بالقرب منّا»[٢٩]. وفي مناسبة واحدة على الأقل، تكتب «بيل» عن الخروج في نزهة ممتعة للغاية على متن سيارة، عرض خلالها «آشبي» عليها وعلى رفاقها أنقاض الفيلات القريبة من تلال «كامباجنا»[٣٠].

كانت العلاقة التي ربطت «بيل» بعالمة الآثار الأمريكية «إستر فان ديمان»Esther Van Deman ذات أهمية خاصّة؛ وهي: «امرأة أمريكية بسيطة لطيفة ضئيلة الحجم» كما تصفها «بيل» في إحدى رسائلها (انظر شكل ٥-٢)[٣١]. ربّما التقت «فان ديمان» مع «بيل» بالمدرسة البريطانية في روما، ولعلها

استمعت لمحاضرة «بيل» وكانت بين «الجمهور المميز جدًا من الأساتذة» الذي حضر[٣٢]. وتظهر رسائل «بيل» أنّ المرأتين مكثتا سويًا فترة كبيرة من الوقت، تفحصتا خلاله الأنقاض الرومانية داخل هذه المدينة، ومن بينها «هضبة بالاتين» والمنتدى والمعسكر البريتوري وحمامات «تارجان» وحمامات «كاراكالا». كما رافقت «فان ديمان»«بيل» في نزهتها بصحبة «توماس آشبي» إلى «كامباجنا»، حيث زارا أنقاض الفيلات. ولاحقًا، ذهبت هي و«بيل» إلى مدينة «تيفولي» لزيارة «فيلا هادريان»[٣٣].

وجدت «بيل» في «فان ديمان» رفيقة ودودة وباحثة مذهلة بالأركيولوجيا الرومانية. إذْ حظيت «فان ديمان»؛ التي كانت قد بلغت الأربعيني من عمرها بحلول العام 1910 وتعيش في روما، على سمعتها العلمية بسبب عملها الشامل والمفصل عن العمارة الرومانية، خاصة استعمال الإسمنت وأساليب طلاء الجدران، وهي موضوعات تُعدّ الآن من روادها[٣٤]. حيث استخدمت مظهر وحجم الطلاء الحجري والملاط الإسمنتي في تحديد تاريخ بناء مباني روما، وهو نهج نراه في دراستها عن «مجمع العذروات الفستاليات» الإمبراطوري، التي نشرتها في العام 1909[٣٥]. وقد اتبعت هذا الكتاب بمقالين مهمين آخرين نشرتهما في «الدورية الأمريكية لعلم الآثار» American Journal of Archaeology (1912)، تناولتا أيضًا تعيين تاريخ بناء المباني الرومانية من خلال الطوب والملاط المستعمل[٣٦]. لكن رغم أنّه قد تبين أنّ نهج «فان ديمان» في تحديد تاريخ البناء معيب، فإن جهودها لا تزال جديرة بالثناء بسبب نطاقها وملاحظاتها الوثيقة. إضافة فإن أغلب ما نشرته كان مصحوبًا بأشكال توضيحية بارعة تضم مخططات معمارية متقنة، وصورًا فوتوغرافية واضحة وزاهية[٣٧].



شكل (٥-٢) صورة عالمة الآثار الأمريكية «إستر فان ديمان» إلى جانب مبنى روماني مُشيد بالطوب. أثناء زيارتها إلى روما في العام 1910، تكررت لقاءات «بيل» و«فان ديمان» وزارتا معًا الكثير من المواقع الأثرية الرومانية. وقد تأثَّرت أيضًا باهتمام «فان ديمان» بالمواد القديمة وأساليب البناء، والنهج الحريص الذي سجّلت به مثل هذه التفاصيل في بحثها الأركيولوجي.

كانت «فان ديمان» بحلول العام 1910 قد أصبحت على علاقة وثيقة بـــ«توماس آشبي»، ويتضح في رسائلها إلى «بيل» أنّها حملت تقديرًا كبيرًا له. ستتوج لاحقًا العلاقة العلمية بين «فان ديمان» و«آشبي»؛ بالفترة بين 1924 و1931، بتعاون مُثمر حول كل ما وصل إلينا من قنوات الماء المارة فوق الجسور داخل روما وبالقرب منها، أرسيا خلاله تواريخ بنائها ورسما مساراتها داخل المدينة[٣٨].

عرفت «فان ديمان»«سترونج» أيضًا وأحبتها[٣٩]، وراق لها عمل «آشبي- سترونج» الجماعي بالمدرسة البريطانية. ونرى في إحدى رسائلها إلى «بيل»، تقييمها الساحر لذلك العمل المُشترك:

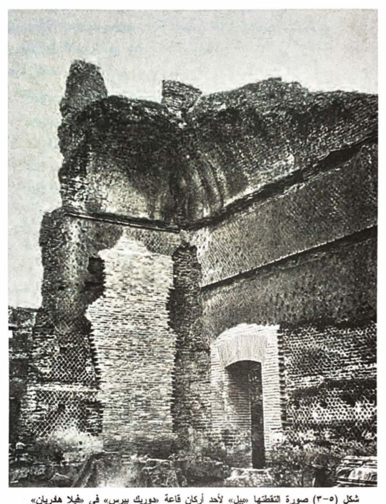
> عملي ليس مُثيرًا - رغم لكتشافي عددًا من الحقائق الجديدة مؤخرًا. أشقّ طريقي الآن بين المستويات الموجودة فوق هضبة بالاتين وداخل المنتدى، وأجد هُناك ما يُضيف قيمة كبيرة لبحثي حول 'الطوب'. أظنّ أنّ السيد «آشبي» يحتفظ معه: «بمشروعي الخاص بالبناء بالطوب»، لكنه لم يرسله بعد إلى السيدة «سترونج» أو إلى السيد «ستيوارت جونز» كما سمعت. لذا أتمنّى لو يتبادل السيد النبيل والسيدة «سترونج» مكانيهما؛ إذْ لا تروق له الواجبات العامة ويتمنى لو أنجزتها هي بدلاً منه، في الوقت الذي تنجز فيه السيدة «سترونج» هذه الواجبات بشكل رائع. لكنّي آمل ألا يقع أي تغيير؛ إذْ يعملان معًا بشكل رائع، وهو شديد الإخلاص والعذوبة معها بكل الطرق- فلن يغدو كل الرجال جذّابين. كما أنّه باحث دقيق ومؤهل ويلقى احترامًا في كل مكان بسبب قدراته الحقيقيّة وجهوده المفيدة. وتتبدّى إدارة المدرسة مثالية مع وجودها هُنا، أرجو فحسب أن يسمحوا للسيدة «سترونج» بمزيد من الوقت للعمل في العام القادم- فهي تعجز عن التصرف بغلظة، لكن ما أشقّ أن يتعامل المرء باستمرار مع عدد هائل من الأفراد؛ إذْ يستنزف ذلك حيويته، لاسيما في مناخنا[٤٠].

لابد أن «بيل» أُعجبت بحيوية واجتهاد «فان ديمان»، ولا ريب أنّها رأت بعضًا من نفسها في هذه المرأة ضئيلة الحجم، التي غالبًا ما كانت تُجري أبحاثها الميدانية بمفردها، ومع ذلك نجحت في جمع قدر هائل من البيانات المعمارية التفصيلية، مثلما كانت «بيل» تسعى تمامًا. وقد شهدت «بيل» بشكل مباشر منهج «فان ديمان» المركز والدقيق في التعاطي مع البقايا الأركيولوجية. ففي إحدى المناسبات في روما؛ في معية أبيها، تعلّق

«بيل»: «تفحّصنا بصحبتها ذات صباح كل حجر في المنتدى»[٤١]. وفي مناسبة أخرى، تروي «بيل» كيف انضمّت إلى «فان ديمان» في حمامات «كاراكلا» وأنّهما: «عملا سويًا بها طوال فترة ما بعد الظهيرة»[٤٢]. وبدلاً من أن تجد تلك الملاحظات الوثيقة عن الأنقاض الرومانية مضجرة، تصفها «بيل» بأنّها: «تسترعي الاهتمام بدرجة كبيرة». لقد بثّ فيها ما فهمته عن تلك الإنشاءات المعقّدة الحياة، كما هو واضح من تعليقاتها حول زيارتها مع «فان ديمان» إلى حمامات «كاراكلا»: «لكم هو شعور مُبهج أن تبدأ في فهم تلك الأشياء. إنّ شعورًا غامرًا بالإثارة يجعلني أنتزع نفسي بشقّ الأنفس لتناول الغداء!»[٤٣].

نرى في «بيل» حافزًا مماثلا لتقديم ملاحظات واضحة وتفصيلية عن طرائق البناء والاعتبارات التقنية في أوصافها للمباني القديمة (انظر شكل 3.5). يتضح ذلك لأقصى درجة في رسالة كتبتها لـــ«فان ديمان» من الساحل الدلماسي الذي سافرت إليه من روما في أبريل العام 1910، بهدف دراسة الأنقاض الرومانية والاطلاع على تأثيراتها خارج إيطاليا. ذلك أنّها لم تجد مانعًا من الاسترسال في الوصف كما هو الحال حين كانت تكتب إلى والديها؛ نظرًا لولع «فان ديمان» بالدقة. إضافة إلى أنّ الأخيرة ربما كانت مهتمة حقًا بملاحظات «بيل». وتضم التفاصيل التي كتبتها «بيل» عن قصر «دقلديانوس» في مدينة «سبليت» (أسبَالطو) ما يلي:

> الآن، كانت قبة الردهة مُشيدة من حلقات من الحجر المسامي والطوب، بشكل غير منتظم تمامًا، مدماك أو مدماكان من الطوب ثمّ ثلاثة أو أربعة مداميك من الحجارة مع الملاط. ومن دون حشوة، يرتفع بناء الطوب والحجارة. قوالب الطوب مستطيلة، بل مربعة في حقيقة الأمر، حوالي 32 إلى 35 سنتيمترًا مربعًا، وسُمك من 2 إلى 4 سنتيمترات. أمّا الملاط فيبلغ سمكه من أربعة إلى خمسة سنتيمترات[٤٤].



شكل (٥-٣) صورة التقطتها «بيل» لأحد أركان قاعة «دوريك بيرس» في «فيلا هادريان» بتيفولي (إيطاليا). ربما لم تستلهم «بيل» مسعاها لتصوير هذا المبنى من اهتمامها بالبناء بالطوب، بل من اهتمامات «فان ديمان»؛ رفيقتها في السفر التي لفتت انتباهها إلى أسلوب البناء الشبيه بالشبكة المعروف باسم «opus reticulatum»، وإلى أطواق الطوب الأفقية والرأسية حول المدخل.

استقبلت «فان ديمان» رسالة «بيل» بدفء؛ حتّى وإن كانت التفاصيل التي ذكرتها الأخيرة تقع خارج نطاق أساليب البناء التي اعتادت عليها في روما:

استرعت «أسبالطو» اهتمامي كثيرًا، فضلًا عن إصرارك الكبير على أن تكتبي لي كل تلك الحقائق المُثيرة. لم أعد أندهش من أي شيء قد يفعله الرومان، بعد «البازيليكا» في «ترير» المُشيدة من الطوب الصلب والطوب المُربّع أيضًا، لكنّي آسفة لأنّهم يجربون *الكثير* من الأساليب الجديدة[٤٥].

لا نرى في كتابات «بيل» المنشورة دليلًا واضحًا ومباشرًا على وجود تأثير لـ «فان ديمان» عليها، رغم أنّنا نستطيع أن نتبيّن وجود هذا التأثير بصورة غير مُباشرة. ذلك أنّ تغطية «بيل» لقصر الأخيضر؛ ملاحظاتها وقياساتها وأوصافها الدقيقة للطوب والأقواس والأقبية، إضافة إلى تعليقاتها المفصلة حول المنشآت بأماكن أخرى، تُحاكي تشديد «فان ديمان» على مثل هذه الأمور[٤٦]. وبرغم أنّها منسوخة من ملاحظات «أوسكار رويتر» التفصيلية عن الأخيضر، فإن تقنيات مُعيّنة- مثل بناء أقواس النصر، وبناء الأقواس باستخدام حوامل خشبية- تعكس تقدير «بيل» لمثل هذه الموضوعات، ربّما في أعقاب اطّلاعها على تعليقات «فان ديمان» الدقيقة في روما[٤٧]. وأخيرًا، ربّما يعود الفضل لحدّ ما في استهداف «بيل» تسجيل التفاصيل؛ لا من خلال مخططاتها ودفاترها فحسب، بل من خلال صورها الفوتوغرافية أيضًا، إلى «فان ديمان» التي كانت سجلاتها الفوتوغرافية عن أعمال البناء في طلاء الجدران غزيرة وشديدة التدقيق[٤٨].

طوال حياتي «بيل» و«فان ديمان» الحافلتين بالأحداث، لم يتقاطع مسارهما سوى مرتين اثنتين خلال تلك الأيام السعيدة في روما في العام 1910، وكانت المدة التي تبادلا خلالها الرسائل قصيرة. رغم ذلك، تُظهر

رسائلهما حالة واضحة من الودّ والاحترام. إذْ عدّت «بيل» «فان ديمان» من بين: «صديقاتها الحميمات» في روما، وعبّرت «فان ديمان» التي يُمكن أن نعتبرها متحفظة وفجّة مع البعض، عن إعجابها بصديقتها من خلال توقيع رسائلها بعبارتي «مع خالص المودّة» أو «مع خالص الإخلاص والمودّة»[٥٠]. وتنقل تعليقاتها إلى «بيل» إحساسها بالعثور على روح طيبة أخرى، وجدت متعتها في استكشاف الأنقاض القديمة بعيدًا عن صخب حياة المدينة: «لكم تمنيت لو كنت هنا كي نخرج معًا إلى تلك التلال البرية»[٥١]، و: «تمنيت لو كنت هُنا كي نتجول قليلًا بين الأقبية؛ إذْ لا تزال التلال هُنا رائعة»[٥٢]. أتساءل عن الإنجازات التي ربّما كان الممكن أن تحققها هاتان المرأتان الفريدتان لو مزجتا مواهبهما المهنية. لكنها كانتا شديدتي الاستقلالية، والعلامات التي تركاها خلال مسيرتيهما العملية الجديرة بالاحترام لم تتحقق لحدّ كبير إلا من خلال «السعي إليها» بمفرديهما.

من بين كل علاقاتها في روما، يبدو أنّ علاقة «بيل» مع «ريتشارد ديلبروك» Richard Delbrück (1875– 1957)؛ وهو خبير ألماني بارز في العمارة الرومانية الجمهورية المبكرة، هي التي تركت أبلغ الأثر على بحثها المتعلق بالأخيضر والعمارة الإسلامية المبكرة[٥٣]. ذلك أنّ «بيل» لم تهدر ثانية واحدة عند وصولها إلى روما، وسارعت بالبحث عن «ديلبروك» الذي كان وقتذاك أول أمين للمعهد الألماني للآثار في روما. ويبدو أنّ «ديلبروك» راق له ما في طبيعة اهتمامها المكثف به وفضولها الفكري نحوه من تزلف، فكرّس نفسه لها عن طيب خاطر. ومن ثمّ أمضت «بيل» خاصة بعد عودة والدها، وقتًا طويلا مع «ديلبروك»- في زيارة مواقع في روما والاستماع إلى محاضرات ومناقشة موضوعات مثل الأقبية، أو ببساطة قراءة كُتب أوصى بها بالمعهد الألماني[٥٤]. كذلك نصح «ديلبروك»«بيل» بزيارة أماكن أخرى في إيطاليا، وأعطاها دليلاً لأسبالطو، وزودها بخطاب توصية لمدير

الآثار في «سبليت» على الساحل الدلماسي[٥٥]. وتتضح قوة علاقتهما والإعجاب المتبادل بينهما في رسالة كتبتها «بيل» إلى أمّها:

صباح أمس أمضيت ثلاث ساعات مع «ديلبروك» الذي أتاح لي أروع مقال سمعت به يومًا عن تاريخ العمارة. كان المقال في الأصل محاضرة ضمّنها كل ملاحظاته وكتبه من أجل توضيح ما يودّ قوله. لكم هو رجل غير عادي أفهم من خلال حديثه كل ما كان غامضًا بالنسبة لي في السابق. وقد أنهى حديثه بالقول إن جهلي بالآثار الرومانية أمرٌ سخيف، وأنّه يتعيّن عليّ المجيء إلى هُنا ستة أسابيع من أجل الدراسة[٥٦].

أتساءل في ضوء الوقت الطويل الّذي أمضياه معًا، ما إذا كانت قد تولّدت عاطفة ما بين «بيل» و«ديلبروك»، رغم عدم وجود ما يدل على ذلك[٥٧]. وعمومًا، انعكس تقدير «بيل» العلمي المستمر لــ«ديلبروك» في الدراسة التي نشرتها عن الأخيضر في العام 1914، التي تتناول فيها الأشكال المعمارية الإسلامية المبكرة ومواد وأساليب البناء، والتأثير الذي استوحته من العمارة في روما. وعمليًا كل الإحالات المتعلقة بانتقال الأشكال الهلنستيّة إلى إيطاليا الرومانية؛ بخاصة الأقبية وزخارف الجدران مثل المحاريب المُحاطة بعمودين اثنين، وانتقالها اللاحق إلى الشرق الأدنى– على نطاق أفخم وأوسع انتشارًا الآن – هي لكتاب «المباني الهلنستيّة في منطقة لاتيوم» Hellenistische Bauten in Latium لــ «ديلبروك»[٥٨]. حيثُ اعتبرت «بيل» هذه الدراسة حُجة في مجالها، ووجدت في «ديلبروك» باحثًا انسجمت جهوده لتتبع تطور الأشكال المعمارية عبر الزمن وعبر المكان، مع تأكيدها المنهجي على هذه الصيرورة، التي تُعد ملمحًا حاسمًا بنقاشها حول منشأ القصر الإسلامي.

انطوى الجزء الأخير من رحلة «بيل» إلى إيطاليا على جولة قصيرة بالساحل الدلماسي بيوغوسلافيا على الجانب الآخر من البحر الأدرياتيكي،

حيثُ أرادت زيارة المواقع الأثرية التي تعود للعصرين الروماني والقديم المتأخر. لا ريب أنّ بحثها المستمر المتعلق بانتقال المعالم المعمارية بين الشرق والغرب خلال هاتين الفترتين قد عجّل بتلك الزيارة،التي حفّزتها دراسة «بيل» للعصر الإسلامي المبكر في بلاد الرافدين، إلى جانب دراستها المستمرة للكنائس الأناضولية بالعصر القديم المتأخر. وهكذا، غادرت «بيل» روما في السابع والعشرين من مارس، ومكثت ليلتين في «أسبالطو» شرق إقليم «أومبريا»، قبل أن تصل إلى مدينة «أنكونا» وتعبر الأدرياتيكي. وما إن وصلت مدينة «سبليت» (أسبالطو) على الساحل الدلماسي فى الثلاثين من مارس، حتّى قامت بتفقد سريع للآثار التي جاءت لأجلها وهي: قصر «دقلديانوس» في «سبليت»؛ الكاتدرائية والحصن الفينيسي في «شيبينيك» (سيبينيك)؛ البازيليكات[*] المسيحية المبكرة في «سولين» (سالونا الرومانية التي شهدت ميلاد الإمبراطور «دقلديانوس»)؛ بلدة «تروغير» (تراو) القروسطية المسورة على الساحل شمالًا؛«زادار» (زارا) و«بولا». ومن مدينة «بولا» سافرت «بيل» إلى «تريستا» ثمّ عادت إلى مدينة «أوديني» و«رافينا» داخل إيطاليا، حيثُ وصلت إلى المدينة الأخيرة في السابع من أبريل.

قامت «بيل» بمفردها بهذه الرحلة إلى «دالماسيا»، ورغم ذلك تعارفت في طريقها على كثيرين أغلبهم من علماء الآثار. منهم «ماكس دفوراك» Max Dvořák – مؤرخ فنّي بارز ينتمي لمدرسة فيينا لدراسة تاريخ الفن وأحد خصوم «جوزيف سترزيجوفسكي» – و«إميل رايش» Emil Reisch مدير المعهد النمساوي لعلم الآثار[٥٩]. كذلك تعرّفت «بيل» على عالم الآثار

---

[*] البازيليكا Basilica هي قاعة رومانية مستطيلة الشكل تحمل سقفها مجموعة من الأعمدة التي تخلق صحنًا مركزيًا مُحاطًا بأجنحة على الجوانب، وقد أُضيف إليها لاحقًا محراب في نهايتها. كانت تُستخدم للتقاضي واللقاءات العامة. وقد تمّ تبنّي هذا المُخطط في عمارة الكنائس البيزنطية. [المُترجم]

الألماني «جورج نيمان» Georg Niemann، الذي اشتهر بأبحاثه وعمله الميداني في اليونان والأناضول، إلى جانب دراسته المعمارية الدقيقة لقصر «دقلديانوس» في «سبليت»[٦٠].

استمر الحرص الذي تسجل به «بيل» ملاحظاتها المعمارية حول المباني الأثرية خلال تلك الرحلة، كما تتضح في رسالتها إلى «فان ديمان» التي ذكرناها من قبل، والتي تقدم فيها تعليقات تفصيلية عن مواد البناء وأساليب التشييد في قصر «دقلديانوس». وتنمّ الصور الفوتوغرافية التي التقطتها للمواقع التي زارتها؛ وأغلبها للأقبية والأعمدة والتيجان والأفاريز المنحوتة، عن اهتمامها المستمر بالزخارف المعمارية وأساليب وتقنيات البناء[٦١]. وكانت ترصد طيلة الوقت الأثر الذي تركه الشرق على عمارة المنطقة، حيثُ لاحظت في قصر «دقلديانوس» على سبيل المثال أنّ: «الشرق يخطو للأمام فجأة، فيمزج السواكف ويحولها إلى أقواس، ويضع زخارف جديدة أسطورية فوق كل كورنيش، ويُشيّد بناءً على مُخطط معسكر سوري قصرًا لأحد الملوك»[٦٢]. وقد كتبت عند زيارتها إلى مدينة «تروجير» أنّ أقبية الكاتدرائية مأخوذة: «بشكل مباشر من بيزنطة»[٦٣]، وأنّ بازيليكا مقباة صغيرة في تلك البلدة نجد لها مثيلًا بسواحل الشرق[٦٤]. وفي «زادار» تفحّصت كنيسة تعود للقرن التاسع «شرقية الطابع»[٦٥]. هذه التلميحات للشرق ذكّرت «بيل» أيضًا بالمتعة التي أحسّت بها أثناء استكشاف هذه الأراضي، وأيقظت رغبتها من جديد لزيارتها مرّة أخرى. فكتبت أثناء وجودها في إيطاليا وزيارة «أسبالطو»:

تسلقت تلا خارج البلدة، ومشيتُ عبر دغل يمتلئ بأزهار الربيع و«الهيباتيكا» وشقائق النعمان والبنفسج، وكانت تقبع في الأعلى أنقاض كنيسة بالغة العزلة والجمال- وانتابني شعور بضرورة العودة إلى الشرق وتساءلت لم لا أجد «جوزيف» هناك يحمل لي الكاميرا، وفتوح كي يُمسك شريط القياس[٦٦].

تُظهر مثل هذه الأفكار بوضوح لأي حدّ تمكّن الشرق من «بيل»، ولَنّها لن تبقى بعيدة عنه مُدة أطول.

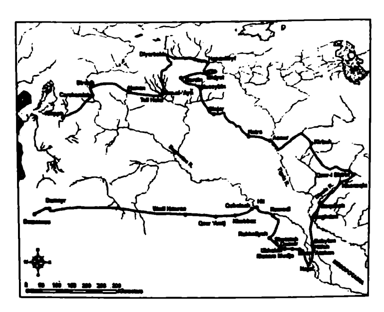
بلاد الرافدين وفارس، 1911

«لم أسمع شيئًا يتعلّق بالأمور السياسية- ولم أفكّر في شيء سوى علم الآثار. ولكم هو ساحر أن أنغمس فيه من جديد»(٦٧). هكذا كانت مشاعر «بيل» عند عودتها إلى القاهرة وبقائها يومين برفقة صديقيها؛ الباحثين «برنهارد موريتز» و«إينو ليتمان»، والحديث: «من دون توقف عن أصول الفن الإسلامي- تخللته ثرثرة عن الباحثين في هذا المجال»(٦٨). تلك كانت بداية رحلة «بيل» إلى الشرق التي ستبحر بعدها بفترة قصيرة إلى بيروت، ومن ثم تنطلق برًا إلى دمشق. ومن دمشق اعتزمت القيام برحلة جريئة على ظهور الجمال عبر الصحراء السورية، والاقتراب من قلعتها الأثيرة الأخيضر من جهة الغرب (انظر شكل ٥-٤).

كانت «بيل» على وشك زيارة الكثير من الأماكن التي سبق أن زارتها في العام 1909، لكن الرحلة التي قامت بها في العام 1911 كانت ذات طابع مُختلف. إذْ لم تكن هذه الرحلة للاستكشاف كما كان الحال في العام 1909، حين تخلّت عن المسار المألوف واقتحمت مناطق بعيدة كانت تقصدها تحديدًا. بل كانت لديها الآن قائمة بأماكن مُحددة أرادت زيارتها، وأهداف مُعينة ينبغي تحقيقها بكل مكان من تلك الأماكن. لقد صبّت تركيزها على المعالم التي يتعين رؤيتها وتخطيطها وتصويرها، ولم تهدر الكثير من الوقت بينها.

وفي ضوء مثل هذه الدوافع المُحددة التي أكدتها رسائل ويوميات «بيل»، سنعالج تخمينات الآخرين حول هذه المرحلة من حياتها، وطبيعة

اهتمامها بالشرق فترة ما قبل الحرب؛ لاسيما بلاد الرافدين، والغاية الرئيسة من وراء رحلتي العامين 1909 و1911. كانت بلاد الرافدين هي البلاد التي تركّزت فيها بشكل رئيس نشاطات «بيل» الذكية إبان الحرب التي اندلعت بعدئذ بسنوات قليلة، ومن ثمّ شاعت فكرة مفادها أنّ الطبيعة الحقيقية لرحلات «بيل» قبل الحرب انطوت على جمع معلومات للحكومة البريطانية. وما من ريب أنّ الباحث يُمكنه إدراك اهتمامها بالشئون السياسية الراهنة لهذه البلاد- يتضح بقوة؛ على سبيل المثال، في كتابها «من سلطان إلى سلطان» الذي يتضمن تعليقات طويلة حول بلاد الرافدين الحديثة وسيطرة الإمبراطورية العثمانية عليها. إلى جانب ذلك، نشهد في إهداء الكتاب؛ كما سبق أن أشرنا، نغمة سياسيّة ملحوظة في توجيهه إلى اللورد «كرومر». ونُضيف إلى هذا الانطباع آراء الآخرين ممن عرفوا «بيل» آنذاك مثل «فالتر أندري»، الذي سيكتب بعد فترة في منكراته أنّ شكًّا راوده بخصوص عمل «بيل» كجاسوسة، عندما زارته في آشور في العام 1911[٦٩]. لكن حين نتأمل قدر التبجيل الذي حملته «بيل» لـــ«أندري»، وإلى أي حدّ كانت تسعى لمحاكاة جهوده في دراساتها، وحقيقة أنّ سردها عن الأخيضر- أكبر إنجاز علمي كانت تفتخر به بلا منازع- أهدته إلى «أندري»، يتبدّى هذا التعليق في غير موضعه على نحو مدهش. لكن عمل «بيل» السياسي لاحقًا كان لافتًا للانتباه وذا طبيعة شديدة التغلغل، لدرجة كان من الصعب معها بالنسبة لكثيرين قبول أنّها لم تكن عميلة للحكومة البريطانية في بلاد الرافدين.



شكل (٥-٤) خارطة الشرق الأدنى تُظهر المسار الذي اتّبعته «بيل» أثناء رحلتها في العام 1911، التي ضمّت زيارات إلى الأخيضر والحدود الفارسية قبل أن تتجه إلى شمال بلاد الرافدين وعبر الأناضول.

لكن مسار رحلة «بيل» في العام 1911، يُبدِ أي أفكار تتعلق بأهداف وممارسات خاصة بجمع المعلومات. ذلك لأنّه رغم مرورها بدمشق وبغداد؛ حيثُ تدور الأمور السياسيّة، فإنها أمضت أغلب وقتها في الصحراء- متبعة على سبيل المثال، طريق القوافل القديم عبر الصحراء السورية إلى الأخيضر، أو شرقًا من بغداد حيثُ اجتازت الحدود الفارسية بجرأة من أجل زيارة الأنقاض في «قصر شيرين». وقد تفحّصت «بيل» أيضًا الأنقاض الموجودة في آشور والحضر، ثمّ سارعت لتشقّ طريقها إلى «طور عبدين»؛ لاستكمال زيارتها المسحية للكنائس المسيحية في تلك المنطقة البعيدة جنوب شرق الأناضول. كل هذه الأماكن لم تعد مراكز سياسية أو اقتصادية بالإدارة العثمانية، لكنها استرعت انتباه «بيل» أركيولوجيًا وكانت وثيقة الصلة

ببحثها، سواء المتعلق بالأخيضر أو العمارة الكنسية في العصر القديم المتأخر.

المباني المُحيطة بالأخيضر، أوائل مارس العام 1911

عرقل البرد القارس والثلوج الكثيفة الرحلة التي خططتها «بيل» عبر الصحراء السورية، واحتجزاها بضعة أيام[٧٠]. وفي النهاية غادرت المدينة في التاسع من فبراير، لكن رغم ذلك كان تقدمها بطيئًا، واستغرقت ما تبقّى من الشهر في عبور الصحراء الرطبة الباردة مع قافلتها المكونة من أدلّة وحرس وجمال، قبل أن تصل إلى بلدة «هيت» على نهر الفرات (23 فبراير)، ثمّ الأخيضر جنوبًا (الأول من مارس). وقد انطلقت «بيل» فور وصولها إلى القلعة، إلى إعادة قياس ورسم مخططات بعض معالم القلعة المعمارية، وتسجيل ملاحظات إضافية حول بنائها وتصميمها والتقاط صور فوتوغرافية للمعالم التي كانت قد أغفلت تسجيلها خلال زيارتها الأولى في العام 1909 (انظر أيضًا الفصل الثالث).

كانت «بيل» ترغب أيضًا خلال هذه الزيارة الثانية إلى الأخيضر في معرفة المباني المُحيطة بالقصر، والسياق الجغرافي والتاريخي الذي نشأ وتطور فيه الأخيضر، ومن ثمّ خصصت وقتًا لزيارة وتسجيل مواقع كان يسود الاعتقاد أنّها عاصرت الأخيضر وترتبط به بشكلٍ ما. ومن بين تلك المواقع مدينة «القصير» التي تقع على مسافة سبعة كيلومترات شمال غرب الأخيضر، التي امتطت «بيل» الجمال من أجل الوصول إليها يومًا كاملًا كي تفحصها وتصورها، وحيثُ لاحظت وجود القليل من البيوت إلى جانب صهاريج مستطيلة الشكل[٧١]. وقد خمّنت «بيل» أن يكون الجبس اللازم لتحضير الملاط المستخدم في بناء قصر الأخيضر قد جاء من «القصير»، وأنّها وفّرت كذلك مساكن لعمال الجبس[٧٢]. وقد أظهرت التحريات التي أُجريت في هذا الموقع خلال الآونة الأخيرة، أنّ الموقع كان مستوطنة تعود

للعصر الساساني الحديث ويضم بقايا كنيستين مسيحيتين[٧٣]. وبالتالي لابد أن الموقع يرجع لتاريخ سابق على الأخيضر، كما أنّه ما من دليل على تصنيع الجبس به كما افترضت «بيل». رغم ذلك، أثبتت الصور التي التقطتها «بيل» للعمارة القائمة بالقصير لَنها ذات أهمية كبيرة؛ إذْ كشفت دراسة مسحية أركيولوجية أُجريت مؤخّرًا بالقرن العشرين أنّ بعض هذه المنشآت انهارت واختفت[٧٤].

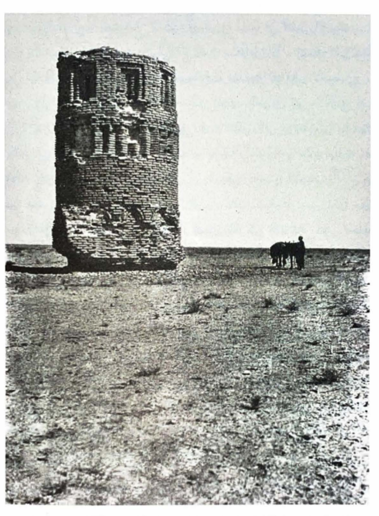
ما إن أنهت «بيل» عملها بالأخيضر حتى انطلقت إلى زيارة بعض الأنقاض المتناثرة في الصحراء، بين الأخيضر والنجف ونهر الفرات شرقًا. وكان أحد المواقع الذي وصلت إليه «بيل» بعد سفر ثلاث ساعات من الأخيضر عبر رمال الصحراء (حوالي 25 كيلومترًا)، برج مستدير مُهدم مبني بالطوب اسمه منارة «موجدة». إبان زيارة «بيل» في العام 1911، كانت كل المساحة المُحيطة بالبرج التي تضم المحاريب الغائرة ذات الرءوس المستطيلة أعلى المدخل لا تزال سليمة، مثلها مثل مداميك أعلى من الطوب ومدماك من الطوب البارز (انظر شكل ٥-٥)[٧٥]. لكن حين زار «كيبل كريزويل» المنارة في أوائل الثلاثينيات، كانت الكثير من مداميك الطوب العلوية قد اختفت بعدة أماكن. وعند زيارة كلٍّ من «باربارا فنستر» و«يورجن شميت» في العام 1973 كان ما يصل إلى عشرة مداميك من الطوب قد انهارت[٧٦]. واليوم، تعرضت المساحة التي تضم المحاريب الغائرة إلى شبه تدمير بعدة مواضع، مُظهرة للأسف ما حل بها من خراب كبير على مدار الأعوام المائة الماضية[٧٧].

يبدو أن منارة «موجدة» كانت تنتصب بمفردها حيثُ تخلو المنطقة المُحيطة بها من الأنقاض. ما دعا «بيل» إلى تخمين أنّها كانت بمنزلة علامة للقوافل المارة بهذا المسطح المستوي من الصحراء الممتدة من النجف إلى «عين التمر»، التي تقع على مسافة قصيرة شمال غرب الأخيضر، حيث

كانت توجد واحة[٧٨]. وقد ترددت«بيل» في تحديد تاريخ مؤكّد لبناء «موجدة»، باستثناء القول أنّه بناءً على طريقة تشييد قوسها البدائية، فلابد أنّها أقدم من المنارات المماثلة التي يعود تاريخ بنائها للقرن الثالث عشر الميلادي[٧٩]. ولتفق باحثون لاحقون زاروا هذه المنارة الفريدة على كونها علامة بالطريق المار بالصحراء باتجاه الأخيضر أو «عين التمر»، ولأنّها كانت جزءًا من «درب زبيدة»؛ وهو طريق الحجّاج المسلمين الذي ربط المركز الديني بالكوفة في النجف مع مكة والمدينة في الحجاز[٨٠]. وأشار بعض الباحثين إلى أنّ المنارة استوحت تصميمها من أبراج المُراقبة التي شُيدت في هذه المنطقة إبان العصر الساساني، والتي كانت وظيفتها حراسة الحدود الغربية جنوب بلاد الرافدين[٨١]. ويُفترض الآن أنّ منارة «موجدة» عاصرت الأخيضر، أو ربّما سبقته بالعصر الأموي قبل أن تبدأ المستوطنة بالمنطقة القريبة من «عين التمر» في التدهور[٨٢].

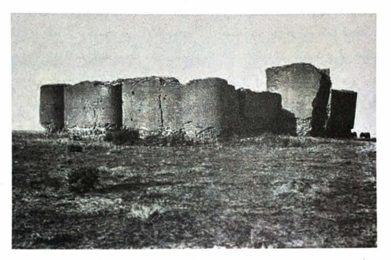
بعد بضع ساعات أخرى من السفر عبر الصحراء الممتدة بعيدًا عن «موجدة» في اتّجاه النجف، وصلت «بيل» وحاشيتها إلى «خان عطشان»؛ وهو محطة لاستراحة القوافل، حيث توقّفت «بيل» كي تُخيّم وخصصت وقتًا لرسم مُخطط للخان وتصويره (انظر شكل ٥-٦). ربّما كانت «بيل» في الواقع أول أوروبيّة تزور هذا المبنى وترسم مُخططًا دقيقًا له. وقد لاحظت مظهره الدفاعي المربع ذا الأسوار السميكة التي تدعمها أبراج مستديرة بارزة وبوابة مُحصنة[٨٣]. وفي الداخل فناء يضم صهريجًا للمياه موصول بحجرات مسقوفة، تبدو إحداها مثل إيوان مقبّى (رقم5)[٨٤]. ولاحظت أنّ العديد من معالم الخان المعمارية- بخاصة تصميم البوابة المحصنة وأسلوب بناء القبو ونصف القبة (في الغرفة رقم6)، والزخارف التي تغطي الأعمدة

المتصلة والمحاريب المقوسة- يُمكننا أن نراها أيضًا في قصر الأخيضر، ما يطرح فكرة أنّ بناءهما جرى في تاريخين متقاربين[٨٥]. إضافة إلى ذلك، أوحى لها موقع الخان في منتصف المسافة تقريبًا بين الكوفة والأخيضر؛ إلى جانب وجود منارة «موجدة» كعلامة على نصف الطريق إلى الأخيضر، أنّ المنارة لابد كانت جزءًا من الطريق نفسه الذي كان يربط بين كل تلك الأماكن في نفس الفترة الزمنية أو بعدها بقليل[٨٦]. ووافق «كريزويل»؛ في دراسته عن «خان عطشان»، على أنّ الموقع عاصر الأخيضر[٨٧]. كما خمّن؛ بسبب الإيوان المقبّى وحجرة قريبة كانت مسقوفة على نحو مميز بنصف قبة مبنية بحلقات من الطوب متحدة المركز (الغرفة G في مُخطط «كريزويل»، والغرفة 7 في مُخطط «بيل»)، أنّ الخان لم يكن خانًا عاديًا بل ربّما كان يستخدمه أميرٌ ما مثل عيسى بن أخ المنصور؛ الباني المُحتمل للأخيضر، الذي ربما تعامل مع خان «العطشان» باعتباره محطّة خلال رحلاته الموسمية إلى الكوفة لأداء صلوات الجمعة[٨٨]. وبنفس درجة إقناع التفسير الذي طرحه «كريزويل»، لفتت دراسة أحدث عن «خان عطشان» قدمتها «باربارا فنستر» و«يورجن شميت»، الانتباه إلى بعض المعالم المعمارية (مداخل مقنطرة أكثر استدارة ومصاريع أبواب مدوّرة) والفخار الذي لابد يرجع لتاريخ أقدم من الأخيضر، ومن ثمّ افترض الباحثان أن تكون الأنقاض تنتمي لعصر يسبق الدولة العباسية[٨٩].



شكل (٥-٥) صورة التقطتها «بيل» لبرج منارة «موجدة» بالقرب من الأخيضر جنوب العراق. رغم انهيار جزء من ارتفاعه الأصلي، فإن زخارف هذا البرج البارزة المبنية بالطوب ومحاريبه المستطيلة الموجودة بالمداميك السفلية وصلت إلينا سليمة. ربما كانت المنارة علامة في الطريق الممتد عبر الصحراء ككجزء من طريق الحجاج المسلمين إلى مكة والمدينة خلال أوائل العصر الإسلامي.

وتُشير صور «بيل» إلى: «حالة الخراب الشديدة التي طالت الخان، حيث كانت الشقوق الطويلة واضحة للعيان بالمبني المُشيد بالطوب، كما انهارت أغلب الإنشاءات العلوية والأسقف منذ زمن طويل»(٩٠). وكان ارتفاع السور المُحيط من الجهة الشرقية للمدخل الرئيس إبّان زيارة «كريزويل» بعد حوالي عشرين عامًا من زيارة «بيل»، قد نقص حوالي مترين اثنين؛ بسبب سرقة الطوب كما يبدو(٩١). كما أدّى التردّي الناجم عن التعرض لعوامل التعرية لتحطم جانب أكبر من القبو البرميلي الإهليلجي في الغرفة رقم 6، إبان زيارة «فنستر» و«شميت» بالسبعينيات(٩٢). واليوم لم يعد «خان العطشان» موقعًا يحظى بالاهتمام؛ بل صدى باهتًا لحالته الفخمة في قلب الصحراء قبل ما يزيد على الألف سنة.



شكل (٥-٦) استراحة القوافل في «خان عطشان» بالقرب من الأخيضر في قلب الصحراء، ونرى أبراجه المستديرة الخارجية. يُعتقد أن يكون المبنى سابقًا على الأخيضر رغم أنّ المكانين يشتركان في نفس المعالم المعمارية. وتُظهر الصورة الفوتوغرافية التي التقطتها «بيل» في العام 1911، الشقوق الطويلة بالمبنى إضافة إلى تحطّم الإنشاءات العلوية والأسقف. واليوم، يُعاني الموقع من مزيد من الانهيار.

تمثّل زيارة «بيل» والمخططات التي رسمتها لهذه المنشآت الصحراوية بالقرب من الأخيضر، أول محاولة مدروسة لتسجيل أنقاضها، ووضعها ضمن السياق الأوسع للصحراء الواقعة شرق الفرات، إلى جانب علاقتها المُحتملة بالأخيضر وتحركات البشر داخل المنطقة حين كان الأخيضر مأهولاً. وسيوسع أو يُنقح البحث اللاحق افتراضات «بيل» السابقة؛ لاسيما المتعلقة بتواريخ بنائها المُفترضة، لكن هذا البحث لا يزال متفقًا على أنّ خان العطشان ومنارة موجدة كانا جزءًا من نظام علامات أو محطات على طريق يبدأ من الكوفةِ مارًا بالصحراء، وأنّ الأخيضر نفسه كان متصلا أيضًا بهذا الطريق. وجميع الأوصاف والمخططات التي رسمتها «بيل» للقصير وموجدة وعطشان؛ التي نشرتها كاملة ضمن كتابها الذي أصدرته في العام 1914 بعنوان «قصر ومسجد في الأخيضر»[٩٣]، صحيحة جوهريًا، كما تحفظ لنا صورها الفوتوغرافية سجلًا مفيدًا للمنشآت التي آلتلمزيد التصدع أو اختفت تمامًا.

قصر شيرين

كانت مغامرة «بيل» وراء حدود بلاد الرافدين الخاضعة للسيطرة العثمانية، بالتخوم الفارسية شرقًا، أحد الجوانب الجسورة برحلتها في العام 1911. وكانت تستهدف من هذه الرحلة تحديدًا زيارة «قصر شيرين»؛ وهو موقع أثري يقع في إقليم «كرمانشاه» ببلاد فارس. وقد عززت دراستها عن العمارة البلاطية الساسانية وأثرها على موقع الأخيضر اهتمامها بهذا الموقع، إضافة إلى معرفتها بوجود أنقاض واحد على الأقل من القصور الساسانية هناك حسب الاعتقاد الذي كان سائدًا. فحسب التراث الأدبي، أقام آخر الملوك الساسانيين «كسرى الثاني» (٥٩٠- ٦٢٨ ميلاديًا) أحد قصوره هناك تكريمًا لملكته المحبوبة «شيرين».

كان عالم الآثار الفرنسي «جاك دي مورجان» Jacques de Morgan قد سبق أن تحرّى «قصر شيرين» أثناء توقفه هناك لفترة قصيرة في العام 1891، ونشر المخططات التي رسمها للمباني الرئيسة التي زارها في كتابه «مهمة علمية في فارس» Mission Scientifique en Perse[٩٤]. كانت «بيل» على دراية بتقرير «دي مورجان» عن الموقع، لكن لم تكن بحوزتها المخططات الفرنسية، ومن ثمّ لم يكن بوسعها تأكيد أو رفض بعض العناصر المعمارية التي أشار إليها «دي مورجان»، التي كانت «بيل» تعتبر أغلبها محض تخمينات[٩٥]. وكانت زيارتها تستهدف الحصول على وصف كامل للموقع وتقييم لأي حدّ ألهم تصميمه الساساني المفترض قصور العصر الإسلامي اللاحق، مثل الأخيضر.

بعد أن غادرت «بيل» بغداد في التاسع عشر من مارس العام 1911، سافرت باتجاه الشمال الشرقي بمحاذاة نهر «ديالي» تقريبًا، قبل أن تعبر تلال «جبل حمرين» إلى بلدة «خانقين» على نهر «الوند» بالثاني والعشرين من مارس[٩٦]. ومن هناك اتجهت إلى التخوم الفارسية خلف الحدود العثمانية، لتصل إلى «قصر شيرين» في الثالث والعشرين من مارس. وستمكث في الموقع حتى السادس والعشرين من مارس، وخلال هذه الفترة قاست ورسمت مخططات وصورت أنقاض الموقع. وعند رحيلها، سافرت باتّجاه الشمال الغربي حيث الحدود التركية الفارسية التي تجاوزتها لتصل إلى «كركوك» في الحادي والثلاثين من مارس، وهناك تفقدت كنيسة «مار طهمزكرد». وبعدئذ سافرت «بيل» غربًا لتعود إلى نهر دجلة، وتصل إلى موقع آشور في الثالث من أبريل.

أثار المشهد الخلاب الذي وجدت «بيل» نفسها مُحاطة به الآن لدى وصولها إلى «قصر شيرين» ذهولها: عشب أخضر وزهور برية تنمو بكل الأرجاء وبين الأنقاض، والجبال المغطاة بالثلوج ترتفع بعيدًا جهة الشرق[٩٧]. لكن رغم جمال هذه المنطقة الهادئ في بلاد فارس، فإن الفوضى عمّتها

بسبب جماعات الأكراد المحلية التي تتدبر شئونها بحرية نسبيًا بعيدًا عن تدخل الحكومة الرسمي. وطبقًا لرواية «بيل»، كان الأكراد متورطين في أشكال مختلفة من اللصوصيّة، حيثُ كانوا يفرضون إتاوات ضخمة على الأفراد والحيوانات التي تحمل الأمتعة المارة عبر منطقتهم[٩٨]. والأكثر مدعاة للقلق هو أنّ كل شخص منهم تقريبًا كان مسلحًا ويمضي أغلب وقته في إطلاق النار ببندقيته. انطلقت «بيل» تعمل بجدية من أجل رسم مُخطط لأنقاض «قصر شيرين»، لكنها بوغتت بأزيز الرصاصات فوق رأسها، ومن ثمّ اضطرت لنصب خيامها داخل فناء خان في قرية قريبة، تحت حماية زعيم كردي محلي يُسمّى (كريم خان) كان هو نفسه: «أسوأ قاطع طريق على الحدود بأكملها»[٩٩]. لكن رغم تلك المخاطر تقدم رسائل ويوميات «بيل» سردًا سعيدًا زاهيًا لأحداث الفترة التي أمضتها في «قصر شيرين»، وهو ما يعكس بلا شكّ استمتاعها بالأماكن والبشر الذين التقتهم هنا[١٠٠]، ورضاها عن عملها الأثري- الذي اكتشفت من خلاله على سبيل المثال أنّ القصر الكبير كان: «أقرب للأخيضر مما يصوّر دي مورجان»[١٠١]. عملت «بيل» أربعة أيام في «قصر شيرين» (يومان كاملان، وبضع ساعات خلال اليومين الأول والأخير)، قامت خلالها برسم مخططات للبقايا الأثرية التي كانت واضحة للعيان فوق السطح إضافة إلى التقاط كثير من الصور الفوتوغرافية. وكان مُنتج عملها النهائي مُخططًا ووصفًا مفصلاً لقصر «كسرى»، الذي كانت تُشير إليه أحيانًا في يومياتها وصورها الفوتوغرافية باسم «القصر الكبير» أو «القصر المهيب»، في حين شغل مُخطط «القصر الصغير» أو «تشاهار قابو»، الذي كان يقع على مسافة قريبة جنوب قصر «كسرى»، الجزء المتبقي من عملها.

إنّ المرء يعجب حين ينظر إلى الصور التي التقطتها «بيل» للأنقاض الموجودة في «قصر شيرين»، كيف أمكنها أن تميّز وترسم مخططًا لأي شيء، لاسيما من دون مساعدة التنقيب. ذلك أنّ سائر الأجزاء العلوية بالمبنى

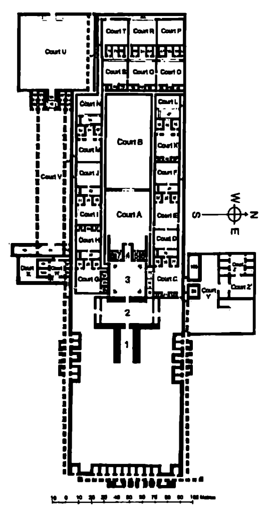
تعرّضت لخراب شديد وسقطت منذ زمن طويل، وتحولت إلى أكوام من الأنقاض المتناثرة فوق الأرض، وقد غطّى العشب الكثيف الأنقاض المكومة. مع ذلك، دوّنت «بيل» بصبر شديد ملاحظات دقيقة حول عمارة وترتيب الغرف بتلك الصروح، وسعت إلى تبيّن تصميمها العام، والكتابة عن تفاصيل البناء المهمة وتخمين وظيفتها وأهميتها. وفي النهاية، تظهر البيانات التي جمعتها من «قصر شيرين» في شكلها الأخير على هيئة فصل مهم بكتابها المنشور «قصر ومسجد في الأخيضر»[١٠٢].

قصر كسرى (انظر الشكل ٥-٧)

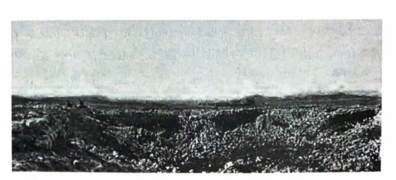
لاحظت «بيل» من خلال الأنقاض التي قيل إنّها توضح مكان قصر الملك الساساني «كسرى الثاني»، أنّ القصر كان مُشيدًا بصفة أساسية من مداميك الحجارة غير المشذبة المرصوصة في ملاط الجبس السميك، مع نواة من الحصى والإسمنت[١٠٣]. ويبدو أنّ الطوب كان يُستعمل من حين لآخر في بناء الأعمدة والأقبية والأقواس، لكن لسوء الحظّ لم يصل إلينا من تلك المعالم إلا عدد قليل[١٠٤]. شُيد القصر فوق مصطبة عالية ضخمة، مستحضرًا للأذهان القصور الأخمينية والآشورية الأقدم (كقصور «برسبوليس» و«خورساباد» على سبيل المثال)، التي شُيدت هي الأخرى فوق مصاطب عالية[١٠٥]. كما تستدعي ثلاث مجموعات من الممرات المنحدرة أو الدرج المزدوج، مشهد مثيلاتها بالقصور الأخمينية الأسبق، التي كانت تؤدّي إلى أعلى فناء واسع مفتوح حالٍ من المنشآت بالجهة الشرقية من القصر. في حين انتصب غربًا المجمع البلاطي الهائل الذي يشمل نظامًا محوريًا من قاعات الاستقبال الاحتفالية المهيبة والساحات المفتوحة الهائلة، المُحاطة بالدهاليز والمساكن الخاصة[١٠٦].

من بين الصرحين القائمين في «قصر شيرين»، أحستَ «بيل» أنّ «قصر كسرى» كانت تجمعه بالأخيضر أوجه شبه كثيرة. إذْ أدهشها استعمال الأقبية البرميلية لتغطية أغلب المساحات الداخلية مثل الأخيضر، ناهيك عن ظهور أنماط مشابهة من الأقبية من بينها تلك الأقبية ذات الانحناء الخفيف، التي قارنتها بالأقبية المماثلة في الأخيضر[١٠٧]. كذلك تمكّنت «بيل» من ملاحظة أوجه التشابه في أشكال وترتيبات الغرف، لاسيما التشابه المثير للدهشة مع ما يُسمى بمجموعات الإيوان داخل قصر «كسرى»، التي تتخذ نفس مظهر الغرف التي عُثر عليها داخل «البيوت» في قصر الأخيضر[١٠٨]. أمّا الجزء الأوسط من القصر نفسه – بفنائه المفتوح الواسع في المقدمة ومدخل الإيوان المسقوف المهيب (رقم 1)[١٠٩]، وحجرة الانتظار الداخلية (رقم 2)، وقاعة الجمهور الفخمة (رقم 3) (انظر شكل ٥-٨)[١١٠]، حيث يُحتمل أن يكون «ملك الملوك» الساساني يعقد جلساته- فيقدم مخططًا عامًا ربما تبناه المهندسون المسلمون الأوائل أثناء تخطيط نواة الأخيضر الاحتفالية، بساحتها المفتوحة ورواق الإيوان وقاعة الجمهور المربعة في الخلف. وأخيرًا؛ وهو ما مثّل أهمية عظيمة ل «بيل»، التصميم الإجمالي لقصر «كسرى» الذي اصطفت فيه الحجرات الاحتفالية في وسط المجمع البلاطي، حيث كانت تفصلها عن باقي الحجرات دهاليز ضيقة[١١١]، قبل أن تُحيط بها من الجانبين في الخلف مساكن خاصة أو «بيوت»، إلى جانب مجموعات الإيوان(انظر شكل ٥-٩)[١١٢]. ومن الجائز أنّ تكون هذه المجموعات من الغرف هي مساكن الحريم وأعضاء البلاط الملكي الآخرين[١١٣].

في الوقت نفسه، كانت «بيل» تعي وجود بعض الاختلافات بين قصر «كسرى» الذي تعرض للانهيار والأخيضر، فلم تستخدم الأخير لملء الأجزاء الناقصة بالأول[114]. لذلك يتبدّى اتهام «ليونيل بير Lionel Bier» الطريف بشأن المخطط الذي رسمته «بيل» لقصر شيرين- باعتباره نموذجًا جوهريًا: «لمدى تأثر العمارة الساسانية بالإسلام المبكر»- اتّهامًا غير منطقي في ضوء الاختلافات المعمارية التي تصفها «بيل»[115]. ذلك أنّ المخطط الذي رسمته الذي تظهر فيه مثلًا غرفة عرضية (رقم 2) بين الرواق (رقم 1)، وبين قاعة الجمهور المقببة (رقم 3) بالنواة الاحتفالية في قصر «كسرى»، يختلف عن ترتيب الغرف في الأخيضر الذي يتصل فيه الإيوان الرئيس أو الرواق (رقم 29) بقاعة الجمهور مباشرة (رقم 30). إضافة إلى ذلك، ربّما يتناقض الطابع الدفاعي القوي للأخيضر؛ بسوره الخارجي المُحصّن ودار الحراسة المحصنة عند البوابة، مع الطبيعة غير المحصنة لقصر «كسرى». فرغم احتمال أن يكون كامل المجمع الملكي وساحات اللعب بقصر شيرين مُحاطًا بالأسوار؛ فإن القصر نفسه كان غير محمي على الإطلاق، حيثُ كان ينتصب في قلب إحدى عواصم الإمبراطورية الساسانية، وليس في بقعة ما صحراوية بعيدة[116]. أمّا الأماكن التي شهدت بها «بيل» تشابهًا بين قصر «كسرى» والأخيضر- كالنظام المحوري للغرف الاحتفالية الرئيسة، ومساكن الإيوان المرافقة- فإن مثل هذه المعالم يُمكن تأكيدها من خلال الصور الفوتوغرافية التي التقطتها للمنشآت التي كانت لا تزال قائمة آنئذ، ومن خلال دفترها الميداني الذي دونت فيه بعناية شديدة مخططاتها وقياساتها لهذه المعالم المعمارية.



شكل (٥-٧) المخطط الذي رسمته «بيل» للقصر «كسرى» بموقع «قصر شيرين» (غرب إيران الآن). شُيد المبنى في الواقع بدهاليزه العديدة وأفنيته وحجراته في مستويين اثنين، منطقة الغرف الوسطى والأفنية (الأفنية من A إلى L، والقاعات من 1 إلى 3) التي تعلو الأجزاء الباقية من المبنى.



شكل (٥-٨) القاعة رقم 3 في قصر «كسرى» بمنطقة «قصر شيرين» من الجهة الجنوبية الغربية. اعتبرت «بيل» أنّ هذه المساحة عبارة عن «قاعة للجمهور» واسعة مقببة. يُمكن أن نرى بقايا إيوان مُقبّب مستطيل مُتاخم (رقم 4) على يمين الصورة. أمّا المبنى الآخر في «قصر شيرين» الذي يعود للفترة ما قبل الحديثة؛ وهو «تشاهار قابو»، فيُمكننا أن نراه بعيدًا خلف القصر.

طرح الباحث الألماني «أوسكار رويتر» إعادة البناء الكاملة الأخرى الوحيدة لقصر «كسرى» في «قصر شيرين»، وهي موجودة في تقريره الشهير عن العمارة الساسانية المنشور ضمن سلسلة مجلدات «آرثر أبهام بوب» Arthur Upham Pope الجليلة: «دراسة مسحية للفن الفارسي» A Survey of Persian Art التي صدرت في العام 1938. كما أنتج المعماري البارع «رويتر» نُسخته الخاصة من مُخطط القصر[١١٧]، ورسم لوحة رائعة[١١٨] قوبلت باستحسان واسع باعتبارها الشكل النهائي للمبنى[١١٩]. لكن كما أشار «ليونيل بير»، ربّما لم يزر «رويتر» قصر شيرين قط، ومخططه لا يتعدى كونه توليفة من مخططي «دي مورجان» و«بيل»، إلى جانب مخططات افتراضية مستقاة من مواقع خضعت للتنقيب حديثًا[١٢٠]. ويختلف مُخطط «رويتر» عن مُخطط «بيل» بصفة أساسيّة في المبنى الأوسط بالقصر، حيث أضاف رواق المدخل المُحاط بالعمدة أو الإيوان في مُخطط«دي مورجان» إلى الجدران المستقيمة في مُخطط «بيل»[١٢١]، وبالتالي استبدل بالغرفة العرضية في مُخطط «بيل» قاعة مقببة مُحاطة بحجرات جانبية مقبّبة[١٢٢]. وخلف هذا الترتيب فناء مفتوح مزود بممرات وإيوان في الخلف، يحتل مكان ساحة «بيل» المقببة. وتعتمد إعادة البناء هذه على التخمين بدرجة أكبر من إعادة البناء التي أعدتها «بيل»، وفي الحقيقة، إن كان ثمّة مُخطط يُمكن

النظر إليه باعتباره نسخة من القصور الإسلامية الحديثة، فهو هذا المُخطط- رغم ضرورة الاعتراف أنّه ينسجم تمامًا مع التنظيم الداخلي لقصور ساسانية مفترضة أخرى، مثل القصور الموجودة في «فيروز آباد» و«سروستان»(١٢٣). وأخيرًا، أيّما يكون المُخطط الذي يقع اختيارنا عليه باعتباره التمثيل الأصدق لمجمع «قصر شيرين» الفخم، فإنّه من الإنصاف أن نستنتج أنّ دافع «بيل» الرئيس كان عمل مُخطط أمين للمبنى، وأنّ مُخططها يبدو مستمدًّا فقط من الملاحظات التي دونتها عن المنشآت القائمة التي صادفتها على الأرض في «قصر شيرين»، وليس من أفكار مسبقة تتعلق بما ينبغي أن تكون عليه صورة هذا المكان.



شكل (٥-٩) منظر للغرف (مجموعات الإيوان) بالأطراف الغربية للساحتين المفتوحتين Q وS، بالقرب من الجهة الخلفية من قصر «كسرى» في «قصر شيرين». يُعتقد أنّ هاتين الساحتين كانتا تضمان مساكن خاصة، ومساكن لأفراد الأسرة والبلاط الملكيين.

نستطيع الآن حسم بعض الجدل المتعلق بتاريخ إقامة قصر «كسرى»؛ نظرًا لأحدث الدراسات التي أجراها علماء آثار إيرانيون عثروا على أدلّة قاطعة في شكل فخار وعملات معدنية والتأريخ باستخدام التألق الحراري

Thermoluminescence Dating[*]، أثبتت كلها أنّ القصر ينتمي للدولة الإسلامية العباسية الأولى[١٢٤]. وإن صحّ هذا التاريخ، فلابد من رفض موضع الصرح في سياق تطور القصور الشرقية طبقًا لرؤية «بيل». مع ذلك، لا يزال من الممكن دعم ملاحظات «بيل» حول أوجه التماثل المثيرة للاهتمام بين هذا القصر والأخيضر، لا لأنّ أحد القصرين ألهم الآخر، بل لأنّهما كانا صرحين متزامنين تقريبًا، استلهما نفس المفاهيم المعمارية التي راجت بالشرق الأدنى إبّان إقامتهما.

تشاهار قابو (انظر الشكل ٥-١٠)

يضم تقرير «بيل» عن «قصر شيرين»؛ إلى جانب وصفها التفصيلي عن قصر «كسرى»، وصفًا للقصر الأصغر؛ أو «تشاهار قابو»، الذي كان يُغطّي مساحة مستطيلة واسعة[١٢٥]، تتجاوز النصف كيلومتر جنوب غرب قصر «كسرى» (انظر شكل ٥-١١). وطبقًا لملاحظات «بيل»، فإنّ الدخول للمبنى كان عبر بوابة دخول مُحاطة بأفنية وحجرات صغيرة[١٢٦]. وتؤدّي البوابة إلى فناء مفتوح طويل؛ الفناء D، مزود ببوابة إضافية (رقم 15) عند الجانب الغربي. وعلى جانبي الفناء D مجموعة من الأفنية والغرف المُلحقة التي تتصل بطرف الفناء الرئيس الغربي عبر ممرات مقبّاة (انظر الشكلين ٥-١٢ و ٥-١٣)[١٢٧].

وتنتصب بالجهة الغربية في قصر «تشاهار قابو»؛ في منطقة انهار أغلبها، القاعة رقم 54؛ وهي قاعة مربعة فسيحة تتعدى مساحتها ستة عشر مترًا، ويبلغ سُمك جدرانها 3.90 مترًا (انظر شكل ٥-١٤). هيمن هذا المعلم المعماري على مُجمل المجمع[١٢٨]، وكان هناك اعتقاد أنّ هذه القاعة كانت تحمل قبة مبنية بالطوب فوق حنايا ركنية[١٢٩]. وكانت المداخل المعقودة

---

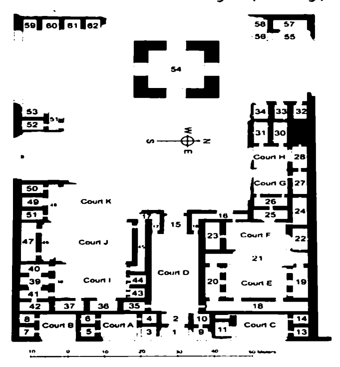
[*] هو نوع من القياس الضوئي لتحديد تاريخ أو عمر عينة ما، وقد طُبق لأول مرة في مدينة أكسفورد ببريطانيا في العام 1968. [المُترجم]

تؤدّي إلى القاعة الداخلية المقببة من الجوانب الأربعة، وهي الأخرى كانت مُشيدة بالطوب ومُحاطة بنوافذ صغيرة مستديرة الرءوس[١٣٠]. وقد لاحظت «بيل» وجود أنقاض بعض الغرف شمال غرب وجنوب غرب القاعة 54، لكن لا يزال البعض الآخر سليمًا في هذا القطاع[١٣١].

لم تقل «بيل» قطّ في طيات وصفها لقصر «تشاهار قابو» إنّ القاعة المقببة رقم 54 كانت تقف منفصلة ومستقلة عن المباني الأخرى حولها، بل اكتفت بالقول إنّها عجزت عن تبيّن الشكل الدقيق للمباني القريبة بسبب حالتها المنهارة، ولأنّها أخفقت في تحديد ما إذا كانت تربطها علاقة بالقاعة[١٣٢]. رغم ذلك، يُظهر مخططها القاعة رقم 54 منفصلة عن المبنى الأكبر[١٣٣]، كما أعلنت في معالجتها المنشورة عن «قصر شيرين» أنّ القاعة «منعزلة»[١٣٤]. وهي بذلك تطرح؛ بناءً على هذا الترتيب المميز، إمكانية أن تكون وظيفة القاعة معبدًا للنار، وهي تقارنها بمبانٍ أخرى تشمل معابد مُفترضة للنار، مثل الملحق الغربي المربع بالقصر القائم في مدينة «الحضر»[١٣٥]. وتنقل تعليقات «بيل» الختامية رأيها ومفاده أنّه بسبب افتقار قصر «تشاهار قابو» للتناسق وعدم الانتظام في ترتيب الغرف، وبسبب وجود قاعة مربعة بشكل جلي عند أحد أطرافه، فإنّ القصر لا يُشبه الأخيضر[١٣٦]. وكانت «بيل» نفسها مقتنعة بأنّ القصر بُني إبان العصر الساساني، وكانت تعتبره مقدّسًا بسبب وجود معبد للنار: «يشتعل بداخله العنصر المقدس بلهب دائم»[١٣٧].

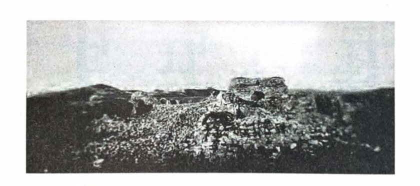
لكم يُثير الدهشة الحدّ الذي بلغته هيمنة ملاحظات واستنتاجات «بيل» بشأن قصر «تشاهار قابو» على المطبوعات، وقليل من الباحثين؛ حتّى وقت قريب، من شرح هذا المبنى بصورة أوفى. ذلك أنّ مُخطط «بيل» ووصفها وصورها الفوتوغرافية لا تزال إلى الآن هي السجل الأشمل عن «تشاهار قابو»، كما استعانت كلّ الشروحات العلمية اللاحقة بتقرير «بيل» كأساس لها. وهكذا اعتبر باحثون آخرون مثل «ك. إردمان» K.Erdmann و«إ. هرتسفلد» و«ج. جوليني» G.Gullini، ما تقوله «بيل» أنّ القاعة المقببة

رقم 54 كانت منعزلة رأيًا دقيقًا، وهو ما أدى إلى اتفاقهم على أنّ القاعة كانت معبدًا للنار[١٣٨]. وقد تبنّى «رويتر» في أحد فصول كتابه الشهيرة عن العمارة الساسانية مُخطط «بيل»، واكتفى بإضافة ممر حول القاعة والتعليق بالقول إن هذا المعلم ربما فُقد بين الأنقاض[١٣٩]. وأشار إلى أنّ الحنية الموجودة بالبناء الحجري الخارجي بين الأبواب المعقودة والنوافذ العلوية[١٤٠]، ربما كانت تدعم مداميك الممشى السفلي المقبّب[١٤١]. وساند هو الآخر اعتبار القاعة معبدًا للنار[١٤٢].



شكل (٥-١٠) المُخطط الذي رسمته «بيل» لقصر «تشاهار قابو» في «قصر شيرين». افترض أغلب الباحثين؛ ومن بينهم «بيل»، أن يكون المبنى معبدًا ساسانيًا للنار بسبب وجود القاعة المربعة الفسيحة رقم 54 في الخلف. لكن الأرجح هو أن يكون هذا المبنى قصرًا ينتمي للعصر الإسلامي.

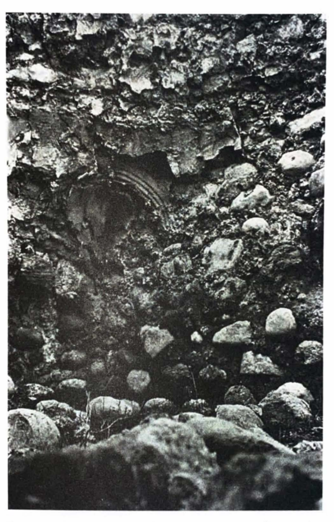
كان «يورجن شميت» J.Schmidt هو أول من تحدّى جديًّا فكرة أن يكون «تشاهار قابو» معبدًا للنار، مستشهدًا بأوصاف عربية مبكرة لمستوطنة «قصر شيرين»، لم يأت بأي منها ذكر على الإطلاق لوجود معبد للنار هُناك(١٤٣). ويقترح «شميت» بدلاً من ذلك أن يكون المبني ككل يمثّل قصرًا، وأنّ تصميمه الداخلي مُشابه بشكل لافت للنظر للقصر العباسي في الأخيضر(١٤٤). كذلك انتبه «بير» لأبعاد القصرين الخارجية المتماثلة والمجمعات المتقنة عند المدخل، التي تضم قاعة طويلة تنتهي بمداخل مسقوفة صغيرة من الجهتين(١٤٥). ويتصل المدخل المسقوف الثاني في كلا القصرين بفناء مفتوح في الخلف، كما اعتبر ترتيب «البيوت» حول الجزء الأوسط بكلا القصرين متشابهًا. وأخيرًا، يُساوي «بير» بين القاعة المربعة المقببة رقم 54 بقصر «تشاهار قابو»، وبين الحجرة رقم 30 بالأخيضر؛ واعتبرهما البؤرة الرئيسة للمبنى (قاعتا الجمهور)، مُشيرًا إلى موقعهما المتماثل خلف القصر(١٤٦).



شكل (٥-١١) مشهد عام لأنقاض «تشاهار قابو» في «قصر شيرين» من جهة الجنوب الشرقي، يظهر فيه بقايا المساحات المقببة وبقايا القاعة 54 المربعة الفسيحة يمين الجزء الأوسط.

لعل التماثل الأشد إثارة للدهشة بين القصرين، وهو وجه شبه آخر لم تسبق الإشارة إليه، هو التشابه الشديد بين موقعي وتصميمي فناء مستطيل يقع على يمين مجمع المدخل، مُحاط من جانبين أو ثلاثة جوانب بأروقة معمدة مسقوفة(١٤٧). ولكم هو مُغرٍ ما دامت الآراء أجمعت على أنّ هذا المجمع في الأخيضر هو مسجد القصر، أن نطبق الوظيفة نفسها على قصر «تشاهار قابو»، ومن ثمّ نطرح فكرة انتماء المبنى للعصر الإسلامي- لا الساساني، وهو الشيء الذي اقترحه «بير» بالفعل(١٤٨). ولكم يسترعي الانتباه أنّ «بيل» نفسها لم تتنبه لأوجه التشابه المُثيرة هذه، مفضلة قصر «كسرى» كنظير أفضل للأخيضر، ومُشيرة لافتقار «تشاهار قابو» لتناسق الترتيب باعتباره العامل النهائي الذي ينفي هويته كقصر، وتشابهه مع الأخيضر(١٤٩).

وقد أظهرت الأبحاث التي جرت بعد «بيل» و«رويتر» بالقرب من «تشاهار قابو»، أنّ القاعة 54 لم تكن منعزلة بالكامل، بل بالأحرى جزءًا من مجمع كان مُحاطًا بغرف أخرى، مما يجعل هويته كمعبد للنار أقل ترجيحًا(١٥٠). إلى جانب ذلك، أظهرت دراسات إيرانية حديثة أدلة على وجود أعمدة تُحيط بالقاعة 54 من كل الجهات، ما يُضفي عليها شكل الجناح Pavilion(١٥١). وأخيرًا، عثر الباحثون على قدر هائل من الآنية الفخارية الإسلامية داخل المجمع وبالقرب منه، يُساعد على القبول بانتماء القصر لعصر إسلامي متأخر(١٥٢).



شكل (٥-١٢) تمكّنت «بيل» من العثور على معالم أثرية مثيرة بين أنقاض «تشاهار قابو»، مثل هذه الحنية الركنية بالغرفة رقم 14 التي كانت تساعد في حلحلة الزاوية الموجودة بين التصميم المربع للغرفة بالأسفل، وبين سقفها المقبب. ولا تزال أجزاء من الزخارف الشريطية الجصية سليمة.

وفي النهاية، لسنا في موقع يسمح لنا أن نُحدد بشكل نهائي تاريخ بناء ووظيفة «تشاهار قابو»، رغم أنّ مسألة تشييده في أحد العصور الإسلامية تبدو معقولة للغاية، نظرًا للأدلة التي سبق أن ذكرناها. لكن أيًّا كان الحال، لا يزال المُخطط الذي رسمته «بيل» للمجمع هو السجل الموجود الأكمل لهذا المبنى، ولا يزال يتمتع بهذه الصفة من بين كل المخططات والمقارنات والشروحات التي تُجرى.

مدينة «الحضر»

كانت «بيل» تعرف منذ فترة طويلة بموقع «الحضر»، وأهميته لفهم تطور العمارة في الشرق الأدنى، ومن ثمّ لم تكن رحلتها إلى بلاد الرافدين في العام 1911 لتكتمل إلا بزيارة هذا الموقع الصحراوي الفريد، وتفحّص أنقاضه المهيبة. لم تكن «بيل» أول من قام بتوثيق «الحضر»، ومع ذلك حرصت على تدوين ملاحظات دقيقة عن آثاره، ستظهر بشكل بارز في عملها العلمي عن الأخيضر، وتناولها لتطور العمارة البلاطية الشرقية.

تأسست «الحضر» إبان العصر الهلنستي المتأخر (بين القرنين الثاني والأول قبل الميلاد)، وأصبحت قاعدة لإحدى السلالات العربية المحلية، لتكتسب قوتها كمحطة للقوافل وكمركز تجاري يُطل على العديد من طرق التجارة الحيوية عبر سهوب الصحراء شمال بلاد الرافدين[١٥٣]. وتقع «الحضر» أيضًا بالقرب من الحدود بين المملكة الفرثية والمناطق الخاضعة لسيطرة الرومانيين، كما صارت لبعض الوقت دويلة حاجزة Buffer State أوقفت تقدم الرومان[١٥٤]. سيستمر ارتباط «الحضر» بالفرثيين حتى القرن الثاني الميلادي، ويحمل فنّها وعمارتها بصمة الدين والثقافة الفرثيين القوية. وقد صمد الموقع أمام محاولات الرومانيين العديدة للاستيلاء عليه إبان حكم «تراجان» (117/116 ميلاديًا) و«سيبتيموس سيفيروس» (199/198 ميلاديًا)، لكن بعد انهيار الفرثيين أوائل القرن الثالث، تحالفت «الحضر» مع روما

واستضافت إحدى حامياتها الضخمة. وفي النهاية، استولى الساسانيون بقيادة زعيمهم «أردشير» وابنه «سابور الأول» على المدينة في العام 240- 241 ميلاديًا، لتبدأ بعدها في التراجع وتغزوها الصحراء عند منتصف القرن الرابع الميلادي[١٥٥]. وقد ظلّت «الحضر» موقعًا محطّمًا مهجورًا نادرًا ما يزوره أحد حتّى بداية القرن العشرين، حين بدأ عالم الآثار الألماني «فالتر أندري» في إجراء أعمال التنقيب لصالح «الجمعية الألمانية للدراسات الشرقية»[١٥٦]. ثم خضع الموقع في وقت لاحق بالقرن العشرين، لمزيد من أعمال التنقيب على يدّ المديرية العامة للآثار والترميم في العراق، وأضافته اليونسكو إلى «قائمة التراث العالمي» في العام 1985[١٥٧]. واليوم، ينتظر «الحضر» مستقبل غير مستقر بعد أن سقطت ضحية لتنظيم الدولة الإسلامية، وبعد أن عانت من أعمال تخريب وتدمير متعمدة (أتناولها بمزيد من التفصيل تاليًا).

ربّما يكون «برنهاردموريتز» هو من أطلق بالأساس شرارة اهتمام «جيرترود بيل» بمدينة «الحضر» في أوائل العام 1909، وذلك حين أشار إلى الموقع أثناء زيارتها له في القاهرة قبل رحلتها الأولى إلى بلاد الرافدين[١٥٨]. وفي وقت لاحق حين وصلت «بيل» إلى آشور أوائل أبريل من نفس العام، علمت من «أندري» بأمر دراساته حول «الحضر» التي بدأها في العام 1906، والتي كان يجريها بالتزامن مع أعمال التنقيب الأوسع في آشور[١٥٩]. ونعلم من يوميات «بيل» أنّ «أندري» عرض عليها صورًا فوتوغرافية لموقع «الحضر»، أثناء وجودها في آشور في أبريل العام 1909، وأنّ العدد الوافر من الزخارف المنحوتة التي زيّنت عتبات الأبواب وعضائد المداخل، أثار دهشتها[١٦٠]. كانت «الحضر» كذلك جزءًا من نقاش حي حول الأقبية والقباب والمحاريب، دار على العشاء في تلك الليلة داخل مقر عمليات التنقيب في آشور، إلى جانب موضوع منزلة العمارة الفرثية- بما فيها العمارة الموجودة في «الحضر»- في سياق التطور الطويل للتقاليد المعمارية بالشرق الأدنى، والتي استمرت حتّى عصر بناء الأخيضر[١٦١]. وأخيرًا،

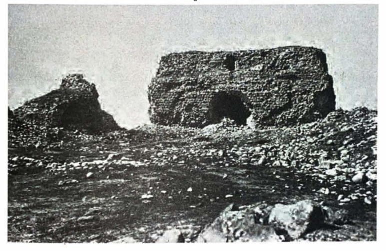
ربّما وعت«بيل»؛ منذُ هذه المرحلة المبكرة من تفكيرها حول الأخيضر، أنّ «الحضر»كانت تلعب دورًا محوريًّا في فهمها للتقاليد المعمارية التي تلقى منها مهندسو القصر الصحراوي الإلهام والتأثير.



شكل (٥-١٣) الغرفة رقم 31 في «تشاهار قابو»، ونرى قبوًا بيضيًّا قائمًا، ومحرابًا مقوسًا بالجدار الخلفي. قارنت «بيل» بين الأقبية الموجودة في «قصر شيرين» وتلك الموجودة في «الأخيضر»، رغم اختلاف مواد البناء التي اُستخدمت في الحالتين (حجارة مقابل قوالب طوب).

لم يتضاءل اهتمام «بيل» بالعمارة الفرثية بعد انتهاء رحلتها في العام 1909، بدليل أنّها طرحت مزيدًا من التساؤلات على «أندري» عن أثر الفن والعمارة الغربيين على «الحضر»، في رسالة كتبتها له في العام 1910[١٦٢]. ويُعبّر ردّ «أندري» في رسالة كتبها في العشرين من يونيو العام 1910[١٦٣]، عن شكه في مسارات التأثير الغربي الخاصة على «الحضر»، مُقترحًا أن تكون قد جاءت عبر أشكال رومانية وهلنستيّة سبق لها الانتقال في الشرق الأدنى. ويؤكد رغم ذلك على صعوبة العثور على نسل مباشر لتلك الأشكال المعمارية في «الحضر»؛ نظرًا إلى أنّ كل شيء هناك يتبدّى في شكل هجين تمتزج فيه التقاليد الشرقية والغربية بصورة تسترعي الفضول. ونجد الطبيعة

المتشابكة المضفورة لفن وعمارة الشرق الأدنى التي يُشدد عليها «أندري»، موضوعًا بارزًا وثابتًا في أغلب كتابات «بيل» العلمية المتعلقة بالعصور القديمة المتأخرة والعصر الإسلامي المبكر، وربّما يكون لـ«أندري»- إلى جانب «هرتسفلد» الذي شدد هو الآخر على هذا الموضوع في كثير من أعماله- التأثير الأقوى على تفكيرها في هذه المسألة.



شكل (٥-١٤) القاعة رقم 54 في «تشاهار قلبو» من الجهة الجنوبية. نرى على اليسار الجزء المتبقّى من سقف الغرفة 62 المقبّب. المدخل المقوس في منتصف جدار القاعة 54 الجنوبي مبني بقوالب الطوب المرصوصة أفقيًا. وتظهر نافذة صغيرة مستديرة الرأس فوق المدخل. يُعتقد أنّ الجزء الداخلي من القاعة رقم 54 كان مسقوفًا بقبة هائلة مُثبّتة فوق حنايا ركنية، والأخيرة لا تزال موجودة ببعض الأماكن في الداخل.

ألهم سرد «أندري» عن أعماله في «الحضر»؛ والنقاشات التي أجرياها حول الموقع، «بيل» بالقيام برحلتها في أبريل العام 1911، بعد أن غادرت آشور وبعد اجتماعها السعيد مع فريق التنقيب الألماني مرة أخرى. ويبدو أنها كانت تعتزم زيارة «الحضر» منذ فترة طويلة؛ إذ كتب «أندري» في رسالة إلى «بيل» في العام 1910 إرشادات تتعلق بوصولها إلى

هناك[١٦٤]. وتقع «الحضر» على مسافة واحد وخمسين كيلومترًا غرب آشور، وتسجل «بيل» أنّ قافلتها استغرقت إحدى عشرة ساعة كي تصل إليها، مرّت خلالها بسهوب متموجة امتدت طوال الطريق، وعبرت «وادي الثرثار» وهو مجرى مائي موسمي مالح.

أثارت ضخامة وفخامة الأنقاض إعجاب «بيل» فور وصولها إلى «الحضر»؛ خاصة «القصر» الذي انتصب في قلبها، والذي يُمكن رؤيته من مسافة خمس ساعات من جميع الجهات، والذي كانت: «قاعاته المُشيدة بالحجارة الضخمة، ومسقوفة بأقبية هائلة» مُزينة: «بأغرب زخارف منحوتة صنعها إزميل شرقي» (انظر شكل ٥-١٥)[١٦٥]. رغم ذلك، ربّما كانت حقيقة أنّ الموقع أصبح قاعدة لعمليات الجيش التركي العسكرية، وكان يسكنه وقتئذ حوالي ثلاثمائة جندي ينزلون في خيام، لها نفس القدر من الإثارة بالنسبة لـ«بيل». ويبدو أنّ الجيش أُرسل لفرض النظام بين بدو شمر؛ حيثُ نجح القائد التركي «رضا بك» في جباية الضرائب من القبائل وتسوية كل شكاويهم. وتكتب «بيل» بسعادة وتوقّد؛ بدلًا من أن يُغيظها ويروعها الاستعراض المفرط للعسكر في هذا المكان الصحراوي البعيد، عن تعاملاتها مع الجنود الأتراك وتُكيل المدح لما حققوه من إنجاز، وتُعبّر عن إعجاب خاص بقائدهم الذي اعتبرته: «رجلًا لافتًا للنظر بدرجة كبيرة»[١٦٦]. وقبل رحيلها، قام الجيش بالكامل – الفرسان والمشاة والمدفعية – بعمل استعراض عسكري أمامها، فاغتنمت الفرصة لتصوير المشهد، ما أثار ارتياح الجميع[١٦٧].

من المثير أن نقرأ وصف «بيل» للحضور العسكري التركي في «الحضر»، وتقييمها لما فعلوه، في رسالة إلى والديها:

جرى إنجاز الأمر على أكمل وجه، ولأتصوّر لو أنّ لدى الحكومة مزيدًا من الرجال على شاكلة «رضا بك» (ولديها بالفعل)، وتدري كيف

تستفيد منهم، فإنّ الصحراء سرعان ما ستغدو خلال وقت قصير مكانًا آمنًا كأي مدينة. سأكتب مقالا طويلا لإحدى الصحف الرائدة حين أعود للوطن، وسأسميه: «إقرار السلام في الصحراء»؛ إذْ ينبغي أن يعرف الجميع كيف يتعامل الأتراك بكفاءة وحكمة مع الأمور هُناك [...] ويعتمد المستقبل القريب للإمبراطورية التركية؛ في رأيي، كُليًا على حال الجنود؛ لأنّنا يجب أن نتذكر بعناية أنّ كل ما تقوم به الحكومة في الوقت الراهن له طبيعة عسكرية، وسيظل على هذا الوضع لبعض الوقت، وذلك حتى يعمّ السلام عموم البلاد[١٦٨].

يعكس وصف «بيل» لهذه الشؤون اهتماماتها بمسائل تختلف عن تلك المتعلقة بالزخارف البارزة القديمة والعمارة الحجرية الضخمة المُذهلة كما هي في «الحضر». والواقع أنّه يُنذر بعملها في شئون الشرق الأوسط السياسيّة التي سوف تستنفد حياتها في نهاية المطاف، خاصة بعد الحرب. وتجدر الإشارة إلى أنّه في العام 1911، أحسّت «بيل» باحترام حقيقي للجيش التركي وكانت ترغب من دون أي أهداف أخرى، في الدعاية لإنجازاته الإيجابية ببعض «الصحف الرائدة». مثل هذه المشاعر تسلط الضوء بوضوح على اهتمامها الشديد على الشئون الراهنة، إضافة إلى إدراكها ورغبتها في الموازنة بين الأمرين.

علّقت «بيل» مرّة بعد مرّة على الطبيعة الغريبة لتصميم ومكان الزخارف المنحوتة بآثار «الحضر»؛ بمزجها الفريد بين العناصر اليونانية والرومانية والشرقية، معتبرة هذا المزيج: «بالغ الجنون» و«كابوس» أو «بربري لحدّ بعيد». وتسجل صورها الفوتوغرافية بدقة كثير من جوانب هذا الفن الاستثنائي، كما تسلط الضوء على عناصر مُحددة من الزخارف التي زينت السواكف وعضائد الأبواب والأجزاء السفلية من الأعتاب (انظر ٥-١٦). وتحظى صور «بيل» أيضًا بقيمة كبيرة لأنّها تشكّل سجلاً لأنقاض «الحضر» الأصلية، وتلك التفاصيل الزخرفية المميزة قبل أن خضوعها

لترميم هائل خلال القرن العشرين[١٦٩]. لكن الأسوأ هو ما اقترفه تنظيم الدولة الإسلامية من مساع لتدمير الأصنام و«الآلهة الزائفة». ويبدو أنّ إتلاف آثار «الحضر» بدأ في فبراير العام 2015، بتحطيم تماثيل يمثِّل أغلبها ملوك «الحضر» كانت موجودة داخل متحف الموصل[١٧٠]. وتوثِّق لقطة فيديو تعود إلى أوائل أبريل العام 2015 قيام أفراد من تنظيم الدولة الإسلامية بتحطيم وسحق تماثيل في «الحضر» باستخدام معاول ومطارق ثقيلة. وتعرضت ثلاثة تماثيل على هيئة رؤوس بشرية منحوتة صورتها «بيل» في العام 1911 لإطلاق رصاصٍ من بندقية «كلاشنكوف» (انظر شكل ٥-١٧). مثل هذه الأفعال الوحشية تُضفي مزيدًا من التأكيد على قيمة صور «بيل» الفوتوغرافية؛ حيثُ تشكِّل سجلًا دائمًا لآثار «الحضر» التي لم يعد لها وجود، أو تضررت لدرجة لا يُمكن إصلاحها[١٧١].



شكل (٥-١٥) خيمة «جيرترود بيل» أمام أنقاض معبد الإيوانات الكُبرى في «الحضر».

من بين كل عمارة «الحضر»، انجذبت «بيل» بشكل خاص إلى معبد «شماش» (عُرف أيضًا باسم «المعبد الكبير» أو «معبد الإيوانات الكُبرى»)،

الذي ينتصب على الجانب الغربي من ساحة مستطيلة واسعة مسورة في منتصف المدينة، والذي كان يُعدّ إبان زيارتها قصرًا. يتألف المعبد بشكل رئيس من عدة حجرات جانبية مستطيلة مسقوفة بأقبية شامخة. وقد سجّلت «بيل» بدقة شكل تلك الأقبية في «الحضر» وأسلوب بنائها، وخصصت مساحة معقولة لوصفها في تقريرها النهائي الذي نشرته في العام 1914 عن الأخيضر[١٧٢]. لكن ما أثار انتباهها بشكل خاص في هذا التقرير، هو مكانة «الحضر» في تاريخ تطور بناء القبو؛ هذا المعلم الذي لوحظ أول مرة في آثار بلاد الرافدين ما قبل الهلنستية، ثم استمر في الظهور بشكل بارز حتى العصر الإسلامي في موقع مثل الأخيضر كما سنناقش لاحقًا. المعلم المعماري المهم الآخر في معبد «شماش»، الذي أثار اهتمام «بيل» بدرجة كبيرة، هو *الإيوان*– هذه القاعة ذات النهاية المفتوحة التي تطل على فناء في الواجهة، والتي تميز الحجرات الجانبية الرئيسة المسقوفة بالأقبية العالية التي سبق وصفها[١٧٣]. تمثّل استمرارية الإيوان – منذ بداياته الأولى في بلاد الرافدين القديمة، وعبر العصرين الفرثي والساساني، حتّى عمارة العصر الإسلامي المبكر– جانبًا حاسمًا من سرد «بيل» المهيب عن تطور القصور الإسلامية المبكرة؛ كما في حالة الأخيضر، كما سنناقش تاليًا بمزيد من التفصيل.

سنحت الفرصة مرة أخرى لـ«بيل» كي تعود إلى «الحضر» في العام 1922، وذلك حين كانت أكثر نشاطًا كموظفة سياسية في الحكومة البريطانية بمملكة العراق المؤسسة حديثًا. آنئذ كانت تُشارك في جولة بالمناطق الشمالية في العراق، وتوافر الوقت لها– برفقة موظفين بريطانيين آخرين– لزيارة المواقع الأثرية في «الحضر» وآشور[١٧٤]. وقد وجدت «بيل» موقع «الحضر» الذي سافرت إليه الآن على متن سيارة عبر نفس «السهوب المتعرجة المتألقة» التي عبرتها في العام 1911 فوق صهوة جواد، لا يزال جذّابًا. وفي رسالة إلى أبيها، تصف بما يكاد أن يكون نثرًا غنائيًا، غرابة الزخارف المنحوتة وعظمة الأقبية. وتتأمل التحول المأساوي للأحداث الذي تسببت به الحرب وانهيار الإمبراطورية العثمانية، وتكتب عن الحارس

الشمري الذي يمتطي جملاً ويشرف على الموقع، حيثُ حاول من قبل سادتهم الأتراك ترويضهم. رغم هذه التغييرات، أدهش «بيل» - وهي تلقي نظرات خاطفة على جمال وجياد الحراس داخل الأفنية، وترى الدخان يتصاعد من خيام البدو الشمريين خارج أسوار المدينة القديمة - خلود المنطقة المُحيطة بها: «كان مشهدًا امتزج فيه الماضي والحاضر بشكل مُحير، مشهد ربما ظلّت رؤيته ممكنة بأي مساء طوال عشرين قرنًا»[١٧٥]. لكن للأسف، لا يُمكننا أن نزعم الأمر نفسه الآن في القرن الحادي والعشرين؛ إذْ كانت الأحداث الأخيرة في العراق شديدة القسوة مع المواقع الأثرية، بما فيها موقع «الحضر» المذهل.

نشأة القصر الإسلامي، 1911- 1914

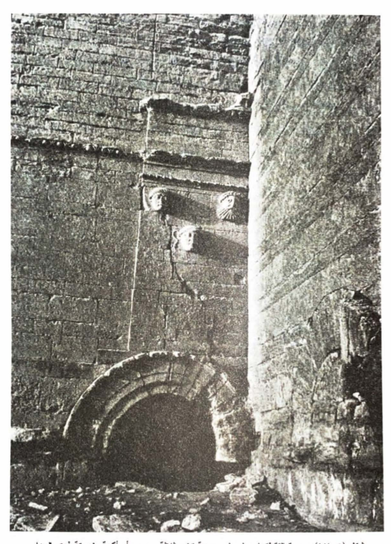
ادّخرت «بيل» بعد اكتمال رحلاتها أولا إلى إيطاليا والساحل الدلماسي، ثمّ إلى بلاد الرافدين وفارس، ما يكفي من البيانات لكتابة تقريرها العلمي الأكثر طموحًا على الإطلاق. وقد استمرّ عملها في هذا الكتاب طوال العامين 1912 و1913، وفرغت منه مع انطلاقها في رحلتها الضخمة إلى الجزيرة العربية في نهاية العام 1913. وقد صدر في العام 1914 تحت عنوانٍ: «قصر ومسجد في الأخيضر: دراسة عن العمارة الإسلامية المبكرة»، ليشكّل بطرق عديدة أوج وذروة عملها العلمي في حقل علم الآثار.

وكما سبق أن ناقشنا في الفصل المتعلق بالأخيضر، أتاحت دراسة «بيل» استعراضًا تفصيليًا ومطلعًا للأشكال المعمارية داخل القلعة، ومنابع إلهام مهندسيها. كذلك قدّم العمل اقتراحًا واعيًا حول تاريخ بناء القصر الصحراوي. ومع ذلك، كان من الواضح أنّ «بيل» لم تكن راضية في هذا الكتاب عن أن توقف نفسها لتلك المسائل الوصفية والزمنية المتعلقة بالأخيضر. وكان تقرير كامل آخر قد صدر عن الأخيضر، كتبه الباحث الألماني «أوسكار رويتر» في العام 1912، وهو التقرير الذي لم تضف

«بيل» إلا القليل إلى مخططاته وأشكاله التوضيحية، التي سلطت الضوء بشكل رائع على خصائص القصر المعمارية المميزة.



شكل (٥-١٦) الجانب الأيسر من الإيوان الشمالي بمعبد «الإيوانات الكُبرى» في «الحضر»، ونرى بقايا عمود جانبي متصل وزخارف على قوس يضم جزءً منها رءوسًا بشرية منحوتة. تسجل صورة «بيل» الفوتوغرافية مظهر هذا المجمع قبل أعمال التنقيب اللاحقة في القرن العشرين، وأعمال إعادة البناء التي استعادت واجهة المعبد إلى ارتفاعها الأصلي.



شكل (٥-١٧) صورة التقطتها «بيل» لمجموعة تضم ثلاثة رءوس أو أقنعة منحوتة فوق الجدار الداخلي بالإيوان الجنوبي في معبد «الإيوانات الكُبرى»، ونرى في الأسفل مدخلاً مقوسًا. تعرضت هذه المعالم للتخريب في أوائل العام 2015 حين استهدفتها رصاصات تنظيم الدولة الإسلامية.

اقتضى الأمر من «بيل» كي تقف بمنأى عن جهد «رويتر»، توفير إطار أوسع وأصلب. وقد حققت ذلك من خلال وضع قصر ومسجد الأخيضر "الشرقي" داخل السياق الأوسع لعمارة الشرق الأدنى والعالم القديم ككل، وتتبع معالمهما إلى الجذور الأولى واستعراض الثقافات والتقاليد المعمارية العديدة، التي ألقت بظلالها على تطور هذه المعالم حتّى تجليها في العصر الإسلامي المبكر. وفي النهاية، ألّفت هذه الأبحاث ثلاثة فصول مفصّلة بدراسة الأخيضر. يغطّي فصلان منهما الإلهام الكلاسيكي و'الشرقي' الذي أثّر في الواجهة الشمالية لـ«ساحة الشرف» بقصر الأخيضر المكونة من ثلاثة طوابق، إضافة إلى الأسلاف الإسلاميين الأوائل لمسجد الأخيضر[١٧٦]. أمّا الفصل الثالث والأطول (سبع وستون صفحة) ويحمل عنوان: «نشأة القصر الإسلامي المبكر»[١٧٧]، فيتعقّب شكل قصر الأخيضر وصولاً إلى النماذج الأولية الكلاسيكية في الشرق الأدنى القديم، والتي يرجع وجود بعضها إلى الألفية الثانية قبل الميلاد. ويشكل هذا الفصل واسطة عقد الدراسة ويتميز بطموحه الشديد؛ نظرًا لنطاقه الزمني والجغرافي الذي يتخطّى دراسة الأخيضر بمفرده. ويعكس اطّلاع «بيل» الواسع على مدار عقد كامل اشتغلت خلاله بالبحث في العمارة الكنسية بالعصور القديمة المتأخرة والصروح الإسلامية المبكرة. ويسلط الفصل بشكل خاص الضوء على ما تملكه من معرفة حول الامتداد الواسع لآثار الشرق الأدنى، وهي المعرفة التي اكتسبت أغلبها من خلال رحلاتها إلى بلاد الرافدين، حيثُ زارت المواقع والصروح الأثرية التي ترجع إلى عصور الحضارات القديمة الأولى، وصولاً إلى المواقع التي يُعتقد أنّها سبقت بناء الأخيضر بوقت قصير، مثل «قصر شيرين» في فارس. ويؤكّد الفصل فضلاً عن ذلك على اطلاعها على المستجدات الفنية والمعمارية في اليونان وروما، التي تركت بصمتها أيضًا على الأخيضر. وقد استقت معرفتها بالتقاليد الكلاسيكية من دراساتها الأولى حول العالم القديم، علاوة على زيارتها إلى إيطاليا. وقد أمدّت الدراسات التي

أجرتها «بيل» من دون توجيه من أحد، والمعرفة التي اكتسبتها من باحثين آخرين تبادلت معهم رسائل ممتدة ومثمرة، أو طوّرت معهم علاقات شخصية وثيقة، هذه الموضوعات بالمعلومات. والواقع أنّ عدد من عرفتهم «بيل» من الباحثين ومدى استفادتها منهم، لافت للانتباه. وهي تبرهن خلال هذا الاستعراض على قدرتها على البحث المكثّف، وتُجبر القراء أثناء ذلك على الاعتراف بمكانتها المستحقة بين نظرائها الأكاديميين.

يواصل الفصل الخاص بـــ: «نشأة القصر الإسلامي المبكر»، بمنهجه ونطاقه الطموحين، حمل بصمة ناصحها الأول «جوزيف سترزيجوفسكي»، الذي كانت كتاباته تضم في أغلب الأحيان استطرادات واسعة وروايات عظيمة، وضعت التقاليد المعمارية والفنية داخل التاريخ الأوسع للعالم القديم وما قبل الحديث، فضلا عن تعقبها إلى جذورها الأولى. فعلى سبيل المثال، يُحاكي سعي «بيل» لتعقب «نشأة» بعض مكونات القصر الإسلامي، أسلوب «سترزيجوفسكي» في العثور على أقدام تعبير عن خصائص شكلية مُعينة. إلى جانب ذلك، ينسجم نجاح «بيل» في العودة بأصول قلب القصر الإسلامي؛ الإيوان، إلى "الشرق" لا إلى اليونان أو روما (كما هو موضح أدناه)، مع إصرار «سترزيجوفسكي» على الجذور الشرقية؛ لا الكلاسيكية، لكل الأشكال المعمارية الهامة تقريبًا بالعصرين القديم المتأخر والإسلامي[١٧٨]. ومثل «سترزيجوفسكي»، أعطت «بيل» الأولوية لأسلوب وشكل العمل الفنّي، بخاصة المعالم المعمارية، وتتبعت أوجه التشابه عبر الزمان والمكان اعتمادًا على التحليل المُقارن. وكانت تستهدف استعراض مسار واضح ومُقنع للانتشار الثقافي الذي انطلق من إحدى نقاط المنشأ. لكن هذا المنهج لم يشدد كثيرًا على عوامل أخرى ربما تكون قد أثّرت على تطور خصائص بعينها، مثل السياقين الاجتماعي والسياسي اللذين تطورت خلالهما التقاليد المعمارية، أو خيارات وأذواق العملاء الغربية. لا ريب أنّ لتحليل «بيل» الشكلي المُقارن عيوبه، لكنه اُعتبر مقاربة ناجعة ومقبولة في زمنه،

واجتذب أنظار الباحثين المختصين بالعالم القديم في أوروبا وشمال أمريكا، ممن لم يعودوا راغبين أو قادرين على إعطاء الأسبقية للأدلة النصيّة والفيلولوجية، التي طالما هيمنت على دراسات العالم القديم حتّى ذلك الحين.

أظنّ أنّه إضافة إلى تأثير «سترزيجوفسكي»، تحمل دراسة «بيل»: «نشأة القصر الإسلامي المبكر» بصمة شخص آخر هو «إرنست هرتسفلد»، الذي كانت «بيل» تُكن إعجابًا كبيرًا بسعة علمه أثناء كتابة الفصل. وكانت «بيل» على دراية بمقال «هرتسفلد» الذي نشره في العام 1910 بعنوان: «نشأة الفنّ الإسلامي ومسألة قصر المشتى»، الذي اشتمل على دراسته المتقنة للفن والعمارة بقصر «المشتى» الصحراوي، الذي يقع جنوب عمان بالأردن، ورأيه المثير للجدل- والدقيق- القائل بأنّ بناء القصر جرى إبان الدولة الأموية بالقرن الثامن الميلادي(١٧٩). وحتّى اليوم، يُعدّ هذا المقال تحفة فنية بين دراسات الفن الإسلامي المبكر؛ بسبب منهجه الواضح وحجته المقنعة وإطاره الواسع من المراجع(١٨٠). وربّما ثمّة بعض المفارقة في حقيقة أنّ مقال «هرتسفلد» نجح في قلب فرضية ناصح «بيل»؛ «سترزيجوفسكي»، الذي رجّح أن يكون بناء قصر «المشتى» قد جرى قبل الإسلام(١٨١). كذلك، تمكّن «هرتسفلد» لحدّ بعيد من إطلاق رصاصة الرحمة هذه من خلال توظيف منهج «سترزيجوفسكي» الشكلي المُقارن، وبالتالي هزيمته في ملعبه(١٨٢). وكما سبق أن رأينا في رسائل «بيل» مع «هرتسفلد» (انظر الفصل الرابع)، فإنّ تنافس «هرتسفلد» المرير مع «سترزيجوفسكي» كان السبب في بعض المناهضة والاستياء في بادئ الأمر، لكن عند انتهائها من دراستها عن الأخيضر في العام 1913، كان الودّ قد دخل علاقة «بيل» بـ«هرتسفلد»، وأصبحت تحترم؛ بل مُعجبة، بعلمه الاستثنائي وبراعته في الوصول إلى نتائج سليمة(١٨٣). ولكم يصعب حين نضع في اعتبارنا هذه الظروف، أن نقاوم فكرة احتمال أن يكون عنوان فصل «بيل» يُحاكي عنوان مقال «هرتسفلد»؛ وأنّ مساعيها لإبراز كل التأثيرات الثقافية التي ألقت

بظلالها على بناء وأسلوب وتصميم الأخيضر في صحراء سوريا الشرقية، تقتدي بمعالجة «هرتسفلد» عن قصر «المشتى» في الصحراء الغربية.

قد يتطلب التعرض وتقييم كل محتويات الفصل الخاص بنشأة القصر الإسلامي المبكر في دراسة «بيل» عن الأخيضر، تقريرًا مطوّلاً لا يتسع له المجال هُنا. ومن ثمّ، فما أطرحه هنا لا يتجاوز نظرة عامة على أحد معالم القصر الإسلامي المعمارية الرئيسة، وهي قاعة الاستقبال الاحتفالية المعروفة باسم *الإيوان*، التي تتبعت «بيل» جذورها. وتهدف النظرة العامة إلى منح القارئ فكرة عن نطاق الدراسة التي أجرتها «بيل» من خلال قراءاتها ومراسلاتها ونقاشاتها مع علماء آثار وباحثين آخرين مختصين في الآثار، إضافة إلى مشاوراتها الذكية حول المسألة. ونستطيع أن نرى أيضًا كيف رفض الأركيولوجيون دراسة عملها الميداني وملاحظاتها، وشكّل جانبًا حاسمًا في استنتاجاتها العامة.

كان أبرز إيوان في الأخيضر هو القاعة رقم (29) المفتوحة على اتساعها من أحد الجوانب. تقع القاعة بعيدًا في منتصف القصر، حيثُ لا يصلها الزائر إلا بعد عبور بوابة المجمع المتقنة ورواق مهيب، وساحة داخلية عظيمة مفتوحة. كان الإيوان مغطّى بقبو مهيب يُبرز وظيفة الإيوان باعتباره قاعة الاستقبال الرئيسة بالمجمع البلاطي، ويؤدّي إلى حجرات استقبال هامة أخرى داخل القصر. ويُمكن العثور على تصميم الإيوان بالأجنحة الخاصّة أو «البيوت»، التي تقع على جانبي الجزء الاحتفالي الأوسط. وفي تلك البيوت، كان يوجد على جانبي الإيوان ذي النهاية المفتوحة مزيد من الغرف الخاصة المغلقة، وربّما كانت وظيفته في هذا السياق العمل كحجرة معيشة رئيسة لشاغلي الجناح، ومكان لاستقبال الزائرين.

وفقًا لــ«بيل»، فإن الإيوان مستمد من أراضي الحثيين في شمال سوريا والأناضول وشمال بلاد الرافدين[١٨٤]، وهو الاقتراح الذي استمدته من نظرية طرحها عالم الآثار الألماني «روبرت كولدفاي» الذي اشتهر بأعمال التنقيب التي قام بها في بابل، لكنّه كان قد سبق أن أجرى عمليات تنقيب في مستوطنة ترجع للدولة الحثية الحديثة في «سمأل» بالأناضول، ولخّص في التقرير الأركيولوجي الخاص بالموقع تطور البوابة الحثية ذات البرجين إلى «بيت خيلاني»[*] Bit Hilani البلاطي. وقد لوحظ وجود عدة نماذج من «بيت خيلاني» في «سمأل» ترجع إلى أوائل الألفية الأولى قبل الميلاد، وبحسب «كولدفاي» فإنّ هذه النماذج كانت تضم داخلها أسلاف *الإيوان*، لكن تتخذ هنا شكل رواق معمّد مسقوف على جانبيه برجان يقودان إلى قاعة داخلية تضم غرفتين صغيرتين عند طرفيها[١٨٥]. وتروي «بيل» أنّ الأشوريين تبنوا لاحقًا «بيت خيلاني» في قصورهم خلال القرون التالية، ثم عاود الظهور في العمارة الأخمينية حيث اتّخذ شكل برجين يُحيطان برواق معمد، وفي الخلف قاعة للجمهور[١٨٦]. وقد نفّذ بناة القصور الأخمينيون في «باسارجاد» و«برسبوليس» و«سوسة» التصميم بأبعاد هائلة؛ إذ تحوّل الإيوان الآن إلى رواق معمد عرضي عميق، في حين اتسعت قاعة الجمهور لتصبح قاعة فسيحة رباعية الأضلاع، وأصبح سقفها مدعومًا بــ«غابة أعمدة»[١٨٧].

التقت «بيل» «كولدفاي» أثناء زيارتها إلى بابل في العام 1911، وربّما جاء ذكر «بيت خيلاني» الذي يرجع للدولة الحثية الحديثة أثناء نقاشهما. ومع ذلك، تكشف يوميات «بيل» التي سجلتها أثناء زيارتها لأشور في العام 1911،

---

[*] مُصطلح أموري/أشوري يُشير إلى نوع من المباني يُعرف في الأرامية باسم «البيت العالي». اقتبس الأشوريون هذا النوع من العمارة من الحثيين، وكان سائدًا في شمال بلاد الرافدين وجنوب الأناضول خلال الفترة بين القرنين السادس عشر والسابع قبل الميلاد. ويتكون بيت خيلاني من قاعتين طويلتين متقاطعتين يتقدمهما بهو محمل على أعمدة. [المُترجم]

لّه من الجائز أن يكون «فالتر أندري»؛ مدير التنقيب في آشور، هو أول من لفت انتباهها إلى تصميم «بيت خيلاني»، وإلى تناول «كولدفاي» لجذوره وتطوره[١٨٨]. ويبدو أنّ فكرة وصول هذا الشكل إلى العمارة الأخمينية قد وجدت الدعم لدى «إرنست هرتسفلد»، الذي تبادلت معه «بيل» رسائل كثيرة إبان دراستها حول الأخيضر، والذي تستشهد به باعتباره من طرح فكرة انتقال «بيت خيلاني» إلى الأخمينيين عبر مملكة «ميديا»[١٨٩].

يُعاود «أندري» الظهور على اعتبار أنّه صاحب الأفكار التي قامت عليها المرحلة التالية في تطور الإيوان، مثلما أشارت «بيل» في فصلها. ويظهر هذا التطور في فن وعمارة الفرثيين، ويتجلى بوضوح في «الحضر»؛ وهو موقع آخر نقّب فيه «أندري» وزارته «بيل» نفسها في العام 1911 (كما سبقت الإشارة). وقد جلب انتشار الهلنستية والتوسع الروماني في الشرق الأدنى المفاهيم الفنية الكلاسيكية إلى الفن والعمارة الفرثيين. ومن ثمّ تضم المباني الفرثية في الغالب أعمدة وتيجانًا أيونية؛ وفسيفساء هندسية مستوحاة من اليونان؛ وزخارف من الجبس وشظايا جصية؛ ناهيك عن الوحدات المعمارية اليونانية مثل الرواق المربع المعمد[١٩٠]. ورغم ذلك كما تشرح «بيل»، تستمر بعض المعالم المعمارية في هذه الفترة في حمل بصمة الشرق الأدنى، وتتجلى هذه الاستمرارية بأوضح صورة في الإيوان، الذي تعتبره «بيل» التأويل الفرثي لتصميم «بيت خيلاني»[١٩١]. ففي العمارة الفرثية يتحول الرواق المعمد وقاعة الجمهور إلى قاعة واحدة هي الإيوان؛ الذي أصبح قاعة مستطيلة طويلة تُحيطها الجدران من ثلاث جهات، أمّا الجهة الرابعة فتتميز بوجود فتحة مقوسة تحتل أغلب أو كل اتساع الجانب[١٩٢]. ووفقًا لـــ«بيل»، فإنّ أعمدة رواق «بيت خيلاني» السابق تُزين الجدران على جانبي مدخل الإيوان المقنطر[١٩٣]. وأكثر ما يلفت النظر هو أنّ الإيوان الفرثي أصبح مسقوفًا بقبو برميلي. وكان التصميم الأصلي للقبو عبارة عن أحد ابتكارات بلاد الرافدين التي تنفذ بالطوب اللبن، والتي يُمكن

إرجاعها على سبيل المثال إلى ممرات ومداخل القصر الآشوري[١٩٤]. رغم ذلك، انتقل القبو إبان اندماجه في العمارة الفرثية بمدينة «الحضر» خلال القرن الأول الميلادي، من اليونان وروما إلى الغرب؛ حيث صار يُشيد بالحجارة بدلا من الطوب اللبن[١٩٥]. إلى جانب ذلك، يرجع للغرب انتقال الحيز المقبّى من مكانه بالممرات الجانبية الصغيرة والحجرات الضيقة إلى استعماله في قاعات الاستقبال الملكية؛ نظرًا لقدرته على التشديد على ارتفاع القاعة ومحورها الطولي[١٩٦]. وفي «الحضر»، تُبين «بيل» الإيوان الفرثي المقبّى وسط معبد الإيوانات الكُبرى، الذي كان يُعتقد وقتئذ أنّه أحد القصور الملكية. وكان المبنى يتميّز بإيوانين مركزيين فسيحين يبلغ عرض كل منهما واحدًا وعشرين مترًا، مسقوفان بقبوين برميليين وعلى جانبيهما صف من إيوانات أصغر (انظر شكل ٥-١٨)[١٩٧].

تحمل المرحلة التالية من تطور القصر الشرقي «بيل» إلى فارس، حيثُ تبدأ تحرياتها حول عمارة الساسانيين، الذين ترى «بيل» أنّهم تبنوا *الإيوان* من الفرثيين أو الأخمينيين في مبانيهم البلاطية. فنصادف في قصر «أردشير» في «فيروز آباد» الذي ينتمي للقرن الثالث - وهو أقدم المباني الساسانية المعروفة في زمن «بيل» - إيوانًا مقبّىً طويلا يؤدي إلى قاعة مُقببة للجمهور في الخلف[١٩٨]. وقد شُيدت الحجرات الجانبية عموديًا على الإيوان المقبّى بدلاً من موازاته؛ كما في «الحضر» الفرثية على سبيل المثال، وذلك لصدّ الدفع الناجم عن القبو[١٩٩]. وتصف «بيل» أيضًا عمارة المبنى الذي وصل إلينا سليمًا في «سروستان»، الذي يُعتقد أنه يرجع إلى القرن الخامس الميلادي، ويضم إيوانًا بمدخل معقود يؤدي إلى قاعة مقببة للجمهور في الخلف[٢٠٠]. وتلفت «بيل» الانتباه عند تحولها إلى قصر «كسرى» في «قصر شيرين» الذي ينتمي للقرن السادس، إلى الجزء الأوسط من القصر بساحته المفتوحة الواسعة في الأمام ومدخله المسقوف الفسيح (حجرة رقم ١)؛ إذ اتّخذ الإيوان شكل حجرة انتظار داخلية مغلقة (حجرة رقم

2)، تؤدّي إلى قاعة باذخة للجمهور في الخلف مزودة بإيوان غائر (الحجرتان 3 و4)[٢٠١]. كان هذا آخر ظهور لـ «بيت خيلاني» الذي كان سهل التمييز بالفعل في مباني «فيروز آباد» القديمة؛ رغم أنّه كان أقل جمالاً، وهو يقدم تصميمًا عامًّا سيتبناه المهندسون المسلمون الأوائل أثناء تخطيط النواة الاحتفالية للأخيضر بفنائها المفتوح؛ الإيوان، وقاعة الجمهور المربعة في الخلف. وكما سبق أن أشرنا، فقد أثارت مجموعات *الإيوان* في قصر «كسرى» إعجاب «بيل»؛ التي تتخذ نفس شكل وترتيب «البيوت» في قصر الأخيضر[٢٠٢]. بالنسبة لـ«بيل»، كان الأخيضر على صلة وثيقة بهذا القصر الفريد في «قصر شيرين» من عدّة جهات؛ إذْ استوحى المجمع الإسلامي الكثير من القصر الأخير. ولابد أنّها أحسّت أنّ جهودها لزيارة هذا القصر شخصيًّا، ورسم مخطط دقيق له، كانت من بين أكثر جهودها فائدة.

وفي العراق نفسه، بدا أنّ العمارة النخبوية إبان الدولة الساسانية قد تبنّت *الإيوان*. وقد فتنت تقارير عن القصور الصحراوية في الحيرة التي بناها أمراء المناذرة؛ حلفاء الساسانيين العرب الذين عاشوا في صحراء بلاد الرافدين في الفترة بين القرن الثالث والقرن السابع الميلادي[٢٠٣]. والواقع أنّ ما لفت انتباهها في المقام الأول إلى منطقة غرب نهر الفرات وأدّى بها إلى اكتشاف الأخيضر، هو الإشارة إلى هذه القصور المراوغة حيثُ يستطيع الأمراء الهرب من قيود باحاتهم الحضريّة والعودة إلى أساليب الحياة الأبسط التي اتّبعها أجدادهم البدو[٢٠٤]. لم تكن أي من قصور الحيرة هذه معروفة بشكل جيد أيام «بيل»؛ حيثُ لم يقم أحد باستكشافها منهجيًّا- أو تعيين مكانها بصورة صحيحة في بعض الحالات- إلا أنّ المؤرخين المسلمين اللاحقين كتبوا عنها ووصفوها بأنّها قصور تتألف من قاعة وسطى للجمهور يجلس فيها الملك (المركز أو "الصدر")، وجناحين على اليمين وعلى اليسار تُقيم فيها حاشية الملك، ويُوضع بها المؤن الخاصة كخزانة الثياب والخمر[٢٠٥]. وكانت «بيل» تعتقد أنّها تستطيع رؤية تشابه بين هذا التصميم وتصميم

الأخيضر؛ حيثُ يوجد إيوان أوسط يمثّل قاعة الجمهور الرئيسة مُخصصة للأمير، وعلى جانبيه مساكن خاصة. كما يُمكن أن نجد تشابهًا إضافيًا ومُحيّرًا داخل قصر «بلكوارا» في سامراء، الذي ينتمي للعصر الإسلامي المبكر وقام بأعمال التنقيب فيه «إرنست هرتسفلد» بالعام 1911، ببواباته المركزية الضخمة وقاعة الاستقبال المقببة على هيئة صليب والإيوانات المُقابلة، وعلى جانبي كل منها جناحان مخصصان للأحياء السكنية ومرافق تخزين وساحات للعرض العسكري وإسطبلات(٢٠٦). وقد دعمت الحالتان الفكرة التي تقول أنّ للمعالم المعمارية المهمة بالعمارة البلاطية الإسلامية المبكرة جذور تمتد للدولة الساسانية القديمة، بما فيها المعالم التي تطورت في بلاد الرافدين.

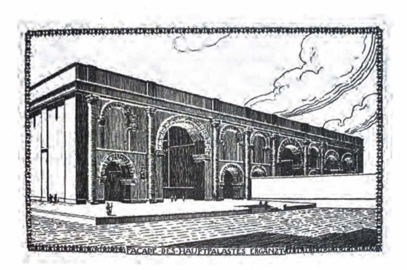
وختامًا، لم تتمكن «بيل» من تجاهل الاستخدام البارز للإيوان داخل «طاق كسرى» الساساني في «طيسفون» وسط العراق. يتصدر الإيوان الضخم المُحاط بثلاثة جدران فحسب قلب القصر، حيثُ يُشكّل قاعة الملك الاحتفالية الخاصة بالجمهور. على جانبيه خمس حجرات مقبّاة، كل منها مسقوف بقبو برميلي جملوني هو الأضخم من نوعه بأي مبنى بالطوب ينتمي للعصر ما قبل الحديث. ورغم عدم وجود تماثل خاص بين هذا الإيوان الواسع والإيوان الموجود في الأخيضر المتواضع نسبيًا، فإنه لا يزال من المُمكن اعتباره تطويرًا للتصميمات البلاطية الأقدم التي تضم قاعات للجمهور مفتوحة من أحد الجوانب، والتي يجري التعرف عليها الآن من خلال وجود سقف مقبّب ضخم ومساحة واسعة في الأسفل.

وإجمالاً، استطاعت «بيل» خلال وصف هذه النماذج المعمارية التي تنتمي لعصور ما قبل الإسلام، التأكيد على قوة المؤثرات ما قبل الإسلامية على الأخيضر، تلك المؤثرات التي انطلقت لحدّ بعيد من بلاد الرافدين وفارس القديمتين. فمن الجائز أن تكون تلك المنشآت القديمة واستعمالها

المتكرر – والباذخ في أغلب الأحيان– للإيوان في السياقات البلاطية، معروفة جيدًا لدى المعماريين في العصر الإسلامي المبكر، ممَن كانوا يشيدون قصورهم الفخمة مثل الأخيضر، في نفس المناطق. ومن ثمّ فإنّ أغلب الترتيب الداخلي المميز بالأخيضر؛ مع مركزية الإيوان، كان يتموضع بصورة واضحة داخل طابور طويل من التصميمات البلاطية التي تتفق على نحو مُحكم مع التقاليد الشرقية.

تعقيب على إسهام «بيل» العلمي حول تطور الإيوان

كان تعقّب «بيل» لجذور الإيوان الحثية، وتتبعها له عبر تجلياته الأشورية والأخمينية والفرثية والساسانية، جهدًا طموحًا، وقليل من الباحثين اليوم من يضطلع بمثل هذا المشروع الجرىء؛ نظرًا لامتداد القرون والجماعات الثقافية والتحولات المورفولوجيّة التي خضع لها هذا النمط الخاص من قاعات الاستقبال. لكن ما يمثّل إشكالية خاصة اليوم هو موقع قصري «سروستان» و«قصر شيرين» في مخططها التطوري الطموح؛ ذلك أنّ «بيل» اعتبرت أنّ هذين القصرين يمثلان سلفين ساسانيين فارسيين بارزين ألهما العمارة الإسلامية اللاحقة، كما في الأخيضر. ورغم ذلك، طرحت بعض وجهات النظر المقنعة الحديثة فكرة أنّ هذه الصروح ربما لا تكون ساسانية على الإطلاق، بل ترجع للعصر الإسلامي المبكّر. ومن ثمّ يُمكن تفسير نقاط التشابه بين تلك المنشآت بأنّها كانت متزامنة. وهكذا يُمكن من جهة أن نحسب لـــ«بيل» إدراكها السليم لوجود هذا التشابه، لكن من جهة أخرى، أضعف تنقيح تاريخ بناء هذه الصروح مُخططها التطوري الذي لعبت فيه العمارة الساسانية دورًا مهمًا في انتقال المبادئ المعمارية.



شكل (٥-١٨) إعادة البناء التي نفذها «أندري» لمعبد «الإيوانات الكُبرى» في «الحضر»؛ الذي يرجع للعهد الفرثي، ويسلط الضوء على الإيوانات ذات النهايتين المفتوحتين شمالا وجنوبًا، التي يُعتقد أنّها مستوحاة من قاعات استقبال لها نفس التصميم بالعصرين الساسانى المتأخر والإسلامي، وتجد تمثيلا جيدًا لها في قصر الأخيضر.

مع ذلك، يتفق أغلب الباحثين اليوم على أنّه للإيوان جذور تمتد إلى العصور الفرثية؛ حيث شاع في «الحضر» خلال القرن الأول الميلادي، كما شاع أيضًا في؛ من بين أماكن أخرى، مجمع القصر الفرثي في آشور والربع الشمالي من الحصن الفرثي في موقع «نيبور»[٢٠٧]. لكن اللافت للنظر هو أنّ المجمعات الأخيرة تتميز بوجود أربعة إيوانات اجتمعت فيها القاعات حول فناء مركزي[٢٠٨].

رغم ذلك ثمّة نقاش مستمر حول أصول الإيوان؛ إذْ يطرح البعض فكرة أنّ شكله المفتوح من أحد الجوانب وتسقيفه بقبو برميلي مشيد بالطوب اللبن كان تصورًا شرقيًّا للرواق الهلنستي المعمد ذي السقف المسطح، وسرعان ما اتضح هذا الإحلال في عمارة القرن الأول الميلادي في موقع

«سلوقية»، حيث كان التبادل الفرثي مع ثقافات اليونان وروما بالغ القوة(٢٠٩).
لكن بدلا من ذلك، ربّما كان أقلمة لردهة الاستقبال في «البيت الروماني» Tablinum داخل عمارة إيران وبلاد الرافدين(٢١٠). ومع ذلك مال آخرون لجذور شرقية خالصة للإيوان، وافترضوا وجود جذور إيرانية أو تمادوا بقول إنّه أقلمة لأكواخ سُكّان الأهوار جنوب بلاد الرافدين، حيث كانت الأسقف شبه البرميلية تُبنى بحزم مقوسة من البوص وتُغطّى بالحصر(٢١١).

ويبدو أن عددًا قليلا من الباحثين المختصين بالآثار الفرثية والساسانية والإسلامية هم من يقبلون امتداد جذور الإيوان إلى «بيت خيلاني» بالفترة الحثيّة الحديثة، رغم وجود مؤيدين لهذه الفكرة؛ إذ تبنّى «ف. إيلمان» F.Oelmann فكرة «كولدفاي» في مقال طويل نشره في العام 1922(٢١٢).
ويُشير «رويتر» في نقاشه حول وجود الإيوان بالعمارة الفرثية إلى مقال «إيلمان»، ويتناول إمكانية التشابه بين الإيوان وأحد عناصر قصور «سمأل» الحثية(٢١٣). ويطرح «روبرت هيلينبراند» أثناء تعرّضه للأخيضر في الآونة الأخيرة، أنّه فضلا عن طابع القصر السوري الأموي، فإنّ المعالم ذات الأصول المتجذرة في بلاد الرافدين مثل «بيت خيلاني» بعمارة المعبد «السور–حثي»Syro-Hittite لا تخطئها العين، ومع ذلك لا يتابع «هيلينبراند» البحث حول هذه المسألة بدرجة أكبر(٢١٤).

وتتعرّض «إيرين وينتر» Irene Winter المؤرخة المتخصصة بفنون الشرق الأدنى؛ أثناء تعريف ما يُقصد تحديدًا باصطلاح «بيت خيلاني» بالفترة الحثية الحديثة وتبنّي ملوك الدولة الآشورية الحديثة له في قصورهم، إلى احتمال أن يكون الإيوان هو التجلّي الأخير لهذا الشكل القديم، وما دفعها بصورة خاصة لهذا الاعتقاد هو الطبيعة الواضحة متعددة الأوجه لـــ«بيت خيلاني»، الذي كان شكله خلال السياقين الحثي الحديث والآشوري الحديث مرتبطًا بشكل مُجمّع بوابة أو قاعة استقبال بلاطية أو جناح خاص، ويُشبه

لحدٍّ كبير الإيوانات الفرثية والساسانية والإسلامية اللاحقة الموجودة داخل هذه التشكيلة من السياقات[٢١٥]. بل ترى «وينتر» أنّه من المحير أن جناح الغرف في «بيت خيلاني» بالفترة الحثية الحديثة يتجمّع بين الحين والآخر حول فناء مركزي؛ كما في موقع «سمأل» أو في قصر «سنحاريب» الأشوري الحديث في نينوى، تمامًا كما نصادف ثلاثة أو أربعة إيوانات تُحيط بفناء مركزي في العديد من مجمعات المباني التي تعود لعصور تالية[٢١٦]. لكن رغم أنّ عدم اكتمال الدليل على وجود استمرارية مباشرة لـ«بيت خيلاني» إلى الإيوان خلال هذه الفترة الطويلة يحول بيننا وبين تأكيد وجود علاقة بين الشكلين المعماريين، فإن أوجه التشابه المقنعة التي تطرحها «وينتر» تدفعنا إلى التفكير بجدية أكبر في أثر الأشكال المعمارية الوافدة من العالمين ما قبل الفرثي- الساساني و الشرق الأدنى ما قبل الإسلامي على العصور اللاحقة[٢١٧]. كما تثنينا ملاحظاتها التي تتفق بصورة جوهرية مع حجج «بيل» المتعلقة بأصول الإيوان، عن الرفض المتعجل لمخطط «بيل» الجريء.

كان تطور الإيوان البلاطي هو المعلم المعماري الرئيس الذي تحرّته «بيل» في فصلها المطول والمعقّد حول نشأة القصر الإسلامي المبكر، لكنها لم تتجاهل في الوقت ذاته العناصر المعمارية الأخرى والتأثيرات الثقافية التي شقّت طريقها إلى قصور مثل الأخيضر. وتجدر الإشارة هُنا إلى اهتمامها بمظهر الأخيضر الخارجي المحصّن؛ بأسواره العالية وأبراجه المستديرة، وزعمها أنّه من الممكن تتبع مثل هذه العمارة الدفاعية إلى المعسكرات المنيعة التي أقامها الرومان في الصحراء على حدودهم أو خطوطهم الدفاعية Limes مع جيرانهم العرب[٢١٨]. ومن ثمّ بيّنت كيف قدّمت هذه المعسكرات المنيعة تصميمًا أساسيًا لدفاعات قصور النخبة الصحراوية خلال العصر الأموي الإسلامي المبكر (٦٦٠-٧٥٠ ميلاديًا). وشددت «بيل» بشكل خاص على قلعتين أمويتين تقعان اليوم في الأردن، كانتا معهودتين بالنسبة لها وهما

«قصر الحرانة»- الذي سينتهي الحال بـ«بيل» إلى زيارته وتسجيله في العام 1914 (انظر شكل ٥-١٩)[٢١٩]- وقصر «المشتى» الذي يقع على مسافة كيلومترات قليلة غرب قصر «الحرانة» بالصحراء الغربية (انظر شكل ٥-٢٠)[٢٢٠]. وكان الطابع الدفاعي لهاتين القلعتين اللتين تميزتا بأسوارهما العالية وأبراجهما المستديرة، يستدعي الحصون الرومانية القديمة ويُقدِّم في ذات الوقت إلهامًا مباشرًا للمظهر المنيع التي تمتعت به القلعة العباسية اللاحقة بعض الشئ في الأخيضر، بالجانب الشرقي من الصحراء السورية.

بالنتيجة، كانت «بيل» تؤكِّد خلال تناولها لتلك المعالم وأصولها المتشعبة، على الطابع الهجين والفريد للعمارة الإسلامية المبكرة. ففي الوقت الذي تأثَّر فيه بوضوح الترتيب الداخلي بقصور مثل الأخيضر بالتقاليد المنبثقة من الشرق- التي تنطوي على إيوانات مركزية تُحيطها مساكن، ناهيك عن بعض موادها وعناصرها التقنية التي أنجبتها التقاليد المحلية- إلا أنه يُمكن في أغلب الأحيان تتبع أصول معالم أخرى في روما والغرب. ومن ثمّ فإنّ المفتاح إلى العمارة الإسلامية المبكرة هو فهم مزجها الفريد للتقاليد الشرقية والغربية. ولذلك تتبع بحث «بيل» بذكاء؛ وهو البحث الذي أوردته بصورة شاملة في كتابها «قصر ومسجد في الأخيضر»، الطبيعة متعددة الاتجاهات للمؤثرات التي مارست دورًا على الأخيضر. وبمثل هذه الملاحظات تجاوزت «بيل» التأكيدات شديدة التبسيط التي طرحها باحثون مثل «سترزيجوفسكي»؛ ممَن صمموا بموقفهم الجدلي العنيف على حصر وعزل مصدر حيوي واحد للإلهام، استوحى منه صرح فني أو معماري جوهره، سواء كان هذا المصدر من الشرق أم الغرب. وقبلت «بيل» بنضجها العلمي التعقيد الذي تقايضت وتمازجت به الأفكار والتأثيرات خلال سنوات الإسلام الأولى، حين امتزجت التقاليد العتيقة مع عناصر جديدة تمهيدًا لظهور أسلوب ثقافي مميز وغير مألوف[٢٢١].

قصر ومسجد في الأخيضر: هل حرك المياه الراكدة؟

نُشر «قصر ومسجد في الأخيضر»؛ الكتاب الذي أفرغت به كل تحرياتها الميدانية الأركيولوجية ومراسلاتها ونقاشاتها مع باحثين آخرين وبحثها المستفيض، في طبعة باذخة أصدرتها دار «كلارندون بريس» بأكسفورد في العام 1914. وكانت الطبعة تضم صفحات كبيرة الحجم ومخططات وخرائط مطوية وعدد غزير من الصور الفوتوغرافية الواضحة باللونين الأبيض والأسود. كان شكل الكتاب الباذخ وسيطًا ملائمًا لهذا المشروع الطموح، بمعالجته التفصيلية الثرية بالأشكال التوضيحية عن الأخيضر، ناهيك عن مراجعته لسائر المعالم المعمارية عبر العصور، التي استوحى منها الأخيضر تصميمه البلاطي ومسجده.

وهكذا بعد طول انتظار، اختتمت «بيل» عملها الأشد طموحًا وتشابكًا الذي استمرّ في الاستحواذ على اهتمامها منذُ وقعت عيناها أول مرّة على قلعة الأخيضر المذهلة أوائل العام 1909. لكن تُرى هل لبّى الكتاب في نهاية المطاف توقعاتها كباحثة وعالمة؟ كانت «بيل» عندما أعلنت بحماس كبير لأول مرة اكتشافها للأخيضر في العام 1909، تتصور أنّها عثرت على: «المبنى الأهم في عصره»، وأخذت عهدًا على نفسها بأن: «تنشر كل ما يتعلق به في دراسة ضخمة عنه فقط»، وأنّ هذه الدراسة من شأنها أنّ: «تُحرّك المياه الراكدة». لكن في النهاية، هل كان هذا الكتاب هو الإسهام العلمي البارز الذي سعت من أجله، وهل حقق الاعتراف الذي ربّما تكون قد أملت فيه؟

لا نستطيع تقديم إجابة قاطعة: بنعم أو بلا؛ ذلك أنّ استقبال كتاب «بيل» كان مختلطًا ولا يزال على نفس الحال. فلم تكن أغلب المراجعات التي ظهرت وقتئذ في العام 1914 مفرطة في مديحها، في حين أبدى أغلبها الإعجاب بسعة علم «بيل»، ولم يرق للكثير منها أسلوب الكتابة المضجر

وتبني «بيل» لما يُمكن أن نسميه: «المنهج الألماني في إلقاء الدفاتر الميدانية الخام التي لم تُعالج فوق رأس قراءك»[٢٢٢]. ويجب الاعتراف أنّ: «قليلين من سيتجشمون عناء تخطي الصفحات العشر الأولى»[٢٢٣]؛ لأنّ «بيل»: «تكتب بلغة شديدة التخصص»[٢٢٤]. إذْ لا ريب؛ كما لوحظ بحقّ، أنّ من يتطلعون إلى «رومانس[*] السفر» الذي ينطوي على «أوصاف زاهية لأخلاق الشرقيين وتسجيلات للأحاديث التي تم تبادلها معهم، التي جعلت كتاب 'الصحراء والزرع' آسرًا جدًا»، سيخيب أملهم لا محالة بسبب محتوى هذه الدراسة العلمي المكثف. ورغم ذلك ينبغي أن نعترف أنّ القارئ الصبور سيصادف: «حصادًا هائلا من المعلومات»[٢٢٥].

من المستحيل أن نغفل؛ إذا نحينا هذه المثالب جانبًا، المعرفة المذهلة التي يكشفها كتاب «بيل» بجلاء، لاسيما مقارناته التي لا يقدمها تقريرا «ماسينون» و«رويتر» السابقين بشكل شامل. كذلك حظيت «بيل» بالمديح على تمكّنها من دعم حججها: «بقدر هائل من الأدلة الدامغة»[٢٢٦]. لكن عددًا قليلا من الباحثين انتقد محتوى الكتاب من بينهم «مارسيل ديولافوي»، الذي لم يوافق في مراجعة مطولة على تاريخ البناء الإسلامي الذي اقترحته «بيل» بالنسبة للقصر، واعتقد أنّ تعيينها لهوية المسجد في الأخيضر ليس مقنعًا، وظلّ حاسمًا في إيمانه بأنّ المجمع بني في فترة ما قبل الإسلام[٢٢٧]. ومع ذلك أعرب عن إعجابه بأسلوب كتابة «بيل» الواضح، وثراء وثائق الإثبات وغزارة مصادر المقارنة التي استطاعت جمعها[٢٢٨].

وعلى خلاف الحلقات الأكاديمية الألمانية والفرنسية التي كان أغلبها يعرف «جيرترود بيل» وبحوثها الأركيولوجية، لم يكن الباحثون الناطقون باللغة الإنجليزية يعرفون إلا أقل القليل عنها إبان العقود الأولى من القرن العشرين؛ بخاصة أنّها كانت الصوت الإنجليزي الوحيد المتخصص في

---

[*] الرومانس Romance: نوع أدبي عبارة عن حكاية قروسطية مبنية على أسطورة أو قصة حب فروسية أو مغامرة أو حكاية خارقة للطبيعة. [المترجم]

دراسة العمارة بالفترتين الساسانية والإسلامية المبكرة[٢٢٩]. ولم يكن لديها إلا عدد قليل من الزملاء الذين يمتلكون خلفية علمية أو اهتمام بالموضوع، بما يؤهلهم لاتخاذ موقف نقدي مطلع من دراستها. وكان من بين باحثي الآثار الذين راجعوا كتاب «قصر ومسجد في الأخيضر»، باحث في التاريخ الروماني سلّط الضوء كما هو متوقع منه على تحرياتها حول تأثير الأشكال المعمارية الإمبراطورية الرومانية على الأخيضر[٢٣٠]. وجاءت المراجعات المهمة الأخرى من «كريزويل» الذي رغم أنّه كان لا يزال باحثًا مجهولا نسبيًا في العام 1914، فإنه أقرّ بإنجاز «بيل» مُشيرًا إلى أنّ: «الآنسة «بيل» تستنفد موضوعاتها أسفل كل عنوان، من خلال كامل المادة المتاحة في متناول يديها، وأنّ الكتاب يُعدّ نموذجًا صالحًا لكل الأوقات على المنهج العلمي»[٢٣١].



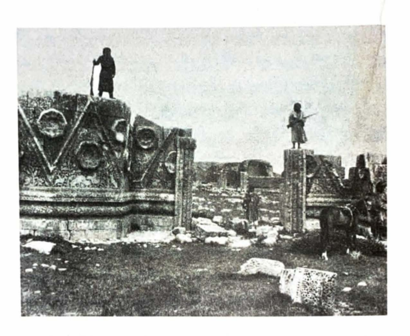
شكل (٥-١٩) داخل «قصر الحرانة»؛ وهو حصن إسلامي يعود إلى أوائل القرن الثامن (يقع في الأردن اليوم). رأت فيه «بيل» كثير من أوجه الشبه المعمارية مع قصر الأخيضر. وقد التقطت هذه الصورة في بداية رحلتها إلى الجزيرة العربية في يناير العام 1914، حيث مكثت بالقلعة ثلاثة أيام التقطت خلالها صور فوتوغرافية ورسمت مخططات ونسخت عبارات منقوشة بالخطّ الكوفي وكان عملها بشكل عام: «يفوق كل ما قام به أي شخص آخر».

ولا يقتضي الأمر من كل من يتشكك في تقدير «كريزويل» الإيجابي لـ«بيل»، إلا أن يلقي نظرة على صفحات كتابه: «العمارة الإسلامية المبكرة»Early Islamic Architecture، الذي نشره بعد عقود قليلة، لكي يرى كيف ثمّن بشدة الكثير من الحقائق والاستنتاجات التي أوردتها. وكما سبق أن أشرنا في الفصل الثالث، فإنّه رغم زيارة «كريزويل» بنفسه للأخيضر؛ فإن تناوله لبعض المعالم المعمارية من المجمع، وأصولها وتطورها ومقارنتها مع عناصر بمواقع أخرى تنتمي للفترتين ما قبل الإسلامية والإسلامية، كان في الغالب تكرارًا أو توسّعًا يقوم على ما سبق أن ناقشته «بيل». لكن في حين شددت هذه الاستعارة على احترام «كريزويل» الهائل لعمل «بيل»، إلا أنّه لفت الانتباه بعيدًا عنها في نهاية الأمر. إذْ لم تعد لدى القراء حاجة للرجوع إلى تقارير سابقة، بعد أن تضمن مؤلَّفه الشامل المُتاح على نطاق واسع كل ما يتعلق بالموضوع. وبهذه الطريقة ابتلعت ضبابية نسبية دراسة «بيل»، في حين أصبح كتاب «كريزويل» يحتل مكانة العمل المُهيمن الذي يُقرأ ويُستشهد به على نطاق واسع.

واليوم؛ بعد مرور أكثر من قرن على نشر «قصر ومسجد في الأخيضر»، لا يزال من الممكن أن نصادف جوانب جديرة بالمدح في دراسة «بيل» الأركيولوجية. فرغم أنّ أغلب مخططاتها التطورية المتعلقة بمعالم معمارية مثل القبو والإيوان تبيّن عدم دقتها أو إفراطها في التبسيط، فإن القارئ لا يزال يجد المعرفة الواسعة بالفنّ والعمارة الكلاسيكيين وفي الشرق الأدنى التي جمعتها «بيل» مثيرة للإعجاب، فضلًا عن قدرتها على الاستفادة من هذه المعرفة الواسعة بصورة مُقنعة خلال نقاشاتها. وكما سبق أن أشرنا، فإنّ بعض استنتاجاتها مثل تفسيرها لوظيفة «تشاهار قابو» كأحد معابد النار،

استمرّت في الاستحواذ على هيمنة معقولة بالأدبيات الأركيولوجية. كما أنّ المقارنة التي أجرتها بين الأخيضر ومجمعات بلاطية أخرى مثل «المشتى» وقصر «كسرى» بارعة بشكل لافت ولا تزال صالحة إلى يومنا هذا. كذلك ينبغي امتداح «بيل» على وعيها وتماسكها في الميدان، حتّى في أصعب وأخطر الظروف، وهي الميزات التي أعانتها على إنتاج مخططات دقيقة وتفصيلية للصروح المعمارية. ولا تزال هذه المخططات؛ مثل مخططات قصر «كسرى» و«تشاهار قابو» في «قصر شيرين»، تُصحح وتُنقح بشكل كامل ويرجع إليها الباحثون.

وأخيرًا، كما أكدنا مرارًا خلال هذا الفصل والفصل السابق، كان المقصود من تفان «بيل» المستمر في التقاط الصور الفوتوغرافية، أن يضم كتابها «قصر ومسجد في الأخيضر» ثروة من الصور لهذا المجمع المُذهل والمواقع الأخرى التي تذكرها خلال السرد. إنّ العديد من الصروح والتفاصيل المعمارية التي صورتها لم يعد لها وجود، وصورها تمثّل في أغلب الأحيان السجل الوحيد الذي نمتلكه لتلك المعالم الأثرية المدهشة. وفي ضوء هذه الحقيقة؛ وحتّى إن رأينا في نهاية المطاف أن ما وصل إلينا من إسهامها العلمي غير سليم، يظل إنجاز «بيل» الفوتوغرافي- الذي يُثبته ما يقرب من مائة صفحة من الصور الفوتوغرافية الواضحة والمفصلة في كتاب «قصر ومسجد في الأخيضر»- كافيًا لكي تستحق مكانتها بين جماعة علماء آثار الشرق الأدنى المتحققين والأكثر أهمية في أوائل القرن العشرين.



شكل (٥-٢٠) واجهة قلعة «المشتى» الأموية التي تعود للقرن الثامن الميلادي بنقوشها الرائعة، صورتها «بيل» في العام 1900 قبيل نقلها لاحقًا إلى متحف «القيصر فريدريك» في برلين؛ حيثُ لا تزال موجودة إلى اليوم (يحمل المتحف الآن اسم «متحف الفن الإسلامي، بمتحف بيرجامون»). وقد أعلنت «بيل» أنّ «المشتى» هو: «الأكثر بذخًا بين قصور الحيرة، حيث أحاطته الصحراء السورية التي نما فيها العشب ناعمًا ومفيدًا في الشتاء؛ وتلجأ إليه قطعان الصقور كما لجأ الملوك قديمًا» (بيل، قصر ومسجد، ص188). سيظهر «المشتى» بشكل بارز في بحث «بيل» حول قلعة الأخيضر التي تنتمي للعصر الإسلامي المبكر، ومساعيها لتتبع مباني أقدم استمدت منها القلعة الإلهام.

لكن المؤسف؛ في ظل جودة الكتاب، أنّ قليلين يخصصون وقتًا اليوم للتفكير في عمل «بيل» الأخير؛ «قصر ومسجد في الأخيضر». يوشك «روبرت هيلينبراند» على تقديم تفسير حين يكتب معلّقًا، أنّه على الرغم من أنّ سرد «بيل» عن الأخيضر «جليل»، فإن اهتماماتها الأخرى: «حالت بينها وبين متابعة عملها كمؤرخة للفن الإسلامي بكل ما كان لديها من قوة»[٢٣٢].

كانت هذه الاهتمامات الأخرى عظيمة، وسرعان ما كانت تُلبيها أنشطة «بيل» العلمية. إذْ كانت في الواقع قد أنهت فهرس موضوعات «قصر ومسجد في الأخيضر»، أثناء وجودها على متن سفينة متجهة إلى القاهرة في أواخر العام 1913(٢٣٣)، وستحملها رحلتها الأخرى إلى قلب الجزيرة العربية وتغمرها في الشئون الراهنة لتلك البلاد، مع الخصومة المريرة بين القبيلتين القويتين؛ بن رشيد وبن سعود. كانت هذه رحلة مختلفة قطعًا، ورغم أنّ بعض اهتمامات «بيل» على طول الطريق كانت ذات طبيعة أركيولوجية، فإنه ما من ريب أنّ تلك الاهتمامات طغت عليها رحلة «بيل» الجريئة الحافلة بالأحداث إلى العاصمة الصحراوية في «حائل»، وتقريرها عن عمالة أسرة بن رشيد. ومن الآن فصاعدًا ستبقى «بيل» مرتبطة في الذاكرة بالأحداث الجارية التي نقلتها إلى بريطانيا، وستجلب لها جولاتها الجسورة في الجزيرة العربية ميدالية «المؤسس» من الجمعية الجغرافية الملكية في بريطانيا(٢٣٤).

أدّى اندلاع الحرب عقب رحلة «بيل» إلى الجزيرة العربية بفترة قصيرة، إلى ابتعادها أكثر عن علم الآثار. ففي نوفمبر العام 1914 كانت تعمل لدى الصليب الأحمر في «بولوني»، تُسجّل الجنود المفقودين أو الجرحى(٢٣٥). وانتقلت في أبريل العام 1915 للعمل لدى الصليب الأحمر في لندن. وكان الحزن الذي أصاب «بيل» ساحقًا، عندما علمت في نهاية أبريل بمقتل صديقها الأثير «ديك دوغاتي- ويلي» Dick Doughty Wylie في «جاليبولي»، ولن تتعافى من الصدمة إلا بعد مرور شهور كثيرة(٢٣٦). ومن ثمّ، لابد أنّ استدعاء صديقها وزميلها القديم «ديفيد هوجارث» لها كي تشارك في المجهود الحربي بمكتب الاستخبارات العسكرية البريطانية في القاهرة؛ الذي سرعان ما أُعيدت تسميته بالمكتب العربي، خفف عنها بعض الشيء. فهي حياتها الآن قد وجدت غاية جديدة ملحة؛ حيثُ مثّلت المعرفة التي اكتسبتها مباشرة عن قرون من تاريخ الشرق الأوسط وشعوبه، مصدرًا مفيدًا

للبريطانيين، وساعدت في تحليل قوة وسياسات الزعماء العرب المحليين، وتقييم صِلاتهم بالعدو التركي والحكم على ولائهم المحتمل للبريطانيين. وهكذا لم تعد تحرياتها الأركيولوجية التي كانت دافعها الأساس للقيام برحلاتها الأولى إلى بلاد الرافدين، ذات صلة أو أهمية مباشرة؛ بالنظر لمسائل الحرب الأشدّ إلحاحًا. فتبدّل اتجاه حياة «بيل» بصورة معقّدة مع قبولها المنصب الجديد في القاهرة. ذلك أنّ شخصيتها كباحثة في التاريخ قد توارت تمامًا تقريبًا؛ بعد أن انغمست عميقًا الآن في شؤون الشرق الأوسط الحديث، وحلّ محلها دورها كــ: «امرأة الساعة» التي ينتظرها دور عليها أن تلعبه في تشكيل ما سيأتي من أحداث.

هوامش الفصل الخامس

(1) العنوان الكامل للكتاب:

Palace and Mosque at Ukhaidir: A Study in Early Mohammadan Architecture (Oxford, 1914).

(2) ربّما يكشف استهلال الكتاب عن معنى العنوان «من سلطان إلى سلطان» Amurath to Amurath؛ إذ يقتبس فقرة من مسرحية شكسبير «هنري الرابع» (الفصل الخامس، المشهد الثاني): «مُراد يلي مُراد»،

Gertrude L. Bell, Amurath to Amurath (London, 1911), p. viii.

في مسرحية شكسبير، يُشير اسم مُراد إلى مُراد الأول، أحد سلاطين الإمبراطورية العثمانية إبان القرن الرابع عشر. وتشدد «بيل» باستخدامها لهذه العبارة المقتبسة على الطابع الثابت للشرق منذ القدم وحتّى الوقت الحاضر، حيثُ: «يُجهز الغزاة على بعضهم البعض، وتُطاح بأمم وتسقط مدن، من دون أن تتبدل شروط الوجود». المرجع السابق: ص vii – viii.

(3) كانت «بيل» تتبادل رسائل مع باحثين عديدين أشارت إليهم في كتابها «من سلطان إلى سلطان». ويضم أرشيف «جيرترود بيل» في مكتبة جامعة نيوكاسل الكثير من هذه الرسائل، ومن بينها الرسائل التي تلقتها من «إرنست هرتسفلد» و«ماكس فان برشم» و«فالتر أندري» و«ديفيد هوجارث» و«إينو ليتمان» و«مارسيل ديولافوي» و«ل. و. كينج» و«فليندرز بيتري».

(4) كان «إيفلين بارنج»؛ «إيرل كرومر» الأول، هو القنصل البريطاني العام في مصر حتّى العام 1907. وقد قابل اللورد «كرومر»«بيل» أول مرّة في العام 1906، أثناء سفرها إلى مصر بصحبة أبيها وأخيها «هيوجو». وقــد وجدته؛ أثناء تناول الطعام في مقر اللورد «كرومر» المُطل على النيل في القاهرة عشية عيد الميلاد: «ألطف شخص في العالم، من دون شكّ» (رسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، 1 يناير 1907، أرشيف «جيرترود بيل»). بعدئذ؛ وعند عودة «كرومر» إلى إنجلترا، استمرت «بيل» في لقاءه بالكثير من المناسبات، واكتشفت أنّ لديهما وجهات نظر متشابهة في العديد من الأمور، بما فيها معارضتهما الشديدة لحركة المطالبة بحق المرأة في التصويت. انظر:

Roger Owen, 'Lord Cromer and Gertrude Bell', History Today 54 (2004), p. 37; Liora Lukitz, A Quest in the Middle East: Gertrude Bell and the Making of Modern Iraq (London, 2008), pp. 46-7, 51.

لكن ما يسترعي الانتباه هو أنّه رغم إعجاب «بيل» الصريح بـ«كرومر»، فإن الأخير لم يكن يُكن لها احترامًا كبيرًا دائمًا. إذ أعرب في أكثر من مناسبة لزملائه مثل اللورد «كورزون» و«أرثر بلفور»، عن شكّه في قيمة آرائها (لاسيما فيما يتصل بقضايا الشرق الأدنى السياسية الأوسع) ولأنّه يعتبر كلامها مُجرد «لغو»؛ رغم اعتقاده أنّها تتمتع بالبراعة، انظر:

Penelope Tuson, Playing the Game: The Story of Western Women in Arabia (London, 2003), pp. 137–8; AsherGreve, 'Gertrude L. Bell', pp. 161–2.

(5) Anderson, Lawrence in Arabia, p. 35.

(6) Bell, Amurath, p. viii.

(7) Bell, Amurath, p. ix.

(8) Ellsworth Huntington, Review of Gertrude L. Bell, 'Amurath to Amurath', Bulletin of the American Geographical Society 44 (1912), p. 135.

(9) David G. Hogarth, 'Gertrude Lowthian Bell', p. 366; Julia M. Asher-Greve, 'Gertrude L. Bell (1868–1926)', in Getzel M. Cohen and Martha Sharp Joukowsky (eds), Breaking Ground: Pioneering Women Archaeologists (Ann Arbor, 2004), p. 157.

(10) Gertrude L. Bell, 'The east bank of the Euphrates from Tel Ahmar to Hit', The Geographical Journal 36 (1910), pp. 513–37.

(11) Gertrude L. Bell, 'The churches and monasteries of the Tur Abdin', in Max van Berchem and Josef Stryzgowski, Amida. Mate´riaux pour l'e´pigraphie et l'histoiremusulmanes du DiyarBekr par Max van Berchem. Beitra¨ge zur Kunstgeschichte des Mittelalters von Nordmesopotamien, Hellas und dem Abendlande von Josef Strzygowski (Heidelberg, 1910), pp. 224–62.

(12) Gertrude L. Bell, 'The vaulting system of Ukhaidir', Journal of Hellenic Studies 30 (1910), pp. 69–81.

(13) رسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، 27 فبراير 1910، أرشيف «جيرترود بيل».

(14) انظر المرجع السابق. وتذكر رسائل «بيل» في أغسطس 1909 أنّها رسمت القلعة (رسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، 27 فبراير 1910، أرشيف «جيرترود بيل»)، بعدئذ

ألقت «بيل» محاضرة أمام الجمعية الهلنستية في نوفمبر 1909، وربّما كان موضوعها نفس موضوع المقال.

(15) روت «بيل» أنّ أباها كان «على راحته» مع من قابلهم من علماء الآثار، ولأنّه طرح عليهم أسئلة ذكية. وأشارت «بيل» مازحة إلى أنّهم كانوا يسترعون الاهتمام بدرجة أكبر متى كان موجودًا. انظر رسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، فبراير 1910، أرشيف «جيرترود بيل».

(16) رسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، فبراير 1910، أرشيف «جيرترود بيل».

(17) Robert B. Todd (ed.), 'Strong, Eugenie (nee Sellers: 1860–1943)', The Dictionary of British Classicists (Bristol, 2004), p. 930.

(18) Stephen L. Dyson, Eugenie Sellers Strong: Portrait of an Archaeologist (London, 2004), p. 76; Todd, 'Strong', p. 930.

(19) Dyson, Sellers Strong, pp. 65–7; Todd, 'Strong', p. 930.

(20) Dyson, Sellers Strong, pp. 111–94; Todd, 'Strong', pp. 930–1.

(21) لم تكن «أوجيني» صديقة لـ«جيرترود» فحسب، بل تعرّفت أيضًا على والدها «هيو»، وزوجة أبيها «فلورنس». انظر:

Dyson, Sellers Strong, p. 88.

ويُمكن تعقب الرسائل المتبادلة بين «أوجيني» وبين «فلورنس بيل» إلى يناير 1900، والتي استمرت حتّى أواخر العام 1926 على الأقل، عقب وفاة «جيرترود» بمدة قصيرة. (المرجع السابق، ص 44- 45، والهامش رقم 70 صفحة 222، وص136 الهامش رقم 29 صفحة 230). وقد تساءلت «سترونج» في رسالة كتبتها في العام 1926، عما إذا كان مصدر الارتياح بصداقتها مع «جيرترود» هو تحول «سترونج» عن الكاثوليكية التي كانت «فلورنس» تنكرها.

(22) المرجع السابق، رسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، 22 فبراير 1892، أرشيف «جيرترود بيل».

(23) تُشير عدة رسائل كتبتها «بيل» إلى السيد «سترونج» الذي كانت تسميه أيضًا «العالم الخبير». ويبدو أنّ «سترونج» كان مُعجبًا لحدّ كبير ببراعة «بيل» في اللغة العربية. انظر رسائل «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 13- 14 فبراير، و22- 23 فبراير 1896، أرشيف «جيرترود بيل».

(24) تذكر «بيل» الزوجين «سترونج» في رسالة إلى أمّها من لندن، في السابع عشر من مارس 1899، وفي رسالة أخرى إلى أمّها في 13 أغسطس 1902، أرشيف «جيرترود بيل». حيث تكتب في الرسالة الأخيرة: «تناولت الغداء بالأمس مع الزوجين

سترونج. تعرفين كم أحب هذا الجزء الصغير - أو على الأقل أكنّ له احترامًا كبيرًا أعتقد أنه يُكنه لي أيضًا. يُريد أن أكتب كتابًا له، ضمن سلسلة كُتب عن الفن يُصدرها لحساب جورج دكورث».

(25) Robert B. Todd (ed.), 'Ashby, Thomas (1874–1931)', The Dictionary of British Classicists (Bristol, 2004), pp. 29–30.

(26) المرجع السابق.

(27) المرجع السابق.

(28) Dyson, Sellers Strong, pp. 111–27.

(29) رسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، فبراير 1910، أرشيف «جيرترود بيل».

(30) رسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، مارس 1910، أرشيف «جيرترود بيل».

(31) رسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، فبراير 1910، أرشيف «جيرترود بيل».

(32) المرجع السابق، وانظر:

Katherine A. Geffcken, 'Esther van Deman and Gertrude Bell (1910)', in K. Einaudi (ed.), Esther B. Van Deman: Images from the Archive of an American Archaeologist in Italy at the Turn of the Century (Rome, 1991), p. 25.

(33) رسائل «جيرترود بيل» إلى أبويها، فبراير 1910، و8 و9 و10 و18 مارس 1910، أرشيف «جيرترود بيل».

(34) Katherine Welch, 'Esther B. Van Deman (1862–1937)', in Cohen and Joukowsky (eds), Breaking Ground, pp. 75–6.

(35) Esther B. Van Deman, The Atrium Vestae (Washington, 1909).

(36) Welch, 'Van Deman', p. 80; Esther Van Deman, 'Methods for determining the date of Roman concrete monuments', American Journal of Archaeology 16 (1912), pp. 230–51, 387–432.

(37) Welch, 'Van Deman', pp. 82–3.

(38) المرجع السابق، ص 84. فرض هذا المشروع الميداني المكثف عليهما الخروج إلى ريف روما لتتبع قنوات الماء المارّة فوق الجسور بمحاذاة التلال والمنحدرات، وعبر الحقول والوديان، والتمييز بين مسارات القنوات المُختلفة من خلال المواد المستعملة في بنائها وجودة الصنعة والرواسب المعدنية. وقد ظهرت دراستان منفصلتان حول قنوات الماء المارّة فوق الجسور في نهاية تعاونهما، هما:

Esther Van Deman, The Building of the Roman Aqueducts (Washington, 1934); Thomas Ashby, The Aqueducts of Ancient Rome (Oxford, 1935).

وهما كتابان فريدان بسبب ما يضمانه من مخططات ورسومات فنية وصور فوتوغرافية. ولا يزالان يحظيان بالاهتمام إلى يومنا هذا، لاسيما أنّ أغلب الأدلة المادية على هذه القنوات المائية قد اختفى بسبب التوسع المستمر لمدينة روما. انظر:

Welch 'Van Deman', p. 84.

(39) انظر إشارة «ويلش» من إحدى رسائل «فان ديمان»: «لكم تروق لي السيدة سترونج كثيرًا [...] فهي بسيطة وحساسة»، المرجع السابق، ص 98 والهامش رقم 120 صفحة 108 في رسالة إلى «راندولف» بالثاني من أبريل 1908 (أرشيف «كلية ماونت هوليوك»).

(40) رسالة إلى «جيرترود بيل» من «فان ديمان»، 15 يوليو 1910، أرشيف «جيرترود بيل»، أرشيف «جيرترود بيل» بجامعة نيوكاسل.

(41) رسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، فبراير 1910، أرشيف «جيرترود بيل».

(42) رسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، 10 مارس 1910، أرشيف «جيرترود بيل».

(43) المرجع السابق.

(44) Geffcken, 'Esther Van Deman', p. 26.

(45) رسالة من «فان ديمان» إلى «جيرترود بيل»، 1 مايو 1910، أرشيف «جيرترود بيل» بجامعة نيوكاسل.

(46) انظر بشكل خاص وصف «بيل» الدقيق للأقبية بمدينة الحضر في كتاب:

Palace and Mosque pp. 70–2.

وانظر أيضًا أبعاد الطوب في موجدة وخان عطشان، المرجع السابق، ص 39 و41.

(47) المرجع السابق، ص 12– 13، 15.

(48) تُعد صور «بيل» الفوتوغرافية التي التقطتها في العام 1911؛ والتي تكشف تفاصيل المعالم المعمارية المشيدة بالطوب والحجارة، بالغة الأهمية بسبب توضيحها لأساليب البناء المتبعة في الأخيضر. أرشيف «جيرترود بيل» بجامعة نيوكاسل:

Album P_143, P_150, P_167, P_169, P_195, P_201.

(49) رسالة من «فان ديمان» إلى «جيرترود بيل»، 15 يوليو 1910، أرشيف «جيرترود بيل» بجامعة نيوكاسل.

(50) رسالة من «فان ديمان» إلى «جيرترود بيل»، 1 مايو 1910، أرشيف «جيرترود بيل» بجامعة نيوكاسل.

(51) المرجع السابق.

(52) رسالة من «فان ديمان» إلى «جيرترود بيل»، 15 يوليو 1910، أرشيف «جيرترود بيل» بجامعة نيوكاسل.

(53) للاطلاع على سيرة ذاتية دقيقة حول هذا الباحث: انظر:

Heinrich Drerup, 'Richard Delbrueck', in Archaologenbildnisse: Portrats und Kurzbiographien von Klassischen Archaologen deutscher Sprache (Mainz, 1988), pp. 188-9.

ولا تزال كُتب «ديلبروك» حول اللوحات العاجية القنصلية المزدوجة Ivory Consular Diptychs (1929) والمنحوتات الأثرية في الصخر «البورفيري» (1932) تحظى باهتمام وانتباه الباحثين. ولا يزال الباحثون يقتبسون من كتابه «المباني الهلنستية في لاتسيو» Hellenistiche Bauten in Latium (ستراسبورج، 1907) بين الحين والآخر، لكن تجاوزته الاكتشافات الحديثة التي لم تُلق بظلالها على الموضوعين الأولين بأي حال. وقد كانت «بيل» حتى قبل رحلتها إلى روما، على دراية بخبرة عالم الآثار الألماني؛ حيث أشارت إلى كتابه «المباني الهلنستية في لاتسيو» أثناء الكتابة عن الاستخدام الأقدم للقبو المتقاطع خلال العصر الجمهوري في روما (في «التابولاريوم») بمقالها عن أقبية الأخيضر (الذي تقدّمت به للنشر في دورية الدراسات الهلنستية بعد رحلتها إلى روما بفترة قصيرة، إمّا بالعام 1909 أو أوائل العام 1910)، انظر:

Bell, 'Vaulting system', p. 75 footnote 7.

(54) رسائل «جيرترود بيل» إلى أسرتها، ? فبراير 1910، 27– 28 فبراير 1910، 9 –10 مارس 1910، أرشيف «جيرترود بيل».

(55) رسالتا «جيرترود بيل» إلى أمها، 29 مارس و1 أبريل 1910، أرشيف «جيرترود بيل».

(56) رسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، 9 مارس 1910، أرشيف «جيرترود بيل».

(57) Dyson, Sellers Strong, p. 89.

حيثُ يكتب: «أمضت جيرترود في العام 1910 فترة طويلة بصحبة أوجيني في روما، حيثُ تملكها تعلق رومانسي جاد بريتشارد ديلبروك؛ مدير المعهد الأثري الألماني. والواقع أنّ أباها ظنّ أنّها قد تستقر هناك، لكن مع ذلك اجتنبت الاهتمامات الشخصية والمهنية بيل إلى الشرق الأدنى».

(58) انظر على سبيل المثال:

Palace and Mosque, p. 68 and notes 6 and 7; p. 69 and note 1; p. 70 and note 5; p. 73 and note 3; p. 123; p. 124 and notes 1, 5 and 7; p. 125 and notes 2–5; p. 136 and note 1; and p.166 and note 2.

(59) Hedwig Kenner, 'Emil Reisch', in Archäologenbildnisse, pp. 150–1.

التقت «بيل» لأول مرّة مع «دفورجاك» في الحادي والثلاثين من مارس، أثناء رحلة إلى «شيبينيك» مع أساتذة ألمان آخرين: 'من بينهم البروفيسور «دفورجاك»؛ وهو زميل «سترزيجوفسكي» في فيينا وخصمه الرئيس. تملكني شعور بالكراهية فور أن رأيته- ليس لهذا السبب. شاب، بدين، مليء بالدهون. أعتقد أنّه مقرف'. رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 1 أبريل 1910، أرشيف «جيرترود بيل». وقد تناولت الغداء مع «دفورجاك» أيضًا في «سبليت» بالثالث من أبريل، حسبما نعرف من رسالة أخرى كتبتها بنفس اليوم. والتقت «بيل» مع «رايش» بالثاني من أبريل وخرجت في رحلة إلى «سولين» في صحبته بالثالث من أبريل، رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 3 أبريل 1910، أرشيف «جيرترود بيل».

(60) Jürgen Borchhardt, 'Georg(e) Niemann', in Archäologenbildnisse, pp. 80–1.

قابلت «بيل»«نيمان» في الأول من أبريل 1910، وزارت معه كنيسة صغيرة تنتمي للقرن التاسع عند بوابة دقلديانوس في«سبليت»؛ رسالتا «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 1- 2 أبريل 1910، أرشيف «جيرترود بيل». وتذكر رسالة من «بيل» إلى «إستر فان ديمان»؛ كتبتها على متن القارب المتجه من «زارا» إلى «بولا» (5 أبريل 1910)، أنّها التقت مع «نيمان» وعرفت بأمر كتابه عن القصر الدقلديانوسي، وأنّها حصلت منه على كل ما استطاعت الوصول إليه. انظر:

Geffcken, 'Esther Van Deman', pp. 26–7.

كذلك تناولت «بيل» الغداء مع «نيمان» في «سبليت» بالثالث من أبريل، وسافرت معه ومع ابنته على متن قارب في الرابع من أبريل إلى «زادار»، حيثُ توقفوا لزيارة «شيبينيك» و«تروجير»؛ رسالتا «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 4- 5 أبريل 1910، أرشيف «جيرترود بيل». والحقيقة أنّ «بيل» كانت تستخف بأمر «نيمان» في رسائلها، وتصفه بأنّه: «قزم ضئيل لكنه شديد التهذيب. يصطحب معه ابنة أكثر ضآلة وتلبس ثيابًا لا يُمكن وصفها.» (رسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، 2 أبريل، أرشيف «جيرترود بيل».) وتصف «بيل» ابن وابنة «نيمان» بأنّهما: «قزمان مثيران للفضول، يبدوان كأنّهما لم يتعرضا من قبل للنور قطّ عدا نور مصباح الزيت بمنتصف الليل.» (رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 3 أبريل 1910، أرشيف «جيرترود بيل».) مع ذلك، بدا أنّ «بيل» أحسّت بانجذاب إلى «نيمان» أثناء رحلتهما الساحلية، حيثُ كتبت أنّ الحياة كانت تعود إليه لحدّ كبير عندما يتحدث عن أعمال التنقيب التي يُجريها في الأناضول، وأنّها استمتعت برفقته؛ رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 5 أبريل 1910، أرشيف «جيرترود بيل».

(61) أرشيف «جيرترود بيل»؛ جامعة نيوكاسل، ألبوم E_153- 88، وكل الصور من الشاطئ الدالماسي.

(62) رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 1 أبريل 1910، أرشيف «جيرترود بيل».
(63) رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 5 أبريل 1910، أرشيف «جيرترود بيل».
(64) المرجع السابق.
(65) رسالة «جيرترود بيل» إلى «فان ديمان»، 5 أبريل 1910، وانظر:
Geffcken, 'Esther Van Deman', p. 27.
(66) رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 29 مارس 1910، أرشيف «جيرترود بيل».
(67) رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 13 يناير 1911، أرشيف «جيرترود بيل».
(68) المرجع السابق.
(69) E. Walter Andrae and R.M. Boehmer, Bilder eines Ausgrabers. Die Orientbilder von Walter Andrae 1898–1919/Sketches by an Excavator, second enlarged edition, English translation by Jane Moon (Berlin, 1992), p. 140.
(70) يوميات ورسائل «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 17 يناير– 9 فبراير 1911، أرشيف «جيرترود بيل».
(71) يوميات «جيرترود بيل» في 3 مارس 1911، ورسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 3 مارس 1911، أرشيف «جيرترود بيل». وقد زار «لويس ماسينون» الموقع في العام 1907، انظر:
Massignon, Mission en Mesopotamie (Cairo, 1910), vol. 1, p. 21.
(72) Bell, Palace and Mosque, pp. 38–9.
(73) 'Kirche A' and 'Kirche B'; see also Barbara Finster and Jurgen Schmidt, 'Sasanidische und früհislamische Ruinen im Iraq', Baghdader Mitteilungen 8 (1976), pp. 27–39.
(74) نستطيع أن نُلاحظ بشكل خاص التفصيلة التي أوردتها، والخاصة بإحدى الحنايا الركنية بمحراب الكنيسة الخلفي في «الكنيسة أ»– التي تشير إليها «بيل» أثناء وصفها باسم «القلعة الصغيرة»– الذي زُين فيه قوس النصر بزخارف متعرجة مميزة من الجبس، وهي نفس الزخارف الموجودة عند قاعدة المحراب المذكور سابقًا. وعمومًا، لا يبدو أنّ الحالة المتدهورة التي كانت عليها «الكنيسة أ» قد تبدلت كثيرًا، بين زيارة «بيل» في العام 1911 والدراسة المسحية التي أجراها كل من «فنستر» و«شميت» في العام 1973، رغم أنّه يُمكننا أن نلاحظ في الزيارة الأخيرة الغياب الكامل لتلك الزخارف الجبسية التي زينت قوس النصر بسبب تفتت الحائط الخلفي الرفيع الذي كان أحد مكوناته. قارن:
Bell, Palace and Mosque, pl. 45 Fig. 2 (Gertrude Bell Archive, Album P_207).
و:

Finster and Schmidt, 'Sasanidische', Taf. 18b. Finster and Schmidt's Taf. 15a,
والأخيرة مشهد عام لظهر الكنيسة الذي يُمكن مقارنة ما لحقه من تفتت بما جاء في:

Bell, Palace and Mosque, pl. 45, Fig. 1 (Gertrude Bell Archive, Album P_206).

وتُشير «بيل» إلى أنّ موتيفات الجبس المعززة هذه كان من الممكن رؤيتها على أقواس النصر أعلى الأبواب في نهايات الممرين 5 و6 بالأخيضر، المرجع السابق، ص 38، هامش 2.

(75) لاسيما بالجانب الغربي من البرج. انظر:

Bell, Palace and Mosque, p. 40, and P_212.

(76) قارن صورة «بيل» الفوتوغرافية للجانب الغربي من البرج؛ أرشيف «جيرترود بيل»، ألبوم P_212، مع صورة «فنستر» و«شميت» لنفس الجانب:

'Sasanidische', Taf. 9.

(77) Google Earth photograph (q 2015 Google), coordinates 32820'10.78"N, 43849'59.69"E.

(78) Bell, Palace and Mosque, p. 40.

(79) كانت «بيل» تعتبر البرج شديد الشبه بالمئذنة الموجودة في «دلقوق» جنوب كركوك، التي شُيدت إبان القرن الثالث عشر أثناء تشييد مباني أخرى في بغداد، المرجع السابق، ص 40– 41.

(80) K.A.C. Creswell, Early Muslim Architecture. Vol. 2: Early 'Abbasids, Umayyads of Cordova, Aghlabids, Tulunids, and Samanids, A.D. 751–905 (Oxford, 1940), reprint (New York, 1979), p. 98; Robert Hillenbrand, Islamic Architecture (New York, 1994), p. 144; Marcus Milwright, An Introduction to Islamic Archaeology (Edinburgh, 2010), p. 163.

(81) Finster and Schmidt, 'Sasanidische', p. 26; Hillenbrand, Islamic Architecture, p. 144.

(82) Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2, pp. 94, 98; Finster and Schmidt, 'Sasanidische', p. 26.

(83) Bell, Palace and Mosque, p. 41; her plan is on pl. 46, Fig. 2.

(84) المرجع السابق، ص 42.

(85) المرجع السابق، ص 43.

(86) المرجع السابق، ص 43.

(87) Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2, p. 93.

(88) المرجع السابق، ص 98.

(89) Finster and Schmidt, 'Sasanidische', pp. 21–4.

(90) انظر بشكل خاص صور «بيل» الفوتوغرافية، ألبوم P_215 وP_216.

(91) Creswell, Early Muslim Architecture, vol. 2, p. 92 and Pl. 22c.

ويُمكن المقارنة مع:

Bell, Palace and Mosque, pl. 49, Fig. 2 and Album P_219.

(92) المرجع السابق، شكل 2، مُقارنة بـ:

Finster and Schmidt, 'Sasanidische', Taf. 5.

(93) Bell, Palace and Mosque, pp. 38–43, and pls. 45–51.

(94) Vol. IV (Paris, 1896), pls. 40, 42 and 42.

(95) Bell, Palace and Mosque, p. 44.

(96) رسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، 21 مارس 1911، ويوميات «جيرترود بيل»، 22 مارس 1911، أرشيف «جيرترود بيل».

(97) يوميات «جيرترود بيل»، 23– 24 مارس 1911، أرشيف «جيرترود بيل».

(98) المرجع السابق.

(99) رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 28 مارس 1911، أرشيف «جيرترود بيل».

(100) انظر بشكل خاص رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 28 مارس 1911، أرشيف «جيرترود بيل».

(101) يوميات «جيرترود بيل»، 25 مارس 1911، أرشيف «جيرترود بيل».

(102) Bell, Palace and Mosque, pp. 44–54, and pls. 51, fig.1, 52, Fig. 2, 53–73, Fig. 1. 103.

(103) المرجع السابق، ص 44– 45.

(104) المرجع السابق، ص 45.

(105) المرجع السابق، ص 80. كانت المصطبة تمتد حوالي 372 مترًا من الشرق إلى الغرب، في حين كانت تمتد حوالي 190 مترًا من الشمال إلى الجنوب، لتتيح بذلك مساحة هائلة يُقام فوقها مبنى ضخم.

(106) المرجع السابق، ص 45 و50 و80.

(107) المرجع السابق، ص 45 و70، شكل 2. الحقيقة أنّه رغم أن تلك الإنشاءات كانت ضمن المباني الإسلامية الأولى مثل قصر الحرانة والأخيضر، لكن الأقواس والأقبية ذات الانحناء الخفيف Offset لم تكن شائعة على ما يبدو في العمارة الساسانية، ومن

ثمّ فإنّ تصريح «بيل» بأنّ هذا المعلم المعماري: «كان شائعًا على وجه العموم في بناء القبو الساساني، سواء بالطوب أو بالحجارة»، تصريح بلا أساس، بحسب:

Bier, Sarvistan, p. 30 and fn. 36.

ولا ريب أنّ «بيل» كانت تفكر في أقبية الطوب بالغرف الجانبية في طيسفون الساسانية، حيث تظهر المباني خفيفة الانحناء، لكن هذه الإنشاءات تدعم الأقبية الجملونية المُشيدة بالطوب وليس الحجارة المثبتة بالملاط، كما في قصر شيرين، ومن ثمّ فهي تمثّل أسلوبًا شديدة الاختلاف في البناء.

(108) Bell, Palace and Mosque, pp. 83–4.

(109) أعادت «بيل» بناء هذا المدخل المسقوف، الذي لم يكن قد تبقى منه سوى ثلين أثريين غطّاهما العشب، والذي كان يتألف من جدارين اثنين سميكين يحملان سقفًا على هيئة قبو برميلي. لكنها تكتب أنّها رأت تجمعات دائرية من الطوب ربّما كانت آثار أعمدة، ما يجعل التصور الذي وضعه «دي مورجان» عن وجود غرفة ترتفع على جانبيها أعمدة، تصورًا ممكنًا. انظر:

Jacques de Morgan, Mission scientifique en Perse, vol. IV (Paris, 1896), p. 42; Bell, Palace and Mosque p. 45.

وقد أكّدت التحريات الحديثة حول هذا القطاع تحديدًا من القصر التي أجراها فريق إيراني، وجود صفين متوازيين من الدعامات الحجرية المستطيلة السميكة، تُحدد مكان جدران«بيل» المُحكمة المُفترضة. كما اكتشف الفريق الإيراني وجود أعمدة إضافية أمام وبمحاذاة الدعائم الحجرية، ما يطرح فكرة أنّ تكون القاعة مزودة بمدخلين مسقوفين عند طرفيها. انظر:

Yusef Moradi, 'Imarat-e Khosrow in view of the first season of archaeological excavations', in Hamid Fahimi and Karim Alizadeh (eds), Namvarnameh: Papers in honour of Massoud Azarnoush (Tehran, 2012), pp. 350–75.

(110) كانت جدران هذه الساحة المربعة الفسيحة هي الأكثر تحطّمًا، ولم يصل إلينا شيء من السقف، لكن حسب تقدير«بيل» فإنّ هذه القاعة لابد أنّها كانت تحمل قبة هائلة، ربما تغطي مساحة تبلغ 16 مترًا مدعومة بركائز عند الأركان وتتميز بوجود عامودين اثنين متصلين على الجانبين، ولا تزال بقاياها موجودة إلى الآن. انظر:

Bell, Palace and Mosque, pp. 46, 74.

(111) ممران ضيقان مسقوفان؛ رقما 11 و12، يبدآن من قاعة الجمهور (رقم 3)، ويمتدان بمحاذاة جانبي المنطقة الوسطى التي يقع فيها الفناءان أ، ب. ويصلان إلى الطابق السفلي غرب القصر بما يضمه من أفنية وحجرات. المرجع السابق، ص 46.

(112) تقع؛ على الأقل، عند أحد أطراف الأفنية المفتوحة (C-J) مجموعات من الغرف المقباة، والتي تتميز بوجود غرفتين اثنتين على جانبي كل إيوان أوسط مفتوح على اتساعه على الفناء، وتحديدًا بنفس أسلوب الإيوانات القديمة في مدينة الحضر الفرثية، المرجع السابق، ص 47. أما الغرف العرضية التي تقع خلف كل مجموعة من مجموعات الإيوان فيُعتقد أنّها مطابخ. المرجع السابق.

(113) المرجع السابق، ص 80. انظر:

Oscar Reuther, 'Sasanian art', in Arthur E. Pope, A Survey of Persian Art (Oxford, 1938), p. 543.

(114) Bier, Sarvistan, p. 71, note 7; Lionel Bier, 'The Sasanian palaces and their influence in early Islam', Ars Orientalis 23 (1993) p. 59, and n. 18, citing Bell, Palace and Mosque, pp. 44–51.

(115) Bier, 'Sasanian palaces', p. 59.

(116) Bell, Palace and Mosque, p. 81.

(117) Reuther, 'Sasanian art', p. 541, Fig. 153.

(118) المرجع السابق، ص 542، شكل 154.

(119) Bier, 'Sasanian palaces', p. 58.

(120) Reuther, 'Sasanian art', p. 540; Bier, 'Sasanian palaces', pp. 58–9.

(121) Reuther, 'Sasanian art', p. 540.

(122) المرجع السابق، ص 540.

(123) المرجع السابق، ص 540– 542.

(124) Moradi, 'Imarat-e Khosrow'.

(125) تبلغ قياسات المبنى 134 مترًا و83 مترًا. انظر:

Bell, Palace and Mosque, p. 51.

(126) المدخل الرئيس ممثل بالرقمين 1 و2. والأفنية من A إلى C تصطف بمحاذاة الجهة الشرقية، وعلى جانبيها غرف مسقوفة صغيرة، أرقام 3–14. وأغلب تلك الغرف وجدت مسقوفة بقباب مخروطية مُشيدة فوق حنايا ركنية ومزودة بمحاريب صغيرة بأحد الجدران، تمامًا كما بالعمارة الفارسية. المرجع السابق، ص 51، شكل 2–3.

(127) تضم الأفنية E- H و I- K، والغرف المُحيطة أرقام 18–34، و35– 50. المرجع السابق، ص 52– 53. وأحد هذه الغرف على الأقل (رقم 39) بتلك الأجنحة كانت مسقوفة بقبة ذات حنايا ركنية، المرجع السابق، ص 53، شكل 2.

(128) المرجع السابق، ص 90.

(129) المرجع السابق، ص 53، شكل 1- 2.

(130) المرجع السابق، ص 53، شكل 1- 2.

(131) أرقام 58- 62 رأتها «بيل» بالجانب الجنوبي الغربي، أما أرقام 55- 57 فرأتها بالركن الشمالي الغربي من المبنى. المرجع السابق، ص 54.

(132) المرجع السابق، ص 53.

(133) المرجع السابق، pl.64.

(134) المرجع السابق، ص 90.

(135) المرجع السابق، ص 90، شكل 10.

(136) المرجع السابق، ص 92- 94.

(137) المرجع السابق، ص 94.

(138) Jurgen Schmidt, 'Qasr-i Sırın, Feuertempel oder Palast?' Baghdad Mitteilungen 9 (1978), p. 41.

(139) Reuther, 'Sasanian art', p. 553; Figs 158–9.

(140) لاحظ وجودها في صور «بيل»، انظر بشكل خاص:

Bell, Palace and Mosque, pls. 67, 71–2.

(141) Reuther, 'Sasanian art', p. 553.

(142) المرجع السابق، ص 552- 554.

(143) Schmidt, 'Feuertempel', pp. 43–4.

(144) المرجع السابق، ص 45- 47.

(145) Bier, Sarvistan, p. 71.

(146) المرجع السابق.

(147) في «تشاهار قابو»، الإشارة إلى الفناء E والغرف المُحيطة 18- 21. أما في الأخيضر، فالإشارة إلى المسجد بالركن الشمالي الغربي من القصر.

(148) Bier, Sarvistan, p. 71.

(149) Bell, Palace and Mosque, pp. 92–4.

(150) Schmidt, 'Feuertempel', p. 43.

(151) Moradi, personal communication.

(152) Moradi, personal communication.

(153) Rudiger Schmitt, 'Hatra', Encyclopedia Iranica XII/1 (2003), pp. 58–61; an updated version is available online at http://www.iranicaonline.org/arti cles/hatra (accessed 29 July 2015).

(154) L. Michael White, 'Hatra', in E.M. Meyers (ed.), The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East (New York, 1997), p. 484.

(155) المرجع السابق، ص 484– 485.

(156) Joachim Marzahn, '1907-1911: Hatra. Feldarchaologie im Schnelldurchlauf', in G. Wilhelm (ed.), Zwischen Tigris und Nil (Mainz am Rhein, 1998), pp. 68–73.

(157) Fu'ad Safar and M.A. Mustafa, Hatra: The City of the Sun God [Arabic title Al-Hadr, Madi¯nat al-shams] (Baghdad, 1974). Hatra's listing as a World Heritage Site is available at http://whc.unesco.org/en/list/277 (accessed 22 June 2015).

(158) يوميات «جيرترود بيل»، 27 يناير 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(159) ستصدر نتائج أبحاث «أندري» عن الحضر في مجلدين عن عمارتها:

Walter Andrae, Hatra nach Aufnahmen von Mitgliedern der Assur Expedition der Deutschen Orient-Gesellschaft, 2 vols (Leipzig, 1908 and 1912).

(160) يوميات «جيرترود بيل»، 24 أبريل 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(161) المرجع السابق، رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 26 أبريل 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

(162) مكان وجود الرسالة لا يزال مجهولا، لكن وجودها أشار إليه «أندري» في رده عليها بتاريخ 20 يونيو 1910. أرشيف «جيرترود بيل» بجامعة نيوكاسل.

(163) المرجع السابق.

(164) المرجع السابق.

(165) رسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، 14 أبريل 1911، أرشيف «جيرترود بيل».

(166) المرجع السابق.

(167) المرجع السابق.

(168) المرجع السابق.

(169) Michael Sommer, Hatra. Geschichte und Kultur einer Karawanenstadt im ro¨mischparthischen Mesopotamien (Mainz am Rhein, 2003), p. 8.

(170) للاطلاع على تقييم تفصيلي لكل قطعة أثرية جرى تحطيمها في متحف الموصل، انظر:

Christopher Jones, 'Assessing the damage at the Mosul Museum, Part 1: The Assyrian artifacts' (27 February 2015). Available at https://gatesofni neveh.wordpress.com/2015/02/27/assessing-the-damage-at-the-mosul-mus eum-part-1-the-assyrian-artifacts/ (accessed 30 July 2015).

(171) لمعلومات عن التخريب الذي ألحقه تنظيم الدولة بالحضر، انظر:

Michael D. Danti, C. Ali, T. Paulette, A. Cuneo, K. Franklin, L-A Barnes Gordon and D. Elitzer, 'ASOR Cultural Heritage Initiatives (CHI): Planning for safeguarding heritage sites in Syria and Iraq, weekly report 35 – April 6, 2015', available at www.asor-syrianheritage.org/wp content/uploads/2015/04/ASOR_CHI_Weekly_ Report_35r.pdf (accessed 30 July 2015), and Christopher Jones, 'Assessing the damage at Hatra' (7 April 2015), available at http://gatesofnineveh.wordpress.com/2015/04/07/assessing-the-damage-at-hatra/ (accessed 30 July 2015).

(172) Bell, Palace and Mosque, pp. 70–3.

(173) المرجع السابق، ص 66– 68.

(174) رسالة «جيرترود بيل» إلى أبيها، 10 نوفمبر 1922، أرشيف «جيرترود بيل».

(175) المرجع السابق.

(176) Bell, Palace and Mosque, Chapter V, 'The Facade', pp. 122–44, and Chapter VI, 'The Mosque', pp. 145–60.

(177) Ibid., Chapter IV, pp. 55–121.

(178) انظر أيضًا تناول معرفة «سترزيجوفسكي» العلمية ومنهجه في الفصل الثاني، سابقًا.

(179) Ernst Herzfeld, 'Die Genesis der islamischen Kunst und das Mschatta-Problem', Der Islam 1 (1910), pp. 27–63, 104–44; for Herzfeld's date of Mshatta, see p. 143 in this work.

وانظر أيضًا:

Thomas Leisten, 'Concerning the development of the Hira-style revisited', in Ann C. Gunther and Stefan R. Hauser (eds), Ernst Herzfeld and the Development of Near Eastern Studies, 1900–1950 (Leiden, 2004), p. 375.

(180) Jonathan Bloom, 'Introduction', in Jonathan Bloom (ed.) Early Islamic Art and Architecture (Aldershot, 2002), p. xvi.

(181) Leisten, 'Development of the Hira-style', p. 375.

(182) Suzanne Marchand, 'The rhetoric of artifacts and the decline of classical humanism: The case of Josef Strzygowski', History and Theory 33 (1994), p. 125.

(183) Lisa Cooper, 'Archaeology and acrimony: Gertrude Bell, Ernst Herzfeld and the study of pre-modern Mesopotamia', Iraq 75 (2013), pp. 143–69.

(184) Bell, Palace and Mosque, pp. 60–2.

(185) المرجع السابق، وشكل 5 مبنى G. كما يُمكن رؤية هذا أيضًا في:

F. von Luschan, D. Humann and R. Koldewey, Ausgrabungen in Sendschirli, vol. 2 (Berlin, 1898), p. 184, Fig. 83.

(186) Bell, Palace and Mosque, pp. 62–3, Figs 6–8.

(187) المرجع السابق، ص 63.

(188) يوميات «جيرترود بيل»، 5 أبريل 1911، أرشيف «جيرترود بيل»: «ناقشنا أصل الإيوان بالتفصيل أثناء تناولنا الغداء. كان لديهم إيوان هُنا، ربّما في زمن لاحق، أعلى جدار المعبد، ويطل نحو الشرق. الإيوان هو البوابة حيث كان الملك يجري كل معاملاته. بيت خيلاني يطمح إلى سمأل. القصور الأخمينية لم يكن لها وجود في آشور القديمة، والغرفة دائمًا مُغلقة. أُدخل صرلحة إلى النماذج الحثية، لكن لم يتم العثور عليه إلى الآن في بوغاز كوي باستثناء البوابة بالطبع. يُعاود الظهور في العصور الساسانية، إمّا بمفرده أو بصحبة غرفة مُغلقة في الخلف، وهكذا يصل إلى العرب».

(189) Bell, Palace and Mosque, p. 62, footnote 4.

ونُشر في:

F. Sarre and E. Herzfeld, Iranische Felsreliefs (Berlin, 1910), p. 186.

(190) Bell, Palace and Mosque, pp. 65–6, and Fig. 9.

لوحظ وجود هذا الرواق المعمد؛ على سبيل المثال، داخل قصر فرثي صغير في نيبور. لمزيد من النقاشات الحديثة حول هذا المعلم وغيرها من المعالم الفرثية، انظر بشكل خاص:

Malcolm Colledge, Parthian Art (Ithica, NY, 1977); E.J. Keall, 'The Arts of the Parthians', in R.W. Ferrier (ed.), The Arts of Persia (New Haven, 1989); pp. 48–59.

(191) Bell, Palace and Mosque, p. 66.

(192) Colledge, Parthian Art, p. 63; Keall, 'Parthians', p. 249.

(193) Bell, Palace and Mosque, p. 68.

(194) المرجع السابق.

(195) المرجع السابق، ص 68– 69. يتضح من هوامش «بيل» أنّها كانت تستخدم كتاب «ريتشارد ديلبروك» «المباني الهلنستية في لاتسيو» باعتباره دليلاً موثوقًا بشأن استعمالات وتطور القبو المُشيد بالحجارة المصقولة في المناطق الساحلية بالبحر

المتوسط، ولاسيما إيطاليا. المرجع السابق، ص 68- 69، الهامشين 6 و7 صفحة 68، والهامشين 1 و2 صفحة 69، وانظر أيضًا:

White, 'Hatra', p. 484.

(196) Bell, Palace and Mosque, pp. 68–9; E.J. Keall, 'Some thoughts on the early Eyvan', in Dickran K. Kouymijian (ed.), Near Eastern Numismatics, Iconography, Epigraphy and History: Studies in Honor of George C. Miles (Beirut, 1974), p. 124; Edward J. Keall, 'Architecture ii. Parthian Period', Encyclopedia Iranica II/3 (1986), pp. 327–9; an updated version is available online at http://www. iranicaonline.org/articles/architecture-ii (accessed 29 July 2015).

(197) Bell, Palace and Mosque, p. 66 and Fig. 10.

(198) Ibid., pp. 75–6, pl. 73, Fig. 2; Dietrich Huff, 'Fıruzabad', Encyclopedia Iranica IX/6 (1999) pp. 633–6; an updated version is available online at www.iranicaonline.org/articles/firuzabad (accessed 29 July 2015). Lionel Bier, 'Sasanian Palaces in Perspective', Archaeology 35 (1982), p. 33.

(199) Bell, Palace and Mosque, p. 75.

(200) المرجع السابق، ص 74، الهامش الأول حول التاريخ المفترض لتشييد مبنى سروستان، وص78 .

(201) المرجع السابق، ص 74، الهامش الأول حول تاريخ تشييد مبنى قصر شيرين، وص 80.

(202) المرجع السابق، ص 82- 84.

(203) Ibid., p. 56; C. Edmund Bosworth, 'Lakhmids', Encyclopaedia Iranica (online edition, 2012), available at www.iranicaonline.org/articles/lakhmids (accessed 29 July 2015).

(204) Bell, Palace and Mosque, pp. 55–6.

(205) اقتباس «بيل» من المؤرخ الإسلامي المسعودي، الذي كان يصف مدينة الحيرة الباهرة عاصمة المناذرة. المرجع السابق، ص 58- 59، 86.

(206) Ernst Herzfeld, Erster vorlaufiger Bericht uber die Ausgrabungen von Samarra (Berlin, 1912), p. 40. Herzfeld's discussion of Balkuwara and its link to a hira is also mentioned in a letter he wrote to Bell, 17 September 1911 (from Ctesiphon), Gertrude Bell Archive, Newcastle University, Miscellaneous, 13. Bell, Palace and Mosque, pp. 58–9, 86–7; Hillenbrand, Islamic Architecture, p. 405; Leisten, 'Development of the Hira-style', pp. 377–8.

(207) Keall, 'Some thoughts', pp. 124–9.

(208) المرجع السابق، والأشكال 2، 4- 5.

(209) المرجع السابق، ص 124، شكل 1. وانظر:

Malcolm Colledge, Parthian Art (Ithaca, NY, 1977), p. 63 and Fig. 26.

(210)Oleg Grabar, 'Ayvan', Encyclopedia Iranica III/2 (1987), pp. 153–5; an updated version is available online at www.iranicaonline.org/articles/ayvan-palace (accessed 29 July 2015).

(211) Oskar Reuther, 'Parthian architecture: A history', in Arthur E. Pope (ed.), A Survey of Persian Art. Vol. 1: Pre-Achaemenid, Achaemenid, Parthian and Sasanian Periods (London, 1938), p. 429; Keall, 'Architecture ii. Parthian Period'.

(212) F. Oelmann, 'Hilani und Liwanhaus', Bonner Jahrbucher 127 (1922), pp. 189– 236.

(213) Reuther, 'Parthian architecture', p. 429.

(214) Hillenbrand, Islamic Architecture, p. 395.

يُقارن «هيلينبراند» في موضع آخر من كتابه، بين حجرة رسمية تقع في الغالب بطابق علوي، ومزودة بنافذة يستطيع أن يُطل من خلالها أفراد الأسرة الحاكمة على الجماهير، وبين بيت خيلاني الأقدم؛ المرجع السابق، ص 385، 402. ولهذا التأويل لبيت خيلاني الحثي مؤيدون، لاسيما بين أولئك الذين يرون فيه تسوية مع كلمة hln، المعروفة من النصوص التوراتية والكنعانية باعتبارها نوعًا من المباني البلاطية متعددة الطوابق، والمزودة بــ«نافذة ملكية يُطل منها الملك». انظر:

Irene Winter, 'Art as evidence for interaction: Relations between the Neo-Assyrian Empire and North Syria as seen from the monuments', in H-J. Nissen and J. Renger (eds), Mesopotamia und seine Nachbarn (Berlin, 1982), p. 363.

أما في إطار الأخيضر الذي يجيء بعدئذ بفترة طويلة، فإنّ مثل هذا الشكل ربما يكون قد ألهم البنائين أثناء تشييد المبنى المكون من ثلاثة طوابق عند البوابة الشمالية للقصر، والنوافذ العالية التي تطل على ساحة الشرف الداخلية. إن كان هذا هو التفسير الذي يُلمح إليه «هيلينبراند» لبيت خيلاني، فإنّه يُشير إلى تعريف يختلف بعض الشيء، عن التعريف الذي أشار إليه في الأصل «كولدفاي»، ولابد أن يُعامل كمثال منفصل للاستعارة الثقافية المحتملة من التقاليد المعمارية بالشرق الأدنى القديم.

(215) Winter, 'Art as evidence', p. 363.

(216) Irene Winter, '"Seat of kingship" / "A wonder to behold": The palace as construct in the ancient Near East', Ars Orientalis 23 (1993), pp. 33–4.

(217) المرجع السابق، ص 38- 39.

(218) Bell, Palace and Mosque, p. 97.

تأثَّرت «بيل» بشكل خاص بالتحريات التي أجراها «رودلف- إرنست برونو» Rudolf Ernst Brünnow، و«ألفريد فون دوماسزيوسكي» Alfred von Domaszewski، اللذان أجريا مسحًا مكثّفًا للآثار الرومانية خلال العامين 1897- 1898، ونشرا ما توصلا إليه في كتابهما الضخم المكون من ثلاثة مجلدات Die Provincia Arabia (ستراسبورج، 1904- 1909). ويبدو أنّ «بيل» تبادلت رسائل شخصية مع «برونو»، أشادت من خلالها بالمخطط الذي وفره لها لـ«الضمير» Dumeir؛ وهو حصن روماني على الطريق بين دمشق وتدمر في سوريا، في فبراير 1911، بطريقها عبر الصحراء السورية إلى الأخيضر.

(219) Bell, Palace and Mosque, pp. 114–17.

نبع جانب من اهتمامها بهذه القلعة من حقيقة أنّ صديقها «برنهارد موريتز» قد زارها مؤخرًا، والذي اكتشف خلال الساعات القليلة التي أمضاها هُناك، نقشًا يؤيد فكرة بنائها خلال الدولة الأموية، المرجع السابق، ص 111. انظر:

B. Moritz, 'Ausfluge in der Arabia Petraea', in Melanges de la Faculte Orientale de Beyrouth 3 (1908), p. 429; see also Stephen Urice, Qasr Kharana in the Transjordan (Durham, NC, 1987) pp. 10–11.

كانت «بيل» على دراية أيضًا بالتقارير السابقة التي نشرها «ألويس موسيل» Alois Musil؛ الذي زار قصر الحرانة ثلاث مرات، وأصدر أول مُخططات أساسية تفصيلية للمبنى، والتي استنسخت «بيل» إحداها، انظر:

A. Musil, Kusejr 'Amra (Wien, 1907); Bell, Palace and Mosque, p. 114, Fig. 29.

ونحنُ نعرف من يومياتها ورسائلها، أنّ «بيل» زارت قصر الحرانة في 3- 6 يناير 1914. وأنّها فحصت القلعة بعناية، والتقطت صورًا فوتوغرافية، ورسمت مخططات، واستنسخت العبارات المكتوبة بالخط الكوفي وأنجزت هُناك: «ما لم يسبقها إليه أحد». رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 5 يناير 1914، أرشيف «جيرترود بيل». لكن للأسف الشديد، لم تنشر «بيل» شيئًا مما لديها عن قصر الحرانة، رغم أنّ صورها الفوتوغرافية الشاملة ومخططاتها وملاحظاتها توضح أنّ قصدها الرئيس كان النشر. صور «بيل» الفوتوغرافية لقصر الحرانة متاحة بأرشيفات نيوكاسل الفوتوغرافية:

Gertrude Bell Archive, Newcastle University, Album X_009–010, Album Y_077–132.

كما أنّ دفترها الميداني الذي يضم ملاحظات وقياسات ومخططات لقصر الحرانة بالعام 1914، محفوظ ضمن مقتنيات الجمعية الجغرافية الملكية في لندن (GLB 15).

(220) Bell, Palace and Mosque, pp. 117–18.

كان يُعتقد في عصر «بيل» أنّ قصر المشتى يُنسب إلى الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك، الذي توفي في العام 724 ميلاديّة، لكن المتفق عليه الآن عمومًا هو أنّ بناءه كان أيام الوليد بن يزيد حوالي العام 744 ميلاديًا. المرجع السابق، ص 117، وانظر:

Hillenbrand, 'Islamic art', p. 64. Oleg Grabar, 'The date and meaning of Mshatta', Dumbarton Oaks Papers 41 (1987), pp. 243–7.

(221) Cooper, 'Archaeology and acrimony', p. 166.

(222) Philip J. Dear, 'Ukhaidir and its lessons', The British Architect (11 June 1915), p. 292.

(223) المرجع السابق.

(224) Anonymous, Review of Gertrude L. Bell, 'Palace and Mosque at Ukhaidir. A Study in Early Mohammadan Architecture', The Athenaeum (30 May 1914), p. 767.

(225) K.A.C. Creswell, Review of Gertrude L. Bell, 'Palace and Mosque at Ukhadir. A Study in Early Mohammadan Architecture', The Burlington Magazine for Connoisseurs 26 (October 1914), p. 35; Dear, 'Ukhaidir', p. 292.

(226) 'Review', The Athenaeum, p. 768; see also A., Review of Gertrude L. Bell, 'Palace and Mosque at Ukhaidir. A Study in Early Mohammadan Architecture', Journal of Roman Studies 4 (1914), pp. 113–14, which expresses similar praise.

(227) Marcel Dieulafoy, Review of Gertrude L. Bell, 'Palace and Mosque at Ukhaidir. A Study in Early Mohammadan Architecture', Journal des savants 12 (September–November 1914), pp. 393–5, and 397.

(228) المرجع السابق، ص 398.

(229) Hillenbrand, 'Creswell', p. 26.

(230) A., 'Review', pp. 113–14.

(231) Creswell, 'Review', pp. 35–6. The same review is repeated by Creswell in the Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland (1914), pp. 784–8.

(232) Hillenbrand, 'Creswell', p. 26.

(233) رسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، 18 نوفمبر 1913، أرشيف «جيرترود بيل».

(234) حصلت «بيل» على الميدالية في العام 1918: «نظرًا لاكتشافاتها ورحلاتها المهمة في آسيا الصغرى وسوريا والجزيرة العربية ومنطقة الفرات»، انظر:

http://www.rgs.org/NR/rdonlyres/C5962519-882A-4C67-803D-0037308C756D/0/GoldMedalrecipients.pdf (accessed 18 June 2015).

(235) Janet Wallach, Desert Queen (New York, 1996), p. 136.

(236) المرجع السابق، ص 142– 143.

الفصل السادس

بلاد الرافدين والعراق ـ تضافر الماضي والحاضر

وصف وناقش عدد من كُتّاب السيرة والمؤرخين، الفصل الأخير من حياة «جيرترود بيل» المُدهشة الذي يمتد من العام 1915 وحتى وفاتها في العام 1926. وقد أرّخت أعمالهم المنشورة لإسهام «بيل» في مساعي بريطانيا بالشرق الأوسط أثناء الحرب العالمية الأولى؛ أولا من خلال خدمتها في المكتب العربي بالقاهرة، ثمّ انتقالها إلى البصرة وأخيرًا إلى بغداد حيث عُينت في منصب السكرتيرة الشرقية للمفوض السامي البريطاني في العراق. كما يصفون دورها المهم في صناعة دولة العراق الجديدة، ورسم حدودها واختيار أول ملوكها[1]. ولسنا في حاجة هنا إلى تكرار تفاصيل هذه الفترة الزاخرة بالأحداث من حياة «بيل»، بل يسعى هذا الفصل إلى بيان العلاقة بين جهود «بيل» العلمية في أركيولوجيا بلاد الرافدين حتّى العام 1914، وبين نشاطاتها السياسية والإدارية التي تلت هذه النقطة. فلا ريب أنّ بلاد الرافدين كانت الأرضية المشتركة التي شهدت كل أعمال «بيل»: إذْ استثمرت أعظم جهودها لفهم عمارتها القديمة وتاريخها، واستمرّت بلاد الرافدين تمثّل بؤرة تركيز «بيل» الرئيسة، في ظل نشاطاتها فترة الحرب ومساعيها فترة ما بعد الحرب من أجل بناء دولة العراق. لكن في حين سعت جهودها السابقة إلى إلقاء الضوء على آثار بلاد الرافدين المذهلة، كانت مساعيها اللاحقة موجهة بدرجة كبيرة لأحوالها الراهنة وسكانها الحاليين ونجاح البلاد المستمر في المستقبل. وحين نضع في اعتبارنا هاتين البؤرتين المميزتين والمنفصلتين في حياتها- الأولى شديدة الاتصال بالماضي، والثانية مستغرقة في الحاضر- فربّما نتساءل عن العلاقة بين الاثنتين؟

سأحاول إظهار أنّ الخبرات والمعارف التي اكتسبتها «بيل»خلال السنوات التي لعب فيها التاريخ وعلم الآثار دورًا محوريًا في حياتها وعملها، كانت ذات أثر بارز على نشاطاتها السياسية اللاحقة. وأنّ انخراطها المبكر في أركيولوجيا الشرق الأدنى؛ خاصة أركيولوجيا وتاريخ بلاد الرافدين، أتاح لها فهمًا فريدًا لهذا الجزء من العالم. إذْ أثّر بصورة ملحوظة على أفكارها بشأن الكيفية التي ينبغي بها حكم المنطقة، وموقعها داخل هذا التصور. وسأولي اهتمامًا خلال النقاش لميول «بيل» الرومانسية التي اتضحت منذ رحلاتها الأولى إلى الشرق الأدنى، ولقاءاتها مع الماضي، والتي شجّعت بشكل خاص رؤيتها أنّ تاريخ بلاد الرافدين لا يزال يمارس دورًا حتّى الوقت الحاضر(٢). كما يتبدّى أنّ اعتقادها في إمكانية الحكم الذاتي في العراق تأثر بصورة خاصة بمفاهيمها الرومانسية عن إنجازات الماضي، لكنه اهتدى أيضًا بمعرفتها الشاملة بتاريخ الشرق الأدنى وبمنظورها الفريد، الذي أقرّ بقوة الشرق الأدنى الإبداعية المستقلة عن التأثير أو التدخل الغربيين.

وفي النهاية، سأتعرض لعمل «بيل» مديرة شرفية لدار الآثار في العراق ومؤسسة لمتحف البلاد الوطني، ولأي درجة تأثرت قراراتها ومسؤولياتها في هذين الدورين بخبراتها وإنجازاتها الأركيولوجية السابقة. وإجمالا، فإنّ النتيجة هي إبراز لشخصية «جيرترود بيل» المذهلة والمعقدة في آن واحد. إذْ تفاعل جمعها بين الذكاء والخيال والإحساس بالقوة معًا على مدار حياتها، وأفضى إلى تحقيق إنجازات أينما حلّت. وفي الوقت ذاته، جعلتها المزايا الشخصية نفسها التي قادتها إلى تحقيق انتصاراتها، تعي الطبيعة العابرة للسلطة وموقعها قصير الأجل داخل العالم الذي استحدثته.

رومانسيّة مع الماضي

قبل أن نخوض في نشاطات «بيل» السياسية خلال الفترة الأخيرة من حياتها، لاسيما الطرائق التي بدا أنّ خبراتها السابقة أثرت بها على تلك

النشاطات والقرارات، من المهم أن نتعرض لبعض الجوانب الجوهرية من شخصية «بيل» الفريدة، وكيف ألقت بظلالها وتقاطعت مع مواقفها تجاه الماضي. وأحد الجوانب الهامة التي ينبغي تأملها في شخصية «بيل»؛ جنبًا إلى جنب سماتها الشخصية الأخرى هو رومانسيتها. إذْ أتاحت لها هذه الحساسية اشتباكًا فريدًا وعارمًا مع الماضي استدام خلال رحلاتها إلى الشرق الأدنى، واتضحت قوتها بشكل خاص أثناء زياراتها إلى المواقع والصروح الأثرية في الشرق الأدنى[٣]. وتتخلل ميولها الرومانسية أغلب كتاباتها بل وأغلب بحوثها العلمية. ومن ثمّ تستحيل مناقشة أثر ماض «بيل» الأركيولوجي على نشاطاتها السياسية اللاحقة، من دون أن نأخذ في اعتبارنا هذا الجانب الخاص من شخصيتها.

رغم الصورة الخارجية التي كانت ترسمها لنفسها في أغلب الأحيان– باعتبارها لمرأة واقعية براجماتية تسترشد بالتحقيق العقلاني والتحليل العلمي، لا بالعواطف– كانت «بيل» في قرارة نفسها شخصًا يمتلئ بأحاسيس عميقة وقوية؛ إذْ كتبت زوجة أبيها «فلورنس» التي تعرفها حقّ المعرفة:

الحقيقة أنّ قوام طبيعة «جيرترود» الحقيقي كان ما لديها من إحساس عميق. لقد مرّت في حياتها بأفراح كُبرى وأتراح جليلة أيضًا. تُرى هل كان ثمّة بديل، مع طبعها شديد النهم للتجربة؟ لقد اجتذبت شخصيتها الفاتنة والحماسية حيوات الأخرين إلى حياتها فيماتمرّ بهم[٤].

مثل هذه الأحاسيس يفسر هيام «بيل» بالشعر الذي انجذبت إليه منذ سن مبكرة[٥]، والتي يتردد صداها بصورة كبيرة في كتاباتها التي تنقل في الغالب بلغة مُعبّرة للغاية، ردود أفعالها على الأماكن والبشر الذين صادفتهم، والتجارب التي أمتعتها أو أسفت عليها. فلا ريب أنّ «بيل» اكتشفت أنّ تلك الأسفار والاستكشافات أيقظت هذه الانفعالات بأقوى طريقة. وأنّ رحلاتها إلى أراضي غير مألوفة؛ إلى جانب المطالب التي فرضتها على احتمالها

البدني، وجرأتها وإتقانها لغات ومهاراتها في قراءة الخرائط والتصوير الفوتوغرافي ورسم الخرائط، كلها زادت من حسّ المغامرة لديها وأصابتها بشعور مُسكر بالإنجاز[٦]. كما أنّها استمتعت بتلك الرحلات لأنّها كانت هروبًا من الروتين والوجود المقيد بالحياة اليومية، ومنحتها إحساسًا منعشًا بالحرية. هذا الإحساس بالانعتاق استمرأه أغلب الرحالة الغربيين إلى أراض الشرق؛ لاسيما النساء اللائي سعى أغلبهن للسفر كوسيلة لتفادي القيود التي فرضها المجتمع الأوروبي في الوطن، ولم تكن «بيل» استثناءً من ذلك[٧]. ففي كتابها الذي ينتمي لأدب الرحلات: «الصحراء والزرع»، تعبر «بيل» بلغة غنائية عن مشاعر التحرر في بداية إحدى الرحلات:

بالنسبة لأولئك اللائي ولدن داخل نظام اجتماعي معقّد، ربّما تُشبه مثل هذه اللحظات القليلة من البهجة شعور من يقف على أعتاب رحلة برية. فتنفتح بوابات الحديقة المسورة، وتُخفض سلاسل مدخل الملاذ الآمن، ثم تلقي نظرة حذرة على اليمين وعلى الشمال وتخطو خطوة للخارج و، مهلاً! فهو العالم اللامتناهي! عالم المغامرة والإقدام، عالم مُظلم تعصف به السرعة، يتألق في نور الشّمس الصافي، حيثُ توارى سؤال بلا جواب وشكّ قاطع في ثنايا كل تلّ[٨].

وكما سبقت الإشارة؛ كانت «بيل» عاشقة للشرق الأدنى بشكل خاص، وكانت كتاباتها؛ لاسيما خلال الفترة من 1900 إلى 1914- عندما كانت تسافر في الشرق وتركيا وبلاد الرافدين وفارس والجزيرة العربية- تفيض بالتأكيدات العاطفية المتوهجة على إحساسها بالذهول أو الافتتان بأغلب الأماكن التي زارتها والناس الذين قابلتهم. وتشهد أوصافها الساعية إلى استحضار الألوان الزاهية والنسيج والروائح ومذاقات الأماكن التي عبرت بها، على الإحساس بالابتهاج الذي غمرها بسبب الترحال في أراض أجنبية بالشرق. كذلك يبدو أنّ السفر أشعل مخيلة «بيل» الاستشراقية الثرية، التي

كثيرًا ما تقودها إلى تنميق وتفخيم وإضفاء طابع من الغرابة على أغلب المآزق أو الأماكن التي كانت تجد نفسها فيها. وينعكس رومانس الترحال الذي غمر «بيل» بأفضل صورة في إحدى مقالاتها التي نشرتها في العام 1914، والتي حملت عنوان: «رومانسيّة»، وهي تبرهن على افتتانها الخاص بأراضي جنوب بلاد الرافدين- أو العراق، كما كان يُشار إليها في الغالب قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى:

كتبت عن السياسة وعن التجارة وعن السفن البخارية وعن محركات القاطرات، لكنّي لم أعلن عن اللازمة المرتبطة بالعراق. إنّها الرومانسيّة. الرومانسيّة التي ستجدها أينما تبحث عنها. في النهرين التوأمين العظيمين ذوي الاسمين المجيدين؛ وفي السهول البابلية الفسيحة التي أصبحت صحراءً الآن وكانت بستان العالم في يوم من الأيام؛ وفي القصة التي تمتد إلى دروب الزمن المظلمة- كلّها تنضح بالرومانسية. ولا تقل الفصول الأخيرة من تاريخ العراق تألقًا ولا إلحاحًا على الخيال. ذلك أنّ اسم الإسكندر الذي يتردد صداه لا يُفارق تلك الفصول، ولا روائع ملك الملوك الساساني المرصعة بالجواهر، ولا رنين شهرة الخلافة الإسلامية، ولا التفسخ المأساوي الذي أصاب الغزو المغولي، وأخيرًا (للقارئ الإنجليزي خاصة) جرأة وحيوية وبسالة بحارتنا وتجارنا الذين شدّوا رحالهم واجتازوا بوابات العراق، وجلبوا «الباكس بريتانيكا»(*) إلى بحار الخليج الفارسي المضطربة[9].

تسلط الفقرة الضوء؛ إلى جانب تأكيدها على إعجاب «بيل» الجامح بالإمبريالية البريطانية، على الكيفية التي كان يُعزز بها ثراء التاريخ رومانسية منطقة بعينها. ففي حالة جنوب بلاد الرافدين، كان نهرا العراق

(*) السلام البريطاني Pax Britannica هي فترة سلام نسبي بين القوى العُظمى امتدت بين العامين 1815 و1914، أصبحت خلالها الإمبراطورية البريطانية قوة الهيمنة العالمية وتبنت دور «شرطي العالم». [المُترجم]

عظيمين لأنّهما كانا شديدي الارتباط بماضٍ زاخر بالأحداث امتد لقرون. وبالنسبة لـــ«بيل»، فإنّ إدراكها أو احتكاكها بذلك الماضي المجيد هو ما جعل رحلاتها عامرة بالإثارة لحدّ كبير. وقد لاحظنا من قبل هذه الانفعالات الجارفة حتّى في رحلاتها الأولى- في اليونان بالعام 1899 مثلاً، حين أصاب عقلها «بالترنّح» مشهد آنية فخارية يبلغ عمرها أربعة آلاف عام؛ عرضها عليها عالم الآثار «ديفيد هوجارث»[١٠]. ويبدو أنّ إحساسها بالاندهاش من الماضي قد زاد بشكل خاص أثناء رحلاتها التالية إلى الشرق الأدنى؛ حيث صادفت مواقع وصروحًا أثرية عند كل منعطف. وكثيرًا ما يُبرز كتابها «الصحراء والزرع»؛ الذي تروي فيه رحلتها في العام 1905 عبر فلسطين وسوريا، افتتانها بالأماكن التي يبدو فيها الماضي البعيد سهل المنال، كما في مدينة «البارة» الميتة[*] جنوب حلب التي تعود للعصور القديمة المتأخرة:

كأنّها مدينة أحلام كالتي يتخيلها الأطفال كي يسكنوا فيها قبل أن يسقطوا في نوم عميق؛ اصطفّت فيها القصور القصر تلو الآخر على طُرق الخيال المصقولة، حيثُ ما من كلمات تصف روعة أو سحر الربيع السوري. تصطحبك أجيال الموتى عبر الشوارع، فتراهم يرفرفون بأجنحتهم فوق الشرفات، ويحملقون من النوافذ المكللة بزهور الياسمين البري البيضاء، ويطوفون داخل الحدائق التي تطوقها الأسوار، والتي لا تزال مزروعة بأشجار الزيتون وكروم العنب، وقد تغطّت الأرض بالسوسن والياقوتية وشقائق النعمان[١١].

وتنقلنا «بيل» إلى الماضي حين تكتب من أطلال قصر «طاق كسرى» الساساني في طيسفون ببلاد الرافدين في العام 1909، عبر وصفها الرائع

[*] المدن الميتة أو المُدن المنسية هي مُدن وقُرى أثرية سورية تقع ضمن حدود مُحافظتي حلب وإدلب الإدارية، وتمتد في جبال الكتلة الكلسية ووديانها وشعابها شمال غرب سوريا حيث تقع على مساحة تبلغ 5500 كم2. وتُعدّ من أكثر تجمعات المناطق الأثرية في العالم. [المُترجم]

لقاعة العرش الذي استلهمته من دون ريب من عظمة القبو القائم الذي يتّخذ شكل قطع مكافئ، إلى جانب خيالها النشط. وهي هُنا تكتب عن السجاد المرصّع بالكثير من الجواهر الذي ربّما كان يغطّي الأرض والسقف، والذي كشف- أي السجّاد- حين نُحي جانبًا عن:

الملك المبجّل الذي تربّع فوق عرشه في قاعة الجمهور التي تغمرها أضواء ألف مصباح يتدلى من السقف، والتي انعكست أنوارها على تاجه المرصع بالجواهر وسيفه وحزامه، تُضيء السجاجيد المُعلقة فوق الحوائط وكسوة وزينات جيش الخدم المتحلقين حول العرش[١٢].

لم تكن «بيل» وحيدة في انحيازها لاستحضار تاريخ الشرق، من زاوية رومانسية في أغلب الأحيان. بل سبقها في الحقيقة طابور طويل من الفنانين والشعراء والمؤرخين وخبراء اللغات الشرقية الأوروبيين، الذين حاولوا الظفر ببعض رومانسية وغرابة الشرق في الحاضر والماضي؛ سواء من خلال الكتابة أم الفنون البصرية[١٣]. ولم تكن بلاد الرافدين؛ لأراضي الشرق الأدنى التي ارتبطت بها «بيل» بصورة حميمة، استثناءً من هذا التناول؛ إذْ استحضر ماضيها الصاخب كثير من الفنانين، حتّى قبل أن تكشف التحريات الأركيولوجية عن وجود أي آثار حقيقية في المنطقة. ففي مجال الفنّ، ثمّة نماذج مُذهلة استحضرت تاريخ بلاد الرافدين المضطرب؛ منها على سبيل المثال، لوحة الرسّام الإنجليزي «جون مارتن»John Martin«سقوط نينوى» (1830)، أو لوحة «موت ساردنابوليس» (1827- 1828) للفنان الفرنسي «يوجين ديلاكروا»[١٤]. وتصور هاتان اللوحتان بخيال كبير خراب بابل ونينوى وهزيمة ملكيهما؛ بسبب الشطط والانحلال. وقد استند الرسّامان إلى التاريخ اليوناني الكلاسيكي والروايات التوراتية، في تخيّل أجواء بابل وآشور القديمة وحاكميهما المُخزيين، وتتفق تصوراتهما السلبية عن المدينتين الواقعتين في بلاد الرافدين والطاغيتين المستبدين اللذين حكماهما مع تلك

الروايات[١٥]. وعمومًا؛ كانت بابل: «أمّ الزواني ورَجَاسَات الأرض» وفقًا للكتاب المقدس (سفر الرؤيا 5:17)، في حين كانت مدينة نينوى الأشورية: «مدينة الدماء. كُلّها ملآنة كذبًا وخطفًا» (سفر ناحوم 3: 1)[١٦]. ولم تكن بلاد الرافدين أفضل حالا في أوساط المؤرخين الكلاسيكيين؛ إذْ شدد المؤرخون اليونانيون والرومان رغم إعجابهم بإنجازات الدولة الآشورية السياسية والعسكرية والمعمارية، على وحشية وانحطاط حكّامها[١٧]. وإجمالًا، تنطوي الصور التي تقدمها هاتان اللوحتان؛ كما في كثير من أعمال القرنين الثامن والتاسع عشر الفنية التي صوّرت الشرق الأدنى القديم، على نبرة أخلاقية قوية كانت تهدف إلى تبرير المآلات التي جلبت الخراب والدمار المُستحق؛ بسبب السلوك المستبد الفاسد والجشع لطغاة الشرق القدامى.

وإلى جانب صور الشرق القديم شديدة التنميق والغرابة التي ظهرت في الأدب والفن الرومانسيين، انطوت في أغلب الأحيان التقارير التي كتبها أوروبيون غامروا بالسفر إلى مناطق بعيدة في الشرق الأدنى؛ من بينها بلاد الرافدين، على روايات تاريخية عن أماكن مرّوا بها. وسعى رحالة كثيرون إلى الوقوف على الأبّهة القديمة التي وجدت يومًا بالعديد من الأماكن التي زاروها، بنفس اللهفة التي غمرتهم أثناء زيارة الأراضي العتيقة في اليونان وإيطاليا خلال «الجولة الكُبرى»[*]. مع ذلك لم يتمكّن إلا عدد قليل منهم؛ حين كانوا يُصادفون أنقاض موقع بابلي أو آشوري في بلاد الرافدين على أرض الواقع، من كتابة أقل القليل تعبيرًا عن سرورهم برؤية الأنقاض أو المشاهد التي زاروها. إذْ كانت سهول بلاد الرافدين الجافة العطشى بعيدة كل البُعد عن المناظر الطبيعية الريفية الوارفة في اليونان وإيطاليا، إلى جانب

---

[*] الجولة الكُبرى Grand Tour هي رحلة تقليدية عبر أوروبا، اعتاد شباب الطبقات العُليا الإنجليز من الذكور في القرنين السابع والثامن عشر القيام بها عند بلوغهم سن الواحد والعشرين، يزورون خلالها فرنسا وإيطاليا ويتعرفون على جذور الحضارة الأوروبيّة، ويحتكون بصفوة القارة في مجالات الفكر والفن. [المُترجم]

صعوبة مقارنة المباني المتهالكة المُشيدة بالطوب اللبن، بجمال المباني الأثرية في اليونان وروما[١٨]. وقد عبّر «أوستن هنري لايارد» Austen Henry Layard؛ المُغامر الإنجليزي الذي أدّت تحرياته الأركيولوجية في شمال بلاد الرافدين إلى الاكتشاف المذهل لأبهى عاصمتين آشوريتين أثريتين هما نمرود ونينوى، عن هذا التناقض بين الآثار الكلاسيكية في بلاد الرافدين:

يرتفع العمود الرشيق عاليًا فوق أوراق الآس الكثيفة والبلوط الأخضر والدفلى؛ وتغطّي مصاطب المدرج الدائري المنحدر الخفيف، وتطل على المياه الزرقاء الدّاكنة بالخليج الأشبه ببحيرة، في حين نرى [في بلاد الرافدين] بدلًا من الكورنيش الثري بالزخارف أو التاج الذي يكاد يُخفيه العشب الغزير، ركامًا عبوسًا بلا شكل مُحدد يرتفع كأنّه تلّ فوق السهل المحروق، حيثُ تتناثر هُنا وهناك شظايا الآنية الفخارية والكتل المذهلة من مباني الطوب بعد أن عرّتها أمطار الشتاء[١٩].

بالنسبة للبعض؛ يصلح الخراب الراهن الذي حل بأي موقع أثري للتأكيد على البون الزمني الشاسع الذي يفصل بين الماضي المجيد لمدينة ما، وبين حاضرها الذي نخره السوس تمامًا. إضافة إلى ذلك، ربّما كان هذا الواقع شاهدًا على النهاية العادلة لماضي بلاد الرافدين الشرير، حيثُ تؤكّد أنقاض المباني الكئيبة التي يتعذر تمييزها على الثمن الذي دفعه شعبي الحضارتين الآشورية والبابلية، لقاء خطاياهم وجشعهم، وتنقل بمعنى ما نفس الرسالة الأخلاقية الضمنية التي تحملها لوحتا «مارتن» و«ديلاكروا». وأخيرًا، فإنّ ما يزيد الطين بلّة هو أنّ سكّان بلاد الرافدين الحاليين لم يبد أنّهم يعون بأي حال، أو يهتمون بأي من مراحل تاريخ بلادهم المهيب. إذْ كان يُنظر إليهم على أنّهم يجهلون ماضيهم تمامًا، وأنّ العبقرية والجرأة الغربيتين اللتين يتمتع بهما أفراد مثل «لايارد»، هما ما يُمكنه الكشف عن القصور الفخمة والبوابات الضخمة التي ظلّت مدفونة بالكامل تحت أقدام

السكان المحليين طوال حياتهم[٢١]. ما من رومانسية كان من الممكن الظفر بها بالأنقاض الأثرية نفسها، مُقارنة بما نجده من رومانسية في صورة عالم آثار غربي مُغامر يرتدي زيًا شرقيًا، أو صورة عرب يضعون عمامة ويحملقون بفزع وافتتان كأنّهم ثيران ضخمة برءوس بشر، برزت من الأنقاض المتناثرة أمام أعينهم[٢٢].

هُنا تجدر المقارنة بين الروايات التاريخية التي أوردتها «بيل»؛ لاسيما المتعلقة ببلاد الرافدين، وبين أعمال الفنانين وكُتّاب الرحلات الغربيين الآخرين ممَن سبقت الإشارة إليهم. فمن جهة، نادرًا ما كانت كتابات «بيل» تحمل رسائل ضمنية أخلاقية تأثرت؛ على سبيل المثال، بقصص مستمدة من التوارة العبرية دفعت فيها حضارات بلاد الرافدين القديمة ثمن انحطاطها، كما تشهد بذلك حالتها الراهنة البائسة المهجورة. ويرجع السبب في عدم اكتراث «بيل» بمثل هذه المواقف الأخلاقية إلى حقيقة أنّها؛ كأغلب أفراد أسرتها الآخرين باستثناء شقيقها «هيوجو»، كانت «سعيدة بعدم تدينها» وغير ميالة على نحو خاص إلى تقييم حياتها وتصرفاتها وفقًا لصالح الأعمال[٢٣]. وإذا كان هناك ما يهمّ «بيل» في الكتاب المقدس، فهو ما يحتوي عليه من معلومات نفيسة عن تاريخ بلاد الرافدين القديمة، لا باعتباره مستودعًا للأطروحات الإلهية حول المسلك الطيب والمسلك الشرير. مع ذلك أطلقت «بيل» بعض الأحكام الأخلاقية على شخصيات تاريخية مثل الملك البابلي «نبوخذ نصر»؛ رغم الصورة المخزية التي رسمتها له التوراة باعتباره طاغية وحشيا ومستبدا. لكن في إشارات «بيل» لهذا الملك، يُصبح «نبوخذ نصر» ملكًا موقّرًا بسبب عظمته كبانٍ وغازٍ مهيب، وتضعه في خانة واحدة مع شخصيات مهمة أخرى أثرت صفحات تاريخ بلاد الرافدين؛ مثل «الإسكندر الأكبر» وهارون الرشيد، بغضّ النظر عن الطابع الأخلاقي لأفعالهما[٢٤].

لخصنا نزعة الكُتاب المُعاصرين لإبراز التناقض الصارخ بين ماضي بلاد الرافدين المجيد، وحاضرها الخرب الراهن وسط سكان جاهلين فاسدي الخلق. حتّى «ديفيد هوجارث»؛ وهو صديق وناصح لـ«بيل» وعالم آثار زميل، اشتهر عنه التصريح بأنّ آثار الشرق الأدنى: «تمجّد الماضي بشكل واضح على حساب الحاضر»[٢٥]. في حين كانت «بيل» على العكس أكثر ميلا في أغلب الأحيان لرؤية أوجه تشابه كبيرة بين الواقعين الماضي والحاضر. واستحوذت المناظر الطبيعية التي سافرت عبرها؛ بما كانت تضمه من آثار مذهلة، على حواسها وقدراتها على التخيل، وقد اتضح ذلك بقوة في أوصافها المؤثرة؛ التي أوردناها سابقًا، لمدينة «البارة» السورية الميتة والقصر الموجود في طيسفون. إذْ يُمكن من خلالها أن نظفر بالماضي الكامن في تلك الآثار المدهشة. من اللافت للنظر أيضًا أنّ «بيل» كانت تكتب في أغلب الأحيان عن الأماكن والبشر القدامى وكأنّهم ليسوا إلا صلات في متوالية طويلة متصلة عبر الزمن. ذلك أنّ الطرائق التقليدية في ممارسة الحياة؛ فضلاً عن السلوك القديم من وجهة نظر «بيل»، كانا لا يزالان حاضرين بقوة في حياة السكان المُعاصرين. هذا الإحساس بالاستمرارية نقلته «بيل» بشكل جيد أثناء وصفها لمدينة «هيت» المُنتجة للقار والتي تقع على نهر الفرات، والتي مرّت بها في منتصف مارس العام 1909:

> كانت الشمس تغرب عندما اقتربنا من بساتين النخيل على ضفة النهر. وكانت النيران المشتعلة أسفل أحواض القار الذائب تُطلق أعمدة من الدخان الأسود بين الأشجار، وعرب شبه عُراة يغذون اللهب بنفس القار، في حين يحمل نهر الفرات ما ينتجونه مثلما كان يحمله من قبل للبابليين. ومن ثمّ لابد أنّ هذا المصنع الغريب أسفل أشجار النخيل لم يتبدّل شكله طوال الخمسة آلاف عام الأخيرة، وأنّ كل الأجيال التي تعاقبت على«هيت» لم تغير شيئًا في العمليات التي لقنّها لهم أجدادهم الأوائل[٢٦].

أسفر هذا المزج بين الماضي والحاضر إحساسًا مُثيرًا، لكنه أثار في الوقت ذاته نوعًا من عدم الارتياح لدى «بيل». فمن جهة، تملّكها الحماس الناجم عن الوجود في مكان يستحضر الماضي بقوة، لدرجة يُمكن معها بسهولة أن تتخيل البابليين القدامى مستغرقين في نفس المهمة مثل العُمّال العرب اليوم، أو ربّما تصور «الإسكندر الأكبر» وجنوده يزحفون عبر سهل يُغطيه الغبار. ومن جهة أخرى، أبرزت لها الطبيعة الثابتة للمنطقة وسكانها عبر آلاف السنين، حقيقة مساعي البشر الزائلة والعقيمة. إذْ أي أهمية يُمكننا أن نُضفيها على أي فعل أو إنجاز في الماضي، ما دامت الأمور قد بقيت على حالها حتّى بعد قرون؟ ويبدو أنّ «بيل» كانت واعية بشكل خاص لهذا التناقض حين ألّفت كتابها: «من سلطان إلى سلطان»؛ الذي تروي فيه رحلتها في العام 1909 عبر بلاد الرافدين. فحتّى العنوان الذي يُشير إلى توالي الحكام العثمانيين الذين يحملون نفس الاسم[٢٧]، لا ينقل فقط حقيقة أنّ تاريخ البلاد التي كانت تُسافر عبرها خضع يومًا لحكّام أتراك تمتعوا بنفوذ هائل، لكنه يلفت الانتباه أيضًا إلى الطبيعة العابرة لذلك النفوذ: إذْ كانوا مُجرد سلسلة متوالية من الملوك الذين يحملون الاسم ذاته، الواحد تلو الآخر عبر الزمن. وهي تستحضر هذه الصورة أيضًا في مقدمة الكتاب:

> لقد تعلّم [أولئك الذين] خبروا الشرق، أن يأخذوا بعين الاعتبار استمرارية تاريخه الدائمة. إذْ يتعاقب الغزاة الواحد تلو الآخر، ويُطاح بالأمم وتسقط المُدن وتغدو ترابًا، لكن تظل شروط البقاء كما هي دون تغيير ويتكيّف العصر الجديد وفق القديم دون كلل. [...] إنّ الماضي والحاضر مجدولان معًا، حيث يتبخر الإدراك المعتاد لأقسام الزمن من دون أن نشعر. ومن ثمّ فإنّ غارة الأمس تقع في نفس مستوى حملة قام بها «شلمنصر»، وفي الحقيقة تُرى ما الفارق الجوهري بينهما؟[٢٨].

هذا التأكيد على عقم إنجازات البشر هو عبارة مجازية متكررة في كتابات «بيل»، وأحيانًا ما يحقن تخيلاتها المشرقة في الغالب عن العصور القديمة بنكهة متشائمة. كما يُشير إلى موقفها المتضارب بعض الشيء؛ أي إيمانها من جهة بقدرة البشرية على صناعة تغيير إيجابي، وفي ذات الوقت شكّها في ما إذا كان هذا التغيير ممكنًا حقًا. وفي حين يتبدّى أنّ «بيل» تُحيل إلى الشرق الأوسط في هذه الحالة المُحددة، إلا أنّ كتاباتها الأخرى توحي بأنّها اكتشفت أنّ الغرب أيضًا عاجز عن الوفاء بسلوك متنور و«تقدمي»، ومن ثمّ تلقي الضوء على نظرتها المتشائمة للحياة عمومًا.

تبلغ «بيل» ذروة استحضارها للماضي عندما تكتب عن موقع أثري مكثت فيه بنفسها بعض الوقت لتسجيله، أو قام آخرون بالتنقيب فيه لكنّه ثري بالآثار الدّالة على غِنى ماضيه. وكما سبق أن رأينا، فقد استحوذ على مشاعر «بيل» ما في قلعة الأخيضر الصحراوية من رومانسية؛ وهي القلعة التي رسمت مخططات لعمارتها وسجّلتها بعد جهد هائل في العامين 1909 و1911. وقد يسّرت ضخامة الأثر ووصوله إلينا سليمًا، تخيّل ما كان عليه في حالته الأصلية. كما أسهم شاغلو القلعة الحاليون من العرب في بثّ الحياة في ساحاتها المهيبة؛ حسبما رأت «بيل». حيثُ تصف بعض أكثر المقاطع إثارة للمشاعر في كتابها «من سلطان إلى سلطان»، سُكّان الأخيضر بأنّهم وارثو عظمة القلعة: إذْ «عاشوا وجاعوا وماتوا داخل أروع مبنى يُذكّرهم بحضارتهم»؛ و:«كانوا يمرّون بطرقات القلعة كأنّهم أشباح، ويجرجرون عباءتهم البيضاء إلى أسفل الدَرَج»؛ وحين يأتي الليل: «يتجمّعون حول المدفأة داخل القاعة الكُبرى، حيث كان أجدادهم يزجون الساعات برواية الحكايات وترديد الأغاني بنفس لهجة نجد الدارجة». وكانت أغانيهم؛ بالنسبة لـ«بيل»، عن أمراء الماضي الأشدّاء: «صفحات من التاريخ نفسه؛ تاريخ البدو غير المؤرّخ»(٢٩). وبعيدًا عن البون الشاسع الذي يفصلهم عن سُكّان هذا القصر من النبلاء القدامى، كان السكّان العرب الحاليون هم أحفاد

الأخيضر الحقيقيون وورثوه الشرعيون، الذين ينتمون لنفس السلالة التي انتمى إليها أصحابه الأوائل. ومثل هذا الانطباع جعل قُرّاء «بيل» أكثر قُربًا من ماضي «الأخيضر» المهيب.

ولم يكن موقعا بابل وآشور أقل استحضارًا للماضي بالنسبة لـ«بيل»؛ حيثُ اكتشف منقبون ألمان مُعاصرون آثارًا لصروحهما الضخمة وسكّانهما، أعادتها بقوة إلى عصريهما القديمين. فحين تكتب «بيل» عن هاتين المدينتين، يطفح وصفها برؤى زاهية عن ماضيهما، وكيف ترتبطان بواقعها الحالي. فتسمع العندليب يُغنّي في بابل وتتخيل «نبوخذ نصر»؛ بل و«حمورابي»، يسمعان الصوت نفسه[٣٠]. ويسرّها أثناء تأمّل مباني المدينة المُكتشفة أمامها، قدرتها على تحديد المواضع التي خلد فيها الجنود للنوم، وحيث لفظ «الإسكندر» أنفاسه الأخيرة[٣١]. وفي آشور، تبلغ «بيل» أقصى غنائيتها حين تتخيّل؛ كما سبق أن أشرنا، «الماضي الباذخ القاسي» يندفع أمامها، فترى الجنود الآشوريين يزحفون عبر البوابات، والأسرى المكبلين يملأون الشوارع، والأمراء والرعايا المهزومين يهرعون للانحناء أمام الملك المُنتصر، ويكومون أمامه ما عليهم من جزى. «العظمة والشقاء؛ الانتصار واليأس، تُطل برأسها من بين التراب»[٣٢].

لا ريب أنّ تزامن زيارة «بيل» لبابل وآشور، مع الاكتشاف الحديث لمبانيهما الهائلة المُشيدة بالطوب، قد عزز إحساسها بالعودة إلى الزمن الذي شهد استخدامها أول مرّة. إلى جانب ذلك، لا ينبغي أن نُغفل الأثر الذي تركه المنقبون أنفسهم على مشاعر «بيل»؛ ذلك أنّ «روبرت كولدفاي» و«فالتر أندري» حضرا بنفسيهما في بابل وآشور أثناء زيارتيها للموقعين؛ واستقطعا من وقتيهما كي يستعرضا أمامها أعمال التنقيب، بما يملكانه من معرفة هائلة حول كل جوانب الموقعين الأثريين، نقلا أغلب تفاصيلها إلى «بيل» عن طيب خاطر. وإلى جانب ذلك، استمالت معارفهما التاريخية الفائقة،

ومواهبهما في استحضار تاريخي المدينتين وملوكهما المهيبين، نزعاتها الرومانتيكية بصورة قوية. وتدوِّن «بيل» عن «كولدفاي»ما قاله عن «الإسكندر الأكبر»؛ الذي لقي حتفه في بابل: «السُّكر الدائم والدماء التي أراقها- إذْ كان مهووسًا بالخمر والحبّ والقوة. وألا ينبغي أن يكون من يغزو العالم مجنونًا؟ ما من سبيل آخر»[٣٣]. ويُشير تكرار هذه الفقرة في أكثر من موضع من كتاباتها، إلى حقيقة أنّها كانت شديدةالإعجاب بها[٣٤]. فما من شكّ أنّ طابعها الموجع أثار إعجابها، لكننا نظنّ أن جاذبيتها ترتبط كذلك بأسلوب «كولدفاي» السردي المراوغ. كما يُخامرنا إحساس مماثل بأنّ مشاعر «بيل» كانت تعود إليها الحياة في حضور «فالتر أندري»؛ الذي قام بأعمال التنقيب في آشور. فتروي «بيل» أنّها جلست مع مضيفها الألماني فوق سطح مقر بعثة التنقيب ذات مساء، وأنّهما استغرقا في الحديث عن شكل الزقورة الأثرية الهائلة في آشور التي ترتفع شاهقة فوقهما. وأنّها حين سألت «أندري» عمّا كان يتطلع الناس إلى رؤيته من فوق قمة الزقورة، أجاب: «كانوا يُراقبون القمر، كما نفعل الآن. ومن يدري؟ ربما كانوا يترقبون تجلي الإله»[٣٥]. هذا التصريح جعل «بيل»؛ بحسب تعليقها، لا ترغب مُطلقًا في مغادرة الموقع. وتُشدد الفقرة مرّة أخرى على المشاعر الجارفة التي غمرت «بيل» حين صارت وجهًا لوجه مع ماضي بلاد الرافدين النابض بالحياة. وتُشير في ذات الوقت إلى مستوى آخر من مستويات أحاسيسها الرومانتيكية، التي أوقدتها مُشاطرة هذا الماضي المذهل مع ألماني بارع تُكن له إعجابًا عميقًا.

نظرة شرقية

إلى جانب أحاسيسها الرومانتيكية؛ لاسيما خلال لقاءاتها مع خصوبة آثار بلاد الرافدين، ينبغي أن نلفت الانتباه إلى الأهمية التي أضفتها «بيل» على المعرفة التي اكتسبتها عن تاريخ بلاد الرافدين - والتي توصّلت إليها

من خلال رحلاتها المكثفة داخل تلك البلاد، ودراسة آثارها القديمة- وحقيقة أنّ أغلب ما تعرفه كان يتعلّق بفترات زمنية مُعينة، لا بالعصور الكلاسيكية القديمة. إذْ أصبحت من خلال العلاقة التي جمعتها بـــ«كولدفاي» و«أندري» على سبيل المثال، على دراية بأركيولوجيا مدينتي بابل وآشور الشهيرتين اللتين تنتميان للعصر ما قبل الهلنستي. كما جعلتها التحريات التي قامت بها بالصروح الساسانية والإسلامية المبكرة؛ مثل الأخيضر وفي طيسفون وسامراء، خبيرة في العصور ما بعد الكلاسيكية. حيثُ كان الفن والعمارة في هذين الموقعين ثمرة تطوير محلي، أسفرت عنه التقاليد التي انطلقت في نهاية الأمر من الأراضي الواقعة بين نهري دجلة والفرات. ومن ثمّ، كان ما لدى «بيل» من معرفة مُكتسبًا لحدّ كبير من منظور تاريخ وثقافة بلاد الرافدين. كذلك، ربّما تكون حقيقة اقتدائها برؤية «جوزيف سترزيجوفسكي» منذ مرحلة مبكرة في بحثها الأكاديمي، مسئولة عن وجهة النظر الشرقية المميزة هذه. فمثله، تعلّمت «بيل» تقدير قدرة الشرق الأدنى المستقلة على الابتكار، وسعت إلى تعقب كثير من تقاليده وصولا إلى جذورها في بلاد الرافدين، بدلاً من التشديد على النفوذ المتعارف عليه لليونان وروما.

هكذا كانت «بيل»؛ نظرًا لمعرفتها ووجهات نظرها الشرقية، تتمتع بوضع فريد لحدّ كبير بين خبراء آثار الشرق الأدنى في عصرها، والذين جاء أغلبهم للتعرف على الشرق بشكل رئيس من خلال دراساتهم عن الثقافتين اليونانية والرومانية. ونستطيع أن نُشير في هذا الشأن إلى زميل «بيل»؛ «ديفيد هوجارث»، الذي اكتسب خلال حياته الأكاديمية دراية واسعة بأركيولوجيا وتاريخ الشرق الأدنى القديم. لكن ما شدّه في بادئ الأمر لهذا الجزء من العالم، هو إلمامه بتاريخ اليونان وروما، والأثر الإيجابي القوي لهاتين الحضارتين الغربيتين على الشرق الأدنى، إمّا من خلال الغزو أو التأثير الثقافي[٣٦]. ولكم يسترعي الاهتمام تأمّل التأثير المُحتمل لهذا المنظور الكلاسيكي الغربي، على انخراط «هوجارث» اللاحق في شئون الشرق

الأدنى السياسيّة. إذْ قد يُفسِّر بعض الشيء؛ على سبيل المثال، تشويهه المستمر لصورة سُكّان الشرق الحاليين– من خلال نعتهم بالعدائية والجحود والانحطاط الثقافي– مُقارنة بالغربيين[٣٧]. إذْ صوّر «هوجارث» سكّان الشرق المعاصرين بالأطفال أو المُراهقين، الذين ينعقد أملهم الوحيد للبقاء في المستقبل على ما يُمكن أن تقدمه لهم بريطانيا من عون عطوف وسلام وحكومة صالحة. بل قارن «هوجارث» بين بريطانيا وبين الرومان القدماء، وزعم أنّ الإمبراطورية البريطانية وقتئذ كانت تسير في نفس الاتجاه، في مساعيها «لدمج» و«استيعاب» شتّى المناطق والشعوب المتباينة تحت نفوذها، وفي خلال ذلك تفرض الاستقرار والعدل وإحساسًا بالوحدة السياسية والثقافية[٣٨]. وقد أشار نُقّاد ما بعد الكولونيالية من أمثال «إدوارد سعيد»، إلى النبرة الاستشراقية القوية في كتابات «هوجارث»، بما تحتويه من رسائل ضمنية تنطوي على دوافع إمبريالية غربية والرغبة في السيطرة على الشرق[٣٩]. وكانت نفس الاتهامات بإضمار المشاعر نفسها توجه لـ«بيل» بين الحين والآخر؛ ومنها ما أشرنا إليه سابقًا في ثنائها المُطلق على «الباكس بريتانيكا» في مخطوطها الذي حمل عنوان «رومانسية». إذْ يبدو أنّها لم تكن تتمكن دائمًا من الإفلات بينها وبين نفسها، من حقيقة أنّها كانت هي الأخرى عميلة لقوة استعمارية. لكن في الوقت ذاته، كان إلمامها العظيم بكل ما يتعلق بالبشر والأرض في الشرق؛ بخاصة بلاد الرافدين، ومن منظورهم هم، إضافة إلى معرفتها الخبيرة بإرثهم الثقافي الأصيل، يخففان في أغلب الأحيان من حدّة هذه المواقف التي كانت تتجلى في كتاباتها بدرجة أقل مما كانت عليه في كتابات زميلها «هوجارث».

المعرفة والسلطة وامتلاك الماضي

ينبغي أن نؤكّد على جانب أخير من جوانب موقف «بيل» تجاه الماضي، وهو ما يتعلّق بالأهمية التي أضفتها على امتلاك معرفة متبحرة

بالمكان وآثاره، والسلطة التي تمنحها مثل هذه المعرفة. فبالنسبة لـ«بيل»، لم تكن المعرفة العابرة بتاريخ وثقافة مكان مُعين تفي بالغرض، وتُظهر كتبها مثل «من سلطان إلى سلطان» أو دراستها عن الأخيضر، ما تتطلبه من إجراء تحرٍّ شامل للنصوص القديمة والقطع الأثرية والعمارة الخاصة بموقع بعينه، وأنّ إحساسها بأنّها باتت «تعرف» هذا المكان بحقّ يتوقف على الانتهاء من كلّ هذه الجهود. ويرجع إعجابها بالآخرين؛ خاصة عالما الآثار «فالتر أندري» و«روبرت كولدفاي»، إلى الحنكة التي سيطرا بها على الماضي. إذْ كانا يتمتعان بسلطة الحديث بطلاقة وبطريقة نابضة بالحياة باسم الماضي؛ بسبب ما بذلاه من جهود مُضنية لفهم تاريخي آشور وبابل، خلال السنوات التي أمضياها في التحريات والدراسات التفصيلية والدقيقة. من ناحية أخرى، ما كان تقديرها لهذين الموقعين يدخل موضع التنفيذ لولا أنّها ظفرت هي الأخرى بمعرفة عميقة بتاريخيهما الطويلين. إذْ كما أشرنا من قبل، كانت «بيل» تزحف من دون كلل بصحبة العاملين في الموقعين: «داخل كل حفرة وركن بأعمال التنقيب»(٤٠)، وتطرح أسئلة غزيرة وتسجل ملاحظات مستفيضة. ومن ثمّ أصبح لديها الحقّ بعد أن أحكمت سيطرتها على الماضي، في الاستغراق بأي تأملات رومانتيكية عن شخصيات تاريخية مثل «الإسكندر الأكبر»، وهي التأملات التي كانت تُلبس الحقائق التاريخية التي تمّ التوصل إليها بشكل علمي، بلباس قصصي زاه. كذلك أصبح لدى «بيل» بالطريقة ذاتها الحقّ في إضفاء طابع رومانسي على الأخيضر؛ قلعتها الأثيرة، نظرًا للجهد الذي بذلته كي تعرف كل ما يتعلق بشكله ووظيفته. كما أضفت معرفتها المتبحرة بالماضي مصداقية على مُخططاتها المعمارية وعززت صحتها.

وليس من المستغرب؛ نظرًا للجهود البدنية والذهنية المطلوبة للوصول لمعرفة شاملة بالماضي، أنّ تقوم «بيل» بتطوير موقف تملكي تجاه المواقع الأثرية وما تحتويه من آثار. إذْ أصبح موقع آشور مرتبطًا لحدّ كبير

بـ«أندري» وفريقه من الباحثين الألمان؛ رغم أنّ الآشوريين هم من أسسوه، مثلما أصبح الأخيضر «قلعتها». إلى جانب ذلك، أصبحت كافّة المعلومات المُكتسبة من خلال دراسة ذلك الموقع الأثري - كتاريخه السياسي وسكانه والفترة الزمنية العامة التي كان موجودًا خلالها - هي الأخرى مرتبطة بالباحثين الذين سعوا للتوصل إليها في المقام الأول. بمعنى أنّ أولئك الباحثين حول بلاد الرافدين القديمة؛ ومن ثمّ البلاد التي جاءوا منها، باتوا أصحاب الماضي ولهم نصيب من آثار المواقع التي اكتشفوها وإرثها الأثري يساوي نصيب البلاد التي تقع هذه المواقع داخل حدودها. وليس من الصعب أن نرى تبعات هذا النوع من المواقف التملكية تلعب دورًا في عمل «بيل» السياسيّ، وكذلك في عملها اللاحق كمديرة شرفية لدار الآثار في العراق.

بلاد الرافدين والعراق: تضافر الماضي والحاضر

بعد أن تعرضنا لعدد من مواقف «بيل» المهمة تجاه الماضي؛ لاسيما ماضي الشرق الأدنى القديم، لنر الآن كيف ألقت هذه المواقف تحديدًا بظلالها على نشاطاتها السياسية ورؤاها الخاصة بدولة بلاد الرافدين الحالية، وأسلوب حكمها في المستقبل.

كانت إحدى القضايا الأساسيّة التي واجهت «بيل» كمسئولة سياسية؛ إضافة إلى أعضاء الإدارة الاستعماريّة، في بلاد الرافدين التي تحتلها بريطانيا أثناء وبعد الحرب العُظمى مُباشرة، هو شكل مستقبل الحكم في بلاد الرافدين. أي هل من الممكن لبلاد الرافدين تحقيق الحكم الذاتي في أي وقت من الأوقات، أم ينبغي أن تظل تحت وصاية قوة أوروبيّة؛ أي بريطانيا؟ كانت هناك آراء متصارعة حول هذه المسألة في أعقاب الحرب. فتشبّث البعض بعناد بمفاهيم الإمبراطورية التي تعود لفترة ما قبل الحرب، في حين صارت لدى البعض الآخر الآن أفكار تسخر من مزايا ونفوذ الإمبراطورية، وأصبحت تغتر بفكرة «وودرو ويلسون» التحرريّة عن حق تقرير المصير،

الذي كان ينتشر بين الكثير من دول العالم كالنار في الهشيم[٤١]. لكن يبدو أن آراء «بيل» تقلّبت بشكل كبير. إذْ آمنت باعتبارها أحد أفراد المشروع الاستعماري البريطاني، بالآثار الإيجابية لبريطانيا على حكم بلاد الرافدين[٤٢]، لكن مع تنامي تجربتها في تلك البلاد واحتضانها كذلك فكرة الحكم الذاتي، بدأت تُعبّر عن موقف أشد تضاربًا، وترى مزايا أقل في الحكم الأجنبي، وتغدو أكثر تفاؤلا بأن تتحول بلاد الرافدين أخيرًا إلى دولة عربية تتمتع بالحكم الذاتي[٤٣]. كانت قد برزت تعقيدات عديدة تواجه إدماج سكان بلاد الرافدين الحاليين- خليط حقيقي متباين من القبائل والبلدات؛ سُنّة وشيعة؛ أكراد ويهود ومسيحيين- واعتبر كثيرون أنّ هذه الرؤية غير واقعية. ومع ذلك ظلّت «بيل» متفائلة في أغلب الأحيان بأنّ مثل هذه البلاد ستنعم في نهاية الأمر بالاستقرار والحكم الذاتي. ربّما كانت هذه الغاية هي حصيلة تجربة «بيل» المستفيضة والمباشرة مع قضايا وسكّان البلاد- أي كونها «في دائرة الضوء»- لكن نستطيع أن نطرح في الوقت ذاته فكرة أنّ جانبًا من هذا التفاؤل، كان يستمد أساسه المعرفي من معرفتها بتاريخ بلاد الرافدين، وإدراكها أنّ البلاد خلال فترات كثيرة من العصور القديمة، كانت خاضعة لإدارة سياسية واحدة وطنية. وأنّ القادة الأقوياء حكموا بالعدل، ونجحوا من خلال ما يتمتعون به من طاقات و«كاريزما» في إدماج البشر والجماعات الإثنية المتباينة في دولة واحدة.

كانت «بيل» تعلم من خلال إلمامها بتاريخ بلاد الرافدين، أنّ الآشوريين والبابليين على سبيل المثال، أنشأوا إمبراطوريات ضخمة امتدت إلى شمال وجنوب بلاد الرافدين إبان الألفية الأولى قبل الميلاد. وكانت تعلم أيضًا أنّ العباسيين أنشأوا خلال العصر الإسلامي المبكر إمبراطورية مذهلة عاشت طويلاً. إذْ حلّ الخلفاء العباسيون الذين ادّعوا أنّهم ينحدرون من نسل أصغر أعمام الرسول مُحمّد، محل أسلافهم الأمويين في العام 750 ميلاديًا، ونقلوا عاصمة الإمبراطورية من دمشق شرقًا إلى قلب الدولة الساسانية القديم

في بلاد الرافدين، حيث أنشأوا مدينة بغداد[٤٤]. وسرعان ما برزت بلاد الرافدين؛ وبغداد في القلب منها، باعتبارها مركز إمبراطورية امتدت لبعض الوقت من أسبانيا إلى أفغانستان. واستمدت حضارة العباسيين الإلهام من ثقافات اليونان وبيزنطة وروما القديمة[٤٥]. كما دعم الخلفاء العباسيون أنفسهم بناء مُجتمع كوزموبوليتاني شامل، دون أن يرحبوا في مجالسهم: «بالباحثين والشعراء والفنانين المسلمين فحسب، بل بالأطباء والمنجمين النسطوريين واليهود ومن سائر الديانات، فضلًا عن الفلاسفة الوثنيين»[٤٦]. ولم يكن هذا الازدهار الذي شهدته الحضارة الإسلامية يقتصر على قاعات قصور الخلفاء، بل امتد إلى جميع المسلمين ممَن باتوا يتصورون أنفسهم الآن كأعضاء في مجتمع واحد. وقد عزز مشاعر التماسك والهوية المشتركة: «وجود قُرّاء القرآن وحكّائي القصص والشعراء؛ ممَن دأبوا على رواية حياة مُحمّد وأفعاله، والتغنّي بمفاخر العرب باللغة العربية المشتركة الجديدة داخل المساجد والأسواق ومعسكرات الجيش، في كل أرجاء الإمبراطورية الفسيحة»[٤٧]. لقد كان هذا عصرًا مجيدًا في واقع الأمر، اتّسع فيه نطاق الاتحاد السياسي والثقافي، إضافة إلى كون الإمبراطورية قوة إمبريالية تطورت من داخل بلاد الرافدين نفسها، وليس كجزء من قوة غازية جاءت من الخارج. ومن ثمّ كانت الإمبراطورية العباسية من عدّة جوانب، هي الاستعارة المثالية التي تمثّل العراق الجديد من وجهة نظر «بيل»؛ حيثُ لم يكن يتخطّى حدود الاستطاعة بالنسبة لها إعادة الحياة إلى مجد تلك الإمبراطورية القديم.

كانت «بيل»؛ إلى جانب رؤيتها المتعلقة بالحكم الذاتي التي يسهل تخيلها بسبب إلمامها بتاريخ بلاد الرافدين، منفتحة لحدّ كبير على فكرة ضرورة أن يحكم الأمة الجديدة ملك. وقد بدأ دعمها لفكرة الملكية هذه لأول مرّة إبّان محادثات السلام في باريس في العام 1919، عندما سافرت إلى باريس وقابلت لأول مرّة صاحب الشخصية الكاريزمية الأمير فيصل؛ الأمير

الهاشمي على قلب الجزيرة العربية الذي ساعد البريطانيين على هزيمة الأتراك أثناء الحرب، والذي كان من المُقرر الآن تعويضه عمّا بذله من جهود أثناء الحرب من خلال منحه أراضٍ يحكمها. كذلك حضرت «بيل» مؤتمر القاهرة في مارس 1921؛ حيثُ تقرر تنصيب فيصل كأول ملك للعراق. وصارت أكثر حضورًا في بغداد لاحقًا ذلك العام، عندما دخل فيصل المدينة وتوّج ملكًا للبلاد. ومنذُ هذه اللحظة أصبحت «بيل» مستشارة مُقربة من فيصل.

لا ريب أنّ مُساندة «بيل» لفيصل تأثّرت بإدراكها الواقعي أنّه كان أفضل المرشحين في المشهد، وأنّ ميوله المؤيدة لبريطانيا جعلته قائدًا عربيًّا مثاليًّا لبلاد الرافدين التي ستظل خاضعة للوصاية البريطانية حتّى العام 1932. وفي ذات الوقت، يُمكن القول أنّ دعم «بيل» تأثّر بمثالها الرومانسي الخاص بوحدة العرب في الشرق الأوسط، ورؤيتها لذلك الجزء- أو كل- المنطقة التي ترى ضرورة أن يحكمها أمير مُلهم ينحدر من سلالة نبيلة وعريقة. وفي حالة فيصل، أفاد انتماؤه للأسرة الهاشمية في تمكينه من تتبع أصوله وصولاً للنبي محمد نفسه(٤٨). كانت «بيل» تعلم أيضًا؛ وهي التي لا تكفّ عن التفكير من منظور تاريخي، أنّ الحكّام العباسيين قدّموا أنفسهم كممثّلين للهاشميين؛ إذْ ادّعوا انحدارهم من نسل عمّ الرسول سيد الهاشميين. وبالنسبة لـ«بيل»؛ كانت الصلات التي تربط رسول الإسلام والخلفاء العباسيين بفيصل، تمنحه شرعية كاملة باعتباره الملك الجديد للعراق، وطرحت إمكانية أن يبلغ العراق الوليد من خلال حاكمه الجديد، نفس ذرى المجد التي حققها الخلفاء المسلمون في البلاد قبل عقود. وتمتلئ كتابات «بيل» خلال العام الذي شهد وصول وتتويج فيصل في العراق، بصور تُقدّم هذه الرؤية الإيجابية لملكية عربية وليدة. ويُجسّد وصفها للاستقبال الذي حظي به فيصل في الفلوجة من قبائل البدو الصحراويين؛ الدليم وعنزة، تصورها الحالم للملك فيصل الذي استلهمته من: «الصور المتقاربة للعراق

التقليدية والحديثة»[٤٩]. وفي هذه المناسبة، حضرت حشود من الأفراد الذين يمتطون جيادًا وجمالاً لإلقاء نظرة على فيصل، الذي تبدّى مهيبًا في أرديته البيضاء وعباءته السوداء وحزامه وخنجره الذهبيين، ولباس رأس أبيض فضفاض مربوط برباط فضي. وقد تحدّث كأنّه «شيخ قبيلة بلغة الصحراء الرنّانة، يأمر ويزجر ويطرح أسئلة أجابها الحاضرون بصوتٍ عالٍ. هكذا كان الأمر في مثل هذه المناسبات منذُ الأيام الأولى بالحضارة العربية»[٥٠]. وقد لاحظت كذلك أنّه قد مرّت: «سبعمائة عام منذُ مشى ملك عربي بين رعاياه في بلاد الرافدين؛ وهي أطول فترة هُنا أيضًا حيث نحسب التاريخ بآلاف السنوات»[٥١].

ثمّة حدث يُؤكّد بشكل خاص وبقوة رؤية «بيل» لتاريخ بلاد الرافدين المجيد وعلاقته بالحاضر، فضلا عن رغبتها في إقناع ملك العراق الجديد بمكانته المشروعة بهذا التاريخ المذهل. وهو تنظيم «بيل» لرحلة بصحبة فيصل إلى موقع طيسفون الأثري، جرت في أغسطس العام 1921، عقب تتويجه ملكًا بفترة قصيرة (انظر شكل ٦-١). وكما سبقت الإشارة، فقد كانت «بيل» على دراية جيدة بتاريخ وعمارة طيسفون التي زارتها أول مرّة في العام 1909، ودونت ملاحظات حول عناصرها المعمارية كواجهة وقوس وغرف «طاق كسرى» الجانبية؛ وهو الإيوان المعقود النّاجي الهائل بالقصر المهيب الخاص بملك الساسانيين «كسرى الأول»؛ الذي كان نموذجًا للأبهة الإمبراطورية في الشرق الأوسط خلال القرن السادس الميلادي. وكانت «بيل» مفتونة وقت زيارتها لطيسفون بالتقاليد الساسانية وتأثيرها المُحتمل على عمارة اكتشافها النفيس؛ وهو قصر الأخيضر. واللافت للنظر هو أنّ بعض معالم «طاق كسرى»- وبشكل خاص أسلوب بناء القبو بالطوب، المماثل لأسلوب البناء في الأخيضر- ألقت بظلالها على اختيار «بيل» تاريخًا مبكرًا لبناء الأخير.

ثمّة صفحات عديدة في كتاب «من سلطان إلى سلطان» مُخصصة لوصف طيسفون وتاريخها، وأغلب ما بها من معلومات مستقى من كتابات المؤرخ الشهير «الطبري»؛ وهو مؤرخ فارسي ومُفسّر للقرآن ينتمي لأواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر، كما ألّف تاريخًا للعالم الإسلامي والشرق الأوسط يقع في عدّة مجلدات. وقد صاغت «بيل» بناءً على رواية الطبري تصورها المُثير لطيسفون في أوجها، بملكها وقاعة عرشه المتألقة؛ وهو التصور الذي سبق أن أشرنا إليه. كما تنقل «بيل» الوصف الذي قدّمه الطبري لاستيلاء العرب على طيسفون وضمها تحت راية الإسلام بقيادة سعد بن أبي وقّاص، وخاصة وصفه لعبور نهر دجلة لأول مرّة على يدّ ستمائة متطوع، نجحوا في اجتياز النهر على ظهور الجياد رغم مقاومة الفرسان الساسانيين(٥٢).

لابد أنّ التاريخ الذي قدّمته «بيل» للملك فيصل؛ حين أحضرته إلى طيسفون في العام 1921، كان مماثلا بدرجة كبيرة لما روته في كتابها «من سلطان إلى سلطان». وقد كتبت تصف لأبيها في رسالة ما جرى في هذه المناسبة:

كان إطلاع فيصل على هذا المكان البديع أمرًا مثيرًا بدرجة مذهلة. والحقّ أنّه سائح مُلهم. فبعد أنّ أعدنا بناء القصر ورأينا «كسرى أنو شروان» جالسًا به، اصطحبته إلى التلال الأثرية في الجنوب حيث تمكنّا من رؤية نهر دجلة، ورويت له حكاية الفتح العربي كما سجّله الطبري، واجتياز النهر وباقي تلك الحكاية المُذهلة. كانت حكاية قومه- ولك أن تتخيل حاله أثناء روايتها على مسامعه؛ إذْ لا أدري أينا كان مسحورًا أكثر(٥٣).

لم تكن الغاية من زيارة «بيل» إلى طيسفون بصحبة فيصل، أن تقدّم له شاهدًا من أروع شواهد البلاد على السلطة الملكية القديمة، بل إقناعه أيضًا بأنّ هذه الصروح تخصّه باعتباره ملكًا عربيًا، وأنّ الأحداث التي كشفت عنها له كانت عبارة عن تاريخه هو، ولكي يشعر من خلالها بأنّه مُفوض.

فعندما قالت «بيل» أنّ تلك الأحداث هي: «حكاية قومه»، كانت تذكّر فيصل أنّه ينحدر من سلالة العرب الذين غزوا هذا الموقع، وأنّ على فيصل باعتباره الملك الجديد، أن يستعيد بلاده من الأتراك العثمانيين، كما استعاد أجداده العرب البلاد من الساسانيين الفارسيين.

يعكس تصرف «بيل» القوي واللبق كثيرا من مواقفها تجاه تاريخ بلاد الرافدين؛ إذ يُسلط الضوء بشكل خاص على نزوعها إلى استدعاء الماضي كي تُضفي معنىً وغاية على الحاضر. وقد جرى الاستحضار الرومانسي لرواية الطبري حول غزو العرب لرمز الاحتلال الفارسي الأكثر تألقًا وقوة – أي القصر الكبير في طيسفون- بعناية ووعي كي يُماثل سلطة فيصل وحكمه العراق بعد قرون من الاحتلال التركي لبلاد الرافدين، وللتشديد على أنّ ما سبق أن جرى في التاريخ يتكرر من جديد. من اللافت للنظر أيضًا أنّ اختيار «بيل» لهذا الفصل تحديدًا من تاريخ طيسفون كان يضم ملوكًا وغزاة ينهالونجميعًا من الشرق الأدنى؛ وأنّ تقديرها لتاريخ الشرق الأدنى المبجّل في حدّ ذاته ولذاته، من دون التأثير أو العبء الغربي الثقيل، استحضرته «بيل» في هذا المثال في مسعى منها لتوطيد قوة التاريخ بالنسبة لملك العراق الجديد.

مع ذلك، من الصعب أن نغفل حقيقة أنّ «بيل» هي التي كانت تروي هذه الحكاية التاريخية الجوهرية لفيصل؛ وأن نشك في ألا يكون الملك قد تأثر بحضورها. فمن جانب، كان حضور «بيل» يرمز لنفوذ بريطانيا القوي وسلطانها على دولة العراق الوليدة. ومن جانب آخر، ما يظهر هو سلطان «بيل» ونفوذها؛ لا باعتبارها مُجرد صوت لبريطانيا، بل سلطانها ونفوذها وهويتها القوية شخصيًا. وعمومًا، ما من مسئول آخر عمل بالإدارة الاستعمارية البريطانية في العراق الجديد، وقليلون من بين سكان البلاد المحليين، تمكّنوا بدرجة أكبر من تاريخ طيسفون المجيد. ذلك أنّها اكتسبت هذه المعرفة على نحو فريد من خلال بحثها المستفيض في تاريخ الفن والعمارة والثقافة خلال العصرين الساساني والإسلامي المبكر. وهذا الاطّلاع والإحساس بالقوة الذي أسبغه عليها شخصيًا، هما ما بررا روايتها لهذا

الحدث أمام ملك العراق الجديد. بل ربّما نستطيع أن نقترح أنّه على مستوى اللاوعي؛ إضافة إلى شعورها بأنّها تملك الماضي، أحسّت «بيل» أنّها تُنعم على فيصل بما تملكه شخصيًّا من تاريخ بلاد الرافدين. وإذا قبلنا كل تلك الدوافع، فأشدّ ما يصعب أن نستدعي للذهن تصرفًا أشدّ عجرفة طوال عمل «بيل» السياسي، رغم أنّ توقيته كان ملائمًا. إذْ كانت «بيل» في أوج قوتها السياسيّة حين أخرجت زيارة فيصل إلى طيسفون في العام 1921، وعلى مدار حياتها كلها لن يبلغ تأثيرها على الأحداث والأشخاص بدولة العراق الجديدة، الحدّ الذي بلغته عندما كانت تقف إلى جوار فيصل فوق ذلك التلّ في طيسفون، تروي له تلك القصة المذهلة عن عظمة تاريخ العراق الإمبراطوري.



شكل (٦-١)«جيرترود بيل» برفقة فيصل ملك العراق (الثاني من اليمين)، أثناء نزهة في طيسفون في العام 1921؛ عقب تتويج فيصل بفترة قصيرة.

مديرة دار الآثار ومؤسسة متحف العراق

سنتحوّل إلى منصب «بيل» كمديرة شرفية لدار آثار العراق، ودورها في تأسيس أول متاحف البلاد، كمثالين أخيرين على الأثر الذي تركته خبرتها

وإنجازاتها في تاريخ وأركيولوجيا بلاد الرافدين على السنوات الأخيرة من مسيرتها العملية. ذلك أنّ الملك فيصل طلب من «بيل» ترؤس مديرية الآثار في العام 1922؛ بسبب ما لديها من إلمام واسع بأركيولوجيا العراق(٥٤). وبهذه الصفة، وضعت أول تشريع في البلاد يتعلّق بالآثار، والذي صدر في يونيو العام 1924. كان القانون الجديد يتبع معايير التشريعات الخاصة بالآثار ومن ثمّ انتشر في أغلب الدول؛ لاسيما في أوروبا، باستثناء أنّه كان لا زال يسمح بمكافأة حاملي التصريح بالتنقيب عن الآثار بنصيب كبير من الآثار المُكتشفة(٥٥). ولذلك كان لمدير دار الآثار في العراق السلطة في اختيار ما يراه ضروريًا من القطع الأثرية: «من أجل الاكتمال العلمي لمتحف العراق»(٥٦)، أمّا باقي القطع الأثرية فله حُرية تصديرها إلى المؤسسات الراعية خارج البلاد، بدلا من بقائها ضمن ملكية دولة العراق(٥٧). هذا الجانب تحديدًا من تشريع الآثار صاغته «بيل» لصالح المؤسسة الأركيولوجية الغربية؛ لتشجيع نشاطاتها وأبحاثها الأركيولوجية المتواصلة في العراق، ودعم تطوير مجموعاتهم الوطنية؛ مثل المتحف البريطاني(٥٨).

نستطيع أن نرى كذلك بصمة «بيل» الشخصية في بضعة بنود أخرى بقانون الآثار العراقي- على سبيل المثال البند رقم 19 الفقرة (i)، التي تفرض ضرورة أن يُصاحب عمليات التنقيب معدات كافية لعمل سجلات فوتوغرافية ومخططات معمارية للآثار(٥٩). تعكس هذه الاشتراطات بوجه خاص خلفية «بيل» الأركيولوجية السابقة؛ وأعني بها ولعها الشخصي بالتقاط عدد غزير من الصور الفوتوغرافية للمواقع الأثرية، وإدراكها أنّ هذه اللقطات تسجل التفاصيل الفنية والمعمارية بوضوح وفاعلية أكبر. ويظل اعترافها بأهمية عمل مخططات معمارية للآثار المُكتشفة مُستمدًا بصورة لا لبس فيها من اطّلاعها على بعض المخططات الأكثر تفصيلاً وعمقًا بين كل المشاريع الأركيولوجية التي جرت في بلاد الرافدين قبل الحرب؛ وهي

المخططات التي رسمها «روبرت كولدفاي» في بابل، و«فالتر أندري» في آشور.

وقد نظرت «بيل» لمنصبها كمديرة شرفية لدار الآثار العراقية بجديّة؛ إذْ لم تصدر تصاريح بالتنقيب إلا للأفراد والمؤسسات التي اعتبرتها مؤهلة وقادرة ماليًا على الضلوع بمهمة التنقيب المُذهلة في أيٍ من مواقع العراق الأثرية[٦٠]. كما زارت خلال فترة توليها للمنصب مشاريع أركيولوجية في أرجاء البلاد، وحضرت تقسيم اللقايا في بعض المواقع؛ وهي العمليات التي تجري في نهاية كل موسم ميداني. وكانت تختار من بين القطع الأثرية المُكتشفة؛ مُعتمرة قبعتها الرسمية باعتبارها مديرة لدار الآثار العراقية، ما تعتبره عينة تمثّل بقايا الموقع الأثرية، وتحتفظ به لصالح متحف العراق الجديد، أمّا المتبقي من الآثار فيحظى به مدير عمليات التنقيب. وتنقل لنا رسائلها بشكل خاص تفاصيل زياراتها إلى مدينة «أور» القديمة؛ حيثُ اكتشف مشروع مُشترك بين المتحف البريطاني وجامعة «بنسلفانيا»؛ وتحت إدارة عالم الآثار البريطاني «ليونارد وولي» Leonard Woolley، بعض أكثر اللقايا إثارة بالقرن العشرين بالكامل في العراق، بما في ذلك مقبرة «ملكية» بالغة الثراء يعود تاريخ بنائها إلى العصر السومري بالألفية الثالثة قبل الميلاد. وقد أمضت «بيل» ساعات طويلة في تفاوض عسير مع «وولي» على تقسيم لقايا «أور» الوفيرة[٦١]. وفي أعمال التنقيب بموقع «كيش» القديم الذي ينتمي لعدة عصور، كانت «بيل» ومدير البعثة المشتركة لمتحف أوكسفورد وشيكاجو الميداني، يحسمان في أغلب الأحيان تقسيم اللقايا من خلال إلقاء عملة معدنية[٦٢].

كان العمل المهم الثاني لــ«بيل» المتعلق بآثار العراق، هو إنشاء متحف يضم كنوز البلاد الأثرية. لم يكن المتحف الذي تأسس في العام 1923 إلا متحفًا متواضعًا يتألف من غرفة واحدة بأحد المكاتب الحكومية في بغداد،

لكنه نُقل في العام 1926 إلى مبناه في شمال المدينة، وافتتحه الملك رسميًا خلال احتفال خاص(٦٣).

يشهد المتحف الجديد؛ الذي كان عبارة عن مكان لعرض إرث البلاد على شعبها، على مساعي «بيل» للربط بين تاريخ العراق المجيد وبين حاضرها ومستقبلها الواعد. ومن جانب آخر، أخفق تشديد المتحف على التاريخ والقطع الأثرية ما قبل الإسلامية- الأقدم- لا على آثار البلاد التي ترجع للعصر الإسلامي الأحدث، في إلهام العراقيين المعاصرين ممن وجد أغلبهم أنّ الماضي الإسلامي تحديدًا أكثر دلالة واتّصالاً بحاضرهم ومستقبلهم(٦٤). ويُصبح هذا الإغفال لآثار العصر الإسلامي أشدّ إثارة للدهشة حين نتذكّر أنّ معرفة «بيل» بالعراق القديم، مستمدة بدرجة كبيرة من بحثها الأركيولوجي حول العصور الإسلامية المبكرة، وأنّها كانت تدرك تمامًا ما يحظى به هذا التاريخ من قوة سياسية. إضافة إلى أنّها استعانت بهذا التاريخ الأحدث في تمكين الملك فيصل بطيسفون.

لا يتبدّى موقف «بيل» من تأسيس متحف للعراق متجاوزًا لإيمانها السياسي- الذي يُشاركها فيه أغلب الساسة البريطانيين القائمين على مراقبة تأسيس العراق- بضرورة أن يكون لدى العراق متحف قومي كسائر الدول المتقدمة الأخرى في العالم الحديث(٦٥). بل كانت وجهة نظرها تقضي بأنّ الوظيفة الأهم للمتحف الجديد ذات طابع عملي؛ ذلك أنّ كميات هائلة من الآثار بدأت تتكدّس نتيجة أعمال التنقيب الأثرية في البلاد، وكانت الحاجة لوجود مكان يُمكن وضع هذه القطع فيه تُصبح ملحة بصورة مطردة. وبهذا الشكل، كان متحف العراق في مراحله الأولى يُعدّ مستودعًا آمنًا لكنوز البلاد الأثرية وسجلاتها الأركيولوجية، ولم يكن الهدف منه أن يغدو عرضًا يضم: «السرديات الكُبرى للأمة العراقية»(٦٦).

أمّا بالنسبة لمحتوى المتحف الجديد من الآثار ما قبل الإسلامية، فقد كان شديد الارتباط هو الآخر بواقع عمليات التنقيب الأركيولوجية التي كانت تجري في العراق. ذلك أنّ البعثات الأجنبية الغربية التي كانت اهتماماتها الرئيسة تنصب على الثقافات القديمة بالتاريخ البعيد، تجري عمليات التنقيب دون توقّف. وقد امتدت اهتماماتهم لتشمل؛ شأنهم في ذلك شأن أسلافهم في القرن التاسع عشر، البشر والثقافات في بلاد الرافدين القديمة التي يُمكن الربط بينها وبين الكتاب المقدّس بطريقة ما. لكن رغم الاهتمام العلمي المتزايد بتاريخ بلاد الرافدين القديم في حدّ ذاته؛ بقيت حقيقة أنّ الجماهير الغربية كانت لا تزال شديدة الحماس للآثار التي يُمكن ربطها بقصص التوراة، ومن ثمّ كانت البعثات الأركيولوجية في العراق لا تزال تجتهد كي تُلبي تلك الاهتمامات. من المهم أيضًا أن نتذكر أنّ أغلب التحريات الأركيولوجية الناجحة في العراق كانت تتمتع بموارد تمويلية سخية تأتي من الغرب، وأنّ تلك الأموال كانت تدعم عادة عمليات التنقيب بالمواقع الأثرية المتعلقة بالعصور التوراتية. وفي النهاية، من الإنصاف أن نسلّم بأنّ نقص القطع الأثرية الإسلامية بالمتحف الجديد، كان ثمرة المصالح الأثرية الغربية والاقتصاد المرتبط بهذه المصالح، وأنّ «بيل» أذعنت لتلك المصالح لحدّ كبير أثناء توليها منصب مديرة المتحف.

إذا كانت «بيل»؛ بصفتها مديرة للمتحف ومديرة لدار الآثار في العراق، حرصت على مراعاة المنقبين الغربيين، فإنّ السبب في ذلك أيضًا يرجع لميلها إلى إسباغ سلطة وملكية على من يتمتعون بالمعرفة. ذلك أنها اعترفت بأنّ مديري البعثات الأركيولوجية الأجنبية؛ بحكم تحرياتهم الواسعة، شركاء مهمين في التاريخ، وأنّه من الضروري أن يكون لهم نصيب كبير في نهاية المطاف، من القطع الأثرية التي استخرجوها بعناية كبيرة من المواقع التي سلطوا عليها الأضواء. ويُفسّر موقف «بيل» بشكل خاص سلوكها المتساهل أثناء تقسيم اللقايا الأثرية، حيثُ حصل مديرو البعثات الأركيولوجية

الأجنبية على نصيب سخي من الآثار التي كانوا يبجلونها بشكل كبير، كما سُمح لهم بنقلها إلى المؤسسات الراعية في بلادهم. ونادرًا ما راودهم إحساس بأنّ «بيل» انتزعت منهم ما اكتشفوه لصالح متحفها في العراق[٦٧]. ومن ثمّ يُمكن القول إنّ «بيل» كافأت الإنجازات التي حققها المنقبون، ووثقت فيهم ولحترمتهم إلى جانب ثقتها واحترامها لجهودهم المذهلة في معرفة التاريخ.

أثار موقف «بيل» المتساهل تجاه آثار العراق مُعارضة بعض الموظفين العراقيين، لاسيما «ساطع الحصري»؛ وهو مؤيد بارز للقومية العراقية. وكان الملك فيصل قد عيّن هذا الشّخص مديرًا للمعارف، وخلال فترة توليه المنصب نشط الحصري في تعزيز التاريخين الإسلامي والعربي داخل مناهج التعليم العراقية؛ خاصة دور العراق بوصفها قلب الخلافة العباسية[٦٨]. سيواصل الحصري بعدئذ؛ مديرا لدار الآثار إبان الثلاثينيات، دعم الاعتراف بماضي العراق الإسلامي، وتوجيه الأموال والطاقات نحو ترميم الصروح الإسلامية، والإشراف على كتابة ونشر العديد من الكُتب الإرشادية المتعلقة بالصروح والآثار العربية، ورعاية أعمال تنقيب أركيولوجي رسمية كما في موقع مدينة «واسط»؛ التي كانت مدينة إسلامية بارزة في عهدي الأمويين والعباسيين[٦٩]. وأخيرًا، نحا الحصري نحوًا عمليا بتأسيسه متحف الآثار العربية في العام 1937، الذي لم يضم سوى آثار ترجع للحقبة الإسلامية في العراق، داخل سوق شهير مسقوف في بغداد هو «خان مرجان»[٧٠]. لذلك فمن غير المدهش في ضوء مثل هذه الأهداف النبيلة لإطلاع سكان العراق المعاصرين على ماضيهم الثري، أن يُعارض الحصري قانون الآثار الذي اقترحته «بيل»؛ الذي كان لا يزال يسمح بتصدير أغلب إرث العراق الثقافي النفيس. والواقع؛ وفقًا لـ«برنهاردسون» الذي تتبع تقدم قانون الآثار الذي طرحته «بيل»، أنّ مُعارضة الحصري لمشروع القانون داخل مجلس الوزراء العراقي كانت السبب لحد كبير في تعطيل صدوره عامين تقريبًا[٧١].

ربّما نرى أنّه من المُحيّر أنّ «بيل» لم تُقدّم مزيدًا من الدعم للحصري؛ نظرًا لتطلعاته النبيلة ومصالح العراق التي توجه أهدافه، فضلاً عن اهتمامهما واطّلاعهما المشترك على التاريخ الإسلامي. لكن «بيل» بدا على العكس أنّها تمقته بقوة، وتُشير إليه بوصفه: «رجلاً يُشبه عصا صغيرة جافة»[٧٢]. ولعل بعض هذه العداوة مع الحصري يعود أيضًا إلى حقيقة أنّه كان واحدًا من تعيينات فيصل السياسيّة، وليس واحدًا ممَن أوصت بهم الإدارة البريطانية، كما أنّ ميوله المُعادية لبريطانيا جعلته شخصًا غير مرغوب في التعاون معه. في الوقت ذاته، لابد أن نضع في الحسبان موقف «بيل» تجاه السلطة، إلى جانب إدراكها الضمني أنّ السياسة ستجري وفق شروطها بشكل رئيس. ذلك أنّ «بيل» ربّما تصوّرت؛ بالنظر إلى تشبثها التملكي بالماضي، أنّ الحصري يغتصب ما اعتبرته مساحتها الخاصّة بالتخصص العلمي، وأحسّت بالتهديد المتمثّل في تدخله فيما كان خاضعًا؛ بصفة رسمية، لخبرتها الخاصة بتاريخ العراق. وفي النهاية، فقد كانت رؤيتها الخاصة بتاريخ البلاد هي ما يحظى بالسلطة والمصداقية القصويين في دولة العراق الجديدة. وكما اتضح، فإنّ تأثير الحصري على المتحف وقانون الآثار ظلّ عند أدنى حدّ، أثناء وجود «بيل» مديرة لدار الآثار في العراق. ولم تتخذ رؤيته الخاصة ونظرته التربوية المتعلقة بتاريخ العراق مكانة بارزة في حياة البلاد الثقافية، إلا عقب وفاة «بيل» وتوليه منصب مدير دار الآثار.

ربّما كان أحد أبرز جوانب شخصية «بيل»؛ وأكثرها إنسانية، هي أنّها غالبًا ما كانت تكتشف تعارضًا عميقًا بين تصرفاتها وآرائها. ومن ثمّ، فإلى جانب ثقتها بنفسها وإحساسها بالقوة، كانت تراودها في ذات الوقت شكوك وحيرة بشأن مسئولياتها. هذه الهواجس كانت تتجلى في كتاباتها في أغلب الأحيان؛ لاسيما في رسائلها إلى والديها. فهي تعترف بصراحة فيما يتعلّق بدورها كمديرة لدار الآثار، بأنّ مهمة تقسيم اللقايا الأثرية في نهاية كل موسم تنقيب، بين متحف العراق وبين البعثة الأجنبية التي قامت بالحفر، كانت

مهمة «صعبة» و«موجعة» في أغلب الأوقات؛ بالنظر إلى دوريها المتصارعين الذي يقتضي أحدهما مكافأة البعثة الأجنبية على مجهوداتها، دون إغفال متطلبات بناء مجموعة وطنية ممثلة للعراق[٧٣]. إلى جانب ذلك؛ كما لاحظ «برنهارنسون»، كانت «بيل» تُبدي في الغالب؛ بصفتها مديرة للمتحف، قلقًا غير معهود حول الطريقة التي ينبغي بها ترتيب وعرض القطع الأثرية[٧٤].

أمّا في مجال السياسة، فلم تُظهر «بيل» أي ثقة بالنفس في تصرفاتها. والواقع أنّ «روري ستيوارت»Rory Stewart انتبه إلى أنّ «بيل» جديرة بالملاحظة بين معاصريها؛ بسبب نزوعها للاعتراف بكل صراحة ومن دون التخفي وراء الرطانة والعبارات المبتذلة، بما يتملكها من حيرة إزاء صناعة السياسة في دولة العراق الجديدة[٧٥]. ذلك أنّها اضطرت هي وزملاؤها إلى التعامل مع ما لا يُحصى من التعقيدات التي لم تُحل عمليًا، ومن بينها الفساد والطبيعة الضعيفة للإدارة العثمانية السابقة، واستمرار نظام البلاد القبلي والتقسيمات بين المناطق الحضرية والريفية، وبنية السكان الإثنية المتنوعة. وكانت قوة «بيل» فيما يتعلّق بهذا الجانب؛ وفقًا لما قاله «ستيوارت»، لا تكمن في نجاحها السياسي، بل في: «الوضوح والخيال اللذان تصدت بهما للفشل»[٧٦]. ورسائل «بيل» إلى والديها عامرة بموقفها المتضارب، وأغلبها يُعبّر عن شكوكها حول جدوى تورط الغرب؛ لاسيما بريطانيا، في العراق:

> نحنُ على وشك انهيار كامل للمجتمع- فنهاية الإمبراطورية الرومانية مثل تاريخي شديد القُرب. لقد أصبحنا على شفا حفرة فعليًا من انهيار المُجتمع هُنا، ولا يوجد إلا أقل القليل ممّا يُمكن الاعتماد عليه لإعادة بناء هذا المجتمع. كما تبخّر رصيد الحضارة الأوروبية؛ فمرة تلو الأخرى كان الناس يقولون لي أنّ انتكاس أوروبا إلى البربريّة صدمهم وأدهشهم. ولم يكن لديّ ردّ- إذْ تُرى

هل ثمة وصف آخر للحرب؟ وكيف نستطيع؛ نحن الذين أسأنا تدبير أمورنا، أن نزعم القدرة على أن نُعلِّم الآخرين تدبير أمورهم بصورة أفضل؟ ربّما أصبح على العالم الآن أن يغرق مرة أخرى في عصور مظلمة جديدة من الفوضى التي يُمكنه منها أن يتطور لشيء آخر، ربّما لا يتجاوز ما كان عليه سابقًا(٧٧).

وكانت قد كتبت قبلئذ بأقل من أسبوعين اثنين:

كل هذا يُفاقم مشاعري العامة بغموض المستقبل. ما من مفر في ضوء الأحداث التي وقعت خلال الشهرين الماضيين، من النتيجة التي مفادها أنّنا أخفقنا إخفاقًا هائلًا هُنا. لابد أنّ النظام كان معيبًا لحدّ يتجاوز قدرتي أنا أو غيري على التوقع. لهذا ينبغي تغييره جوهريًا لكنّي أجهل ما قد يعنيه هذا التغيير تحديدًا. أحسب أنّنا استهنّا بحقيقة أنّ هذه البلاد عبارة عن كتلة غير مُكتملة من القبائل التي لا يُمكن إدماجها في أي نظام. لم يحكم الأتراك لكننا حاولنا أن نحكم- وفشلنا(٧٨).

لقد ظلّت الشكوك تنتاب «بيل»؛ رغم تعلّقها الطويل بالعراق سواء بماضيها الثري أم ولادتها الصعبة كدولة مستقلة في العصر الحديث، حيال الحكمة الحقيقية من بذل الجهود لبناء الأمة ودورها في تلك الجهود. ذلك أنّ «بيل»؛ المهتمة بالتاريخ بصورة تخطّت كل مُعاصريها، كانت تعي الطبيعة الزائلة للقوة، كما كانت تدرك أن اشتباكها بهذه الأراضي الأجنبية؛ باعتبارها غربية وغريبة، كان من المفترض أن يكون قصيرًا وخاليًا مما يُميزه في نهاية المطاف. ولعله من الجدير بالاهتمام أن نتذكّر مقتطفًا من رسالة كتبتها «بيل» إلى أبيها في العام 1909، عندما كانت تجلس فوق صخرة عالية تُشرف على مشهد واسع للتلال المتموجة التي تمتد بعيدًا عن نهر دجلة، جنوب مدينة «نمرود» الأثرية المهيبة:

جلست فوق قمة التل لمدة نصف ساعة وأمعنت التفكير في تاريخ آسيا الذي امتدّ أمامي. هَهُنا قتل «ميثراداتس» جنرالات اليونان؛ وهَهُنا بدأ «زينوفون» يفرض سلطانه؛ وخلف نهر «الزّاب» مباشرة استدار اليونانيون وهزموا رماة «ميثراداتس»، ثمّ زحفوا إلى «لاريسا» وتل «نمرود»؛ وحيثُ شهد «زينوفون» المدينة الآشورية المهيبة تنتصب بين الأنقاض. وها هى «نمرود» بارزة بين حقول الذرة عند قدميّ. كما أرى أبعد قليلًا جهة الشرق سهل «أربيل» حيث غزا «الإسكندر» آسيا. يُمكننا دائمًا نحنُ الغربيون أن نغزو، لكنّنا لم نتمكن أبدًا من الاحتفاظ بآسيا- وتلك بالنسبة لي هي الأسطورة المكتوبة عبر كل أرجاء المشهد[٧٩].

لكم نشعر في حالتنا المستنيرة المفترضة اليوم، أنّ لدينا ما يُبرر انتقادنا لتشديد «بيل» في هذه الفقرة- كما في فقرات أخرى عديدة بكتاباتها- على وضع الغرب الغالب كأحد غزاة الشرق، فضلا عن ادّعاء التفوق الأخلاقي. لكن في ذات الوقت، يُخفف اعتراف «بيل» بعقم هذا التصرف من مزاعم التفوق. وهَا نحن الآن بعد مرور ما يزيد على المائة عام؛ حيثُ لا تزال هذه المنطقة نفسها التي وقفت بها «بيل» يومًا، تُشكّل ساحات معارك مستعرة بين أمم وأيديولوجيات متصادمة، وتشهد تدخلا مستمرًا ومُضرًا من الخارج، فهل لدى أي طرف ما يبرر الزعم بأنّه أكثر استنارة؟

هوامش الفصل السادس

(1) نشاطات «بيل» السياسية موصوفة بالتفصيل في العديد من سيرها. انظر بشكل خاص:

H.V.F. Winstone, Gertrude Bell (London, 1978); Janet Wallach, Desert Queen (New York, 1996); Georgina Howell, Gertrude Bell: Queen of the Desert, Shaper of Nations (New York, 2006); Liora Lukitz, A Quest in the Middle East: Gertrude Bell and the Making of Modern Iraq (London, 2008).

أمّا بالنسبة لمشاركة «بيل» في محادثات السلام بباريس في العام 1919، فانظر:

Margaret Macmillan, Paris 1919 (New York, 2003), pp. 398– 400.

وعن دورها في المجهود الحربي وأنشطة ما بعد الحرب ببلاد الرافدين والشرق الأوسط عمومًا، انظر أيضًا:

Penelope Tuson, Playing the Game: The Story of Western Women in Arabia (London, 2003), chapters 4 and 5; Peter Sluglett, Britain in Iraq: Contriving King and Country (London, 2007); Priya Satia, Spies in Arabia: The Great War and the Cultural Foundations of Britain's Covert Empire in the Middle East (Oxford, 2008).

(2) Julia M. Asher-Greve, 'Gertrude L. Bell (1868–1926)', in Getzel M. Cohen and Martha Sharp Joukowsky (eds), Breaking Ground: Pioneering Women Archaeologists (Ann Arbor, 2004), p. 177.

(3) المرجع السابق.

(4) راجع:

Howell, Queen of the Desert, p. 139.

(5) Howell, Queen of the Desert, p. 139.

وفيه يروي عن «بيل» أنّها أثناء قراءة «ميلتون» في أيام الدراسة، كانت ترغب: «في الوقوف على رأسها من البهجة». لكن اشتباك «بيل» الأكثر جدية مع الشعر جاء مع ترجماتها الإنجليزية لقصائد الشاعر الفارسي الصوفي حافظ الشيرازي، والتي أكملتها في العام 1897، بعد رحلاتها إلى بلاد فارس بمدة قصيرة. انظر:

Gertrude L. Bell, Poems from the Divan of Hafiz (London, 1897); Lukitz, A Quest, p. 26; Howell, Queen of the Desert, pp. 56–9.

(6) Wallach, Desert Queen, p. 48; Howell, Queen of the Desert, p. 121.

(7) Billie Melman, Women's Orients: English Women and the Middle East, 1718–1918 (London, 1992), pp. 206–7; B. Hodgson, Dreaming of the East: Western Women and the Exotic Allure of the Orient (Vancouver, 2005), p. 172.

(8) Gertrude L. Bell, The Desert and the Sown (London, 1907), reprint, with a new introduction by Rosemary O'Brien (New York, 2001), p. 1.

(9) الفصل السادس الذي يحمل عنوان «رومانسية»، من المخطوط الذي لم تكمله «بيل». انظر:

Robinson Library Special Collections, Newcastle University, Gertrude Bell Archive, Miscellaneous, Item 20.

يظهر المُقتطف أيضًا في:

Lukitz, A Quest, p. 242.

وبشكل جزئي في:

Magnus T. Bernhardsson, Reclaiming a Plundered Past: Archaeology and Nation Building in Modern Iraq (Austin, 2005), p. 64.

(10) رسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، 11 أبريل 1899، أرشيف «جيرترود بيل».

(11) Bell, Desert and the Sown, p. 249.

(12) Gertrude L. Bell, Amurath to Amurath (New York, 1911), p. 180.

(13) 'Romantic orientalism: Overview', The Norton Anthology of English Literature. Norton Topics Online (2010–15), available at www.wwnorton.com/college/english/nael/romantic/topic_4 (accessed 29 July 2015).

(14) F.N. Bohrer, Orientalism and Visual Culture: Imagining Mesopotamia in NineteenthCentury Europe (Cambridge, 2003), pp. 49–55.

(15) المرجع السابق، ص 49.

(16) راجع:

E. Frahm, 'Images of Assyria in nineteenth- and twentieth-century western scholarship,' in S. Holloway (ed.), Orientalism, Assyriology and the Bible (Sheffield, 2006), p. 74.

(17) المرجع السابق، ص 77.

(18) Bohrer, Orientalism and Visual Culture, p, 147.

(19) A.H. Layard, Nineveh and Its Remains (London, 1849), vol. 1, p. 6; quoted by Bohrer, Orientalism and Visual Culture, p. 147.

(20) Layard, Nineveh and Its Remains, pp. 6–7.

(21) Bohrer, Orientalism and Visual Culture, p. 149.

(22) Eckart Frahm, 'Images of Assyria', p. 81.

(23) Howell, Queen of the Desert, pp. 63–4.

(24) مثل هذه الشخصيات التاريخية؛ على سبيل المثال، نجد لها إشارة في الفصل الذي كتبته «بيل» بعنوان «رومانسية».

(25) David G. Hogarth, Accidents of an Antiquary's Life (London, 1910), p. 1; quoted in Bernhardsson, Reclaiming, p. 95.

(26) Bell, Amurath, p. 108.

(27) كما سبق أن ناقشنا في الفصل الخامس؛ عندما تعرضنا لمسرحية شكسبير «هنري الرابع»، فإنّ Amurath هو اسم مُراد الأول أحد سلاطين الإمبراطورية العثمانية إبان القرن الرابع عشر. وقد حكم العديد من السلاطين الذين حملوا اسم مُراد من بعده.

(28) Bell, Amurath, pp. vii–viii.

(29) Bell, Amurath, pp. 144–5.

(30) رسالة «جيرترود بيل» إلى أبيها، 18 أبريل 1918، أرشيف «جيرترود بيل».

(31) Bell, 'Romance'.

(32) Bell, Amurath, p. 226.

(33) Bell, 'Romance'.

(34) إلى جانب الفصل الذي يحمل عنوان «رومانسية»؛ الذي سبقت الإشارة إليه، تظهر الفقرة في يومياتها بالحادي والثلاثين من مارس في العام 1914، أرشيف «جيرترود بيل».

(35) Bell, Amurath, p. 226.

(36) Adam Hill, Stepping Stones in the Stream of Ignorance: D.G. Hogarth as Orientalist and Agent of Empire (MA thesis, Southern Illinois University Edwardsville, 2008), pp. 10, 25, 44.

(37) Bernhardsson, Reclaiming, p. 94; Hill, Stepping Stones, pp. 44–5.

(38) Richard Hingley, Roman Officers and English Gentlemen: The Imperial Origins of Roman Archaeology (London, 2000), pp. 49–50; F. Haverfield, J.L. Strachan Davidson, E.R. Bevan, E.M. Walker, D.G. Hogarth and Lord Cromer, 'Ancient imperialism', The Classical Review 24 (1910), pp. 113–14.

(39) Edward Said, Orientalism (New York, 1979).

حيث يُشير «سعيد» إلى «هوجارث» باعتباره عميلًا استعماريًا في الصفحات 197، و223– 224.

(40) راجع الفصل الرابع، وانظر:

E. Walter Andrae and R.M. Boehmer, Bilder eines Ausgrabers. Die Orientbilder von Walter Andrae 1898–1919/Sketches by an Excavator, second enlarged edition, English translation by Jane Moon (Berlin, 1992), p. 139.

(41) Margaret MacMillan, Paris 1919 (New York, 2001), pp. 11–14.

(42) المرجع السابق، ص 399– 400.

(43) Winstone, Gertrude Bell, pp. 214–5; Wallach, Desert Queen, pp. 230, 243–5; MacMillan, Paris 1919, p. 400; Sluglett, Britain in Iraq, p. 27.

(44) A.K. Bennison, The Great Caliphs: The Golden Age of the 'Abbasid Empire (London, 2009), p. 5.

(45) المرجع السابق.

(46) المرجع السابق.

(47) المرجع السابق.

(48) Howell, Queen of the Desert, p. 335.

(49) Lukitz, A Quest, p. 152.

(50) المرجع السابق. راجع:

G.L. Bell, 'The fealty of the tribes, a chapter in the history of Iraq', Robinson Library Special Collections, Newcastle University, Gertrude Bell Archive, Miscellaneous, Item 20. See also GB letter to her father, 31 July 1921, Gertrude Bell Archive.

(51) Lukitz, A Quest, p. 152.

(52) Bell, Amurath, pp. 181–3.

(53) رسالة «جيرترود بيل» إلى أبيها، 6 أغسطس 1921، أرشيف «جيرترود بيل».

(54) رسالة «جيرترود بيل» إلى أبيها، 24 أكتوبر 1922، أرشيف «جيرترود بيل». وراجع:

Bernhardsson, Reclaiming, p. 117.

(55) المرجع السابق، ص 123.

(56) Antiquities Law (Iraq) (Baghdad, 1924), Article 22, p. 9.

(57) Bernhardsson, Reclaiming, pp. 123–4.

(58) المرجع السابق، ص 121 و125.

(59) Antiquities Law, Article 19(i), p. 6.

(60) انظر على سبيل المثال، شكوك «بيل» بشأن منح تصريح بالتنقيب لبعثة «أوكسفورد» بموقع «كيش» الأثري، التي لم تكن تضم سوى فرد واحد فحسب. رسالة «جيرترود بيل» إلى أبيها، 30 يناير 1923، أرشيف «جيرترود بيل». وفي رسالة أخرى تعرب «بيل» عن أملها في أن تطلب جامعة «بيل» تصريحًا للحفر في «الوركاء»؛ لأنّها تضم تلا إثريًا ضخمًا ولابد أن تُشرف على أعمال التنقيب فيها مؤسسة ضخمة ثرية. رسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، 31 مارس 1926، أرشيف «جيرترود بيل».

(61) رسالة «جيرترود بيل» إلى أبيها، 1 مارس 1923. رسالة «جيرترود بيل» إلى أبيها، 4 مارس 1925. رسالة «جيرترود بيل» إلى أبيها، 6 مارس 1924، حيث تصف كيف كان يفوز أحدهما بجعران ذهبي نتيجة رمية روبية. رسالة «جيرترود بيل» إلى أبيها، 16 مارس 1926، أرشيف «جيرترود بيل».

(62) رسالة «جيرترود بيل» إلى أحد والديها، 24 مارس 1923. ورسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، 25 مارس 1925. ورسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، 31 مارس 1926، أرشيف «جيرترود بيل».

(63) رسالة «جيرترود بيل» إلى أبيها، 13 أكتوبر 1923. ورسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، 3 مارس 1926. ورسالة «جيرترود بيل» إلى أبيها، 16 يونيو 1926، أرشيف «جيرترود بيل». وانظر:

Bernhardsson, Reclaiming, pp. 152–3.

(64) المرجع السابق، ص 152.

(65) المرجع السابق، ص 150– 151.

(66) المرجع السابق، ص 151.

(67) المرجع السابق، 142– 145.

(68) Bernhardsson, Reclaiming, pp. 118–19, 152; J.F. Goode, Negotiating for the Past: Archaeology, Nationalism, and Diplomacy in the Middle East, 1919–1941 (Austin, 2007), pp. 198–9; W.L. Cleveland, The Making of an Arab Nationalist: Ottomanism and Arabism in the Life and Thought of Sati' al-Husri (Princeton, 1971), pp. 61–5.

(69) Goode, Negotiating, p. 216; Bernhardsson, Reclaiming, p. 202.

(70) Goode, Negotiating, p. 216; Bernhardsson, Reclaiming, p. 202.

(71) المرجع السابق، ص 120– 121.

(72) رسالة «جيرترود بيل» إلى أبيها، 12 ديسمبر 1921، أرشيف «جيرترود بيل».

(73) يبدو أنّ «بيل» اكتشفت صعوبة تقسيم اللقايا الأثرية في «أور» على الأخص، كما روت في رسائلها إلى والديها. انظر: رسالة «جيرترود بيل» إلى أبيها، 1 مارس 1923. ورسالة «جيرترود بيل» إلى أبيها، 6 مارس 1924. ورسالة «جيرترود بيل» إلى أبيها، 4 مارس 1925، أرشيف «جيرترود بيل».

(74) Bernhardsson, Reclaiming, p. 153.

وانظر بشكل خاص رسائل «بيل» إلى والديها في العام 1926، والتي تعترف فيها بافتقارها للمعرفة اللازمة لتنظيم متحف– رسالة «جيرترود بيل» إلى أبيها، 24 فبراير 1926. ورسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، 23 مارس 1926. ورسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، 7 يوليو 1926– وأنّ عملها المتعلق بالمتحف سينطوي على كثير من الأخطاء: رسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، 6 أبريل 1926، أرشيف «جيرترود بيل».

(75) Rory Stewart, 'The queen of the quagmire', The New York Review of Books (25 October 2007).

(76) المرجع السابق.

(77) رسالة «جيرترود بيل» إلى أمها، 5 سبتمبر 1920، أرشيف «جيرترود بيل».

(78) رسالة «جيرترود بيل» إلى أبيها، 23 أغسطس 1920، أرشيف «جيرترود بيل».

(79) رسالة «جيرترود بيل» إلى أسرتها، 27 أبريل 1909، أرشيف «جيرترود بيل».

المؤلف فى سطور:

ليزا كوبر.

- أستاذ مُشارك فنّ وأركيولوجيا الشرق الأدنى، بجامعة كولومبيا البريطانيّة.
- مؤلّفة كتاب: Early Urbanism on the Syrian Euphrates. (London: Routledge, 2006.)

المُترجم فى سطور:

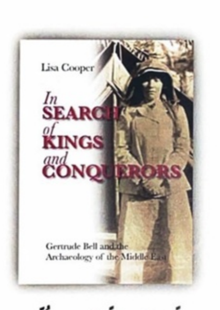
مجدي عبد المجيد خاطر

- كاتب ومترجم من مصر. نُشرت ترجماته بالمركز القومي للترجمة والهيئة المصرية العامّة للكتاب ودار العين للنشر بالقاهرة ودار أزمنة في الأردن ودار كلمات للنشر في الشارقة بالإمارات العربية المتحدة والمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت.
- ولد بالإسكندرية 1976.
- بكالوريوس علوم وتربيّة- قسم رياضيات 1998. باحث دكتوراه فلسفة التربية-جامعة المنصورة.
- سافر إلى المملكة المتحدة في بعثة تدريبيّة بجامعة أدنبرا عام 2004.
- ترجم لسلسلة عالم المعرفة؛ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب؛ دولة الكويت.«صناعة السّعادة: كيف باعت لنا الحكومات والشركات الكُبرى الرفاهية» ويليام ديفيز. 2018.
- ترجم رواية «إفطار عند تيفاني» لترومان كابوتي. صدرت طبعتها الأولى عن دار أزمنة للنشر والتوزيع. الأردن. 2011. والطبعة الثانية عن دار كلمات للنشر في الإمارات العربية المتحدة عام 2018.
- ترجم للمركز القومي للترجمة في القاهرة: «1876» رواية جور فيدال، 2014. و«هوليوود» رواية جور فيدال، 2015. «عالم الرياضيات العجيب» جين اكياما وماري جورويز. 2018. و«واشنطن» رواية جور فيدال، 2020.

- ترجم لدار العين للنشر فى القاهرة رواية المعلّب للأديب الياباني كوبو آبي. 2022 .
- ترجم لسلسلة الجوائز بالهيئة المصرية العامّة للكتاب في القاهرة: «أن نصبح أغرابًا» رواية لويز دين، 2011. «حكاية أوزوالد: لُغز أمريكي» نورمان ميلر، في جزءين،. 2012. «انهيار رجل» رواية مايكل توماس، الجزء الأول 2016؛ الجزء الثاني 2017.
- ترجم لدار كلمات للنشر بالشارقة في الإمارات العربية: «حرب أمريكيّة» رواية الكاتب المصري المقيم بالولايات المتحدة عمر العقّاد. 2018. «نمط غير شائع» قصصالممثل الأمريكي الحائز على الأوسكار توم هانكس.2020.
- له: «مجرّد شكل» مجموعة قصصيّة. المجلس الأعلى للثقافة. 2005.







مع أنّ «جيرترود بيل» كانت موضوعاً مفضلاً لدى كُتّاب السيرة، فإنّ اهتمامهم الذي كان ينصبّ على رحلاتها وعلاقاتها الرومانسية ودورها السياسي، غالباً ما كان يُلقي بظلاله على جهودها الأركيولوجية المهمة. يكشف كتاب «ليزا كوبر» النقاب عن «بيل» باعتبارها باحثة جادّة. وحسبما أوضحت المؤلّفة، فإنّ اهتمام «بيل» وانهماكها في أركيولوجيا الشرق الأوسط، هما ما شكّلا الطريقة التي استوعبت من خلالها حضاراته المندثرة، إلى جانب شعوبه ومجتمعاته التي صادفتها في أثناء رحلاتها. يضع هذا الكتاب «بيل» ضمن شبكة من الرواد الذين كانوا يحولون علم الآثار إلى فرع معرفي جاد ومنضبط علمياً، لكنه رغم ذلك بعيد كل البُعد عن أن يكون دراسة مسحية أكاديمية جافّة للنشاط الأركيولوجي الذي قامت به «بيل». إذْ يجعلنا نعي بدرجة أكبر التقدير الذي حملته «جيرترود بيل» لتاريخ العراق، وهي الرؤية التي رفدت نشاطاتها اللاحقة التي أسفرت عن تشكيل مستقبل المنطقة.